مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى
السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء الحادي عشر

مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء الحادي عشر

سرشناسه	:	سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور	:	مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر	:	قم: دارالتفسیر،۲۰۰۷م. -= ۱۴۲۸ق. -= ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری	:	۱۴ج.
شابک	:	دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت	:	عربی.
یادداشت	:	ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت	:	ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت	:	ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیپا).
مندرجات	:	ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲- ۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع	:	تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره	:	BP۹۸/۳۲س۸م ۱۳۸۶
رده بندی دیویی	:	۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	:	۱۰۵۳۵۷۱

منشورات دارالتفسير

قم - خيابان معلم - ميدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/١١

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگين

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١٤-١)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء الحادي عشر ISBN Vol 11: 978-964-535-084-8

١ـ لا يجوز طبع هذا الكتاب إلّا بإذنٍ خاص من مكتب السيد السبزواري في النجف الأشرف.

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب. الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ٦ ـ ٧

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

تعتبر الآيتان الشريفتان من الآيات التربويّة التهذيبيّة، التي تهتم بالجانب المعنوي من الإنسان أكثر من الجانب المادّي الذي سبق الاهتمام به في الآيات السابقة، حيث ذكر سبحانه وتعالى فيها ما يتعلّق بلذائذ الطعام، وطيّبات الأكل، وملّذة النكاح وغيرها.

وخصّ تبارك وتعالى في هاتين الآيتين الشريفتين الصلاة بالذكر؛ لما لها الأثر العظيم في تهذيب النفوس وتكميلها، وتعدّ بحقّ من أعظم الروابط الخلقيّة مع خالقهم وأكبر الطاعات.

ولا ريب أنّ الصلاة لها من الشروط والآداب والأحكام ما لم تكن في

غيرها من الطاعات، فذكر في الآية الأُولى أعظم مقدّمة من مقدّماتها وشرطاً عظيماً من شروطها، وهي الطهارة ـ الحاصلة من الوضوء والغسل والتيمّم ـ التي تعدّ هي بنفسها عبادة عظيمة يتقرّب بها إلى الله سبحانه وتعالى، ويحفظ فيها عهداً من العهود الربوبيّة، فهي حسن على كلّ حال، كما ورد في الحديث، ولأهمّيتها فقد ذكر عزّ وجلّ حكم بعض هذه الطهارات في سورة النساء أيضاً، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾**[1].

إلّا أنّ آية المقام أوضح أُسلوباً وأبين حكماً، حيث ذكر مواضع الطهارة وطريقتها وموجباتها والغاية منها وشروطها.

ثمّ بيّن سبحانه وتعالى أنّ الغرض من تلك الأحكام والتكاليف هو تطهير النفوس ـ من درن الرذائل والآثام ـ والأبدان من أنواع الخبائث والأدناس. ولم يرد سبحانه وتعالى منها إيقاع المكلفين في الحرج والمشقّة، فإنّه تعالى أعظم وأكبر من ذلك، فقد شرّع من الأحكام في الحالات الاضطراريّة ما يهوّن عليهم ويخفّف عنهم.

وأخيراً صرّح عزّ وجلّ أنّ تلك التكاليف والتشريعات هي من المواثيق التي أخذ عزّ وجلّ العهد عليها من المؤمنين بالسمع والطاعة، فيجب عليهم الوفاء بها وتنفيذها ومراقبته تعالى بالتقوى والشكر على تلك النِّعَم الإلهيّة.

وبذلك لم تخرج هاتين الآيتين الشريفتين عن الهدف الذي نزلت هذه السورة الكريمة لأجله، وهو إعداد المؤمن إعداداً عمليّاً، وتربيته بالتربية

---

١. سورة النساء: الآية ٤٣.

الإلهيّة، وإرشاده إلى الكمال الواقعي والسعادة الحقيقيّة.

ويرشد إلى ذلك الابتداء بخطاب المؤمنين بالنداء الربوبي الذي يتضمّن معاني دقيقة، وإشارات عرفانيّة، وحقائق منطوية لم تكن في أي خطاب آخر، مذكّراً لهم بما افتتحت به هذه السورة بالوفاء بالعهود التي أخذها الله تعالى عليهم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

تقدّم الكلام في هذا الخطاب الربوبي، وذكرنا أنّه يشتمل على جملة من العهود والالتزامات والتوجيهات والإرشادات، ويكفي في عظمته أنّه تعالى يخاطب أحبّ عباده إليه، ويورده متى ما أراد تشريع حكم وبيان إرشاد أو توجيه ربوبي.

قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

بيان لشرطيّة الطهارة للصلاة، وإرشاد إلى أنّ مَن أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، وتأكيد لحفظ شرعيّة الوضوء وحفظ صورته بالقيام بما ورد في الشريعة من الأحكام والآداب فيه.

وتقدّم الكلام في مادّة (قوم) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾[1]، واختلف العلماء والمفسّرون في المراد من القيام في المقام، ولكنّ الظاهر المنساق من الآية الكريمة أنّ المراد منه هو إرادة الصلاة بالتهيؤ إليها، فإنّه قد يعبّر بالفعل ويراد منه إحدى المقدّمات القريبة منه، كما أنّ العكس

---

١. سورة البقرة: الآية ٣.

أيضاً صحيح، إما لعلاقة الملازمة والسببية، أو لعلاقة الأول والمشارفة، أو لشدّة الارتباط بينهما، وقد ورد كلاهما في الاستعمالات الصحيحة وكلمات الفصحاء، ففي القرآن الكريم:

قال تعالى: **﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾**[1]، حيث استعمل الفعل وهو القيام وأُريد منه المقدّمات القريبة الملازمة للقيام للصلاة، أي: إذا أردت وأقمت لهم الصلاة.

وقال تعالى: **﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾**[2]، أي إذا طلّقتم زوجاً وجئتم بأُخرى.

وفى المقام يراد من القيام إرادة الصلاة، فليس المراد منه القيام مقابل الجلوس الذي هو فعل من أفعال الصلاة؛ لأنّه قيام للصلاة كالركوع والسجود، لا قيام إلى الصلاة، ويدلّ على ما ذكرنا:

سياق التعبير في الآية المباركة **﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾** وموقعه العملي؛ لأنّها عمل وكلّ عمل لا يتحقّق إلّا بالإرادة.

وبعض الروايات، في «تفسير العياشي» عن بكير بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام «في قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾** قلت: ما عنى بها؟ قال عليه السلام: من النوم». ومثلها غيرها، فإنّها تدلّ على أنّ المراد هو القيام التهيؤي للصلاة بالخروج عن الأحداث الموجبة للطهارة، وذكر النوم إنّما هو من باب المثال، فتكون هذه الروايات مخصصة لعموم الآية الشريفة الدال على وجوب الوضوء لكلّ صلاة، فإنّها تختصّ بالمُحْدِثين من المكلّفين، وأما غيرهم فيستحبّ لهم الوضوء لما

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٢.

٢. سورة النساء: الآية ٢٠.

ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ : «الوضوء على الوضوء نورٌ على نور» ، ولما يستفاد من ذيل الآية الشريفة من أنّ الغرض من تشريع الطهارات هو تطهير النفوس والأبدان ، وهو حسن على كلّ حال ، وسيأتي في البحث الفقهي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

تفصيل لأعمال الوضوء بتعيين مواضعه حسب الترتيب ، وهي غَسل الوجه واليدين ، ومسح الرأس والرجلين.

والغَسل (بالفتح) إمرار الماء على الشيء لإزالة ما عليه من الوسخ وغيره وتنظيفه منه ، وإطلاقه من دون تحديده بأمر ، يقتضي الأخذ بما يجري عليه العرف في الغسل بالماء على النحو الذي لا يؤتى به لإزالة الوسخ والدرن ، لاحتياجه إلى كثرة إفاضة الماء واستيلائه على الوجه ، بل يكفي فيه ما يحصل به غسل ما هو نقي عن الوسخ والحاجب للماء عن البشرة.

ولا ريب في أنّ العرف والعادة في مثل ذلك يقتضي بإمرار الماء باليد اليمنى ـ المعدّة للأعمال المحترمة ـ من دون الغسل بكلتا اليدين ، إلّا في مقام كثرة الإفاضة زيادة على مسمّى الغسل ، كإزالة الخضاب ونحوه ، واستعمال اليد اليسرى لا يكون إلّا في ما هو خارج عن الغسل ، كصبّ الماء من الإناء في اليمنى ونحو ذلك ، فلا دخل لها في الغَسل.

والرجوع إلى العرف في تشخيص المراد وتعيينه وبيانه هو القاعدة المتبعة في كلّ الموضوعات المأخوذة في الشريعة الإسلاميّة ، إلّا إذا أورد من الشرع بيان أو تحديد خاصّ فيجب اتباعه حينئذٍ ، والمسألة محرّرة في علم الأُصول. هذا ما يتعلّق بالغَسل.

وأمّا الوجوه ، فهي جمع وجه ، وهو ما يستقبل من الشيء عند المواجهة

والمشافهة والرؤية ، وفى الإنسان ما فيه العين ، والأنف ، والفم ، وهي ما يستقبل عند الرؤية ، وإطلاقه يشمل جميع ما يسمّى وجهاً عند العرف ، فيشمل شعر اللّحية والشارب أيضاً ، وما هو الظاهر منه دون البواطن ، لأنّها ممّا يستقبل عند الرؤية ، وحدّه عندهم من جانب الطول من قصاص شعر الناصية في مستوى الخلقة إلى آخر الذقن ، ومن جانب العرض ما دارت عليه الإبهام والوسطى ، وهذا هو المنقول في الروايات الواردة عن الأئمّة الهداة عليهم السلام ، فتدلّ على أنّه لم يرد تحديد خاصّ من الشرع المقدّس في الوجه ، فالمرجع فيه العرف ، فهو كما ذكرناه ، فإذا لم يغسله كلّه لم يتحقّق منه الامتثال .

كما أنّ المعتاد الذي ينسبق إليه الذهن أن يكون من أعلاه إلى أسفله ، دون العكس ، والعرف هو المناط في الإطلاق ، فلو أراد المتكلّم غيره ، فلابدّ من بيانه والنصّ عليه بما يكون حاضراً في ذهن المخاطب حين الامتثال ، كما هو مفصّل في علم الأُصول . وقد ذكر العلماء والمفسّرون في بيان الغَسل والوجه أُموراً لا تخلو عن المناقشة ، والحقّ ما ذكرناه فيهما فراجع كتب الفقه والتفسير .

قوله تعالى : **﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾** .

أي : واغسلوا أيدكم إلى المرافق ، تقدّم الكلام في الغَسل ، والأيدي جمع يد ، وهو اسم للعضو المعروف من أطراف الأصابع إلى الكتف ، ولا يدخل في مسمّاها الشعر ، فلا يكفي غسله عن غسل البشرة .

ومرافق : جمع المرفق (بالكسر فالفتح) وقرئ بالعكس ، ولكنّ الأوّل أفصح ، وهو مجمع عظمى الذراع والعضد ، وإنّما ذكر بلفظ الجمع باعتبار صورة الخطاب بالجمع **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** ، وإن كان لكلّ مكلّف مرفقان فإنّه يصحّ الخطاب به أيضاً ، نظراً لانحلال الخطاب إلى خطابات متعدّدة ، كما هو الشأن في كلّ عامّ إفرادي ، إلّا أنّه لا يصحّ حلّ جمع الأيدي إلى أفرادها ، فيقال : ويديكم

إلى المرافق، وسيأتي مزيد بيان.

وتحديد غسل الأيدي إلى المرافق قد جرى على ما هو المتعارف أيضاً، لأنّ معظم مقاصد اليد إنّما يحصل بما دون المرفق إلى الأصابع، وأنّها المعرّضة لما يحتاج إلى الغسل دون ما كان من ناحية الكتف إلى المرفق، ولأجل ذلك تسمّى هذه القطعة باليد، تسمية البعض باسم الكلّ، كما تقدّم، فصار اليد مشتركاً عند العرف، ولعلّ ذلك كان هو الموجب لتحديد اليد في المقام ونصب القرينة عليه بتقييد اليد إلى المرافق، ليكون الواجب هو غسل اليد إليها، ولم يكن الأمر كذلك في الوجوه، فكان المرجع فيها العرف، كما عرفت آنفاً.

ومن ذلك يعرف أنّ (إلى) في المقام لتعيين المغسول وتحديده، كما هو المعروف في نظائر المقام، تقول: اغسل ثوبك إلى جيبه، واخضب كفّك إلى مفصل الزند، واصقل السيف إلى صبّته ونحو ذلك، فيكون الغسل مطلقاً غير مقيّد بالغاية، فيصحّ أن يبتدأ من المرفق إلى أطراف الأصابع، كما يحتمل العكس، وحينئذٍ لابدّ في تعيين أحد الاحتمالين من الرجوع إلى القرائن الحافّة، أو ما ورد في السنّة الشريفة.

أمّا القرائن، فإنّ المتعارف في مثل غسل اليد أن يكون الابتداء من الأعلى إلى الإنامال، وأنّ النكس في مثل ذلك ممّا يستلزم صعوبة، وحينئذٍ لا يبقى إطلاق للآية الشريفة.

وأمّا السنّة،، فقد ورد من الفريقين ما يدلّ على كون الغَسل من الأعلى إلى الأسفل، فقد أخرج الدار قطنيّ والبيهقيّ في سننهما عن جابر بن عبد الله، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا توضّأ أدار الماء على مرفقيه»، فإنّ ظاهره هو الابتداء من المرفق.

وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن عتبة عن النبيّ ﷺ في حديثه: «وإذا

غسل وجهه ـ كما أمره الله تعالى ـ الاّ خرّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثمّ غسل يديه إلى المرفقين إلّا خرّت خطايا يديه من أطراف أنامله مع الماء ـ الحديث»، فهو بجملته يدلّ على أنّ منتهى مجرى الغسل ومجرى الماء هو أطراف اللّحية وأطراف الأصابع.

وأمّا ما ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام في أنّ الابتداء بالمرافق إلى أطراف الأصابع، فهو كثير بلغ حدّ التواتر، وعليه إجماع الإماميّة وعملهم، وسيأتي نقل بعضها في البحث الروائي.

وبعد ذلك فلا غرابة في الحكم بابتداء الغسل من المرافق، كما زعمه الآلوسي في تفسيره، مدّعياً بأنّه لم يجد في ذلك مستمسكاً، فإنّ الحكم صحيح، والمستمسك ظاهر الآية الكريمة مع القرائن والسنّة الشريفة، كما عرفت.

ومن ذلك كلّه يعرف أنّه لا وجد للأخذ بإطلاق الغَسل تمسّكاً بإطلاق ما ورد في نظائر المقام، لأنّ القرائن وما ورد في السنّة الشريفة لا يبقي إطلاقاً للآية الشريفة.

كما يظهر بطلان ما ذكره جمع من رجوع القيد إلى الغَسل دون المغسول، فيكون ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ وجوب الابتداء في الغسل من أطراف الأصابع والانتهاء إلى المرافق، فإنّ ما ذكرناه آنفاً لدليل على عدم رجوع كلمة (إلى) إلى الغَسل، فيكون الظاهر من الآية المباركة منضمّاً إلى ما ذكر من القرائن والسنّة هو وجوب الابتداء من المرافق والانتهاء إلى أطراف الأصابع، فلو نكس، لم يصحّ وضوؤه، لأنّه خلاف المأمور به.

ثمّ إنّه قد أطنب الكلام في دخول المرافق في الغسل، فكأنّه لم تكن في الآية الشريفة بحوث إلّا هذا البحث، والحقّ أنه لا يمكن أن يستفاد من الآية المباركة دخولها في الغسل ولا عدم دخولها، فهي مجملة من هذه الناحية، فلابدّ

أن يستفاد أحد الاحتمالين من الخارج وقد ورد في السنّة الشريفة ما يدلّ على دخولها في الغسل ، وتقدّم حديث جابر الحاكي عن فعل رسول الله ﷺ ، ولعلّ دخولها يكون ممّا زاده صاحب الشريعة مثل ما زاد في الصلوات الخمس ، كما نطقت به الأخبار الصحيحة ، أو من باب المقدّمة العلمية .

وأمّا القول بأنّ (إلى) بمعنى مع ، أو القول بدخول الغاية في المغيّى إذا كانا من جنس واحد ، فلم يقم عليه دليل معتبر ، وسيأتي مزيد بيان في البحث الأدبي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ .

المسح : إمرار اليد أو كل عضو لامس على الشيء مباشرة أو بآلة ، وهو تارةً : يكون مع الاستيعاب ، وأُخرى : يكون بغير استيعاب ، ويختلف باختلاف القرائن ، والمعروف بين العلماء أنّه إذا عدّي بنفسه أفاد الاستيعاب ، وإذا عدّي بالباء سواء كانت للآلة أم غيرها ، دلّ على التبعيض ، يقال : مسحت العرق بالمنديل ، أو مسح يده بالمنديل ، أو مسح الشيء بالماء ليزيل ما علّق به من غبار ونحو ذلك . ولا ريب في أنّ المسح يتقوّم بتحريك الماسح على الممسوح ، فوضع اليد أو الإصبع على الرأس لا يسمّى مسحاً .

وأُسلوب الآية المباركة يدلّ على كفاية مسح بعض الرأس ، لمكان الباء ، وهو ما يسمّى مسحاً في اللغة أيضاً .

وأمّا تعيين الجانب الذي يجب إمرار الماسح عليه ومقدار المسح ، فهما خارجان عن مدلول الآية الشريفة ، فلابدّ من تعيينهما من السنّة الشريفة ، وقد ورد فيها ما يدلّ على كونه في مقدّم الرأس ، وكفاية مقدار إصبع واحدة في الامتثال وإن كان الأفضل أن يمسح بمقدار ثلاث أصابع .

وإطلاق الآية الكريمة يدلّ على جواز النكس في مسح الرأس ، فإنّه لم

يكن هنا عرف أو دليل آخر ليكون موجباً لصرف الإطلاق، كما كان في غسل الوجه واليدين، ولكنّ الأفضل تركه لما دلّت عليه بعض الروايات.

وعلى جميع الأحوال، فلا تدلّ الآية الكريمة على وجوب مسح جميع الرأس. هذا وأنّ لعلماء الجمهور ومفسّريهم في تفسير الآية المباركة أقوالاً ومذاهب هى بعيدة عن سياقها، بل تنافي فصاحة القرآن الكريم والذوق الأدبي الرفيع، فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

مادّة (كعب) تدلّ على العلوّ، ومنه سمّيت الكعبة. وكعبت المرأة إذا فلك ثديها، والكاعب هي الجارية التى نهد ثديها وعلت، وكعب القناة هو أُنبوبها، وفى الحديث: «والله لا يزال كعبك عالياً»، دعاء بالشرف والمجد تشبيهاً.

والكعبين، قيل: هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم عن الجنبين. وقيل: هو عظم مائل إلى الاستدارة، واقع في ملتقى الساق والقدم نات في ظهر القدم، ويدخل نتوئه في طرف الساق، وهو الذي يطلق عليه المفصل، لمجاورته له.

وإذا راجعنا كلمات أهل اللغة وعلماء التشريح، يظهر أنّ المعنى الثاني هو المراد من الكعب حيث أطلق، إلّا إذا دلّ دليل على غيره، ويظهر ذلك أيضاً من التتبّع في أخبار المعصومين عليهم السلام كما يأتي نقل بعضها، وعن ابن الأثير أنّه «مذهب الشيعة» واستشهد بأحاديث تدلّ على ذلك.

والرِّجْل يطلق على الكلّ والأبعاض، فتطلق على القدم، وعلى ما تحت الركبة، وعلى ما يشمل الفخذ، فقد حدّ عزّ وجلّ الرجلين إلى الكعبين، ليكون غاية للممسوح، على نحو ما ذكره في غسل اليدين، وأمّا المسح بالبعض أو الكلّ فسيعرف من البحث الآتي.

وقد اختلف العلماء والمفسّرون في إعراب الجملة على وجوه:

الأوّل: النصب عطفاً على الأيدي، فيكون العامل «اغسلوا»، فيجب غسل الأرجل، وقد استدلّ على هذا الوجه بأُمور:

الأوّل: أنّه قراءة متواترة، كما ادّعاه بعض، فقد قرأها نافع، وابن عامر، وحفص، والكسائي، ويعقوب وغيرهم.

الثاني: أنّ في الآية المباركة تقديماً وتأخيراً، أي تأخير الأرجل، ولكنّها في الواقع مقدّمة، فقد روى أبو عبدالرحمن، قال: «قرأ عليّ الحسن والحسين عليهما السلام فقرأ: «وأرجلكم إلى الكعبين»، فسمع علي عليه السلام ذلك وكان يقضي بين الناس فقال: «وأرجلكم» هذا من المقدّم والمؤخر من الكلام»، ومراده عليه السلام كما نقله السّدي: اغسلوا وجوهكم، واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم.

الثالث: أنّ غسل الأرجل هو قول جمهور الفقهاء والمفسّرين، وعليه عمل الصدر الأوّل، بل إجماع الصحابة عليه. ومَن ذهب إلى المسح من الصحابة قد ثبت عنهم الرجوع عن ذلك.

الرابع: أنّ السنّة الصحيحة تدلّ عليه، وأحسن ما نقل في هذا الباب ما ورد في الصحيحين عن ابن عمر، قال: «تخلّف عنّا رسول الله صلى الله عليه وآله في سفره فأدركنا وقد أُرهقنا العسر، فجعلنا نتوضّأ ونمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار، مرّتين أو ثلاثاً».

وقال البخاري: «إنّ الإنكار عليهم كان بسبب المسح، لا بسبب الاقتصار على بعض الرجل»، وغيرها من الروايات التي نقلها أرباب الصحاح والسنن.

الخامس: إمكان إرجاع قراءة الجرّ إلى قراءة النصب، وقد ذكروا له توجيهات:

منها: أنّ العطف في الواقع على الأيدي، وأنّ الجرّ إنّما هو للاتباع، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]. وقولهم: هذا حجر ضب خرب، فجرّوه وإنّما هو رفع.

ومنها: أنّه من قبيل العطف في اللفظ دون المعنى، كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً.

ومنها: أنّ العطف وإن كان في محلّه، إلّا أنّ المسح خفيف الغسل، فهو غسل بوجه، فلا مانع من أن يُراد بمسح الأرجل غسلها، ويقوي ذلك أنّ التحديد إنّما جاء في المغسول، وهو والوجوه والأيدي، ولم يجيء في الممسوح، فالتحديد في الأرجل يدلّ على أنّ الحكم فيها الغسل.

ومنها: أنّه يجوز تقدير: امسحوا قبل «أرجلكم»، فيكون من عطف الجمل، فإذا تعدّد اللفظ فلا بأس بأن يتعدّد المعنى، فيكون المسح المتعلّق بالرؤس بالمعنى الحقيقي، والمسح المتعلّق بالأرجل بالمعنى المجازي، ولا بأس بأن يجمع بين الحقيقة والمجاز، أو يستعمل المشترك في معنييه.

السادس: أنّ الغسل والمسح كليهما مرويان عن السلف من الصحابة والتابعين، وقد عمل بهما جمع كثير، ولكنّ العمل بالغسل أعمّ وأكثر، وهو الذي غلب واستمر، ولم ينقل غيره إلّا في مسح الخفّين.

السابع: أنّه لا يمكن الجمع بين القرائتين والآراء المختلفة في الغسل دون المسح، ولا ريب أنّ الجمع مهما أمكن أولى من الطرح، فيتمسح في أثناء الغسل، لأنّ الغسل هو إمرار الماسح على الممسوح وإلصاقه به، وصبّ الماء لا يمنع منه، بل يتحقّق به.

وإطلاق الأمر يقتضي المسح ولو ببل اليد بالماء ومسحها بالرأس، لمكان

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

باء الالصاق ، ولم يكن الأمر كذلك في الرجلين ، فكان الظاهر أن يغسلهما ويمسحهما في أثناء الغسل بإدارة اليد عليهما .

الثامن : أنّ الغسل : يجمع المسح وزيادة فإنّه تحصل به الطهارة ، أي المبالغة في النظافة التي شرع الوضوء والغسل لأجلها ، كما هو منصوص عليه في الآية المباركة ، فالمسح يدخل في الغسل دون العكس .

التاسع : أنّه لا يعقل لإيجاب مسح ظاهر القدم باليد المبللة حكمة ، بل هو خلافها ، لأنّ طرو الرطوبة القليلة على العضو الذي أصابه غبار ووسخ ، يزيد في وساخته وينال اليد الماسحة حظٌّ من هذه الوساخة .

العاشر : أنّهم اتّفقوا على أنّ مَن غَسَل قدميه فقد أدى الواجب عليه ، واختلفوا في مَن مسح قدميه ، فاليقين ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه .

هذه هي أهمّ ما استدلّوا به على ترجيح قراءة النصب، والحكم بالغسل في طهارة الرجلين .

الوجه الثاني : الجرّ عطفاً على لفظ «رؤوسكم» ، فيكون العامل (الباء) ، وهي قراءة جمع غفير مثل ابن كثير ، وحمزة ، وابن عمرو ، وعاصم ، كما هي قراءة أهل البيت عليهم السلام ، فقد روى الشيخ الطوسي رحمه الله عن غالب بن الهذيل، قال : «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله الله تعالى : ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ على الخفض هي أم على النصب؟ قال عليه السلام : وهي الخفض» . وادّعى جمعٌ تواتر هذه القراءة ، فيكون الحكم في طهارة الرجلين هو المسح دون الغسل .

وأهمّ ما استدلّوا به على هذا الوجه أُمور :

منها : القرب وعدم الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، الذي هو من المرجّحات المعروفة ، بل المسلّم عليه عند النحويين .

ومنها: أنّ العطف على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة وأُسلوب العربية، فإنّ الله تبارك وتعالى بيّن حكم الغسل ومواضعه، ثمّ قطع الكلام وبيّن حكم المسح ومواضعه، فلا يصحّ أن يعطف أحدهما على الآخر بعد القطع بينهما، ويدلّ عليه ما رواه زرارة، قال:

«قلت لأبي جعفر عليه السلام: من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك ثمّ قال: يا زرارة ـ الحديث».

ومنها: الأخبار الكثيرة التي تدلّ على أنّ المسح كان فعل صاحب الشرع صلى الله عليه وآله وبعض أصحابه مثل علي عليه السلام وابن عبّاس، وأنس وغيرهم، والتابعين، وأهل البيت عليهم السلام عامّة وشيعتهم وتابعيهم، وقد اشتهر الحديث المروي بطرق مختلفة عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «الوضوء غسلتان ومسحتان، مَن باهلني باهلته».

وأمّا الأخبار المرويّة عن الأئمّة الهداة (سلام الله تعالى عليهم)، فقد بلغت حدّ التواتر ولا يمكن إنكاره، وهي تنصّ على أنّ الحكم هو المسح، وأنّ غيره باطل، وشدّدت النكير على مخالفيهم، وسيأتي نقل بعضها، وحمل العلماء ما يدلّ على الخلاف على بعض المحامل، كما هو مذكور في الفقه.

الوجه الثالث: الرفع، وهي قراءة الحسن، ولم تنسب إلى غيره، على أن تكون «أرجلكم» مبتدأ والخبر محذوف، وقد حمل بعضهم هذه القراءة على قراءة النصب بتقدير (مغسولة). كما حملها آخرون على قراءة الجرّ بأن يكون (ممسوحة).

إذا عرفت ذلك، فالصحيح من هذه الوجوه هو الوجه الثاني؛ لأنّ الوجه الأخير غير معروف، وخلاف الإجماع المركّب، ومخالف لظاهر الآية الشريفة والقواعد المعروفة في علم النحو كما هو واضح، يضاف إليها أنّه لا يمكن استفادة حكم معيّن منها كما عرفت آنفاً.

وأمّا الوجه الأوّل، فهو مردود من جهات كثيرة، وما استدلّوا بـه لإثـباته قابل للمناقشة، نذكرها في المقام على نحو الإيجاز، والتفصيل يطلب من الفقه وغيره:

أمّا أوّلاً: فإنّ دعوى تواتر قراءة النصب كما مرّت غير ثابتة، لأنّ التواتر قد حصل بعد عصر النزول وبعد ثبوت قراءة الجرّ وروايتها عن النبيّ صلى الله عليه وآله وبعض كبار الصحابة، مثل عليّ بن أبي طالب الذي ورد فيه: «أنّـه مع الحقّ»، وابن عبّاس الذي يُعدّ حبر هذه الأُمّة، وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، ولا ريب أنّ قراءتهم أحـقّ أن يتبع، لأنّـهم أدرى بما في البيت.

وما قيل: من رجوع القـائلين مـن الصـحابة بـالمسح، فـلم يـثبت، لأنّ الروايات التي نقلت عن الأئمّة الهداة أولاد علي بن أبي طالب عليهم السلام كلّها تؤكّد عدم رجوعهم عن قرائتهم.

وعلى فرض التنزّل والقول بثبوت تواتر هذه القراءة، وتعارضها مع دعوى تواتر قراءة الجرّ، وفقد المرجح بينهما، فلابدّ من الرجوع إلى الأدلّة الخـارجـيّة التي سيأتي الكلام فيها.

ومن ذلك يعرف بطلان ما قيل من أنّ في الآية تقديماً وتأخـيراً، فـإنّه لم يعلم نسبته إلى علي عليه السلام.

وثانياً: أنّ ما ذكر في ترجيح قراءة النـصب مـن التـوجيهات النـحويّة لا يمكن الاعتماد عليها، فإنّ تطبيق الآية المباركة على احتمالات بعيدة لا يزيدها إلّا بُعداً عن الواقع، وسيأتي في البحث الأدبي بعض الكلام.

وثالثاً: أنّ ما ذكر في ترجيح الغسل على المسح من أنّـه خلاف الحكمة، أو أنّ الغسل هو المسح وزيادة وغير ذلك ممّا عرفت، فإنّ كلّ ذلك مـن مـجرّد الاستحسان، واحتمالات لا يمكن ابتناء الأحكام الشرعيّة عليها، فإنّ الوضوء

والغُسل والتيمّم أُمور تعبديّة توقيفيّة، لابدّ من ورود دليل من الشرع في جميع خصوصيّاتها، فإذا أمر بالغَسل في موضع، لا يجوز المسح فيه، وكذا بالعكس، فإنّه تشريع محرّم يوجب بطلان العبادة، كما هو معلوم.

ولا إشكال من أحد في أنّ الغسل والمسح مفهومان متغايران عند العرف، ويشترط في كلّ واحد منهما ما لا يشترط في الآخر، ومن ذلك أنّه يشترط في المسح أن يكون الممسوح خالياً عن الرطوبة الغالبة على ما يكون على الماسح من الرطوبة، وإلّا لم يتأثّر الممسوح برطوبة الماسح الذي هو قوام المسح، فلو تحقّق الغَسل قبل المسح تكون الرطوبة غالبة فيبطل المسح، لانتفاء الشرط، وإن كان بعده فلا فائدة فيه، إلّا أن يكون بقصد التشريع والورود، فيوجب البطلان، فلا يمكن الجمع بين الغسل والمسح.

وأمّا الحكمة المزعومة في الغَسل دون المسح، فلا ريب ولا إشكال في أنّ الطهارة والنظافة أمران مندوبان، وقد حثّ عليهما الشرع المبين، ولكنّهما لا تنحصران في الوضوء فقط، فإنّ لها طرقاً وسبلاً متعدّدة، مع أنّ الحكمة في الوضوء لا تنحصر في النظافة الظاهريّة، فلعلّ منه الطهارة الباطنيّة، ففي الحديث المعروف عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «الوضوء نور»، وما ورد في تفسير الغرّ المُحَجّلين وغير ذلك ممّا يدلّ على أن العمدة هي الطهارة الباطنية.

ورابعاً: أنّ القول بأنّ الغسل أعمّ وأكثر، وهو الذي غلب واستمر، ولم ينقل غيره إلّا في مسح الخفّين، فلا يصير مرجّحاً، فإنّ العمدة دلالة الدليل وما يستفاد من ظاهره، مع أنّ للقائلين بالمسح أن يقولوا بأنّ المسح مرويّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله والصحابة ـ كما اعترف به الخصم ـ وهو الذي غلّب عندهم واستمر، ولا مرجّح لمذهب غيرهم على مذهبهم.

وخامساً: أنّ ما ذكره بعضهم من أنّ جعل الغاية في الرجلين، لدليل على

أنّ المطلوب هو الغسل. كما أنّ جعل الكعبين دليل آخر ، لأنّ الغسل لا يحصل إلّا باستيعابهما بالماء ، لأنّ الكعبين هما العظمان الناتئان في جانبي الرجلين.

فهو غير صحيح ، فإنّ جعل الغاية لا يدلّ على كون المطلوب هو الغسل ، بل هو أعمّ كما هو واضح. يضاف إلى ذلك أنّ الغاية ليست للغسل ، بل هي غاية للممسوح ، على نحو ما ذكرناه في غاسل الأيدي.

وأمّا ما ذكر في معنى الكعب ، فقد تقدّم الكلام فيه ، وذكرنا أنّ المراد منه هو العظم البارز في ظاهر القدم ، وتقدّم الكلام في وجه إتيان صيغة التثنية ، وقلنا إنّ الكعبين باعتبار كلّ مكلّف ، ولم يسمع في فصيح الكلام أن تنحل جميع الأرجل إلى أفرادها ، فيقال : وأرجلكم إلى الكعب ، باعتبار الرجل الواحدة ، إلّا أن يقال : (وامسحوا بأرجلكم ، كلّ رجل إلى الكعب) ، والسرّ في ذلك أنّ غير الجموع الخطابيّة لا علاقة لها بحلّها إلى المفردات ، إلّا أن يشار إلى المفرد بالتصريح في الخطاب ، كما يقال : كلّ رجل يجب مسحها إلى الكعب ، وهو خلاف الفرض.

ومن ذلك يعرف أنّه لو كان المراد من الكعب هما العظمين الناتئين في جانبي الرجل، لقال : إلى الكعاب ، لأنّ في كلّ رجل كعبين ، بخلاف ما إذا كان كعب في كلّ رجل ، كما عرفت، فافهم.

وسادساً : بعد أن عرفت عدم صلاحية تلك الوجوه لترجيح قراءة النصب ، ننتقل إلى أقوى الحجج اللفظية لأهل السنّة على الإماميّة ، وهي الأخبار التي استدلّوا بها على وجوب غسل الرجلين ، وفيها أنّه إذا كانت الآية تدلّ على المسح ، فتكون الأخبار ناسخة لها ، كما قال به بعض السلف كأنس والشعبي ، فقد نقل عنهم أنّه قال : «أتى جبرئيل بالمسح والسنّة بالغسل» ، فحينئذٍ يأتي الكلام في أنّه هل يجوز نسخ الكتاب بالخبر الواحد؟ والبحث طويل.

يضاف إلى ذلك أنّها متعارضة في ما بينهما ، فإنّ بعضها يدلّ على الغسل ، وبعضها يدلّ على المسح ، كما أنّها معارضة بالأخبار التي ينقلها الإماميّة الدالّة على المسح ، فلابدّ من التماس المرجّحات السنديّة والدلاليّة فيما بينها ، وكلّ طائفة تدّعي الترجيح ولو فرضنا تعادلها من جميع الجهات ، فيطرحان ويرجع إلى كتاب الله تعالى ، وقد تقدّم أنّه يدلّ على المسح دون الغسل .

هذا موجز الكلام في المقام، والتفصيل يطلب من الفقه وغيره .

والحقّ أنّ الآية المباركة هي بعيدة عن تلك الوجوه والاحتمالات الواهية ، ولو عرضناها على مستقيم الطبع ـ الخالي من الشوائب ـ والذهن الصافي، يأبى حمل الكلام البليغ عليها ، ويفهم من ظاهر الآية الكريمة : ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ معطوفة على ما تقدّم عليها بلا فصل ، أي : ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ ، ويحكم بوجوب مسح الأرجل في الوضوء ، والأخبار إنّما تؤكّد هذه الجهة فقط وترشد إليها ، لا أن تضيف إلى الآية الكريمة شيئاً جديداً ، وقد كانت الأُمة في غنى عن هذا الجدل العنيف إذا رجعوا إلى كتاب الله العزيز وطرحوا التعصّب والعناد ، ولم يصل الأمر إلى الآلوسي في تأليف كتاب في الردّ على الإماميّة والتحامل عليهم واتّهامهم بالكذب وتوهينهم ، حتّى قال صاحب المنار : «إنّ في كلامه ـ أي الآلوسي ـ تحاملاً على الشيعة وتكذيباً لهم في نقلٍ وجد مثله في كتب أهل السنّة» ، مع أنّهم كانوا بحاجة إلى موضوعات أكثر أهمّية وأشدّ نفعاً ، لولا التعصّب والجهل اللّذان ابتلت بهما هذه الأُمّة، فوقعت في ما وقعت فيه الأُمم الماضية ، وقد حذّرنا الله تعالى منها أشدّ تحذير ، نسأله جلّت عظمته الهداية والتوفيق لما فيه الخير والسعادة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ .

بيان لنواقض الطهارة وموجباتها ، وهي على قسمين : الحدث الأكبر الذي

يوجب الغسل ، وهي الجنابة . والحدث الأصغر الموجب للوضوء ، وهو البول والغائط . ثمّ يذكر عزّ وجلّ مسوّغات التيمّم ، وبه تتمّ الطهارات الثلاث، مع ذكر موجباتها ونواقضها وواجباتها .

والجنب: بضم الجيم والنون ، مَن أصابته الجنابة ، التي هي معروفة عند المكلّفين ، ولها سببان :

أحدهما : ما ذكره عزّ وجلّ في ما يأتي **﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾** ، الذي هو كناية عمّا يستقبح ذكره ، أي الوقاع والجماع ، بلا فرق بين خروج المني وعدمه ، فإنّ الموجب هو الدخول .

والثاني : خروج المني في اليقظة أو المنام ، كما دلّت عليه السنّة الشريفة ، على ما يأتي في البحث الروائي .

والجنب مصدر استعمل بمعنى الوصف ، ويقع على الواحد ، والاثنين والجمع ، والمذكر والمؤنّث ، كما يقال : رجل عدل ، وامرأة عدل، وقوم عدل . وتقدّم الكلام في اشتقاقه ومعناه في قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾**[1] .

والطهارة : تُطلق تارةً : ويُراد منها المعنى المصدري ، أي نفس الفعل الذي هو الاغتسال . وأُخرى : يُراد بها معنى الاسم المصدرى ، أي الأثر الحاصل من الغُسل ، والمراد بها في المقام المعنى الأوّل ، أي الاغتسال ، كما دلّ عليه قوله تعالى : **﴿وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾**[2] ، وكذلك دلّت عليه جملة من الأخبار ، وقد استدلّ بعضهم بالتبادر أيضاً .

والآية الشريفة تبيّن أنّ للطهارة إطلاقين ، أحدهما نفس الفعل الذي هو الاغتسال كما بيّنته آية النساء، والآخر الطهارة الحاصلة بالغُسل ، فإنّها أثر

---

١ و ٢ . سورة النساء : الآية ٤٣.

مترتّب على الفعل الذي هو الغُسل.

والجملة عطف على جزاء الشرط الأوّل، أي إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فتطهّروا.

وقيل: إنّها عطف على جملة الشرط السابق، فلا تكون حينئذٍ مندرجة تحت القيام إلى الصلاة بل هي مستقلّة برأسها، فتدلّ الآية الكريمة على وجوب الغُسل لنفسه، واستدلّوا على هذا القول بأُمور سيأتي ذكر بعضها في البحث الأدبي.

ويستفاد من سياق الآية الكريمة المبالغة في أمر الصلاة، والتأكيد على الطهارة ومطلوبيّتها لنفسها، كما أنّها على شرطيّة الطهارة لطبيعة الصلاة، وكفاية الغُسل للدخول في ما يشترط فيه الطهارة، كالصلاة، ومسّ كتابة القرآن، وقراءة آية السجدة في سور العزائم الأربع، والدخول في المساجد وغير ذلك، لأنّ المسوّغ في الدخول في ذلك كلّه إنّما يكون بالطهارة ورفع الجنابة، وهو إنّما يتحقّق بالاغتسال، وتدلّ عليه جملة من الروايات، والمسألة محرّرة في كتب الفقه فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾.

شروع في مسوّغات الطهارة الترابيّة بعد ذكر الطهارة المائيّة، وبيان لموارد ترك الوضوء والغُسل وإتيان بدلهما وهو التيمّم. وقد ذكر عزّ وجلّ جملة من الأُمور تجمعها عناوين ثلاثة: العجز، والمشقّة، وعدم وجدان الماء، فتكون المذكورات في الآية المباركة بعض المصاديق لها، وهي الأربعة التي يكثر ابتلاء المكلّفين بها وتصاحب فقدان الماء، إمّا غالباً كالمرض والسفر، أو اتّفاقاً كالتخلّي ومباشرة النساء، فتدخل في أحد العناوين الثلاثة المتقدّمة.

ولكن ما ذكره عزّ وجلّ منه ما يكون حدثاً بنفسه يستوجب الطهارة،

كالأخيرين المعطوفين على الأوّلين بكلمة (أو). ومنه ما لا يكون كذلك، بل يكون مظنة لتحقّق الحدث فيه، وهما الأوّلان، أي المرض والسفر، فإنّهما ليسا بنفسهما يستوجبان الطهارة، بل لأنّهما لتحقّق الحدث ـ سواء أكان أصغر أم أكبر ـ فلم تكن المقابلة بين الأخيرين والأوّلين حقيقيّة، ولذا احتمل بعضهم أن تكون (أو) بمعنى الواو، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1]. ولكنّه بعيد، لما ذكرناه آنفاً من أنّ الآية الشريفة في مقام بيان مسوّغات التيمّم التي تجمعها العناوين المتقدّمة، ولا ريب في أنّ شاهد الحال والعرف يقضيان باعتبار الحدث في كلّ ما يسوغ التيمّم، فتكون (أو) باقية على ظاهرها من التقسيم والتنويع، لكون المقام مقام التردّد فيه بالطبع، فلا يحتاج إلى التجوّز.

والمراد بالمرض في المقام ما يضرّ معه استعمال الماء، وما يكون سبباً للعجز عن تحصيله، بلا فرض فيه بين أن يكون شديداً أو يسيراً، إلّا أن يكون يسيره ممّا ليس فيه مشقّة وكلفة، بحيث لا يصدق عليه المرض عرفاً.

وإنّما يحكم بالمرض وأقسامه الذي يسوّغ التيمّم التجربة وأهل الخبرة، وتدلّ على ذلك جملة من الروايات، وسيأتي في البحث الفقهي بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾.

فرد آخر من الأفراد التي قد يبتلى بها المكلّف ممّا لا يمكن تحصيل الماء فيه، كما يرشد إليه تنكير (سفر)، والجملة عطف على قوله تعاليم: ﴿فَامْسَحُوا﴾.

والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم على سفر ولم تجدوا ماءً فتيمموا، فلا يستفاد من الآية المباركة أنّ هذه الجملة قيد لغيرها من المذكورات.

---

١ . سورة الصافات: الآية ١٤٧.

وإطلاق الآية الشريفة يشمل السفر الطويل والقصير بما يسمّى سفراً عرفاً، بحيث يشقّ فيه تحصيل الماء ويغلب فيه فقدان الماء.

قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾

الكلام في عطف هذه الجملة نفس الكلام في سابقتها، والتقدير: إذا قمتم إلى الصلاة وقد جاء أحد منكم من الغائط فلم يجد ماءً، فيتيمّم. وقد ذكرنا أنّ هذا الفرد بنفسه موجب للطهارة.

والآية الشريفة في غاية الأدب ومنتهى الفصاحة، حيث كنّي فيها عمّا يستقبح ذكره بأُسلوب أدبي رفيع، وبولغ في الإبهام من دون الإضافة التي فيها شوب التعيين رعاية لجانب الأدب.

والغائط: المكان المنخفض من الأرض، وقد كانوا يقصدونه لقضاء الحاجة تستّراً عن أعين الناس وتأدّباً. وقيل: إنّه المطمئن من الأرض. وقيل: عمق الأرض الأبعد.

وكيف ما كان، فسمّي الحال باسم المحلّ حتىّ غلب استعماله في معناه المعروف، وهو النجوّ نفسه، كالعذرة التي هي بمعنى عتبة الدار وفنائها، فغلب استعمالها في معناها المعروف، وهو ما يخرج من الأسفل من بقايا الطعام، والمراد به في المقام مطلق الحدث الأصغر الموجب للطهارة الخارج عن أحد السبيلين، كما بيّنته السنّة الشريفة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

كناية عن الجماع، وهو أيضاً أدب قرآني، صوناً للسان عمّا يستقبح ذكره، وقد ذكرنا في سورة البقرة أنّ المسّ واللمس بمعنى واحد. ولعلّ التصريح به في المقام مع أنّه داخل في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً﴾، لبيان أحد موجبات

الجنابة ، فيكون تفسيراً لها ، أو للإشعار بأنّ الأمر ممّا تقتضيه الطبيعة كسابقة ، ولكثرة وقوعها . ولكنّهما يفترقان في أنّ الأوّل حدث أصغر يوجب الوضوء ، والثاني حدث أكبر يوجب الغسل . بخلاف المرض والسفر اللذين هما أمران اتّفاقيان .

وقد استجمعت الآية الشريفة جميع الحالات الطارئة للإنسان ، الطبيعيّة منهما والاتفاقيّة ، وعالجتها بأُسلوب أدبي رفيع يفهمه كلّ مكلّف ، وهو من إعجاز هذا الكتاب الكريم الذي تحدّى جميع الكتب السماويّة ، وخضعت له الفصاحة والبلاغة .

وممّا ذكرناه يعرف فساد ما نسب إلى بعضهم من كفاية مطلق لمس النساء في الطهارة ، أخذاً بظاهر اللفظ ، وإبقاءً له على معناه الحقيقي من دون حمله على معناه الكنائي ، الذي هو أُسلوب من الأساليب البلاغيّة المعروفة ، مع أنّ سياق الآية الكريمة لا يلائمه ، لأنّ الآية المباركة بيّنت الحدث الأكبر ابتداءً ، ثمّ ذكرت الحدث الأصغر في الحالة الاعتياديّة ، ثمّ ذكر الحدث الأصغر في الحالة الاضطراريّة ، فلو حملناه على المعنى الذي ذكره ، يستلزم منه إهمال فرض من الفروض ، وهو الحدث الأكبر في الحالة غير الاعتيادية ، وعدم بيان حكمه ، وهو التيمّم بدل الغسل ، وأنّ به تستوفى الفروض .

قوله تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ .

جواب الشرط «إن كنتم» ، فيكون المراد من عدم الوجود أعمّ من عدم الوجدان والعجز من تحصيله ، وعدم التمكّن من استعماله من جهة المرض وغيره ، وهو الأنسب ، والعطف بالفاء لبيان أنّ عدم الوجدان إنّما يكون معتبراً لعدم حصول هذه الأسباب .

وقال بعضهم :إنّه معطوف على قوله : «جاء» ، فيكون قيداً للسفر ، والغائط ،

وما عطف عليه. ويكون حكم مَن كان المرض مانعاً له عن تحصيله ـ لا استعماله ـ مستفاداً من دليل آخر، ولكنّه تبعيد للمسافة.

كما أنّ القول بأنّه معطوف على «لامستم»، لأنّه أقرب لفظاً.

مردود أيضاً كما هو واضح، وقد تقدّم الكلام في هذه الآية المباركة في سورة النساء الآية ٤٠.

والظاهر منها أنّ المراد بوجود الماء، وجود ما يكفي للطهارة، فلو وجد ما يكفي لبعض الأعضاء فقط، فهو في حكم الفاقد لها أجمع، كما أنّ الظاهر منها أنّه إذا كان قادراً على الطلب في الجملة يجب عليه، اذ مع وجوده في أحد أطرافه لا ينطبق عليه عنوان أنّه لم يجد، وسيأتي في البحث الفقهي ما يناسب الموضوع.

قوله تعالى: **﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾**.

التيمّم: هو القصد، واستعمل في الشرع في مسح الجبهة واليدين بالتراب.

والصعيد: هو وجه الأرض. وقيل: الصعيد هو الغبار الذي يصعد، أي من الصعود، ولهذا قالوا لابدّ للمتيمم أن يعلق بيده الغبار.

ولكن ادّعى الزّجاج عدم الخلاف بين أهل اللغة أنّه مطلق «وجه الأرض سواء كان عليه تراب أو لم يكن»، ونقل المحقّق عن ابن الأعرابي ذلك أيضاً. إذاً لا وجه لهذا القول كما هو واضح.

والطيّب: هو الخالص المنزّه عمّا يستخبث ويكره، سواء كان بحسب حاله وذاته أو المراد منه أو يرغب فيه ومنه، فيشمل الطهارة والإباحة وعدم خروجه عن حالته الطبيعيّة بالطبخ ونحوه، فتكون من وجوه الطيّب، وهذا هو الظاهر من موارد استعمال هذه الكلمة في الكتاب والسنّة الشريفة، فيكون ما ورود في السنّة الشريفة مؤكّداً لما تدلّ عليه الآية الكريمة.

وقيل : إنّ المراد بالطيّب الطاهر ، فيكون دليلاً على اشتراط الطهارة لما يتيمم به ، ولكنّه تخصيص للآية المباركة بغير دليل ، وقد تقدّم الكلام في سورة النساء الآية ٤٠، فراجع .

قوله تعالى : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ .

بيان لكيفيّة التيمّم بعد ذكر المتيمم به بلفظ بليغ ، وهو بإيجازه يشمل كثيراً من المعاني ، وتقدّم الكلام آنفاً في المسح ، والوجه ، واليدين ، فإنّ الظاهر أنّ المراد منها في التيمّم ما يراد منها في الوضوء ، فإنّهما من باب واحد ، إلّا أنّ في التيمّم يكفي مسح الوجه وبعض اليدين ، لمكان (الباء) ، وقد حدّدتهما السنّة الشريفة بما بين الجبينين إلى أطراف الأنف في الوجه ، وبما دون الزند إلى أطراف الأصابع في اليدين ، وسيأتي في البحث الفقهي بعض الكلام .

ولكن لا ينبغي الشك في دلالة الآية المباركة على أنّ المسح يتقوّم بالماسح والممسوح والممسوح به ، وتدلّ عليه الروايات البيانيّة وغيرها التي تبيّن كيفيّة تيمّم رسول الله ﷺ ، كما سيأتي في البحث الروائي .

وإنّما اكتفى القرآن الكريم بذكر التيمّم بالصعيد الطيّب، وذكر الممسوح به والماسح ، واستغنى عن ذكر الضرب على الصعيد أو مسّه بباطن الكفّين ، لأجل التفنّن في العبارة والبراعة فيها ، إلّا أنّ الأُسلوب يدلّ على ما ذكرناه، كما عرفت، والضمير في «منه» يرجع إلى الصعيد .

واختلف في «من»، فقيل : إنّها تبعيضيّة ، أي ببعض الصعيد بما علّق باليدين من تراب وغبار ، فتدلّ الآية الشريفة على اشتراط العلوق ، أي بقيّة الصعيد عن اليدين ، فلا يصحّ التيمّم إن لم يكن عليهما بقيّة منه .

وقيل : إنّها ابتدائيّة ، أي يجب التيمّم مبتدأ من الصعيد .

والحقّ : أنّه لا فرق بين أن تكون (من) تبعيضيّة أو ابتدائيّة في عدم استفادة

العلوق باليدين في التيمّم، فإنّ التيمّم ببعض الصعيد أو مبتدأ منه باعتبار كونه مورد ضرب اليدين أو الاعتماد عليه، أجنبي عن تعلّقه باليدين، إلّا أن يستفاد بضميمة القرائن الخارجيّة، ولعلّ ما ورد في بعض الروايات من عدم اشتراط العلوق إشارة إلى ما ذكر.

وبالجملة: أنّ الآية المباركة تدلّ على وجوب ضرب اليدين على الصعيد، وكونه مورداً لاعتمادهما، بلا فرق بين أن يكون مبتدأ، أو يكون الضرب على بعضه ومسحهما على بعض الوجه وبعض اليدين، كما تدلّ عليه الروايات البيانيّة، وسيأتي نقل بعضها.

قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾.

بيان لقاعدة من القواعد التسهيليّة الامتنانيّة التي بنيت عليها الشريعة السمحاء، وتمسّك بها الفقهاء في مواضع كثيرة في الفقه، وأسموها بـ«قاعدة نفي الحرج»، وتعتبر من إحدى الحِكَم في تشريع الطهارات الثلاث التي سيذكرها جلّ شأنه في الآيات الكريمة التالية، ومن سرد تلك الحكم في المقام يستفاد أهمّية تلك الأحكام وعظيم أثرها في تهذيب النفس وتزكيتها.

وأُسلوب الآية الشريفة يدلّ على نفي جعل وتشريع كل الأحكام الإلهيّة التي يراد بها الحرج على المؤمنين، فإنّ نفي الإرادة أبلغ من نفي الفعل وأشدّ في تأكيده، كما عرفت في نظائر هذا الأُسلوب في الآيات المباركة السابقة، وتؤكّد ذلك أيضاً دخول «أن» الجارّة على مفعول «ما يريد»، فتكون بيانيّة لا زائدة، كما زعمه بعضهم.

ويدلّ على ما ذكرناه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ الدالّ على نفي الحرج في ملاكات الأحكام مطلقاً، فإنّها شرّعت لأجل مصالح وحكم واقعيّة، لا لغرض الحرج والمشقّة.

وإطلاق الآية الشريفة يشمل نفي كلّ حرج، سواء كان في التكاليف الأوليّة، أو التكاليف الثانويّة، فإنّه إذا عرض ما يوجب الحرج والمشقّة اتّفاقاً في حكم، فإنّه ينتقل إلى البدل فيه إن كان ممّا له بدل ـ كما في الصوم وغيره من التكاليف غالباً ـ وإلّا فيسقط الحكم رأساً في تلك الأفراد الحرجيّة، ولا يسقط غيرها.

والحرج: هو الضيق والمشقّة، قال تعالى: **﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً﴾**[1]، وقال سبحانه وتعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[2].

والمعنى: لم يكلّف الله تبارك وتعالى المؤمنين بتحصيل الطهارة المائيّة على وجه يستلزم الحرج والمشقّة عليهم، إمّا بإتلاف مال أو بالتغرير بالنفس أو الضرر عليها ونحو ذلك ممّا فيه كلفة عليهم، فإنّه ينتقل إلى البدل وهو الطهارة الترابيّة، فقد كلّفهم بها بما لم يستلزم المشقّة والحرج أيضاً، وإلّا فيسقط الحكم رأساً، كما هو مذكور الفقه، فإنّ الله تعالى ما يريد من الأمر بالطهارة المائيّة ثمّ الترابيّة إلّا التوسعة على المؤمنين، لا الحرج والمشقّة، وسيأتي في البحث الروائي نقل بعض الروايات.

قوله تعالى: **﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾**.

حكمة أُخرى، أي إنّما يريد الله تعالى ـ من الوضوء والغسل والتيمّم ـ تطهيركم، فاللام تكون للتعليل. والجملة مفعول (يريد) المحذوف. وذكر الرضي أنّ اللام زائدة، و(يطهّركم) مفعول بتقدير (أن) بعد اللام، كما هو الشأن في نظائر المقام، قال تعالى: **﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾**[3].

---

١. سورة الحج: الآية ٦٥.

٢. سورة الحج: الآية ٧٨.

٣. سورة النساء: الآية ٢٦.

وكيف ما كان، فإنّ إطلاق الطهارة يشمل الطهارة المعنويّة الحاصلة من رفع الحدث بأحد تلك الأسباب الثلاثة التي يشترط الصلاة بها، والنظافة الظاهريّة من الدرن والأوساخ. وأما الطهارة من الخبث، فإنّها قد تحصل بالعرض، فلا تدلّ الآية المباركة عليها.

ويستفاد من الآية الكريمة أنّ الشرط في القيام إلى الصلاة هو الطهارة، فلو كان متطهّراً لا يجب عليه الإتيان بعمل الطهارة عند القيام إليها مرّة أُخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾.

الإعراب فيه كما ذكرناه في الجملة المتقدّمة، وسبق الكلام في معنى النعمة وإتمامها في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، والمراد بالنعمة في المقام، تلك الأحكام والتوجيهات والمعارف التي نزلت لتكميل الإنسان وإرشاده إلى سعادته في الدارين، ومنها تلك التي ذكرت آنفاً التي يستلزم العمل بها الدخول في ولاية الله تعالى، الذي هو المقصد الأسنى في خلق الإنسان.

وإطلاق الآية الشريفة يشمل النعمة التي أرادها الله تعالى للمؤمنين، وهي طهارة النفوس من درن الذنوب وآثارها وتزكيتها، التي هي غاية خاصّة لتشريع الطهارات الثلاث، ونعمة الدين الذي هو مجموعة أحكام وتوجيهات وإرشادات قيّمة لتكميل النفوس المستعدة وإعدادها لنيل الفيوضات الإلهيّة وهدايتها إلى ما يوجب سعادتها، فاجتمعت في هذه الآية المباركة الغايتان الخاصّة للتشريعات الثلاثة المتقدّمة، والعامّة لمجموعات الأحكام الإلهيّة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

غاية أُخرى، وهي إعداد الإنسان إعداداً علميّاً وعمليّاً لطاعته والقيام

بشكره ، ليكون سبباً لدوام نعمه عزّوجلّ ، وهو القائل : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١] .

والآية الشريفة جمعت كلّ ما له دخل في سعادة الإنسان وما يهديه إلى الكمال المنشود ، ومن ذلك كلّه يظهر أهمّية الأحكام الإلهيّة في حياة الإنسان الظاهريّة والمعنويّة .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ .

ترغيب إلى دوام طاعة الله سبحانه وتعالى ، وحثّ على الوفاء بعهده ، وتذكير لهم بما أنعم الله تعالى على المومنين من الفيوضات العليّة والمواهب الجميلة، والدخول في الإسلام الذي جمعهم بعد أن كانوا متباغضين متفرّقين ، وأرشدهم إلى الكمالات والمعارف الواقعيّة بعد أن كانوا في جاهلية عمياء ، مع أنّ حالهم في الإسلام من حيث أمنهم وغناهم ، وصفاء قلوبهم ، وخلوص نيّاتهم ، وطهارة أعمالهم معروف لا يمكن إنكاره ، وتبيّن هذه الآية المباركة قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[٢] .

فيكون المراد بالنعمة في المقام تفضيلهم على سائر الناس بإرسال رسول منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، وأنزل عليهم الكتاب الذي اشتمل على جميع المعارف الواقعيّة والتوجيهات الربوبيّة الذي فيه تفصيل كلّ شيء ، وشرع الأحكام والتشريعات التي لها الأثر الكبير في تهذيب النفوس وتزكيتها ، ويجمع الكلّ الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى ديناً لهم ومنهاجاً ، ولعلّ في الآية الشريفة

---

١ . سورة إبراهيم : الآية ٧.

٢ . سورة آل عمران : الآية ١٠٣.

الإشارة إلى ما ذكر في أوائل هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾.

الميثاق: هو العهد المؤكّد، وتذكيرهم بالميثاق، لأجل دوام الطاعة، وحثّهم على العمل بما أُخذ عليهم من الميثاق، والمراد به تلك العهود والأحكام التي أنزلها الله تعالى عليهم وأخذ منهم العهد بالعمل بها، والدخول في ولاية الله تعالى التي تستلزم قبول ولاية رسوله الكريم ومن نصبّه ﷺ ولياً على المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

بيان لقوله تعالى: ﴿وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ وتذكير لهم بوجوب مراعاته بعد التزامهم بالسمع والطاعة والمحافظة عليه، فقد أعطوا السمع والطاعة للرسول الكريم ﷺ بأن يطيعوا الله تعالى في تعليماته وتوجيهاته، منها تلك التي يتعلّق بالطهارات الثلاث، وتحريم المحرّمات، والدخول في ولاية الله تعالى والرسول والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

تأكيد آخر على المحافظة على عهود الله تعالى ومراعاة أحكامه المقدّسة، فلا يكونوا كالذين أخذ الله منهم الميثاق فنسوا حظّاً ممّا ذكّروا به، وقد حرّفوا الكلم عن مواضعه، ونقضوا حدود الله بالزيادة والنقصان فيها، كما حكي عنهم عزّوجلّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

تحذير لهم في نسيان نعمه، ونقض مواثيقه، وما تنطوي عليه ضمائرهم من الخيانة والسوء، فإنّ الله تعالى عالم بخفايا القلوب وما تضمره النفوس، ولعلّ

الأمر بالتقوى في آخر الآيات المتقدّمة ، لأنّها روح تلك التشريعات ، وبها تتّصف بالخلوص ، ويسلم العمل عن كلّ نقص وعيب .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

اختلف العلماء في إعراب الآية الشريفة اختلافاً كبيراً، وقد ذكرنا شطراً منه في التفسير، ونذكر الشطر الآخر في هذا البحث.

قال بعض العلماء: إنّ الوجه مشتقّ من الواجهة، واشتقاق الثلاثي من المزيد إذا كان المزيد أشهر في المعنى الذي يشتركان فيه شائع، بل قال بعضهم: إنّ ما ذكر من منع الثلاثي من المزيد إنّما هو في الاشتقاق الصغير، وأمّا في الاشتقاق الكبير الذي يكون بين كلمتين بينهما تناسب في اللفظ والمعنى، فهو جائز.

ثمّ إنّهم اختلفوا في معنى (إلى) في قوله تعالى: ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾:

فقيل: إنّها بمعنى (مع)، كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**مَنْ أَنْصَارِ إِلَى اللهِ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ**﴾[3].

ويردّ عليه: أنّه لا إشكال في مجيء (إلى) بمعنى (مع)، إلّا أنّ الآية المباركة كما تحتملها، تحتمل أن تكون بمعنى (من)، كما ذكره بعض أعاظم النحويين كابن هشام في «المغني» وغيره، مستشهدين بقول الشاعر:

تقول وقد عاليت بالكور فوقها   أيسقى فلا يروى إليّ ابن احمرا

---

١. سورة هود: الآية ٥٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ٥٢.

٣. سورة النساء: الآية ٢.

أراد منّي . ونحن في غنىً عن هذا الخلاف ، فإنّ الآية الشريفة تدلّ على تحديد المغسول كما ذكرنا في التفسير ، فتكون (إلى) بمعناها الحقيقي وهو الانتهاء ، ومجيئها بمعان أُخرى في غير المقام لا يصير دليلاً على كونها في المقام كذلك ، لا سيما أنّ بعض الآيات التي استشهد بها في إثبات المطلوب إنّما كان لأجل قرائن خاصّة حفّت بها ، مثلاً فقد ضمن الأكل في قوله تعالى : ﴿**لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ**﴾ معنى يتعدّى بهذا الحرف (إلى) ، كالضمّ ونحوه .

والقول بأنّ الباء في قوله تعالى : ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ**﴾ زائدة ، باطل ، لأنّه خلاف الأصل ، وقد ذكرنا مراراً أنّه لا معنى للزيادة في القرآن الكريم ، فهي بمعنى التبعيض ، كما دلّت عليه الاستعمالات الفصيحة ، وأنشد ابن مالك :

شربن بماء البحر ثمّ ترفّعت متى لجج خضر لهنّ نتيج

وأمّا قوله تعالى : ﴿**وَأَرْجُلَكُمْ**﴾ ، فقد عرفت الخلاف العظيم في إعرابه وذكرنا الحقّ في التفسير ، ونزيد هنا أنّ مجال النحو واسع ، والعمدة هو الرجوع إلى العرف والأذهان المستقيمة وكلمات الفصحاء في استفادة الظاهر من الكلام وتعيين المراد منه ، كما عرفت آنفاً .

ثمّ إنّه يستفاد من تغيير الأداة في قوله تعالى :﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً**﴾ مع أنّ الآية الشريفة تصدّرت بكلمة (إذا) ، اهتماماً بأمر الصلاة والتأكيد عليها ، وأنّ (إذا) تدلّ على ما هو متيقّن الوقوع ، تنبيهاً على أنّ المؤمن لا يكفّ عن إقامة الصلاة ولا يتركها بحال .

مع أنّ الاختلاف يرشد إلى أنّ مدخول (إذا) كثير الابتداء ، بخلاف (ان) التي تدلّ على أنّ مدخولها نادر وقليل الحدوث .

وقوله تعالى : ﴿**وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾ في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة ، حيث يدلّ على نفي الفعل بنفي الإرادة .

وقيل: إنّ هذا الأُسلوب من مختصّات الكتاب العزيز.

واختلف النحاة في اللّام، فقيل: إنّها زائدة لتأكيد المفعول. وقيل: إنّ المفعول مقدّر واللّام للتعليل. والحقّ هو الثاني، كما عرفت من عدم الزيادة في القرآن الكريم.

***

بحث دلالي:

الآيتان الشريفتان من أعظم الآيات القرآنيّة التي تبيّن أحكام الطهارات الثلاث التي يشترط بها أهمّ العبادات في الإسلام، وهي الصلاة التي تعتبر «عمود الدين، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردّت ردّ ما سواها».

وقد بيّن عزّوجلّ في هاتين الآيتين المباركتين، جميع ما يتطلّبه هذا الحكم الإلهي، فذكر تعالى واجباته، وشروطه، وآدابه، والضمان على تنفيذه، ويستفاد من الآية الكريمة أنّ هذا الحكم ممّا أخذ عزّوجلّ عليه الميثاق، لبيان أهمّيته، ولعلّ السرّ في ذلك علمه عزّوجلّ بتهاون جمع كبير به، واختلاف الأُمّة فيه مع علمهم بأنّ له شأناً كبيراً في تطهير النفوس وتزكيتها وتوقّف أُمور كثيرة عليه.

ويستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: **﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾** اشتراط الصلاة بالطهارة، إمّا أنّها واجبة لنفسها، أو واجبة للغير، قيل: بالثاني، لدلالة الفاء على الترتيب، كما يشهد بها العرف والتبادر. وقيل بالأوّل، كما تدلّ عليه ذيل الآية المباركة **﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾** ويشهد له بعض الأحاديث، والفاء إنّما تدلّ على الترتيب لو لم تكن في البين قرينة على الخلاف كما في المقام، بل يمكن أن يقال: إنّ الفاء إنّما استفيد منها الفرعيّة في المقام كما هو واضح، أمّا كون الطهارة واجبة بالوجوب النفسي أو الغيري، فلا يمكن أن تستفاد من الآية

الكريمة لوحدها ، إلّا مع انضمام القرائن الخارجيّة التي تدلّ على الثاني ، كما هو الحقّ ، والمسألة محرّرة في الكتب الأُصوليّة والفقهيّة .

الثاني : يدلّ قوله تعالى : **﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾** على لزوم النيّة ، فإنّ الفعل الاختياري ، لا يقع من الفاعل بدونها ، هذا إذا لم نقل بأنّ المراد من **﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾** أردتم وقصدتم ، وإلّا فالدلالة أوضح وتدلّ عليه جملة كثيرة من الروايات ، وفي الحديث المعروف عن نبيّنا الأعظم ﷺ : «إنّما الأعمال بالنيّات» .

الثالث : يستفاد من أُسلوب الآية الشريفة الترتيب ـ في واجبات الوضوء والتيمّم ـ والموالاة بينها ، فيجب غسل الوجه ثمّ اليدين ، ثمّ مسح الرأس ، ثمّ مسح الرجلين تسبقها النيّة ، ولعلّ ما ورد في الأخبار : «ابدأوا بما بدأ الله» ، مأخوذ من مثل هذه الآيات الشريفة ، وتدلّ عليها روايات متعدّدة .

وقد يستدلّ على الترتيب بالواو التي تفيد الترتيب ، كما صرّح به بعض أعاظم النحويين .

ولكنّه مشكل ، فإنّها حقيقة في مطلق الجمع ، وأمّا الترتيب فهو يستفاد من القرائن .

وكيف كان ، فإنّ سياق الآية المباركة بل ظاهرها الذي هو الترتيب، فهو يستفاد من في مقام البيان ، يفيد ما تقدّم .

الرابع : يستفاد من ظاهر قوله تعالى : **﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾** ، أنّ التيمّم مساوق للوضوء والغُسل ، فيباح به كلّ ما يباح بالطهارة المائيّة ، فيجوز أن يصلّي بتيمم واحد صلوات متعدّدة ، أو يمسّ كتابة القرآن كذلك إذا كان العذر باقياً ، ولا يجب عليه الإعادة مطلقاً بعد رفع العذر .

الخامس : يستفاد من قوله تعالى : **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾** ، أنّ إرداته عزّوجلّ تعلّقت باليُسر في أحكام الدين ، لا سيما في أحكام الطهارات

الثلاث ونبذ المشقّة فيها، ولعلّ ذكره في المقام عقيب الطهارات الثلاث، لشدّة ابتلاء المكلّفين بها، ولعلمه تعالى بما يلاقونه من المصاعب والمتاعب ووسوسة الشيطان لهم، خصوصاً للفاقدين من المعرفة لأحكام الدين.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾، أنّ أحكام الله تعالى الفرعيّة هي من نعمه عزّوجلّ التي أتمّها على عباده المؤمنين وأحكمها عليهم، ويجب عليهم شكرها بالتذكير ودوام الطاعة، لا سيما بعد أن أخذ الله تعالى عليهم الميثاق بالسمع والطاعة، فاجتمع داعي العقل وداعي الشرع في الوفاء بعهود الله تعالى.

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ إشارة إلى ما ذكره عزّوجلّ في أوّل هذه السورة من الوفاء بالعهود، فيكون المقام قرينة أُخرى على أنّ المراد من العقود في قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ هو العهود.

السابع: يستفاد من إطلاق الآية الشريفة كفاية الغسلة الواحدة، ومسمّى المسح في الوضوء والتيمّم.

وذكر بعض المفسّرين أنّ إطلاق قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ يدلّ على وجوب غسل جملة البدن كلّه من دون استثناء، فيدخل فيه كلّ ما يمكن إيصال الماء إليه، إلّا ما خرج بالدليل ـ كبواطن العين والأُذن والأنف والفم ـ فإنّه عزّوجلّ لم يقيّد أن تكون الطهارة ببعضه.

والحقّ: أنّ الآية المباركة لا تدلّ على ذلك، بل إنّ إطلاقها يدلّ على كفاية مسمّى التطهير ولو لم يستوعب جميع البدن كلّه، وإنّ الاستيعاب قيد مشكوك وكلفة تنفى بالأصل. إلّا أنّ السنّة الشريفة البيانيّة منها وغيرها بيّنت الاستيعاب في الغسل، وذكرت خصوصيّاته بأتمّ وجه وأكمل بيان، فلا مجال حينئذ للأصل.

نعم، لو فرضنا الشك في تحقّق الاستيعاب، فمقتضى الأصل بقاء الجنابة،

إلّا إذا حصل الاستيعاب ، ويكفي مسمّاه .

الثامن : إطلاق قوله تعالى : ﴿**وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ**﴾ يشمل جميع أنواع الطهارة وأقسامها من طهارة الباطن والظاهر ، ففي الحديث عن الكاظم عليه السلام :

«من توضّأ للمغرب ، كان وضوؤه ذلك كفّارة لما مضى من ذنوبه في النهار ، ومَن توضّأ لصلاة الصبح ، كان ذلك كفّارة لما مضى من ذنوبه في ليله» .

وقريب منه غيره .

وذكر بعضهم أنّ الطهارة على سبعة أوجه : طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من النسيان ، وطهارة اليقين من الشكّ ، وطهارة العقل من الحمق ، وطهارة الظنّ من التهمة ، وطهارة الإيمان بما دونه ، وطهارة القلب من الإرادات . وإسباغ طهارة الظاهر يورث طهارة الباطن ، وإنّ إتمام الصلاة يورث الفهم واليقين والقرب لديه عزّوجلّ .

***

بحث روائي:

عن الشيخ بإسناده عن ابن بكير، قال : «قلت لأبي عبد الله عليه السلام : قوله تعالى : ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**﴾ ما يعني بذلك؟ قال : إذا قمتم من النوم . قلت : ينقض النوم الوضوء؟ فقال : نعم إذا كان يغلب على السمع ولا يسمع الصوت» .

أقول : يستفاد من هذه الصحيحة أُمور :

الأوّل : أنّ النوم ناقض للوضوء ورافع للطهارة ، ويدلّ على ذلك روايات كثيرة ذكرها المحدّثون في كتبهم واستقر عليه المذهب ، فما عن صاحب «المنار» في تفسيره من أنّ الشيعة ذهبوا إلى عدم نقض النوم للوضوء ، مجرّد افتراء ، وكم لهم من هذه الافتراءات على هذه الطائفة التي تلّقت أحكامها من عين صافية، مرتبطة أشدّ الارتباط بالمبدأ جلّ شأنه ، لا من الأُمور الوهميّة الظنّيّة .

وكيف كان غفر الله تعالى لنا وله.

الثاني: أنّ المدار على تحقّق النوم لا مقدّماته، ويعرف ذلك بعلامات أقواها الغلبة على السمع، لأنّ حاسة السمع من أدقّ الحواس، فإذا فقدت ذهبت البقيّة غالباً، وفي بعض الروايات: «فإن حرّك في جنبه شيء وهو لا يعلم، أي لا يسمع»، ولعلّ ما ورد في تلقين المحتضر أن يدنو الملقّن فمه إلى أُذنه أو يجعله على أُذنه، لأجل هذه الجهة، لضعف سمعه في تلك الحالة، أعاننا الله تعالى في تلك الشدّة.

إن قلت: إنّ الواقع خلاف ذلك، فقد يكون حسّ اللّمس أقوى، إذ النائم يحرّكه وخز الإبرة مثلاً أو وخز الهوام، مع أنّه لا يسمع صوت مَن بجنبه.

قلت: على فرض الكلّية في ذلك، لا ينافي ما تقدّم، لأنّ الصوت والوخز من الأُمور التشكيكيّة، قابلة للشدّة والضعف في الجسم السليم.

الثالث: أنّ النوم ناقض لمطلق الطهارة، سواء حصلت من الوضوء أو الغُسل، مثل غسل الجنابة أو التيمّم.

الرابع: لا فرق في النوم بين ما حصل مقدّماته بالاختيار أو بغير الاختيار، بواسطة دواء ـ كما إذا شرب أو بلع من الأدوية العصريّة المنوّمة ـ أو تعب، كلّ ذلك لإطلاق ما تقدّم.

الخامس: أنّ المدار في عدم السماع النوع والغالب، فلو كان شخص فاقد السمع لصمم أو غيره، يرجع فيه إلى العلامات الأُخرى المقرّرة في الشرع، كالغلبة على البصر، أو عدم الإحساس مثلاً، فإن حصل له الاطمئنان بالنوم بطلت طهارته، وإلّا فيرجع إلى الحالة السابقة.

وفي «الدّر المنثور» للسيوطي بإسناده عن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: «انّ ذلك إذا قمتم من المضاجع، يعني النوم».

أقول: القيام إذا تعدّى بـ(إلى) يفيد العزم والإرادة كما مرّ، وإذا تعدّى بـ(من) يفيد الانتهاء، والجامع فيه العزم، سواء أكان بالشروع في الشيء والابتداء فيه، أم الفراغ والانتهاء منه.

وعن الشيخ، عن المفيد، بإسناده عن غالب بن الهذيل، قال:

«سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ على الخفض أم على النصب؟ قال: بل هي على الخفض».

أقول: تقدّم أنّ الخفض هو الموافق للقواعد الأدبيّة.

وفي «سنن البيهقي» بإسناده عن رفاعة بن رافع: «انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: للمسيء صلاته: إنّها لا تتمّ صلاة أحدكم حتّى يسبغ الوضوء كما أمره الله، يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ويمسح رأسه ورجليه إلى الكعبين».

أقول: الرواية ظاهرة بل ناصّة في مسح الرأس والرجلين كما تقدّم في التفسير، وإنّ قوله صلى الله عليه وآله: «و يديه إلى المرفقين» قيد للمغسول لا للغسل، أي أنّ اليد إلى المرفق تغسل، لا كلّها.

وعن البيهقي في «السنن» بإسناده عن جابر بن عبد الله، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا توضّأ أدار الماء على مرفقيه».

أقول: الرواية تدلّ على ما ذكرنا، وإنّها مطابقة للمرتكز العرفي.

وفي «الكافي» بإسناده عن الهيثم بن عروة التميمي، قال:

«سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾ فقلت: هكذا؟ ومسحت من ظهر كفّي إلى المرافق، فقال: ليس هكذا تنزيلها، إنّما هي: (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم من المرافق)، فقام ثمّ أمرّ يده من مرفقه إلى أصابعه».

أقول: فسّر الإمام عليه السلام الآية المباركة قولاً وفعلاً، والمراد من التنزيل

التفسير ونقل الآية الشريفة بالمعنى.

وعن ابن عبّاس: «الوضوء غسلتان ومسحتان».

أقول: ورد مثله عن أئمّتناعليهم السلام، وهو يدلّ على مسح الرأس، كما يدّل على مسح الرجلين.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة، قال: «قلت له: أخبرني عن حدّ الوجه الذي ينبغي له أن يتوضّأ، الذي قال الله عزّوجلّ، فقال: الوجه الذي أمر الله بغسله الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه، إن زاد عليه لم يؤجر، وإن نقص منه أثمّ؛ ما دارت عليه السبابة والوسطى والإبهام من قصاص الرأس إلى الذقن، وما جرت عليه الإصبعان من الوجه مستديراً فهو من الوجه، وما سوى ذلك فليس من الوجه. قلت: الصدغ من الوجه؟ قال: لا».

أقول: ما ورد في الرواية من باب التحديد الشرعي، والإتيان لأجل المقدّمة العلميّة، والاحتياط لا بأس به في الزيادة، وأمّا النقيصة فيأثم لعدم إتيان المأمور به، والصدغ بضمّ الأوّل ما بين العين والأُذن.

وفي «الفقيه» بإسناده عن زرارة عن أبي جعفرعليه السلام: «أخبرني عن حدّ الوجه، أرأيت ما أحاط به الشعر؟ فقال: كلّ ما أحاط به الشعر فليس على العباد أن يطلبوه ولا يبحثوا عنه، ولكن يجري عليه الماء».

أقول: طلب ما تحت الشعر بإجراء الماء عليه نحو حرج، والآية الشريفة والرواية تنفيانه.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة وبكير: «أنّهما سألا أبا جعفر عليه السلام عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله، فدعا بطست أو تور فيه ماء فغمس يده اليمنى فغرف بها غرفة فصبّها على وجهه فغسل بها وجهه، ثمّ غمس كفّه اليسرى فغرف بها غرفة فافرغ على ذراعه اليمنى فغسل بها ذراعه من المرفق إلى الكفّ لا يردها إلى

المرافق ، ثمّ غمس كفّه اليمنى ففرغ بها على ذراعه اليسرى من المرفق وصنع ما صنع باليمنى ، ثمّ مسح رأسه وقدميه ببلل كفّه ، لا يحدث لهما ماء جديداً ، قال : ولا يدخل أصابعه تحت الشراك ، ثمّ قال : إنّ الله عزّوجلّ يقول : **﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾** ، فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلّا غسله ، وأمر أن يغسل اليدين إلى المرفقين ، فليس له أن يدع من يديه إلى المرفقين شيئاً إلّا غسله ، لأنّ الله يقول : **﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾** ، ثمّ قال : **﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾** ، فإذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأه ، فقلنا : أين الكعبان؟ قال : هنا ، يعني المفصل دون عظم الساق ، فقلنا : هذا ما هو؟ فقال : هذا من عظم الساق والكعب أسفل من ذلك ، فقلنا : أصلحك الله والغرفة الواحدة تجزي للوجه ، وغرفة للذراع؟ قال : نعم إذا بالغت فيها واثنتان يأتيان على ذلك كلّه» .

أقول : التور إناء صغير يجعل فيه الماء ، وهذه الصحيحة من أُمّهات الروايات البيانيّة التي تبيّن وضوء رسول الله ﷺ وتشرحه شرحاً وافياً غير قابل للشك فيه ، وقد تمسّك الفقهاء بها في باب الوضوء لنفي الشرط أو الجزء المشكوكين ، وقد جمع فيها الإمام عليه السلام الفرض والسنّة، وتعيين السنّة لا تكون إلّا بروايات أُخرى .

ويستفاد من هذه الصحيحة وأمثالها أنّ الوضوء ـ الذي هو شرط لصحّة طبيعة الصلاة التي هي عمود الدين ـ في غاية اليسر ، لعموم الابتلاء به ، ولم يكن فيه أي تعقيد وتضييق ، ولعلّه لأجل ذلك ختمت الآية المباركة بنفي الضيق والحرج .

وفي «الكافي» بإسناده عن حريز ، عن زرارة، قال : «قلت لأبي جعفر عليه السلام :

ألا تخبرني من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك ثمّ قال: يازرارة، قال رسول الله ﷺ، ونـزل بـه الكـتاب عـن الله تـعالى، لأنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿**فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾، فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يغسل، ثـمّ قال: ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾، فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه، فعرفنا أنّـه ينبغي لهما أن يغسلا إلى المرفقين، ثـمّ فـصل بـين الكـلام فـقال: ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ**﴾، فعرفنا حين قال: برؤسكم، أنّ المسح ببعض الرأس، لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس ـ كما وصل بالوجه ـ فقال: ﴿**وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾، فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنّ المسح على بعضهما، ثمّ فسّره ذلك رسول الله ﷺ للناس فضيّعوه، ثمّ قال: ﴿**فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ**﴾، فلمّا وضع الوضوء إن لم تجدوا ماءً، أثبت بعض الغسل مسحاً، لأنّه قال: ﴿**بِوُجُوهِكُمْ**﴾، ثمّ وصل بها ﴿**وَأَيْدِيكُمْ**﴾، ثمّ قال: ﴿**مِنْهُ**﴾، أي من ذلك التيمّم، لأنّه علم أنّ ذلك أجمع لم يجر على الوجه، لأنّه يعلق من ذلك الصعيد ببعض الكفّ ولا يعلق ببعضها، ثمّ قال: ﴿**مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ**﴾ والحرج الضيق».

أقول: سؤال زرارة ـ مع جلالة قدره، وأنّه من أجلّاء الأصحاب، وأكابر الرواة، وبه وبأمثاله حفظ الله الحقّ، ولولاهم لاندرست معالم الدِّين، وأُطفئت أنوار اليقين ـ لا موضوع له بعد فعل رسول الله ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام، ولعلّ ضحكه عليه السلام تلويح إلى ذلك. وكيف كان فالإمام عليه السلام استدلّ بالكتاب لجميع أجزاء الوضوء والتيمّم استدلالاً وافياً غير قابل للشكّ.

وفي «الكافي» بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن الصادق عليه السلام، قال: «الأُذنان ليسا من الوجه ولا من الرأس، قال: وذكر المسح، فقال: امسح على مقدّم رأسك وامسح على القدمين وابدأه بالشّق الأيمن».

أقول: الأُذنان من الرأس في الإحرام، وأمّا في الوضوء فليستا من الرأس، بل هو منبت الشعر فقط وهو مع الأُذنين رأس الصائم، وفي الغسل مع الرقبة، كلّ ذلك لأجل دليل خاصّ، وإلّا فمقتضى اللغة لا تكونان منه، وكذلك أنّهما ليستا من الوجه فلا يجب غسلهما ولا مسحهما، وذيل الرواية يدلّ على الترتيب مقدّماً الرجل اليمنى على اليسرى.

وفي «تفسير العيّاشي» عن زرارة بن أعين وأبي حنيفة، عن أبي بكر ابن حزم، قال: «توضّأ رجل فمسح على خفّيه فدخل المسجد، فصلّى، فجاء علي عليه السلام فوطئ على رقبته، فقال: ويلك تصلّي علىٰ غير وضوء؟ فقال: أمرني عمر بن الخطاب، فأخذ بيده فانتهى به إليه، فقال: اُنظر ما يروي هذا عليك؟ ورفع صوته فقال: نعم أنا أمرته أنّ رسول الله مسح، قال: قبل المائدة أو بعدها؟ قال: لا أدري، قال: فلِمَ تفتي وأنت لا تدري؟ سبق الكتاب الخفّين».

أقول: يعتبر في المسح المماسة، ولا يجوز المسح على الحائل، خفّاً كان أو غيره، والظاهر من هذه الرواية أنّ المسح على الخفّين شاع في عصر الخليفة الثاني، وبعد نزول آية الوضوء على رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه لم يمسح على الخفّين أصلاً، بل وقبله أيضاً، وذلك متّفق عليه، ولأجل ذلك كان المسح على الخفّين في زمن عمر محلّ خلاف شديد بين المسلمين، والشاهد على ذلك ما رواه «الكافي» بإسناده الصحيح عن زرارة، قال:

«قلت لأبي جعفر عليه السلام: في المسح على الخفّين تقيّة؟ فقال عليه السلام: ثلاث لا أتّقي فيهنّ أحداً: شرب المسكر، والمسح على الخفّين، ومتعة الحجّ».

فيستفاد منها أنّ استنكار المسح على الخفّين ممّا ذهب إليه أغلب المسلمين في زمن الخليفة الثاني كاستنكار شرب المسكر، فلا مجال للتقيّة فيهما، كما لا مجال لها في متعة الحجّ.

ومن هنا لو استلزم المسح على الخفّين في مورد قتل نفس محترمة أو أهانتها أو غيرهما، تجري التقيّة بلا شكّ، لقاعدة تقديم الأهمّ على المهمّ.

وما قيل: إنّه ورد عن طرق العامّة أن جمعاً كـ(براء وبلال، وجرير، وغيرهم) رأوا رسول الله ﷺ يمسح على الخفّين.

مردود، أمّا **أوّلاً**: فإنّه تنافيه الروايات البيانيّة التي صدرت عن المعصومين عليهم السلام كما تقدّم بعضها، بل وغيرها كما ذكرها السيوطي في «الدرّ المنثور» غيره.

وثانياً: محمول على مورد خاصّ وفرد نادر لأجل مصالح خاصّة مسح على الخفّين، فانتهى أمد الحكم برفعها.

وكيف كان، فإنّه بعد نزول الآية المباركة لا يبقى مجالاً للمسح على الخفّين، لأنّها تثبت المسح إلى الكعبين، والخفّ ليس من القدم بالوجدان، فاستنكار علي عليه السلام في محلّه.

وفي «تفسير العيّاشي» بإسناده عن الحسن بن زيد، عن جعفر بن محمّد عليهما السلام: «أنّ عليّاً عليه السلام خالف القوم في المسح على الخفّين على عهد عمر بن الخطاب، قالوا: رأينا النبيّ ﷺ يمسح على الخفّين. فقال عليّ عليه السلام: قبل نزول المائدة أو بعدها؟ فقالوا: لا ندري، قال: ولكن أدري أنّ النبيّ ﷺ ترك المسح على الخفّين حين نزلت المائدة، ولأنّ أمسح على ظهر حمار أحبّ إليّ من أن أمسح على الخفّين، وتلا هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ـ إلى قوله تعالىٰ ـ **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾».

أقول: الرواية تدلّ على ما تقدّم، والتنزيل إنّما هو في عدم الأثر.

وفيه أيضاً عن محمّد بن أحمد الخراساني، قال: «أتي أمير المؤمنين عليه السلام رجل فسأله عن المسح على الخفّين، فأطرق في الأرض ملياً ثمّ رجع رأسه

فقال: إنّ الله تبارك وتعالى أمر عباده بالطهارة وقسّمها على الجوارح، فجعل للوجه منه نصيباً، وجعل للرأس منه نصيباً، وجعل للرجلين منه نصيباً، وجعل لليدين منه نصيباً، فإن كانتا خفّاك من هذه الأجزاء فامسح عليهما».

أقول: استدلاله عليه السلام بالآية المباركة لنفي المسح على الخفّين كان استدلالاً وافياً غير قابل للخدشة، ومنه يظهر عدم جواز المسح على العمامة أو الخمار والحذاء.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قلت: يمسح الرأس؟ قال: إنّ الله يقول: **﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾**، فما مسحت من رأسك فهو كذا. ولو قال: (امسحوا رؤوسكم) فكان عليك المسح كلّه».

أقول: تقدّم ما يدلّ على ذلك، فإنّ التبعيض ظاهر من الآية الشريفة.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن التيمّم فقال: إنّ عمّار بن ياسر أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: أجنبت وليس معي ماء؟ فقال: كيف صنعت يا عمّار؟ فقال: نزعت ثيابي ثمّ تمعكت على الصعيد، فقال صلى الله عليه وآله: هكذا يصنع الحمار، إنّما قال الله: **﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾**، ثمّ وضع يديه جميعاً على الصعيد ثمّ مسحهما ثمّ مسح من بين عينيه إلى أسفل حاجبيه ثمّ دلك إحدى يديه بالأُخرى على ظهر الكفّ، بدأ باليمين».

أقول: هذه الرواية من الروايات البيانيّة، لأنّه صلى الله عليه وآله بيّن كيفيّة التيمّم.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾** والحرج الضيق».

أقول: الآية المباركة والسنّة الشريفة هما من أدلّة «قاعدة نفي الحرج»، التي يأتي البحث عنها.

وفي «الأسماء والصفات» للبيهقي بإسناده عن معاذ بن جبل، قال:

«مرّ رسول‌الله ﷺ على رجل وهو يقول: اللهم إنّي أسألك الصبر، فقال رسول الله ﷺ: سألت البلاء فاسأله المعافاة. ومرّ على رجل وهو يقول: اللّهمَّ إنّي أسألك تمام النعمة، فقال ﷺ: يابن آدم هل تدري ما تمام النِّعمة؟ قال: يا رسول الله دعوت بها رجاء الخير. قال ﷺ: تمام النعمة دخول الجنّة والفوز من النار. ومرّ على رجل وهو يقول: ياذا الجلال والإكرام. قال ﷺ: قد أُستجيب لك فسل».

أقول: عن بعض مشائخي في العرفان: أنّ ذكر «يا ذا الجلال والإكرام» له آثار كثيرة، منها كشف المهمّات، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إذا اشتدّ عليكم البلاء فلوذوا بياذا الجلال والإكرام»، وقد ورد هذا الذكر المبارك في كثير من الدعوات المأثورة عن أئمّتنا المعصومين عليهم السلام.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» قال: «لمّا أخذ رسول الله ﷺ الميثاق عليهم بالولاية قالوا: سمعنا وأطعنا، نقضوا ميثاقه».

أقول: الرواية من باب ذكر أجلى المصاديق وأكملها، ويناسب ذلك الربط بين الآيات المباركة.

وعن الطبرسي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام:

«إنّ المراد بالميثاق ما بينّ لهم في حجّة الوداع من تحريم المحرّمات، وكيفيّة الطهارة، وفرض الولاية».

أقول: الميثاق هو العهد المؤكّد، وأنّه تابع لمتعلّقه.

وفي «الكافي» باسناده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، قال: هو الجماع، ولكنّ الله ستير يحبّ الستر فلم يسم كما تسمّون».

أقول: من أدبه سبحانه وتعالى أن يكنّي عن مطلق ما يستقبح ذكره، لأنّه

تعالى حيي ويحبّ الحياء.

وفي «الدّر المنثور» عن ابن عبّاس: «انّه كان يطوف بالبيت بعدما ذهب بصره وسمع قوماً يذكرون المجامعة، والملامسة، والرفث ولا يدرون معناه واحد أم شتّى؟ فقال: الله أنزل القرآن بلغة كلّ حي من أحياء العرب، فما كان منه لا يستحي الناس من ذكره فقد عناه، وما كان منه يستحي الناس فقد كنّاه، والعرب يعرفون معناه لأنّ المجامعة، والملامسة، والرفث، ووضع أصبعيه في أذنيه ثمّ قال: ألا هو النيك».

أقول: لعلّ وضع حبر الأُمّة إصبعيه في أُذنيه مع أنـّه يعلم شرف المكان وقداسته، وما عرض عليه من الانقطاع إليه جلّ شأنه بذهاب بصره كما هو الغالب، لأجل إعلامهم وتفهيمهم معاني الكلمات بتصريحٍ يصحّ ذكره، والله العالم.

***

بحث فقهي:

يستفاد من الآية الشريفة، الأحكام والقواعد التالية:

الأوّل: شرطيّة الطهارة للصلاة، وبطلانها بلا طهارة. وهذا الشرط واقعيّ لها لا علميّ بالأدلّة الثلاثة:

فمن الكتاب: الآية المباركة كما عرفت، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾**[1].

---

١. سورة النساء: الآية ٤٣.

ويمكن تأسيس قاعدة كليّة، وهي: «أنّ كلّ شرط ورد في الكتاب الكريم واقعيّ، إلّا إذا دلّ دليل معتبر على أنّه علميّ»، كالطهارة والاستقبال في الصلاة، والرضاء في التجارات، وشرائط الإرث مطلقاً وغيرها، وما خرج بالدليل كالتسميّة في الذبيحة، وسيأتي الاستدلال على هذه القاعدة والاستثناء عنها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

ومن السنّة: روايات كثيرة بلغت التواتر، ففي الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام: «لا صلاة إلّا بطهور»، وعن علي عليه السلام في المعتبرة: «افتتاح الصلاة الوضوء»، وفي الصحيح أيضاً عن الصادق عليه السلام: «الصلاة ثلاثة أثلاث، ثلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود»، وغيرها من الروايات التي يستفاد منها أنّ الطهارة شرط واقعي للصلاة، فإذا انتفت انتفى المشروط.

ومن الإجماع: ما هو ضروري بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، بل وأرائهم المتشتّتة.

وممّا ذكرنا يمكن استفادة قاعدة كليّة، وهي: «كلّ صلاة لا تصحّ إلّا مع الطهارة»، عدا صلاة الميّت وفاقد الطهورين.

ولا فرق في الطهارة المبيحة للصلاة بين مناشئها كالوضوء والتيمّم ـ إن حصل مسوّغاته ـ وغُسل الجنابة لا مطلق الغسل المندوب وغيره، على ما ذهب إليه المشهور من فقهائنا (رضوان الله عليهم أجمعين) وهو المؤيّد المنصور.

الثاني: يستفاد من الآية المباركة اعتبار النيّة في الوضوء، والصلاة، لقوله تعالى: **﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾**، وقوله تعالى: **﴿فَاغْسِلُوا﴾**، وقوله تعالى: **﴿فَاطَّهَّرُوا﴾**، وغيرها من الأفعال المتقوّمة بالقصد والإرادة، فلا تصحّ طهارة الساهي وصلاته، وكذا الغافل، بل كلّ صلاة فاقدة للنيّة، أو كلّ عبادة إذا لم يتحقّق فيها النيّة وقصد التقرّب إليه تعالى، محكومة بالفساد.

الثالث: كفاية وضوء واحد ـ أو طهارة واحدة ـ لصلوات متعدّدة أو كلّ ما يشترط فيه الطهارة وكذا غسل واحد وإن تعدّدت الأسباب ، كتعدّد الجماع وغيره ، لإطلاق الآية الشريفة وكثير من الروايات ، ونصوص خاصّة :

منها: قوله عليه‌السلام : «إذا اجتمع عليك من الله حقوق ، يكفيك غسل واحد» ، ويعبّر عن ذلك بقاعدة «التداخل» ، وهي وإن كانت خلاف الأصل ، ولكنّها في الطهارات متّفق عليها ، لما تقدّم ، والتعدّي عنها يحتاج إلى دليل .

ثمّ إنّ ظاهر الآية الشريفة تعميم الحكم لمطلق المكلّفين ـ المحدثين وغيرهم ـ أي كلّ من قام إلى الصلاة ، ولكن خصّ ذلك بالمحدثين ، لما تقدّم من الروايات . نعم ورد في بعض الروايات : «الوضوء على الوضوء نور على نور» ، الظاهر منه الاستحباب ، فإنّ في كلّ وضوء تقرّباً إليه تعالى ، ولا يجري ذلك في غيره من ذوات الأسباب ، كغسل الجنابة وغيرها ، فتأمّل ، والله العالم .

الرابع: مقتضى الأصل في الطهارات الغَسل بالماء مع الشرائط إلّا ما دلّ دليل على بدليّة التراب ، حدثاً كان أو خبثاً ، ومستند هذا الأصل الآية الشريفة ، والسنن المعصوميّة ، وسيأتي في قوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾** ما يتعلّق به .

الخامس: يستفاد من هذه الآية الكريمة وغيرها من آيات الأحكام قاعدة كليّة ، وهي : «إتيان المكلّف العمل العباديّ مباشرةً مع تمكّنه ، إلّا ما خرج بالدليل» ، ويدلّ عليها قوله تعالى : **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾** ، ومن السنّة الشريفة روايات مذكورة في الأبواب المتفرّقة .

ويمكن إقامة الدليل العقليّ عليها ، فإنّ التكليف ـ أو المسؤولية المتوجّهة إلى الشخص ـ لا يسقط إلّا بقيامه بالعمل بنفسه ، ولو أتى به غيره فمقتضى الأصل بقائه وعدم سقوطه ، والفطرة المستقيمة تدلّ على ذلك أيضاً . وأمّا الاستعانة في

مقدّمات العمل العباديّ كصبّ الماء في الغسل، فيجوز ـ حتّى ورد ذلك في غسل الميّت ـ ولكن في خصوص الوضوء تكره فيه، للنصّ المحمول عليها.

السادس: ظاهر الآية الشريفة يدلّ على إيصال الماء إلى جميع محال الوضوء أو الغُسل برفع الموانع عنها، لأنّ التعبير فيها بالغَسل دون الصبّ أو الجري، ولعّل ما ورد في السنّة من وجوب إيصال الماء إلى جميع محالّ الوضوء أو الغُسل، مأخوذ من الآية المباركة. نعم هناك موارد خاصّة لا يضرّ الحجب، لأدلّة خاصّة مذكورة في الفقه يعبّر عنها بالجبيرة.

كما أنّ المستفاد من إطلاق المسح في الآية المباركة بالرأس والرجل، المسح على بعضهما، لمكان الباء، وجواز النكس في مسح الرأس، بل إطلاقها يدلّ على جواز المسح بماء مستأنف ومطلق الرطوبة، كما في التيمّم، حيث لا حاجة فيه إلى العلوق، إلّا أنّ الروايات البيانيّة وغيرها قيّدت ذلك ببقيّة بلل الكفّ من الوضوء.

السابع: الآية المباركة تدلّ على وجوب الترتيب بالنيّة مقارناً لغسل الوجه ثمّ اليد اليمنى وبعده اليسرى ثمّ مسح الرأس، وينتهي الوضوء بمسح القدمين، لقوله صلى الله عليه وآله: «ابدأوا بما بدأ الله به».

كما يستفاد منها الموالاة، لأنّ الأمر ـ الوارد في أعمال الوضوء المذكورة فيها بقرينة قول الصادق عليه السلام في صحيحة الحلبي: «اتبع وضوءك بعضه بعضاً»، وللروايات البيانيّة والإجماع ـ للفور، وذكرنا معنى الموالاة في كتابنا (مهذب الأحكام) في باب الوضوء.

الثامن: إطلاق الآية الكريمة يقتضي كفاية مرّة واحدة في الوجه أو اليدين، وأنّ الغسلة الثانية مستحبّة، لأجل روايات خاصّة، وفي المسح يكفي مرّة، لظاهر الآية المباركة.

التاسع: ذكر سبحانه وتعالى في الآية المباركة أصحاب الأعذار في استعمال الماء ، فمنها : المرض ، وإطلاقه يشمل جميع أقسامه وأنواعه ، بلا فرق بين أن يحصل باستعمال الماء ، أو كان حاصلاً ويتأخّر البرأ منه باستعماله ، فالمدار كلّه المرض الذي يضرّه استعماله الماء ، إما بالوجدان أو بإخبار أهل الخبرة . نعم لو كان المرض لا يضرّه الماء ، كوجع الأُذن مثلاً ، أو الأمراض الباطنيّة التي ظهرت في هذه الأعصار ، كمرض ضغط الدم ، أو بعض أقسام الصداع ، فحينئذٍ يجب الوضوء بلا شكّ .

ومنها : السفر كما هو الغالب خصوصاً في البراري والصحاري ، ويدلّ على ذلك تنكير (سفر) .

ومنها : مطلق الحدث الأصغر ، سواء كان المحدث مسافراً أو مريضاً أو صحيحاً في بلده ولكن يعجزه تحصيل الماء .

ومنها : ما يوجب الغُسل بالجماع أو الاحتلام ، والآية الشريفة ذكرت الفرد الغالب أو الأكثر من محلّ الابتلاء بالكناية كما تقدّم .

فهذه أُصول الأعذار وما سواها يرجع إليها كما هو واضح .

العاشر : يستفاد من الآية المباركة الواردة في التيمّم الأحكام التالية :

الأوّل : عدم وجود الماء الأعمّ من عدم الوجدان ، أو عدم التمكّن من استعماله ، سواء لم يجد ما يكفيه للطهارة ، أو وجد ما يكفيه لبعض الأعضاء فقط ، فهو في حكم العدم ، لأنّ المراد من قوله تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ لتحصيل الطهارة المبيحة لما هو مشروط بها .

الثاني : القصد مقارناً لضرب اليدين على الأرض ، لقوله تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ .

الثالث : أن يكون التيمّم بمسمّى الأرض ـ سواء كان تراباً أم صخراً أو مدراً أم حصى ـ لإطلاق الصعيد الوارد في الآية الكريمة .

الرابع: أن يكون طاهراً وغير مغصوب، لإطلاق قوله تعالى: ﴿طَيِّباً﴾.

الخامس: أن يكون المسح بباطن الكفّ، لقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا﴾، فإنّ المتبادر من المسح لغةً وعرفاً إمرار باطن الكفّ على الممسوح، إلّا أن تكون قرينة على الخلاف أو مانع شرعيّ فيه.

السادس: مقتضى إطلاق الآية الشريفة كفاية وضع اليدين معاً على ما يصحّ به التيمّم، إلّا أنّ الوارد في السنّة المباركة (الضرب)، وهو الوضع المشتمل على الاعتماد، لا مجرّد الوضع، لصحيحتي الكاهلي وزرارة المذكورتين في الفقه.

ولا يشترط العلوق باليد، لإطلاق الآية الكريمة والروايات الواردة.

السابع: مسح الجبهة من قصاص الشعر إلى الحاجبين وإلى الطرف الأعلى المتصل بالجبهة، لأنّه القدر المتيقّن من التبعيض الوارد في الآية الشريفة، مضافاً إلى الروايات البيانيّة وغيرها.

الثامن: أن يكون المسح بباطن كلّ من كفّيه معاً، لظاهر الآية الشريفة وما ورد من الروايات. نعم لا يجب المسح بتمام كلّ من الكفّين، ويكفي المسح ببعضهما على نحو يستوعب الجبهة والجبينين.

كما يكفي الضربة الواحدة فيه، لظاهر الآية الشريفة، سواء كان بدلاً عن الوضوء أم الغسل، ولكن المسألة محلّ خلاف، ولا مبرّر لذكره هنا، ومَن شاء فليرجع إلى كتابنا (مهذب الأحكام).

التاسع: مسح ظاهر الكفّين، وحدّهما الزندان، لظاهر الآية الشريفة والروايات البيانيّة وغيرها.

العاشر: الترتيب ـ بأن يضرب على الأرض بعد النيّة، ثمّ يمسح الوجه، ثمّ ظاهر اليمنى باليسرى ثم ظاهر اليسرى باليمنى ـ والموالاة، لظاهر الآية الشريفة بإعانة الروايات التي سبقت للبيان، وذكرنا ما يتعلّق بمعنى الموالاة في الوضوء

والتيمّم في الفقه .

الحادي عشر : أنّ الضرب للتيمم واحد في جميع الأغسال ، لإطلاق الآية الكريمة والروايات الواردة في بيانه .

الثاني عشر : ظاهر الآية الشريفة أنّه يباح بالتيمم كلّ ما يباح بالطهارة المائيّة ، لمساوقته لما قبله ، فيجوز أن يصلّي بتيمّم واحد صلوات متعدّدة ، ولا يجب عليه الإعادة بعد المكنة من الماء ، ويتعقّب المقام فروع كثيرة ذكرناها في الفقه . كما أنّ كلّ ما يبطل الوضوء يبطل التيمّم أيضاً ، لما تقدّم .

الثالث عشر : يدلّ قوله تعالى : **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾** ، على قاعدة عامّة تجري في جميع أبواب الفقه ، وهي : «قاعدة نفي الحرج» ، وأنّها من اُمّهات القواعد الفقهيّة ، وتختصّ بالأحكام الفرعيّة الإلزاميّة ، كما هو شأن كلّ قاعدة فقهيّة ، ومقتضاها سقوط الحكم الحرجيّ إن لم يكن له بديل لا حرج فيه ، وإلّا ينتقل الحكم إليه .

والمراد من الحرج، عدم الطاقة والشدّة في امتثال الحكم، أو إتيان التكليف من ناحية المكلّف ، وأمّا لو كان التكليف في حدّ نفسه حرجيّاً بحسب الظاهر ـ كالجهاد ، والحجّ ، وأداء الحقوق الشرعيّة ، والصوم ـ فلا تشمله القاعدة أصلاً ، لأنّ التشريع كذلك ، ففي الواقع لا حرج ، فالأحكام تابعة للمصالح والمفاسد .

ثمّ إنّ الحرج المنفي فيها الحرج العرفيّ الشخصيّ ، كما في المرض والخوف وغيرهما ، لاختلاف النفوس والاستعدادات حسب الأفراد ، فإذا كان في امتثال الحكم حرج بحسب الأنظار العرفيّة والأمزجة الخاصّة ، يتبدّل الحكم أو يرتفع .

ومستند القاعدة الأدلّة الأربعة :

فمن الكتاب: قوله تعالى: **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾** وغيره كما يأتي.

ومن السنّة: روايات مختلفة مذكورة في أبواب متفرّقة، منها ما عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي عثرت فانقطع ظفري فجعلت على إصبعي مرارة، كيف أصنع بالوضوء؟ فقال عليه السلام: تعرف هذا وأشباهه في كتاب الله تعالى: ﴿**مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ**﴾».

ومن الإجماع: فهو ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين على اختلاف طوائفهم.

ومن العقل: حكمه بقبح التكليف في مورد الضيق والشدّة، وأنّ العسر على الإطلاق غير مرغوب فيه، ولعلّ ما ورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «بعثت بالشريعة السمحاء السهلاء» في مقام الامتنان إشارة إلى ذلك.

وممّا تقدّم ظهر أنّ استيعاب محال الوضوء بالتراب في التيمّم ليكون على نحو الطهارة المائيّة، حرج مرفوع لم يكلّف الله تعالى به العباد.

وهذه القاعدة لا تجري في حلّية المحرّمات، فمَن كان في حرج من عدم الاغتياب أو التهمة أو الكذب، لا تحلّ له، للإجماع، ولأنّ مفسدة الارتكاب أكثر بمراتب عن مصلحة الترخيص. وأنّها مقدّمة على جميع الأحكام والقواعد حتّى قاعدة: «لا ضرر».

وذكرنا في كتابنا (تهذيب الأُصول) الفرق بين الضرر المرفوع في الشرع والحرج، بأنّ الأوّل أعمّ من الثاني.

وقاعدة «لا حرج» كقاعدة «لا ضرر» ترخيصيّة امتنانيّة، لا أن تكون على نحو العزيمة، وتظهر الثمرة فيما لو ارتكب العمل مع الحرج بناء على الترخيص، يصحّ العمل دون العزيمة.

ودعوى: سقوط الأمر لأجل الحرج، فلا وجه لصحّة العلم العباديّ المتقوّم بقصد الأمر.

مدفوعة : بأن سقوط الأمر لا يستلزم سقوط الملاك ، ومقتضى الأصل بقاؤه إلّا أن يدلّ دليل على سقوطه أيضاً .

والفرق بين الحرج والضرر أنّ الأوّل أعمّ مورداً من الثاني ، لشموله للمشقّة التي لا تتحمّل عادة ، وإن لم يكن نقص في البين ، وقد ثبت في محلّه أنّ الأُمور إما دون الطاقة ، أو بقدرها ، أو فوقها ، والأول مورد في جملة من الأخبار ، والثاني مورد الحرج ، والثالث مورد الضرر .

ونفي الحرج كنفي الضرريحتاج إلى التقدير ، وفيه أقوال ذكرناها في علم الأُصول ، ومَن شاء فليرجع إلى كتابنا (تهذيب الأُصول) والله العالم .

***

بحث عرفاني:

الإنسان المتخلّق بأخلاق الله تعالى يكون مَظهراً من صفات لطف الحقّ ، ولذا يكون قبوله قبول الحقّ ، وردّه ردّ الحقّ ، ولعنه لعن الحقّ ، ويكون دعاؤه دعاء الحقّ وكذا صلاته ، فإذا صلّوا على أحد كان صلاتهم صلاة الحقّ ، قال تعالى مخاطباً لنبيّه ﷺ : ﴿**إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**﴾[3] .

وهذا الكمال لا يتحقّق في الإنسان المؤمن إلّا بالمعرفة الكاملة والإفاقة عن الغفلة ، وفي الآيات المباركة المتقدّمة تلميح إلى ما يصل به المؤمن بالرقي في تلك المراتب، حتّى يصل إلى مقام القرب لديه جلّت عظمته، فقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا**

١ . سورة التوبة : الآية ١٠٣ .

٢ . سورة الأنعام : الآية ١٦٢ .

٣ . سورة الأحزاب : الآية ٤٣ .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماناً حقيقيّاً، فيكون الخطاب مع الذين قالوا: «بلى» عندما تجلّى بقوله جلّ شأنه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ في يوم الميثاق، فعاينوا ثمّ: ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[1]، وهم الأولياء، أي أهل الصف الأوّل كما هو المصطلح عند العرفاء.

وأهل الصف الثاني آمنوا إذا شاهدوا، فمرتبتهم وإن كانت راقية، ولكنّها دون مرتبة الصف الأوّل، كما هو واضح وهم الخواص.

وأهل الصف الثالث آمنوا بعدما سمعوا الخطاب سماع فهم ورواية، وهم المرتبة النازلة عن المرتبتين، وهم المسلمون وعوام المؤمنين.

وأهل الصف الرابع آمنوا تقليداً لا تحقيقاً، لأنّهم ما عاينوا، ولا شاهدوا، ولا سمعوا، فكانوا بعيدين عن خطاب الحقّ فلم يسمعوه، وإنّما انتظروا ولم يؤمنوا حتّى سمعوا جواب أهل الصفوف، وكان سماعهم سماع قهر ونكاية، وهم المنافقون المذنبون.

وأهل الصف الخامس وهم اعترفوا ثمّ أنكروا، لقربهم إلى الشيطان وبُعدهم عن الرحمٰن، وهم الكافرون.

وأهل الصفوف آمنوا في ذلك العالم ـ بالعيان أو المشاهدة، أو السماع، أو التقليد ـ كذلك آمنوا في هذا العالم حسب ذلك الإيمان، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾[2].

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ من نوم الغفلة، وخرجتم من ظلمات الجهالة، وانتبهتم من رقدة الفرقة ومن عتاب الأحبّة، ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ التي بها تصفي النفوس من لوث الأشباح، وهي المعراج للرجوع إلى مقام القرب،

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

٢. سورة المائدة: الآية ٨٣.

وإنّها أرق وأصفى من المناجاة مع الربّ:

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرقّ من النسيم إذا سرى

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «انّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة يصلّون بصلاته»، فإذا تمّت التصفية، واستخفّت الروح ورفع الحجاب، فحينئذٍ ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، وقبل ذلك كلّه ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾، التي توجّهتم بها إلى الأغيار ودنوتم بها إلى الشيطان، بماء التوبة والاستغفار، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، فاغسلوا أيديكم عن الدنيا كلّها حتّى عن الصديق الموافق والرفيق المرافق، وفي الأثر: «إنّ المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين خوفاً منه». وتوجّهوا إلى بارئكم، وخالقكم، ورازقكم، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ ببذل نفوسكم وفنائها حتّى تشرق عليها شوارق الأنوار، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ اغسلوا أرجلكم عن تراب الأنانيّة، وطين الشهوة، إلى أن يحصل لكم شرف حضور القلب بكعب مقام الخلّة، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً﴾ بالالتفات والتوجّه إلى الحجب الماديّة، بالسير في الملذّات النفسانيّة، ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ النفوس عن المعاصي، والقلوب عن رؤية الأغيار، بذلّ العبوديّة لله تعالى ومخالفة الهوى، ففي الأثر:

«إنّ سلمان الفارسي سافر في زيارة بعض الأصحاب من العراق إلى الشام راجلاً وعليه كساء غليظ غير مضموم، فقيل له: أشهرت نفسك؟ فقال: الخير خير الآخرة، وإنّما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد، فإذا اعتقت لبست حُلّة لا تبلى حواشيها».

فلابدّ بطهارة الأرواح عن الاسترواح من غيره، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ بمرض حبّ الدنيا وطلب الجاه، والنيل إلى المقام ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ في متابعة الهوى والسير في زوايا الأوهام بالاستيناس مع الأغيار، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾

في قضاء حاجة مادّيّة وشهوة شيطانيّة، **﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾** بتحصيل لذّة من اللذّات بالبيع من الأشباح، أو شراء ما يوجب الاستيناس بغيره جلّ وعلا، **﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾** للطهارة عن الأدناس بالبُعد عن الحقائق، ولم يهدكم أحد إلى التوبة والاستغفار من ضعف نفوسكم، **﴿فَتَيَمَّمُوا﴾** بالتمعّك في تراب أقدام الأنبياء، فإنّه طهور للذنوب العظام، وسبيل للدخول في نِعَمْ الرحمٰن، فإنّ الجنّة تجرّ أهلها، قال ﷺ: «عجب ربّك من قوم يساقون إلى الجنّة بالسلاسل»، فلا تيئسوا من رحمته وفيوضاته، **﴿صَعِيداً طَيِّباً﴾** فإنّ إخلاصهم لله تبارك وتعالى يوجب خلاصكم، ونجواهم معه جلّ شأنه سبب لنجاتكم، وفي الأثر: «مَن صلّى خلف مغفور، غفر الله له»، فطهّروا نفوسكم بالاقتداء بهم، **﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾** من غبار نعالهم وشمّروا لخدمتهم، ففي الحديث قال ﷺ لبلال:

«ما صنعت يا بلال؟! سمعت دقّة نعليك قبل دخولي الجنّة، فقال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أنّي لم أتطهّر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلّا صلّيت بذلك الطهور».

فسيروا على نهجهم وتمسّكوا بهم، **﴿وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾** أي اعتصموا بقوّة لهم، لأنّهم حبل الله الأعظم، بهم ينوّر الله تعالى قلوب العباد، وبهم يخرجون الناس من الظلمات، وترفع الحجب المهلكات، **﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾**، لأنّه تعالى يحبّ خلقه فلا يريد لهم الذلّة بالضيق في الحجاب، **﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾** أي ينقيكم من الشرك بالرقي إلى المقام الرفيع، بالنيل إلى الإخلاص والفوز بالجزاء، قال تعالى: **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**، والوصول إلى ساحة القرب بالوصال: **﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾** بكسر أنوار الهواية والاستقرار في الجنّة العالية، **﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** بعد هدايتكم للنِّعم الإلهيّة والأنوار الربانيّة والهبات السماويّة، فاذكروا تلك النِعَم واشكروه

حتّى يزيدكم من فضله، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾، فلا تنسوا آلائه تعالى عليكم، وما منّ عليكم بختم النبوّة في أشرف الكائنات وفخر الموجودات، وبالولاية لسيّد الأوصياء الذي اصطفاه لحبّه واجتباه لحضرته، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ في ظهر آدم وعالم الميثاق، أو الميثاق الذي أخذه نبيّنا الأعظم ﷺ حين بايعه المسلمون، فعن أبي ذرّ (رضوان الله تعالى عليه) قال: «بايعني رسول الله ﷺ خمساً وأوثقني سبعاً وأشهد الله عليّ سبعاً أن لا أخاف في الله لومة لائم»، فهو (رضوان الله عليه) رفض الدُّنيا وهاجر إلى ربّه بعدما مدّ يد البيعة مع رسول الله ﷺ، ودافع عن الحقّ والولاية بوحده، حتّى عاش وحده زاهداً ومات وحده شهيداً، وهاجر إلى ربّه مظلوماً، فسلام الله تعالى عليه حين أسلم، وحين قام وقعد، وحين رجع إلى ربّه مطمئناً وفاز بما وعد الله تعالى له على لسان النبيّ الأمين ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، لأنّه أخرجكم من ظلمة العدم إلى نور الوجود، فسمعتم قول ربّكم حيث قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وأطعتم حيث قلتم «بلى» حسب اختلاف تأهلّكم، واتّقوا الله في نقض ميثاقه ونسيان نعمه، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، لأنّه يعلم الأسرار والخفايا وما يكنّ في الصدور، فأوفوا بعهوده ولا تنقضوها، واتّقوه في جذب الأخلاق المرضية، وابتغاء الوسيلة إليه بفناء الناسوتيّة في بقاء اللاهوتيّة، وتخلّص العبد من ظلمة الأوصاف الناشئة من الزلّات النفسانيّة، بالجهاد في سبيل الله تعالى لاضمحلال الأنانيّة.

اللّهمّ اجعلنا ممّن سبقت له العناية، وأفضتَ عليه توفيق العبادة، وتفضّلتَ عليه بالرقيّ إلى المقامات العالية، إنّك سميع مجيب.

***

الآية ٨ ـ ١٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٠ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٢ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمْ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝١٤﴾.

الخطاب للمؤمنين يذّكرهم عزّوجلّ بأهمّ قضيّة من القضايا التي تمسّ حياتهم الدنيويّة والأُخرويّة، والماديّة والمعنويّة، وهي من شؤون القضية

الرئيسة في جميع الأديان الإلهيّة، وهي قضية: «لا إله إلّا الله»، التي آمنوا وأعطوا السمع والطاعة بما تتضمّن من العهود والأحكام والتوجيهات والإرشادات والمعارف، التي تعدّهم إعداداً علمياً لنيل الكمالات والفوز بالسعادة، وهي التي تجعلهم خير أُمّة أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا ريب أنّ هذه المنزلة العظيمة تستدعي أن يكون المؤمن مستعدّاً استعداداً متكاملاً علميّاً وعمليّاً وخلقيّاً لذلك.

وهذه الآيات الشريفة تشتمل على جملة من التوجيهات والإرشادات التي تهدي المؤمنين وتهيؤهم للوصول إلى تلك المنزلة التي أرادها الله تعالى لهم، فأمرهم عزّوجلّ أوّلاً بالقيام بوظائف العبوديّة وأداء حقوق الربوبيّة بالايتمار بأوامره والانتهاء عن مناهيه، فإنّه أوّل المنازل، والاستقامة عليه، وأحكم ذلك بالأمر بابتغاء العدل في جميع الأمور ومراعاته في كلّ الأحوال، والشهادة بالقسط ليصلوا إلى تلك المنزلة العظيمة التي هي أقرب ما يمكن أن يصل به المؤمن إلى الكمال، وهي التقوى التي هي السبيل الأمثل في تصفية النفوس وتخليتها عن الرذائل، وتحليتها بالمكارم والفضائل، وأمر بالعدل، وأكّد عليه تأكيداً شديداً، لأنّه الميزان الأقوم في تقويم الأعمال، وتمييز صحيحها عن سقيمها.

ثمّ ذكر أحوال الأُمم السابقة التي آمنت ثمّ نكصت عن إيمانها، فنكثت المواثيق التي أخذها الله تعالى منهم، وأعطوا السمع والطاعة عليها، فكان عاقبتهم البُعد عن الكمال، والشقاء والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، فكانت أحوالهم خير معين لتزكية النفوس ووقايتها من الوقوع في مهاوي الرذيلة والبعد عن الكمال.

كما ذكّرهم بالنِّعم العظيمة التي تستدعي دوام الشكر عليها واستدامة

الطاعة والقيام بوظائف العبوديّة.

وقدّم عزّوجلّ في هذه الآيات المباركة التحلية بفضيلة القيام لله تعالى والشهادة بالعدل، والعمل به، والتحلّي بالتقوى على التخلية عن الرذائل. مع أنّ الأمر الثاني مقدّم على الأوّل كما هو معلوم، لأنّ ما ذكره عزّوجلّ في المقام هو العلّة التامّة للتخلية عن بعض الصفات الرذيلة التي تكون مانعة عن التحلّي بمكارم الأخلاق ونيل الكمالات.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ﴾.

القوام من صيغ المبالغة، والمراد به كثرة القيام له عزّوجلّ بالملازمة لأداء حقوقه، والوفاء بعهوده، والإخلاص في الأعمال ابتغاءً لمرضاته عزّوجلّ حتّى تصير عادةً لكم، وخُلقاً كريماً فيكم، فتكونوا مظهراً من مظاهر أسمائه المقدّسة، ولتكونوا دعاة إلى الله تعالى بأعمالكم وأقوالكم.

قوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

القسط هو العدل، وتقدّم الكلام في اشتقاقه في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾[1]، وسبق الكلام في معناه في آية ١٣٥ من سورة النساء.

والمعنى: كونوا شهداء بالعدل بابتغاء الحقيقة في الشهادة وأداء الواقع على ما هو عليه، بغير ميل ولا حيف اتّباعاً للهوى، والآية المباركة تشابه الآية الكريمة التي وردت في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[1]، فإنّهما تشتركان في جملة من الأُمور:

منها: الأمر بالقيام بالوظائف العبودية، والوفاء بعهود الله تعالى بتنفيذ أحكامه المقدّسة، والشهادة بالقسط بإخلاص، ابتغاءً لوجه الله تعالى ورضائه، وطلباً لإقامة القسط والعدل، وبيان الواقع.

ومنها: النهي عن اتّباع الهوى بالانحراف عن القسط في الشهادة، إمّا ميلاً إلى أحد الأطراف، أو حيفاً وظلماً عليه لسابق عداوة وبغضاء بينهما.

ومنها: اتّحادهما في بيان أهمّية العدل وعظيم أثره في جميع العوالم وكلّ الشؤون في عالم الشهادة، فإنّ به تنظم حياة الإنسان الدنيويّة والأُخرويّة، ويصل كلّ فرد إلى جزاء عمله. وعليه تتوقّف استقامة الأُمور، وهو القاعدة الرصينة المحكمة التي تعتمد عليها جميع الفضائل وبه تتهذّب النفوس وتزول الرذائل، وقد عدّه بعض أعاظم فلاسفة اليونان أساس كلّ فضيلة، وميزان كلّ عمل وعقيدة، وبه يميز الصالح من الأعمال عن الطالح، فإذا انضم إليه القيام لله تعالى، كان العمل زاكياً خالصاً من كلّ ما يوجب الشين والفساد، وصار الفرد مخلصاً ودخل في زمرة عباد الله المخلصين الذين استثناهم الشيطان من غوايته، قال تعالى حاكياً عنه: **﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾**[2].

ولكنّهما تختلفان في الغرض الذي سيقت له الآيتان الشريفتان، فإنّ الغرض من آية النساء هو الردع عن الانحراف في الشهادة اتباعاً للهوى بالتحيّز لأحد الأطراف، سواء كان قريباً أم بعيداً، ابتغاءً للنفع، ولذلك أمر عزّوجلّ

---

١. سورة النساء: الآية ١٣٥.

٢. سورة الحجر: الآية ٤٠.

بالشهادة لله ابتغاءً لرضائه، فنهى عن اتّباع الهوى، فقال تعالى: **﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾**. وأمّا آية المائدة فإنّ الغرض منها هو الردع عن الانحراف عن العدل في الشهادة استجابة للنزعة العصبية، بالحيف على من له سابق عداوة معه، فيقيم الشهادة على غيرالقسط والعدل انتقاماً من المشهود عليه، ولذلك أمر عزّوجلّ بالشهادة بالقسط، التي هي من مظاهر القيام لله تعالى، ولذلك فرّعها عليه.

ويمكن أن يقال أيضاً: إنّ آية النساء بمضمونها الرفيع، كالمقتضي لآية المقام، حيث أمر جلّ شأنه بالقيام بالقسط والشهادة لله عزّوجلّ والنهي عن اتّباع الهوى، فإنّه المانع عن العدل الذي به تساس العباد وتقام أركان الحياة، ويساق الناس إلى يوم المعاد، وبه يصل العبد إلى منزلة القيام لله تعالى بتخليص نفسه من الرذائل والآثام، وطاعة الله والعمل بشرائعه وتكاليفه، وهذه المنزلة لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلّا بطي مراحل:

منها: الخروج عن التكاليف الربانيّة والمواثيق الإلهيّة بسلام وأمان.

ومنها: إقامة الشهادة لله تعالى والقيام بالقسط في جميع الأُمور حبّاً له عزّوجلّ، لا يستفزّه حبّ مال أو جاه أو شخصٍ، قريباً كان أم بعيداً، فتكون آية النساء كالمقتضي لآية المائدة والمعدّ لها.

وتجمع الآيتين رابطة محكمة قويمة وهي التقوى، لأنّها أساس الكمالات وروح كلّ عبادة وعمل صالح، ولذا أكّد عليها عزّوجلّ، وحذّر على تركها بقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**.

قوله تعالى: **﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾**.

ردعٌ عن الظلم في الشهادة، وتحذيرٌ من عدم العدل فيها، وتقدّم الكلام في مادّة (جرم) في آية ٢ من هذه السورة، والشنآن شدّة البغض والعداوة.

أي: ولا يحملنّكم شدّة بغضكم لقومكم وعداوتكم لهم، على أن لا تعدلوا

في أمرهم، بأن لا تشهدوا لهم في حقوقهم بالعدل، فلا تظلموا أحداً حتّى لو كان عدوّاً لكم.

قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

تأكيد على مراعاة العدل في جميع الأُمور، وفي خصوص الشهادة على المشهود له وإن أبغضه، بأن لا تكون عداوته أو كفره مانعاً عن العدل عليه، والضمير (هو) يرجع إلى العدل الذي تضمّنه الفعل.

ويستفاده من الآية الشريفة أنّ العدل من الأسباب القريبة للتقوى، التي هي نهاية الطاعة وأسمى الكمالات وأساس المكارم ومنها تنبثق سائر الفضائل، لأنّ العدل طاعة تناسب طاعة التقوى، ولهذا تحقّق القرب بينهما.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

فإنّ التقوى هي الغاية من إرسال الرُّسل وإنزال الكتب وتشريع الأحكام، وفيه التأكيد الشديد على التقوى، والتنبيه على أنّها الغرض من تشريع تلك التوجيهات الربوبيّة والأحكام التربويّة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

تحذير عن المخالفة والإعراض عن الطاعة، فإنّ الله تعالى عالم بالخفايا وما خطرت على قلوبكم فكيف بأعمالكم، فيجازيكم حسب أعمالكم ويحاسبكم بما استقرّت في نفوسكم من النوايا السيّئة.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

تأكيد لما سبق، وبيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فذكر أوّلاً جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وهي التي تصلح أمر العباد في معاشهم

ومعادهم ممّا شرعه الله تعالى من الأحكام والإرشادات، ومنها ما تقدّم في الآية السابقة من العدل والتقوى اللّذين هما أساس كلّ تكليف وروح العمل الصالح، كما عرفت آنفاً.

وإنّما قدّم جزاء المؤمنين اهتماماً بشأنهم وتعظيماً لأجرهم، كما أنّه تعالى ذكر الإيمان والعمل كليهما، لبيان أنّ أحدهما غير كافٍ للفوز بالمغفرة الإلهيّة ونيل الجزاء العظيم، كما دلّت عليه آيات عديدة في مواضع متفرّقة، بل لم يذكر عزّوجلّ في القرآن الكريم الإيمان إلّا مقروناً بالعمل الصالح، للدلالة على ذلك.

وعن بعض المفسّرين: أنّ المراد من الإيمان هنا هو الحاصل بالبيعة مع رسول الله ﷺ، وبالعمل الصالح البيعة مع علي عليه السلام، وهذا تفسير بالمصداق الكامل، لأنّ العمل الصالح أعمّ ممّا ذكر، وأنّ المراد من الإيمان بالله العظيم، وإن استلزم ذلك الإيمان بنبيّنا الأعظم ﷺ وسائر الأنبياء والأوصياء.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بيان لما وعد به عزّوجلّ لهم، وهي جملة مستأنفة تدلّ على أهمّية الموعود والتأكيد عليه. وهذا الأسلوب أبلغ من تعلّق الوعد بالموعود، كما في قوله تعالى: **﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾**[1]؛ لأنّه يدلّ على مزيد عناية، بتقريره وإنشاء الوعد صريحاً من غير دلالة عليه ضمناً، بخلاف آية الفتح.

والمغفرة: الستر، أي أنّ إيمانهم وعملهم الصالح يوجبان غفران الله تعالى لهم بستر ذنوبهم ومحو آثارها من نفوسهم. وأما الأجر العظيم، فهو الجزاء المضاعف الذي لا حدّ لعظمته، لأنّ المفاض منه كذلك.

---

١. سورة الفتح: الآية ٢٩.

قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾**.

بيان لفردٍ آخر ممّن يعلمه الله تعالى، ومن سنّته عزّوجلّ في القرآن الكريم أن يقرن الوعد بالوعيد، ويذكر الطائفتين المؤمنة والكافرة، إتماماً للحجّة وإيضاحاً للمحجّة ووفاءً بحقّ الدعوة، ولأنّ الجمع بين الترغيب والترهيب من الأساليب البديعة في الكلام.

والجحيم: اسم من أسماء النار ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ وهو مأخوذ من الجحمة، وهي شدّة تأجّج النار، كما أنّه اسم لدرك من دركات النار.

وإنّما جمع عزّوجلّ بين الكفر وتكذيب الآيات، إمّا لبيان أنّ الكفر كان عن عنادٍ واستكبار، ولأجل الإعلام بأنّ كفرهم بلغ إلى حدّ إنكار الحقّ مع العلم بكونه حقّاً، فيخرج مَن لم يبلغ كفره كذلك كما في كفر المستضعفين. أو الإيماء إلى أنّ كفرهم بلغ حدّ النكوص عن طاعة الله تعالى بالإعراض عن أنبيائه وتشريعاته.

وكيف كان، فقد ذكر عزّوجلّ الحدّ بين الطاعة والإعراض، ولكلّ منهما مراحل متعدّدة ومنازل كثيرة، وعلى اختلافها تختلف درجات الثواب والعقاب.

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾**.

تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم من النصر والعزّة والغلبة على الأعداء والمشركين، وحفظهم من مكائدهم وشرورهم، والآية المباركة تشمل جميع ألطافه عزّوجلّ على المؤمنين التي خصّهم بها في جميع الغزوات والوقائع التي دارت بين المسلمين والكفّار، الذين كان همّهم الوحيد محو أثر الإسلام والقضاء على دين الحقّ، ممّن كان في عصر النزول ومن هم بعده إلى يوم القيامة.

منها: تثبيت الهمم وترسيخ العقيدة والإيمان، والتأسّي بالسلف الصالح في تحمّلهم المشاقّ وحثّهم على تحمّل الجهد.

ومنها: الحثّ على الصبر على البلاء والمحن في سبيل الله تعالى.

ومنها: ترغيبهم إلى الشكر، فإنّه السبب في إدامة النعمة وزيادتها، قال تعالى: **﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾**[1]، وغير ذلك من المصالح.

قوله تعالى: **﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾**.

الهمّ هو القصد، والبسط هو المدّ، ويختلف باختلاف متعلّقه، فإذا استعمل في اليد كان المراد به هو البطش بها بالقتل والإهلاك، وفي اللّسان هو الشتم والسباب. وفي تقديم الجار والمجرور على المقول الصريح، لبيان أنّ ضرر البسط راجع إليهم، وحملاً للمؤمنين على الاعتداد بنعمة دفعه. والجملة بيان لبعض أفراد النعمة التي أنعم تعالى بها على المؤمنين.

قوله تعالى: **﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾**.

الفاء للتعقيب المفيد لتمام النِّعمة وكمالها وتحقّقها بعد الهمّ بلا فصل، وإظهار الأيدي «أيديهم» لزيادة التقرير.

والمعنى: أنّه منع أيديهم أن تصل إليكم، وعَصَمكم منها بعد أن أرادوا بسطها عليكم، وفي ذلك مزيد العناية واللّطف، وكمال النعمة كما لا يخفى، حيث لم يجعلها أن تمتد إليكم بالأذى.

قوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾**.

تأكيد على مراعاة التقوى في عموم الأحوال، لا سيما في ما ذكره عزّ وجلّ آنفاً بأداء حقوق تلك النعمة ورعايتها، ويستفاد من الأمر بالتقوى التحذير الشديد عن تركها، لأنّ لها الأهمّية العظمى في الشريعة وتهذيب النفوس وتكميلها.

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ٧.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أمر بالتوكّل على الله تعالى خاصّة دون غيره من الأسباب، استقلالاً ومشاركة معه عزّوجلّ. وإنّما قدّم التقوى للإعلام بأنّ التوكّل على الله تعالى كذلك لا يمكن أن يحصل إلّا بعد معرفته عزّوجلّ، وإتيان جميع السبل الموصلة إليه تعالى، وترك ما لا يرضيه، فمَن أعرض عن الطاعة وتنكّب عن سنّة الله تعالى وخالف شريعته، لا يسمّى متوكّلاً عليه عزّوجلّ، وتقدّم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] بحث في التوكّل يتضمّن جوانب عديدة فيه فراجع، والآيتان متشابهتان في النسق والتعبير.

وإطلاق الآية المباركة هنا يشمل جميع الأُمور التشريعيّة والتكوينيّة، بأن يوكلوا أمر الدين عليه عزّوجلّ، ويكفّوا عن إبداء الرأي فيه، فإنّ عليهم الطاعة في ما أنزله تعالى من التشريعات من دون تصرّف فيها، وعليه الكلائة لهم في جميع أُمورهم، فإنّه القادر وحده على صرف ما يريده الأعداء من السوء.

والآية المباركة تحذّر المؤمنين من ترك التقوى وترك التوكّل عليه عزّوجلّ، لما له من الأثر السيء، ويظهر ذلك بوضوح فإنّه عزّوجلّ ذكر ذلك بعد سرد أحوال أهل الكتاب، لا سيما اليهود منهم خاصّة الذين أخذ منهم الميثاق وأعطوا السمع والطاعة ثمّ نقضوه وأعرضوا عن الطاعة، فابتلاهم الله تعالى بأنواع البلاء والمحن ولعنهم لعناً وبيلاً، كما حكى عزّوجلّ أحوالهم في ما تقدّم، فكان ذلك داعياً للمؤمنين بالتمسّك بحبل الله وإعطاء السمع والطاعة ومتابعة الرسول، حتّى لا يقعوا في ما وقع فيه أهل الكتاب، فكان المقام يقتضي تحذيرهم عن مخالفة التقوى وترك التوكّل على الله عزّوجلّ، وإن كان ظاهر الكلام بصورة الأمر فإنّه أدعى للتحذير، وللاعتبار بأحوال الماضين.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

كلام مستأنف لمزيد التقرير على ذكر النعمة وشكرها ومراعاة حقّ الميثاق.

وتحذير المؤمنين من نقضه، وتذكير لهم بما حلّ على بني إسرائيل من صنوف البلاء والمحن والعذاب جرّاء نقضهم المواثيق الإلهيّة، فتكون أحوالهم داعية للاعتبار بها، كما عرفت آنفاً.

وإنّما ذكر عزّوجلّ أُسلوب القسم وأظهر الاسم الجليل، لإفادة التأكيد وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب في نقضه.

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾.

تذكير آخر للمؤمنين بما جرى على بني إسرائيل من أحكام دينهم وتثبيت أمرهم. والجملة تدلّ على كمال الاهتمام والتشويق لما في الالتفات في الكلام وتقديم المفعول.

ومادّة (نقب) تدلّ على الأثر الحاصل في الشيء والذي له عمق، ومنه النقب في الحائط أو الجلد، أي الثقب فبهما، ومنه النقب في الجبل، أي الطريق فيه، يقال: سلك الرجل المناقب، أي سار في طرق الجبال، كما يقال: فلان حسن النقبة، أي جميل الخلقة، ومنه النقيب بمعنى مطلق التفتيش، قال تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾[1]، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّي لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس»، أي أُفتّش وأكشف عنها.

والنقاب: مصدر يطلق على العالم بالأشياء الكثيرة الباحث عن الأُمور.

النقيب: الشريف والسيِّد الباحث عن أحوال القوم، باعتبار كونه أميناً

---

١. سورة ق: الآية ٣٦.

وكفيلاً عليهم ويفتش عنهم ويعرف مناقبهم.

وتدلّ الآية الشريفة على أنّ النقباء في بني إسرائيل كانوا من عند الله تعالى، بعثهم عليهم لمراعاة أحوالهم وكفالة أُمورهم وإقامة شعائر دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

إيذان بالمراقبة والحفظ والمعونة والنصر، وذلك مشروط بالطاعة وحفظ المواثيق، كما تدلّ عليه الآية التالية. وهذا القول منه عزّوجلّ لموسى عليه السلام مخاطباً به بني إسرائيل، وكان الأنبياء يبلّغونهم ذلك ويذكّرونهم بحفظ المواثيق ويحذّرونهم من نقضها ويوعدونهم عليها، كما فعله موسى عليه السلام لقومه.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ﴾.

بيان للشرط وهو مركّب من الإيمان والعمل الصالح، وإنّما قدّم عزّوجلّ الأخير، لأنّهم كانوا مؤمنين بالله ورسوله، ومعترفين بنبوّة موسى عليه السلام، ولبيان أهمّية العمل الصالح، مع علمه تعالى بأنّهم يعرضون عن الطاعة، ولذا أكّده سبحانه وتعالى حيث أتى بأسلوب القَسَم، وجمع بين فردين من أفراد الطاعة، أحدهما تطهّر النفوس وتزكّيها وهي الصلاة والإقامة عليها باتيانها تامّة جامعة للشرائط، والثانية تطهّر الأموال وتزكّيها، وإن كانت تطهّر النفوس من رذيلة البخل والشحّ أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

بيان للفرد الآخر من الشرط المزبور، وهو الإيمان بجميع الرُّسل السابقين منهم واللاحقين والتصديق بهم. ومادّة (عزر) تدلّ على المنع والذبّ، ومنه العزر كالأرز، وهما القوّة، فإنّ في التقوية منعاً لمن قويته عن غيره، كما أنّ منه التعزير في الشرع، وهو ما كان دون الحدّ لأنّه ردع ومنع عن ارتكاب القبائح والفحشاء،

فالتعزير تارةً يكون بالردّ عن المرء ما يسوؤه ويضرّه، وأُخرى ما يكون بردّه عمّا يضرّه، فالأوّل هو تعزير الرُّسل والأنبياء، والثاني هو تعزير مرتكبي القبائح. والمراد به في المقام هو النصرة مع التعظيم، أي ونصرتموهم، فإنّها نصرة دين الله تعالى وتقدّس.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾.

أي: وأنفقتم في سبيل الله تعالى بالمعروف من دون أن يتبعه منّاً ولا أذى، وهو عامّ يشمل الإنفاق بالمال وغيره، وقد تقدّم ما يتعلّق بذلك في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[١].

والجملة في غاية الفصاحة والبلاغة، فهو استعارة عن وعده الجميل وجزائه العظيم بذكر القرض الذي يقضى بمثله، وإنّما ذكره عزّوجلّ في المقام وأخذ عليه الميثاق لأهمّيته في ترويض النفوس، وشدّ الأزر والتعاون بين أفراد المجتمع وسدّ الحاجة، ولأنّهم عرفوا بالشحّ والبخل فأراد سبحانه وتعالى تطهيرهم منهما، فإنّ الشحّ رذيلة مهلكة.

قوله تعالى: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

التكفير هو الستر والتغطية، وتقدّم ما يتعلّق باشتقاق هذه المادّة، والجملة جواب للقسم، أي إن وفيتم بالعهد والميثاق، بالعمل بتلك الحسنات الخمس، لأسترن عليكم سيّئاتكم بمحوها ورفع آثارها من نفوسكم فتطهر بتلك الحسنات، فإنّها تذهب السيّئات كما اقتضت سنّته عزّوجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

ترتّب هذا على سابقه من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة، فإنّ العلّة في الدخول في جنّات تكون في غاية البهاء والنضرة والجمال، إنّما يكون بتطهير النفوس من الذنوب وستر العيوب، ضرورة تقدّم التخلية على التحلية، فلا يدخلها إلّا من هو طاهر النفس.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾.

بعد بيان الوعد الجميل، وما يوجب نيل الجزاء العظيم، ذكر تعالى حكم من كفر بما هو داخل في حيّز الشرط المزبور المستلزم للكفر بالله تعالى أيضاً، تقوية للترغيب والترهيب، فتكون الفاء للترتيب، والمراد بقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾، أي بعد أخذ العهد والميثاق على العمل بما شرطه ووعده عزّوجلّ، وجيء به لبيان أنّ الكفر منهم إنّما يكون عن عناد ولجاج، وبعد تماميّة الحجّة عليهم.

ولعلّ تغيير الخطاب في الموردين حيث لم يقل: (وإن كفرتم)، لإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب، أو لإسقاط احتمال كفر الجميع عن حيّز الاحتمال.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أي: مَن كفر كفراً واضحاً لا شبهة فيه ولا عذر معه، خرج به عن السبيل السويّ الذي يوصل سالكه إلى الكمال المنشود، والسعادة التي تصلح بهما دينهم ودنياهم وآخرتهم، ويجعله أهلاً لمورد الإفاضة وحبّه عزّوجلّ وجواره في تلك الجنّات الخالدات، ومن خرج عن سواء السبيل يدخل في إحدى السبل الباطلة الموبقة التي تفسد الفطرة، وينتهي سالكها إلى سوء العاقبة، ويدنس النفس، ويورد صاحبها إلى الجحيم، بخلاف الكفر قبل ذلك، فإنّه قد يكون معه شبهة وعذر، فيأتي الامتحان والاختبار لكشف الحقيقة وإظهار الواقع.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾.

تفصيل بعد إجمال، فإنّه تعالى بعد ذكره جزاء الكفر بالميثاق الذي أخذ منهم وهو الضلال، ففي هذه الآية الشريفة يبيّن تفصيلاً لما يوجب الضلال، كتحريف الكلم عن مواضعه، أو نسيان الحظّ الذي اوتوه، ونقض المواثيق، وأنواع النِقم. كاللعن وقساوة القلوب وغيرهما.

والباء في قوله تعالى: «فبما» للسببيّة، و«ما» للتأكيد، أي بسبب نقضهم لميثاقهم، وكفرهم بالله جلّت عظمته، وإعراضهم عن الطاعة، حلّت البلايا والرذائل عليهم.

والآية المباركة تدلّ على أنّ النقض هو السبب الوحيد في ما حلّ بهم من أنواع البلاء، وما استحقّوه من الجزاء لا غيره، لا استقلالاً ولا انضماماً.

والمراد من الميثاق هو ما ذكره عزّوجلّ في ما سبق من الآيات، وهو الإيمان بالله تعالى ورسله، ونصرتهم، وتنفيذ أحكامه المقدّسة، وقد ذكر عزّوجلّ أنواعاً من الآثار المترتبة على الضلال، بعضها يتعلّق بالدنيا، والأخرى بالجزاء الأُخروي، وثالثة بالنفوس.

قوله تعالى: ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾.

اللّعن هو الطرد عن الرحمة الإلهيّة، التي هي السبب الوحيد في السعادة والتوفيق للاستكمال والوصول إلى مقام القرب، والدخول في النِّعم الأبديّة، واللّعن إنّما يتعلّق بمَن انهمك في العصيان، ونقض المواثيق على الدوام، وأفسد فطرته بارتكاب الآثام وهتك حرامات الله تعالى، وقسى قلبه بالتعدّي على حدود الرحمٰن، فلم تنفعه آيات الله تعالى ومواعظه، ولذلك اتّخذها هزواً ولعباً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

أي: صلبة غليظة لا تنفعل عن الآيات والنُذُر، ولا تخضع للحقّ، كما لا

تخشع لآيات السماء، ولا تتأثّر برحمته عزّوجلّ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١]، وهي مأخوذة من قسوة الحجارة، أي صلابتها، بحيث لا يؤثّر فيها الماء ولا ينبت عليها الزرع والنبات.

وإنّما جعل قلوبهم كذلك، لأنّهم انهمكوا في الطغيان بسبب نقضهم الميثاق وما يترتّب عليه من الكفر والمعاصي وارتكاب الآثام، فأثّرت تلك في نفوسهم فأبعدتهم عن الرحمة الإلهيّة وفضله العظيم، وأقست قلوبهم حتّى لا تؤثّر فيها حجّة ولا موعظة، ولا تكاد تركن إلى الحقّ، وهذا معنى جعله عزّوجلّ قلوبهم قاسية، فإنّه حصل بفعلهم، ومن سنّته عزّوجلّ تأثير الأعمال والسجايا والأخلاق في القلوب والنفوس، إلّا من أدركته الرحمة الإلهية، ولعلّه لذلك قدّم سبحانه وتعالى اللّعن على القسوة، فإنّ الأوّل هو المقتضي للثاني.

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

بيان لبعض آثار قسوة القلب، فإنّها توجب انتهاك حرمات الله تعالى وعدم تعظيم شعائره، فلا مرتبة أعظم من الاجتراء على كلام الله تعالى بتحريفها بما لا يرضاه عزّوجلّ والافتراء عليه، وقد عرفوا بالتحريف، ولعلّه لذلك أتت الجملة على صيغة المضارع، لاستحضار تلك الصورة، ولبيان استمرارهم عليه.

وعموم التحريف يشمل الحذف والتبديل والزيادة والتغيير والتقديم والتأخير، وتحريف الألفاظ والمعاني بحمل اللفظ على غير ما أُريد منه، وقد حصل كلّ ذلك منهم في كلام الله تعالى، كما حكي عنهم في غير موضع من القرآن

---

١. سورة الحديد: الآية ١٦.

الكريم، وأثبتته كتب التواريخ، فراجع كتب شيخنا البلاغي ﵀، فإنّه قد كفانا مؤونة النقل، جزاه الله تعالى خير جزاء العاملين.

قوله تعالى: **﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾**.

أي: بسبب تحريفهم لكلام الله تعالى أن فاتتهم حقائق واقعيّة، ومعارف ربوبيّة، وتوجيهات وإرشادات إلهيّة، من الدين التي لم تكن إلّا حظّاً سعيداً لهم، فأفسدوا سعادتهم بسبب هذا النسيان والضياع، فلا يكون عقابها إلّا الشقاء والحرمان.

وقد حكى تبارك وتعالى في القرآن الكريم جملة ممّا تركوه، كقولهم بالتشبيه، وتحريمهم للطيّبات، والإعراض عن الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ وعصيانه، وغير ذلك، ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾**[1]. وهذا من جملة الملاحم القرآنيّة التي تنبّه المؤمنين إلى لزوم الطاعة واتّباع كتاب الله تعالى، وعدم الوقوع في ما وقع فيه أهل الكتاب، وإلّا أصابهم بمثل ما أصابهم.

قوله تعالى: **﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾**.

الخائنة: بمعنى الخيانة، كالكاذبة، واللاغية، والقائلة، فتكون مصدراً على وزن فاعلة، وقد يعبّر بصيغة الفاعل بالمصدر وبالعكس أيضاً.

وقيل: إنّها وصف لمحذوف إما مذكر والهاء للمبالغة، كما في رواية لكثير الرواية. وإمّا مؤنّث بتقدير موصوف مؤنّث كالفرقة، والطائفة ونحوهما.

والخطاب للرسول ﷺ، أي أنّ الخيانة عادة مستمرّة فيهم، فلا تزال تطلع

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢٣.

على الخيانة منهم، أو على طائفة خائنة منهم، فلا تكن في مأمن من مكرهم وخيانتهم، فإنّهم قوم لا أمان لهم مع ما هم عليه من نقض المواثيق وقساوة القلب واللّعن والتحريف.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

تقدّم الكلام في مثل هذا الاستثناء، وهو لا ينافي ثبوت اللّعن والعذاب للمجموع من حيث هو مجموع، ولا يختصّ بمن سبق إيمانه. بل يشمل كلّ من تشمله العناية الإلهية، فيدخل في الإيمان ويصير كواحد من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾.

بعد إعلامه ﷺ بأنّ في أهل الكتاب ـ لا سيما اليهود منهم ـ على خائنة يتربّصون بدين الحقّ وبرسوله والمؤمنين الدوائر، ويضمرون السوء والعدوان، وتحذّره ﷺ منهم.

وفي هذه الآية المباركة يرشده إلى عدم المبادرة إلى العقوبة والتريّث في التوبيخ والمؤاخذة، ويأمره بالعفو عنهم والستر على مظالمهم، والصفح عن مسيئهم، لعلّهم يرجعون إلى دين الحقّ ويهتدون بهدي الإسلام، يقتدوا بالرسول الكريم ﷺ، فينبذون العداء ويتركون البغضاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

تعليل للأمر السابق، وإرشاد إلى أنّ العفو من باب الإحسان، ويتضمّن الوعد الجميل بمعاملتهم بالإحسان الذي يحبّه الله تعالى، والرسول أحقّ الناس أن يتبع ما يحبّه الله تعالى.

والآية الشريفة من الآيات التربويّة الإصلاحيّة التي تهذّب النفوس، وتروّضها على العفو والإحسان، وتظهر أهمّية مضمونها أنّها ذكرت في آخر

الآيات التي تبيّن حقيقة تلك النفوس المريضة التي اعتادت على جميع سبل الشرّ، والقلوب القاسية التي ما برحت على هتك حرمات الله تعالى.

ومن ذلك يعرف أنّه لا وجه للقول بنسخها، أو أنّ المراد بها الذين تابوا أو دخلوا في الإسلام، فإنّه لا دليل عليها، مع أنّ التوبة والإسلام يجبّان ما قبلهما، فلا مؤاخذة حينئذٍ حتّى يأمره بالعفو والصّفح، هذا مع أنّ عموم الآية المباركة وإطلاقها يدلّان على ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾.

بيان حال النصارى بعد بيان نبذة من أحوال اليهود وقبائحهم لمزيد العبرة، والنصارى اسم لأتباع عيسى بن مريم عليهما السلام، ولعلّ ذكره عزّوجلّ له في المقام لمزيد التشنيع والتوبيخ، فإنّ من يدّعي نصرة الله تعالى ويتسمّى بهذا الاسم، لابدّ وأن يعمل بموجبه ويلتزم بما يتعهّد ولا ينقض المواثيق، فهم في الواقع ليسوا بنصارى وإن قالوا إنّا نصارى.

وإنّما أخذ عزّوجلّ منهم الميثاق لنصرة دين الله تعالى بشريعته، والإيمان بالرسول الذي يأتي من بعد عيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

أي: أنّهم بسبب انهماكهم في نقض الميثاق، والإقبال على الدُّنيا وملاذها، نسوا النصيب الوافر من العلم والمعرفة التي ترشدهم إلى سعادتهم، ممّا ذكّرهم به عيسى بن مريم عليه السلام الذي كان نبي الرحمة والعطف، والتآلف، والصلح، والوئام، فقد بدّلوا كلّ ذلك إلى أضدادها، كما حكي عزّوجلّ عنهم، وساروا في السبل التي تبعّدهم عن الأخلاق السامية، والفضائل الرفيعة، والأوصاف النبيلة وغيرها ممّا كانت هدف الأنبياء عليهم السلام وبنية المجتمع الراقي، ومحور الإنسانيّة،

ولذلك فشت الصفات الرذيلة بينهم كما ذكره جلّ شأنه .

قوله تعالى : ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ .

مادّة (غرى) تدلّ على اللّصوق ، ومنه الغراء ، وهو ما يلصق به ويتّخذ من أطراف الجلود والسمك ، وهو بالمدّ أو القصر ، وأغريت فلانا بكذا إذا ألهجته فلصق به ، وغريت بالرجل غرى أو غراء (بالمد) إذا لصقت به ، والفاء للسببيّة .

والمعنى : كان نسيانهم الحظّ العظيم الذي ذكّرهم به نبيّهم ، سبباً لوقوعهم في معادات في الأفعال ومباغضة في القلوب ، لصقت بهم حتّى صارت من سجاياهم وصفاتهم المرتكزة في نفوسهم ، فاختلفوا من حين رفع المسيح ﷺ إلى أهواء متشعّبة وفرق متعدّدة ، تبغض كلّ فرقة أُختها وتلعنها ، فبدّلوا نعمة الله نقمة ووبالاً عليهم، والهدى ضلالاً .

قوله تعالى : ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

أي : عندما يحاسبهم الله تعالى في يوم القيامة، سوف ينبّئهم الله تعالى بحقيقة حالهم، وما هم عليه من الضلال ، ويجازيهم على كلّ ما صنعوه في الدنيا بالعقاب والعذاب .

وكلمة «سوف» لتأكيد الوعد ، والتعبير عن العمل بالصنع للإعلام برسوخهم فيه ، كما أنّ التعبير بالإنباء لبيان أنّهم لا يعلمون حقيقة حالهم ، فيكون في ذلك الوقت كشف الحقيقة لا إخبار عنها . والكلام مسوقٌ للتوعيد والتهديد .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله تعالى: **﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾**، لبيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم، كما أنّ تقديم المفعول الصريح على الجار والمجرور في قوله تعالى: **﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾**، وإن كان هو على الأصل، إلّا أنّه لزيادة التأكيد، وإظهار الأيدي عليكم بعصمتكم منهم، ومنع أيديهم أن تصل إليكم.

وقوله تعالى: **﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**، في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حيث اشتمل على الحكم وعلّته وبعض الخصوصات، فتضمّن جملة من الأُمور التي أوجبت كونها في غاية الفصاحة.

منها: أن يكون التوكّل على الله جلّت عظمته خاصّة دون غيره مطلقاً، وذلك بتقديم الجار والمجرور الدال على الحصر.

ومنها: اشتمال الآية الشريفة على ما يدعو إلى الامتثال، والبعد عن الإخلال، كما يقتضيه إيثار صيغة الأمر الغائب وإسنادها للمؤمنين.

ومنها: أنّها تدلّ على وجوب التوكّل على المخاطبين بطريق برهانيّ، كما هو مقتضى سياقها.

ومنها: أنّها تشمل على علّة الحكم، وذلك بتقديم الجار والمجرور وإظهار الأمر الجليل.

ومنها: أنّها وإن كانت جملة تذييليّة، إلّا أنّها تضمّنت من الأُمور ما يدلّ على استقلالها.

واللّام في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾، موطّئة للقسم المحذوف.

و(قرضاً) في قوله تعالى: ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾، يحتمل المصدر ومفعول مطلق.

وقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾:

قيل: إنّه دال على جواب الشرط المحذوف، وسادٌ مسدّه معنى.

وقيل: إنّه جوابه.

وقيل: إنّه جوابٌ للقسم لما تقرّر في محلّه أنّه إذا اجتمع شرط وقسم، أجيب السابق منهما إلّا أن يتقدمه ذو خبر.

والكلّ صحيح لا يضرّ بالمعنى.

وقرأ بعضهم (قسيّة) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾، وهي إمّا مبالغة قاسية، لكونه على وزن فعيل، أو بمعنى ردية من قولهم (درهم قسي) إذا كان مغشوشاً. وقيل: إنّ قسي غير عربي بل معرّب، ولكنّه ليس بشيء.

ويشمل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، على الإطناب غير المخلّ بالفصاحة، إيماء إلى أنّهم على دين النصرانيّة بزعمهم، ولكنّهم على خلافها لعدم العمل بموجبها.

والضمير في «بينهم» في قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إما راجع إلى النصارى، أو إلى اليهود والنصارى، ولا ضير في ذلك، فإنّه تعالى قد أخبر في غير هذا الموضع أنّهم على خلافٍ وعداوةٍ بينهم.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على شدّة العناية بأهل الإيمان، وكمال العطف والرحمة بالمؤمنين، فقد ذكرّهم عزّوجلّ بالنعمة لإدامة الطاعة بالشكر، وبيّن عطفه عليهم أن صرف عنهم ما أراده الكفار من السوء لشخص الرسول الكريم،

الذي هو واسطة الفيض، وبه حيّيت قلوب المؤمنين، فكانت حياتهم متعلّقة بحياته.

وترشد الآية الشريفة إلى أهمّ أمر في هذا الدين المبين، وهو شدّة المخالطة بين الرسول ﷺ والمؤمنين، فكأنّهم مجموعون في شخص واحد وأعضاء جسد متّحد، وما أراده الأعداء من السوء لشخص الرسول الكريم، إنّما كان يرجع إلى المؤمنين أيضاً، وما صرفه عزّوجلّ من البلاء عنه ﷺ، إنّما صرفه عن المؤمنين، ولابدّ وأن تكون الحال كذلك، لأنّ الإيمان وحدة جامعة لجميع الكمالات، وبوتقة فيها تنصهر جميع الأغيار وما يوجب التفرقة والنفرة.

وفي الآية الشريفة درس عمليّ للمؤمنين، باتّخاذ الحذر من الأعداء، والرجوع إلى الإيمان وتعاليمه واجتماعهم فيه، فإنّه الحافظ لهم، ولا يحصل ذلك إلّا بالتقوى، التي هي أهمّ الكمالات وأساس كلّ خيرٍ وصلاح، والتوكّل على الله تعالى، فإنّه عزّوجلّ الكافي لعباده والناصر للمؤمنين المتوكّلين، يمدّهم بعونه ويفيض عليهم من رحمته وعطفه.

ومن عنايته جلّ شأنه بالمؤمنين، أن سرد جملة من أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ليكونوا على معرفة بأحوال الماضين عن صدق، ويتّخذوها دروساً وعبراً لهم، لا يحيدون عنها فيقعوا في ما وقع فيه تلك الأُمم ويصيبهم ما أصابهم، فبيّن أنّه أخذ الميثاق من بني إسرائيل، وأرسل عليهم النقباء ليرشدوهم إلى ما يصلحهم ويسعدهم، وعدّد المواثيق التي أخذها منهم في المقام، وهي جامعة لجميع الفضائل، وحاوية لكلّ الكمالات، بها تتطهّر النفوس، وتتزكّى القلوب، ويسعد الفرد والمجتمع، ويصلان إلى الكمال المنشود، وهي الصلاة التي هي قربان كلّ تقي، والزكاة المطهّرة للأموال والنفوس، والإيمان بجميع الرُّسل وسائط الفيض والأدلّاء على الله تعالى، الذي

هو الهدف الأسمى في حياة العباد بالرجوع إلى الله عزّوجلّ والاعتماد عليه، فلابدّ من دليل يرشد إليه، وليس هو إلّا الأنبياء، ولا يمكن الاستغناء عنهم في الحياة، سواء كانت ماديّة أم معنويّة، فكأنّ الإيمان بهم شرط في إحراز كلّ كمال، ولا يجوز التفرقة بينهم في الإيمان، فإنّ نصرتهم إنّما تكون بالإيمان بجميعهم، وتنفيذ تعاليمهم واحترامهم بما يليق بشأنهم، فإنّ احترامهم احترام لمَن أرسلهم ونصرتهم نصرته، فكان ذلك قرضاً حسناً منهم يقرضونه إلى الله تعالى فيوفيه بأحسن وجه.

وحذّر تعالى من الكفر وترك الطاعة، بعد ما أخذ عليهم المواثيق وأعطوا السمع والطاعة، فإنّ الكفر حينئذٍ إنّما يكون عن عناد ولجاج، وهو يستوجب العذاب الشديد، فليس له بعد ذلك سبيل يوصله إلى الحقّ ويهديه إلى الخير والسعادة.

وعدّد سبحانه وتعالى جملة ممّا حلّ بهم جراء نقضهم المواثيق، حيث خرجوا عن ربقة الإنسانيّة، وطردوا عن رحمة الله تعالى التي هي السبب في حياة الإنسان، بل هي الحياة لوحدها وغيرها من شؤونها ولوازمها، فتراهم قد قست قلوبهم وأحلّوا كلّ ما حرّمه الله تعالى، وهتكوا حرماته عزّوجلّ، واعتادت أنفسهم على الخيانة حيث خانوا عهد الله تعالى، فكان البغض والعداوة نتيجة حتمية لتلك الخيانة، فلم تبق لهم وليجة بعد قطع كلّ أواصر المودّة والرحمة، يتنافرون في الأعمال والأقوال لفقد الثقة بينهم.

وما عدّده عزّوجلّ في هذه الآيات المباركة، هي أُمّهات الرذائل التي تسلب كلّ سعادة، وتضلّ عن سواء السبيل الذي يرشدنا إلى الكمال، فيكفي في ذلك عبرة لمَن اعتبر.

ثمّ إنّه يستفاد من الآيات الشريفة الأُمور التالية:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾**، على أنّ ما بيّنه عزّوجلّ من الخصال الخمس، إنّما هو سواء السبيل الذي يورد سالكه إلى النعيم المقيم، وهو الصراط المستقيم الذي ينبغي طلب الهداية من الله تعالى إليه، ويجب العمل على مقتضاه.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا﴾**، على أنّ بعض المعاصي يوجب نسيان العلم والخروج عن حقيقته، وتدلّ عليه جملة من الآيات الشريفة والروايات، وفي ذلك قول الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنّ العلم نور ... ونور الله لا يهدي لعاصي

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾**، على أنّ التوكّل على الله تعالى منضمّاً إلى تقوى العبد التي هي عمله ومن كسبه، هو السبب في كمال العبد والوصول إلى المقامات العالية، وأنّه لا يمكن للمؤمن الاستغناء عن توفيقه عزّوجلّ في الهداية والعمل بالميثاق.

وإنّما قدّم عزّوجلّ «التقوىٰ»، لأنّها من عمل العبد، وبدونه لا يمكن أن يتحقّق التوكّل، فإنّ تركه والاعتماد على التوكّل لا يسمّى توكّلاً، بل هو من الأماني التي حذّرنا الله تعالى منها، وهي من سبل غواية الشيطان.

ومن هذه الآية المباركة نستفيد جملة من شروط التوكّل التي تقدّم الكلام فيه، منها العمل والاعتماد عليه وحده دون غيره من الأسباب، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، راجع بحث التوكلّ في ضمن الآية المباركة: **﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾**[1].

الرابع: يستفاد من الآيات الشريفة أنّ من أهمّ ثمرات العمل بالمواثيق هي

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

معيّة الله تعالى للعاملين، رعاية وحفظاً وتربيباً وهداية دنياً وآخرة، وهي من أعظم الأُمور في حياة المؤمن الماديّة والمعنويّة.

***

بحث روائي:

في «المجمع» للطبرسي عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾: «إنّ المراد بالميثاق ما بيّن لهم في حجّة الوداع، من تحريم المحرّمات وكيفيّة الطهارة وفرض الولاية».

أقول: الرواية من باب ذكر أجلى المصاديق وأكملها، لأنّ ما بيّنه صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع من إكمال الدِّين الذي يوجب السعادة والوصول إلى الكمال المنشود في الدينا والآخرة، وقد أخذ العهد المؤكّد منهم على ذلك.

والمراد من تحريم المحرّمات، التخلية عن الرذائل مطلقاً، كما أنّ المراد من الطهارة، الأعمّ من الظاهريّة والمعنويّة، وبها تتحقّق التحلية، والمراد من الولاية المفروضة على العباد، الطريق الصحيح الواقعي الذي يوصل سالكه إلى الحقيقة ارتباطاً كاملاً، وينحصر ذلك في نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، ثمّ خلفائه المعصومين عليهم السلام، لما أودع عندهم من معالم الدِّين وأسرار الشرع المبين، ولذلك كان أخذ الولاية لعليّ عليه السلام فرضاً عقليّاً لبقاء الدين وعلّة مبقية له، ولا ينافيه الامتنان كما تقدّم مكرّراً. وقريب من هذه الرواية غيرها.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في تفسير الآية المباركة قال: «لمّا أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله الميثاق عليهم بالولاية، قالوا: سمعنا وأطعنا، نقضوا ميثاقه».

أقول: المراد من الميثاق العهد المؤكّد، ونقضوا ذلك كما نقض غيرهم من الأُمم السالفة التي أغواهم الشيطان، فحلّت بهم البلايا والمحن.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، يعني: «أهل مكّة من قبل أن يفتحها، فكفّ أيديهم بالصلح يوم الحديبية».

أقول: الرواية من باب التطبيق وذكر بعض المصاديق.

وفي «الدلائل للبيهقي» بإسناده عن جابر بن عبد الله: «انّ النبيّ ﷺ نزل منزلاً فتفرّق الناس في العضاة يستظلّون تحتها، فعلّق ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسلّه ثمّ أقبل على النبيّ ﷺ، فقال: مَن يمنعك منّي؟ فقال ﷺ: الله. قال الأعرابي مرّتين أو ثلاثاً: مَن يمنعك منّي؟ والنبيّ يقول: الله، فشام الأعرابي السيف فدعا النبيّ ﷺ أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه».

أقول: قريب من هذه الرواية ما أخرجه الحاكم وصحّحه، والرواية كما قبلها من باب التطبيق. والعضاة الشجر الكبير الذي له شوك، وشام الأعرابي السيف، أي أغمده وخبّأه، والرواية تبيّن أثر الحقيقة، وأنّ الحقّ لا تحجبه السواتر مهما كانت، وأنّ الأعرابي تأثّر بالحقّ وجذبته الحقيقة.

وعن علي بن إبراهيم في قوله تعالى: **﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾** يعني: «نقض عهد أمير المؤمنين عليه السلام، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه».

أقول: الرواية من باب التطبيق، وقساوة القلب المستلزم للمعاصي المختلفة كثيرة، منها تحريف الكلم عن مواضعه، وهو من الآثار الوضعيّة لنقض الميثاق.

والمراد من التحريف، تغيير أحكام الله تعالى عن واقعها المعلوم وتبديلها، بما يوجب النفع الدنيويّ المزعوم.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» أيضاً في قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾**، قال: «مَن نحّى أمير المؤمنين عليه السلام عن موضعه،

والدليل على أنّ الكلمة أمير المؤمنين، قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾ يعني الإمامة».

أقول: الرواية من باب التطبيق أيضاً، والكلمة هي الشيء الثابت التي لها امتيازها الخاصّ، ولذلك فسّرت بالإمامة في الرواية. وعن ابن عبّاس تفسير الكلمة بحدود الله تعالى، وهو من باب التطبيق كما هو واضح.

وفي «الدّر المنثور» للسيوطي عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿**فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾، قال: «نسوا الكتاب».

أقول: وفي بعض الروايات: «نسوا الولاية»، ولا فرق بينهما؛ لأنّ أحدهما يستلزم الآخر ثبوتاً.

وعن علي بن إبراهيم في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ**﴾، قال: منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾.

أقول: المراد من النسخ التخصيص، فإنّ قوله تعالى: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾، عامّ، وقوله تعالى: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ**﴾، خاصّ، وكذا الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، وإطلاق النسخ على التخصيص شائع عند المفسّرين.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ**﴾، قال: «قال علي عليه السلام: إنّ عيسى بن مريم عبدٌ مخلوق، فجعلوه ربّاً، ﴿**فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾».

أقول: نسيان عهد الله تعالى ضياعه، وعدم المبالاة بتكاليفه، كما أنّ عهوده تعالى، لطائفه التي لا تقبل الأعمال إلّا بها.

ثمّ إنّه ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ**

﴿الْقِيَامَةِ﴾، روايات دالّة على أنّه تعالى أغرى بعضهم بعضاً بالخصومات والجدال في الدِّين واتّباع الأهواء المختلفة، وكلّ ذلك باختيارهم، ولذلك أنّهم تأثّروا بالبُعد عن الحقّ وإخفاء الحقيقة والتيه في الظلمات الماديّة، كما نشاهد في عالمنا المعاصر.

***

بحث عرفاني:

معيّة الله تعالى مع العباد، معيّة علم وقدرة، أي يسمع كلامهم ويرى أعمالهم ويعلم ضمائرهم، فيجازي العباد حسب علمه جلّ شأنه، سواء كان في عالم الشهادة أم في عالم الآخرة.

وأمّا المؤمنون الكُمّل من عباده، فلهم مزيّة على تلك المعيّة، وهي المظهريّة لأسمائه وصفاته جلّت عظمته، حسب تقرّبهم إلى ساحته عزّوجلّ، كما في كثير من الروايات، منها روايات النوافل، فإنّ المؤمن الواقعيّ مظهر من مظاهر أسمائه أو صفاته تعالى، لأنّ به ظهرت الصفات السامية والكمالات الخُلقيّة والمكارم النبيلة الرفيعة، وقد اجتمع فيه جوانب متعدّدة ومظاهر متنوّعة ـ سواء كانت لنفسه أو لغيره ـ كما قال ﷺ: «بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم يدفع الله البلاء»، فهو الجامع لأسمى الصفات ونُبل الكمالات، وهذا ممّا لا شك فيه، كما دلّت عليه البراهين العقليّة والنقليّة.

ولكن هذه المناقب أو المنازل بل الرتب السامية، لم تكن وليدة الطينة والطبيعة فقط، بل لابدّ لها من أسباب وشرائط تؤهّل العبد لنيل تلك المقامات والوصول إلى تلك المنازل والقمم، وهي كما قال جلّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾، وإنّما قدّم الصلاة على غيرها، لأهمّيتها، وأنّ صلاة العارفين

لا يوازيها شيء ـ وهي ليست كصلاة الغافلين ـ فإنّها الصلاة الدائمة بين الخالق والعبد، وأنّها الرابطة القويّة بين الباري جلّ شأنه والمؤمن، وبها تكشف الظلم، وتزول الأستار، وترفع الحُجُب.

وهي لا تختصّ بطائفة دون أُخرى، فتعمّ الطبقات كلّها، ولها درجات حسب معرفة العبد وإيمانه، لأنّها المعراج إلى الحقّ، فيستمر العروج ويدوم إلى أن تظهر الحقيقة في نشآتها، ويتجلّى الحقّ كما تجلّى يوم الميثاق.

ولها مراتب حسب أهلية العبد وانقطاعه إلى الله تعالى وبُعده عن المادّة والمادّيات، وتقدّم في أحد مباحثنا السابقة أنّ السير إلى الكمال والترقّي بالمنازل والرقيّ إلى المقام، لها مراتب وحظوظ وأنواع، ولكلّ منها أسباب وشرائط، والصلاة جامعة لها.

ولعلّ تركّبها من الطهور والركوع والسجود ـ كما ورد في بعض الروايات ـ إيماء إلى ذلك، فبالطهارة ترتفع الخاصيّة التي توجب الحجاب عن مشاهدة الحقّ، لأنّ بها تزال الأدناس الظاهريّة والمعنويّة، كما بالقيام نحوه تعالى تزال الصفات الماديّة المتعلّقة بالنفس، كالشهوات بأنواعها.

وبالركوع تزال الأنانيّة والتكبّر، وبه تسير النفس من أوّل خطوة إلى أرقاها، فيخضع لله عزّوجلّ ولمَن تجلّى فيه أسمائه وصفاته جلّت عظمته.

وبالسجود تزال الأطماع البشريّة الكائنة في النفس والمرغّبة إلى الأهوية النفسانيّة، وبه ترغم أنوف الشياطين وتبعّدهم، كما بالتشهد ترتفع العلاقة المتعلّقة بما سواه تعالى، فإذا تخلّص العبد من سبل الشيطان ورقى إلى تلك الدرجات مناجياً به جلّت عظمته وشاهداً له ـ كما قال عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «اعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» ـ حصلت المعيّة مع المظهريّة، وبانت القاعدة المشهورة لدى العرفاء الشامخين: «قرّة العين بالشهود على قدر المعرفة

بالمشهود».

وأمّا إيتاء الزكاة، فإنّه إيثار لوجهه عزّوجلّ، لجلب رضاه والتقرّب لساحته ببذل ما تعلّق به النفس، ولرفع حاجة المؤمن حتّى يسود العدل الاجتماعيّ الواقعي بين الأفراد.

مع أنّ كلّ ذلك لابدّ وأن يكون مستنداً إلى العقيدة الخالصة المتعلّقة بالمبدأ جلّ شأنه، وذلك لا يتحقّق إلّا بالإيمان بالرسل كلّهم وجميعهم، فمثل هذه العقيدة لها الدخل الكبير في إتيان العمل منزّهاً عن الشوائب والرذائل، فإنّ الإيمان الصحيح الجامع للشرئط والمانع عن الأغيار والنقائص، لا يكون إلّا كما قال تعالى: ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، والإيمان برسله تعالى يستلزم نصرتهم وتقويتهم بتطبيق شرائعهم وسنّتهم، حتّى تصفو النفس وتليق بالصلة مع الله الواحد الأحد، فحينئذٍ يقترض الله قرضاً حسناً منه، لأنّه تعالى شهد بعبوديّة مخلوقه، وأنّ المولى الرءوف الرحيم لا يأنف أن يقترض من عبده، بعدما تخلّى بتكفير سيِّئاته، وتحلّى بالمكارم في عالم الشهادة وفي عالم الآخرة، بالدخول في الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار بالارتواء منها، وهي نهر المعرفة، ونهر الوصال، ونهر الإشراق، أو نهر التحلّي، ونهر التقرّب، ونهر الأنوار وغيرها، كما سيأتي المراد منها ومن الجنّات.

وأمّا مَن زال عن تلك الدرجات وكفر بالرُّسل ولم يؤمن بالله العظيم، فقد هلك وضلّ وبَعُد عن الفطرة المستقيمة، ونقض الميثاق، ولم ينل تلك الدرجات المعدّة للمؤمن، وردّ إلى أسفل السافلين، فصار قلبه قاسياً لم تؤثّر فيه آيات السماء ولا عجائب الأرض، وإلى ذلك تشير الآية المباركة والله العالم.

***

الآية ١٥ ـ ١٩

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ
أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ
يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ
تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

تذكير لأهل الكتاب بالحجّة، بعد تقريعهم بنقض الميثاق الذي أُخذ منهم على نصرة رسله وتعزيزهم، والعمل بما أتوه من الكتاب والتشريعات الإلهيّة، فنسوا حظّاً ممّا ذكّروا به، كما عرفت في الآيات المباركة السابقة.

وفي هذه الآيات الشريفة تذكير لهم بالإيمان برسله، والكتاب الذي أنزله

عزّوجلّ عليه وتعريفهم بهما، ويقيم سبحانه وتعالى الحجّة عليهما، وينوّه بهما ويعظم شأنهما، ثمّ يوبّخ النصارى على مقالتهم الباطلة في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ويبطلها ببرهان قويم يقتنع به كلّ مَن ألقى السمع وهو شهيد، حيث أثبت لنفسه الملكية التامّة على خلقه بما فيهم المسيح عليه السلام، إيجاداً وتدبيراً وافناءً، وأطلق السلطة التامّة له عزّوجلّ على جميع مخلوقاته، فهو يخلق ما يشاء ويفني ما يشاء.

ثمّ يعنّف السياق مع اليهود والنصارى في مقالتهم: نحن أبناء الله تعالى وأحباؤه، ويردّها، ويوعدهم على ذنوبهم. وفي ختام الآيات الشريفة يرجع إلى ما ذكره تعالى في صدرها من تذكيرهم برسالة رسوله الكريم، ويقيم الحجّة عليهم ويفصّل الكلام معهم.

وتشترك الآيات السابقة مع اللّاحقة في غرض معين، وهو إثبات الإيمان المطلوب بالبرهان، وإبطال ما يخالفه.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾.

التفات إلى خطاب الفريقين ـ اليهود والنصارى ـ والكتاب اسم جنس يصدق على الواحد والكثير، فيشمل كتب اليهود والنصارى.

والتعبير عنهم بهذا العنوان لزيادة التشنيع، فإنّ أهلية الكتاب تقتضي مراعاته والعمل بما ورد من الأحكام والتوجيهات.

وفي الآية المباركة تعريف للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وإقامة البيّنة والحجّة على صدقه وحقية الكتاب الذي أُنزل عليه، وتذكير لهم بأنّ الرسول الذي أرسله الله تعالى، شأنه التبليغ وشرح الحقائق الواقعيّة والمعارف الإلهيّة، وبيان ما أخفوه مع

علمهم بأنّه الحقّ الذي يجب الإيمان به.

ونسبة الرسول ﷺ إلى ضمير العظمة، للتشريف والتنويه بمقامه وعظيم منزلته عنده جلّ شأنه، وفيه الإشارة إلى وجوب اتّباعه، فإنّه من الله تعالى الذي آمنتم به عزّوجلّ.

قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

إرشاد إلى أهمّ أعمال الرُّسل والأنبياء، فإنّهم عليهم السلام رسل الله تعالى في بيان الأحكام الإلهيّة والمعارف الربوبيّة، وإقامة الحجّة والبرهان على ذلك.

والآية الشريفة أصدق شاهد على صدق رسالة الرسول الأُمّي، الذي لم يقرأ كتبهم، ولكن أخبر بما أوحى الله تعالى إليه، مع أنّ مثل هذا البيان يتطلّب الإحاطة بجميع كتبهم، والعلم بمواضع التحريف، والمطالب الحقّة التي وردت فيها، ولا يحصل ذلك إلّا بوحي إلهيّ، لدقّة الموضوع وأهمّيته، فكان هذا الإخبار والبيان لشاهد صدق على حقيّة رسالته وما أتى به ﷺ. وأمّا إخفاء ما في التوراة والإنجيل، فقد عُرف به اليهود والنصارى، وهو أعمّ من الحذف والتغيير في كتبهم والتبديل والتأويل الباطل، كما حكى عزّوجلّ عنهم في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم. ومن أهمّ ما أخفوه تلك الآيات التي وردت في كتبهم التي تبشّر برسالة خاتم الأنبياء ﷺ وصفاته والأحكام المقدّسة التي وردت فيها، كما أشار إليه عزّوجلّ في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٢].

وأمّا إخفاء الأحكام المقدّسة والمعارف الحقّة، فقد حكي القرآن الكريم الشيء الكثير منه، مثل تحريم الطيّبات، وإحلال الصيد المحرّم عليهم في يوم السبت، وحكم الرجل الذي كتموه وكابروا فيه الحقّ كما بيّنه ﷺ، وسيأتي ذكره في قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

أي: ويعفو عن كثير ممّا كانوا يخفونه من الكتاب. والمراد بالعفو إمّا الترك، أي لم يذكر سبحانه كثيراً ممّا كانوا يخفونه ولم يظهره عزّوجلّ، فإنّ ذكر البعض يكفي لإتمام الحجّة عليهم، ويشهد لذلك ما اشتملت عليه كتبهم، ممّا يتعلّق بالتوحيد والنبوّة والمعاد ما لا يصحّ نسبته إليه تعالى، كالتجسّم والحلول، ولا انتسابه إليه جلّ شأنه، كالكفر وارتكاب الفحشاء والزلّات، واشتمال كتبهم على بعض العقائد الوثنيّة، وعدم ذكر المعاد في بعضها، مع أنّه من دعائم الإيمان والتوحيد في الأديان الإلهيّة.

أو يكون المراد من العفو هو التوبة إذا رجعوا إلى دين الحقّ، فيكون ترغيباً لهم في الدخول في الإسلام.

واعترض على هذا الوجه: بأنّ هذا الكثير كالكثير السابق، فيتعيّن المعنى الأوّل.

---

١. سورة الفتح: الآية ٢٩.

٢. سورة البقرة: الآية ١٤٦.

٣. سورة المائدة: الآية ٤١.

ولكن يمكن المناقشة فيه: بأنّ الكثير أمر نسبي، مع أنّ الظاهر اختلاف اللّفظين، واشتهر أنّ النكرة إذا أُعيدت نكرة فهي متغايرة.

وكيف كان، فالمراد واضح، وهو إقامة الحجّة على صدق الرسالة وافتضاح أهل الكتاب.

قوله تعالى: **﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾**.

تعظيم لشأن النبيّ ﷺ وما أُنزل عليه، فإنّ التعبير بالمجيء يدلّ على أنّ الجائي قائم به عزّوجلّ بأي نحو كان من القيام.

والنور: معروف، وهو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فإنّه لولا النور لما أدرك البصر شيئاً من المبصرات، وهو على قسمين، نور ظاهريّ جسمانيّ، ومعنويّ، والثاني أهمّ من الأوّل، وهو المراد به في المقام، فإنّ به تحيى القلوب وتهتدي البصيرة، وتستضيء به النفس، ويسير به الإنسان في ظلمات الجهل والمادّة، ويسلك به الصراط المستقيم، قال تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾**(١).

ويطلق على الرسول ﷺ كما في قوله: **﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾**(٢)، كما يطلق على القرآن الكريم كما في عدّة آيات:

قال تعالى: **﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾**(٣).

وقال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾**(٤).

---

١ . سورة طه: الآية ١٢٦.

٢ . سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

٣ . سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٤ . سورة النساء: الآية ١٧٤.

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[١].

كما أُطلق على ما أُنزل على الرسول ﷺ من الأحكام والإرشادات والتوجيهات، أي الإسلام، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

ويُطلق على الفطرة أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[٣].

ويُطلق على العقل أيضاً، كما في عدّة من الروايات التي ذكرت في كتاب العقل والجهل.

ويطلق النور على الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[٤]، ولكنّ هذا النور الحقيقي لا يعلم أحد كنهه إلّا الله تعالى، فهو الحياة، والعلم، والإرادة وغيرها من صفات ذاته عزّوجلّ، ومن هذا النور يستضيء سائر الأنوار. وسيأتي تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

ولأجل اختلاف المصاديق، اختلف العلماء والمفسّرون في المراد به:

فقيل: إنّه الرسول ﷺ.

وقيل: إنّه القرآن، فيكون قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ عطفاً تفسيريّاً له.

وقيل: إنّه الإسلام.

وقيل: إنّه النِّعم الثلاث التي خصّ بها العباد: النبوّة، والعقل، والكتاب، بقرينة الآية التالية التي اشتملت على أحكام ثلاثة، يرجع كلّ واحد منها إلى نعمة

١. سورة التغابن: الآية ٨.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

٣. سورة النور: الآية ٤٠.

٤. سورة النور: الآية ٣٥.

ممّا تقدّم، فقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، يرجع إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾، يرجع إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، يرجع إلى قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

والحقّ أن يُقال: إنّ المراد به جميع ما تقدّم، أي الرسول، والعقل، والقرآن، والإسلام، لأنّ المقام مقام الاحتجاج مع أهل الكتاب، الذين أتّم الله تعالى الحجّة عليهم بتلك الحجج الثلاث، مع أنّها متلازمة، فإنّ كلّ واحدة منها تهدي إلى الأُخرى وتدعو إليها، والآثار التي ذكرها عزّوجلّ في الآية التالية تترتّب على كلّ واحدة منها، فإنّ بها يخرج العباد من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، فيكون ذكر الكتاب لبيان أهمّيته وعظمته في هداية النفوس وتكمليها.

والمبين: هو الظاهر في نفسه المظهر لما يحتاج إليه الناس، وهو من أوصاف القرآن الكريم لهدايتهم، ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[١].

قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

الضمير في (به) يرجع إلى ما تقدّم ولا يضر توحيده على القول بتعدّد ما في الآية السابقة، لاتّحاد المرجع في الحقيقة والواقع، فإنّ النبيّ ﷺ والقرآن يشتركان في الهداية، وكلّ واحد منهما سبيل ظاهريّ من سبلها، وقد نسب سبحانه وتعالى الهداية إلى القرآن الكريم وإلى الرسول ﷺ في عدّة آيات:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[٢].

---

١. سورة النساء: الآية ١٧٤ ـ ١٧٥.

٢. سورة القصص: الآية ٥٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

ولكنّ الجميع يرجع إلى الله تعالى، فإنّه الهادي حقيقة، وغيره سبب ظاهريّ لها.

وتقديم المجرور على اسم الجلالة للاهتمام، كما أنّ إظهار الاسم الجليل، لكمال الاعتناء بأمر الهداية.

وكيف كان، فالآية الشريفة تبيّن أهمّ الآثار المترتّبة على هذا النور، وهي ثلاثة:

الأوّل: أنّه يهدي بسبب رسوله وكتابه مَن اتّبعهما ويبتغي بذلك رضاه، باتّباع أوامره والانتهاء بنواهيه عزّوجلّ، فيورده تعالى سبيلاً من سبل السلام التي يسلم بها في الدنيا والآخرة، من كلّ ما يوجب شقاوه، وما يرد به إلى سوء العذاب، فيتخلّص ممّا يلزم منه إخلال سعادته في الدنيا والآخرة.

وسبل السلام وإن كانت متعدّدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢]، إلّا أنّها تتّحد في الغرض العظيم المترتّب عليها، وهو الإيصال إلى كرامته عزّوجلّ، ولعلّه لأجل ذلك وصف تلك السبل بالصراط المستقيم الذي يوافق الفطرة المستقيمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[٣].

ومن ذلك يستفاد أنّ الهداية إلى السلام والسعادة، مشروطة باتباع رضوان الله تعالى، وهو الإيمان المطلوب، والإعراض عن كلّ ما يوجب سخطه، وذلك

---

١. سورة الشورى: الآية ٥٣.

٢. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

٣. سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

بالاجتناب عن أنواع الظلم وما يوجب الانخراط في سلك الظالمين ، وقد أكّد عزّوجلّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم أنّ لا هداية لمَن كان كذلك ، وأنّه محروم عن نيل هذه الموهبة العظيمة والكرامة الإلهيّة ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

ويبيّن ما في هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[2] ، حيث ذكر عزّوجلّ أنّ الأمن من العذاب والهداية إلى السعادة ، مشروطان بالإيمان وترك الظلم، والاجتناب عن ما يوجب الانخراط في الظالمين .

ثمّ إنّ الرضوان بكسر الراء أو ضمّها لغتان بمعنى واحد ، كما أنّ السبل بضمّ الباء والتسكين كذلك . والأوّل الرضاء الكثير وأعظمه ، فإنّ لرضائه جلّ شأنه مراتب ، وإنّ أعلى مراتبه كانت رضواناً ، بحيث أظهر كلّ واحد من الربّ والعبد الرضا العظيم لا مطلقة ، فإنّ ذلك التراضي لا الرضوان . والثاني الطرق كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ .

هذا هو الأثر الثاني ، وهو الخروج من الظلمات التي هي فنون الكفر والضلال والجهل والعناد إلى نور الإيمان ، ولعلّ ذكره عزّوجلّ الظلمات جمعاً والنور مفرداً ، إشارة إلى أنّ طريق الباطل متعدّد ، بخلاف طريق الحقّ ، فإنّه واحد وإن كان متعدّداً بحسب الظاهر والمواقف ، وقد أكّد ذلك القرآن الكريم في عدّة مواضع ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[3] .

والتقييد بأنّ الخروج هذا إنّما يكون بإذنه ، لبيان أنّ أمر الهداية والدخول

---

١ . سورة الجمعة : الآية ٥.

٢ . سورة الأنعام : الآية ٨٢.

٣ . سورة الأنعام : الآية ١٥٣.

في الإيمان والخروج عن كلّ الظلمات، لابدّ وأن تكون بعلمه وتوفيقه، وأنّه السبب الحقيقيّ فيها، وأنّ الرُّسل والأنبياء والكتب الإلهيّة إنّما هي سبل ظاهريّة نازلة من السماء، لم يكن لها الاستقلال في السببيّة ـ مقابل المبدأ تعالى ـ قال عزّوجلّ: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾**[١]، فلم يقيّد عزّوجلّ في هذه الآية الشريفة الإخراج من الظلمات إلى النور بالإذن، لاشتمال الأمر الصادر منه تعالى على معناه، وأنّ موسى عليه السلام كان واسطة في التبليغ، بخلاف قوله تعالى: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾**[٢]، فإنّه تعالى قيّده بالإذن، ليخرجه عن الاستقلال في السببيّة.

وكيف كان، فإنّ الهداية من الأمور العظيمة في حياة الإنسان المادّية والمعنويّة، الدنيويّة والأُخرويّة، وتحتاج إلى العلم بجميع خصوصيّات المهتدين وما يوجب الهداية وأثرها، وهذا لا يمكن أن يتحقّق من غير الله تعالى، فإنّ له السلطة التكوينيّة والتشريعيّة على خلقه، إلّا إذا أفاض عزّوجلّ شيئاً منها على بعض المخلصين من عباده، فيكون المراد من الإذن في الآية المباركة التوفيق الخاصّ الذي يتوقّف على العلم، فحينئذٍ لا فرق بين أن يكون المراد من الإذن هو التوفيق أو العلم، كما ذكره بعض المفسّرين.

قوله تعالى: **﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**.

تقدّم الكلام في الصراط المستقيم في سورة الفاتحة، وذكرنا أنّه الصراط الموصل إلى دين الحقّ، لا يضل سالكه، وهو أقرب إلى الله تعالى، وهو عين الهداية ،فيه اجتمعت العلّة الفاعليّة والغائيّة من الإسلام ودين الحقّ المهيمن على

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ٥.

٢ . سورة إبراهيم: الآية ١.

الطرق كلّها، فالهداية إليه هداية عامّة مهيمنة على سائر أفراد الهداية التي تتعلّق بالسبل الجزئية، وهي التي تتّحد في الهداية إلى صراط المستقيم، فهذه الهداية هي الهدف من الهداية إلى السبل الجزئيّة. ولعلّ التنكير في الآية المباركة يرشد إلى ذلك، أو لتعظيم شأن الصراط المستقيم وتفخيم أمره.

كما أنّ تكرار لفظ الهداية إمّا لأجل حيلولة قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ بين الهدايتين، أو لبيان أنّ الهداية الثانية هي المهيمنة على الاولى، أو لأجل أنّ الأُولى هي الموجبة للهداية الثانية.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

بيان لكفر النصارى، وما كفروا به خاصّة بعد إقامة الحجّة على أهل الكتاب عامّة، والقائلون بهذه المقالة هم طائفة خاصّة من النصارى.

وظاهر الآية الشريفة يدلّ على أنّ القائلين بها كانوا يعتقدون العينيّة، فإنّ القصر فيها للمسند إليه على المسند، أي أنّ المعبود منحصر في المسيح لا غير، وإن أمكن تطبيق الجملة على النبوّة وعلى القول بثالث ثلاثة، كما حكى عنهم عزّوجلّ في ما تقدّم من الآيات المباركة، وذكرنا ما يتعلّق بهذه العقيدة في سورة النساء مفصّلاً، فراجع.

والتأكيد على ذكر النسبة في المسيح، لبيان أنّه عليه السلام منسوب ومتولّد من امرأة ومحلّ للحوادث، وكلّ ذلك ينافي القول بإلوهيّته كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾.

برهان قويم يدلّ على بطلان مقالتهم تلك، وهو يرجع إلى أمرين، أحدهما: إثبات مناقضة قولهم، والثاني: تثبيت الالوهيّة لنفسه عزّوجلّ، بإثبات السلطة التامّة له تعالى، وقدّم الثاني في الذكر بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾،

لأنّه الأصل، فتكون له السلطنة التامّة على جميع خلقه، وهم مملوكون له تعالى مسخّرون تحت إرادته وسلطانه، يحكم فيهم بما يشاء وما يريد، لا مانع يؤثر عليه عزّوجلّ بأي وجه كان، ويقطع تأثير سلطنته عن شيء فيغلبه عليه فيه، فهو الله تعالى مالك الملك وحده لا شريك له، ولا مالك غيره يبطل سلطانه أو يحدّ منه، فإنّ مشيئته لا يردّها شيء.

والجملة في غاية الفصاحة والبلاغة، حيث نفي الاستطاعة عن دفع الشرّ عن نفسه، بنفي ما يمنع عن تأثير إرادته عزّوجلّ وقدرته، فها هو المسيح بن مريم لمّا نزل الصلب عليه لم يقدر على دفعه عن نفسه، فاستغاث بربّه خائفاً، وجلاً، ضارعاً، خاضعاً، ليصرف عنه ذلك الكأس، كما عرفت في أحد مباحثنا السابقة.

قوله تعالى: ﴿**إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**﴾.

بيان لتهافت أقوالهم في المسيح بن مريم عليه السلام وتناقضها، فإنّ كون المسيح إلهاً يناقض وصفهم له بأنّه ابن مريم، فإنّه يدلّ على كونه بشراً تامّاً، وأنّه مربوب له تعالى وواقع تحت سلطانه عزّوجلّ وإرادته جلّ شأنه، كسائر أفراد البشر، مضافاً إلى كون أُمّه أيضاً مثله في البشريّة، ومسانخة له من دون ريب، يجري عليها ما يجري على جميع مَن في الأرض، فإنّ الحكم في الجميع على حدّ سواء، وهذا من أعظم الأدلّة على برهان الإمكان الذي ينافي الأُلوهيّة، التي تتّصف بالوجوب.

وخلاصته: أنّ المسيح مخلوق يماثل سائر أفراد البشر، يجوز عليه ما يجوز على غيره، كما أنّه لا يجوز عليه ما لا يجوز عليهم، لأنّ حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجور واحد، ومنه الأُلوهيّة، فإنّها لا تجوز لغيره، فلابدّ أن لا

تجوز عليه أيضاً، كما أنّ غيره يجوز عليه الهلاك، فيجوز عليه ذلك، ولا مانع هناك يمنع منه، ولو كان هو الله سبحانه وتعالى لما جاز ذلك.

وإنّما ذكر عزّوجلّ أُمّ المسيح مع اندراجها في عموم المعطوف، لزيادة تأكيد عجز المسيح، وزيادة للتقرير والتبكيت، وإما لتعميم إرداة الهلاك مع حصول الغرض بقصرها على المسيح عيسى عليه السلام، لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز، ببيان أنّ الكلّ تحت إرادته وقهره تعالى لا يقدر على دفع ما يريده فضلاً عمّا يريده غيره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

تعليل للجملة السابقة، وتأكيد لما اعترف به النصارى من ثبوت الملكية المطلقة لله تعالى، فيكون دليلاً آخر لإبطال اُلوهيّة المسيح عيسى بن مريم، إذ لو كان إلهاً لكانت له هذه الملكية المطلقة، وقد أكّد عزّوجلّ هذه الملكية في هذه الآية الشريفة بأُمور:

منها: التصريح باسم الجلالة الدالّ على اختصاصها به تعالى، ونفيها عن ما سواه استقلالاً واشتراكاً.

ومنها: التنصيص بذكر «وما بينهما»، على أنّ الكلّ تحت قهره ومملوكيته تعالى، فيكون الكلام أقرب إلى التصريح وأبعد من الشبهات، أي أنّ له وحده ملك جميع الموجودات والتصرّف المطلق فيها، إيجاداً وإعداماً وتربيباً، ليس لأحد سواه ذلك، ومن كان كذلك فهو حقيق باختصاص الأُلوهيّة به.

قوله تعالى: ﴿يخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

تعليل للجملة السابقة، وبيان لبعض أحكام الملك والأُلوهيّة، فإنّ الملكية المطلقة تقتضي ثبوت السلطنة التامّة له عزّوجلّ وتعميم قدرته، فلا يمنع من

نفوذ مشيئته مانع، فهو يخلق ما يشاء من الأشياء.

والآية الشريفة ردّ لمزاعم النصارى من أنّ المسيح قد صدرت منه أعمال غريبة لا تصدر من عامّة البشر، وأنّ خلقه كان خلاف المتعارف والسنّة العامّة في خلق سائر البشر، فإنّ كون خلقه كذلك وصدور بعض المعاجز على يديه عليه السلام، لا يدلّان على كونه إلٰهاً مالكاً لجميع ما في السماوات والأرض، يتصرّف فيه بما يشاء، بل أنّ ذلك من بعض الفيوضات التي منحها عزّوجلّ له، إذ لا يخرج بذلك عن كونه مخلوقاً كسائر خلقه يتصرّف فيهم عزّوجلّ بما يشاء، فبالحقيقة لابدّ أن ينسب إليه عزّوجلّ دون من أجراه الله تعالى على يديه.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تقرير لمضمون ما سبق وتأكيد له، وبيان لتعميم قدرته إلى ما هو الأوسع من عالم الوجود وإرشاد إلى برهان قويم، وهو أنّ الإله لابدّ أن يتّصف بتمام القدرة وشمولها لجميع الأشياء، وإلّا فلا يكون إلهاً، ولعلّه لأجل ذلك ذكر اسم الجلالة، لبيان أنّه الإله المستجمع لجميع صفات الكمال التي منها الملكية المطلقة للسماوات والأرضين وما بينهما، وثبوت القدرة التامّة، فهو يخلق ما يشاء بما يشاء، وهو يدلّ على أنّه لا شريك له في الأُلوهيّة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

حكاية لبعض ما صدر عن الفريقين من الدعاوي الباطلة بعد ذكر ما صدر من أحدهما في غيره عزّوجلّ. وهذه الحكاية تدلّ على جرأتهم على الله تعالى، وعدم مبالاتهم بالمواثيق والعهود التي أُخذت منهم على العمل بمقتضاها، فلا تفيد الادعاءات والشعائر في القرب إلى الله تعالى ونيل جزائه العظيم.

والابن، تارةً: يُطلق ويُراد منه المعنى الحقيقي، وهو المراد في

الاستعمالات الدائرة عند العرف، وهو محال على الله تعالى، لأنّه يستلزم الاختلاط والمجانسة مع مخلوقاته، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وقد نفاه عزّوجلّ عنه في ما سبق من الآيات التي حكي فيها مقالتهم عن بنوّة المسيح وشدّد الكنير على قائليها، وأقام البراهين الكثيرة على إبطالها.

وأُخرى: يُطلق ويُراد منه المعنى المجازي، أي القرب والرحمة، حيث إنّ الأولاد مقرّبون من آبائهم وموارد رحمتهم وعنايتهم، ولعلّ هذا المعنى هو المناسب في المقام، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، عطفاً تفسيريّاً له، ويدلّ على ذلك أنّهم لم يدّعوا النبوّة الحقيقيّة لغير ما ادّعوها فيه كالمسيح، وعُزَير، فلا اليهود تدّعي تلك حقيقة ولا النصارى، فكانوا يطلقونها على أنفسهم تشريفاً.

والمتتبّع في كتبهم المقدّسة يرى أنّ لفظ الابن قد استعمل فيها كثيراً، فقد أُطلق على آدم عليه السلام وعلى يعقوب وداود وعلى أقوام، وعلى المسيح، ولم يريدوا منه المعنى الحقيقيّ سوى ما أُطلق على الأخير فقط، كما حكي عزّوجلّ عنهم في عدّة آيات، كما أُطلق على الملائكة والمؤمنين الصالحين، وهذا الاستعمال كثير في العهد الجديد، فقد روى متّى في وعظ المسيح على الجبل: «طوبى لصانعي السلام لأنّهم أبناء الله يدعون»[1]، وفي الرسالة الأُولى من رسالتي يوحنّا: «كلّ مَن هو مولود من الله لا يعقل خطيئته لأنّ زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطئ لأنّه مولود من الله بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس»[2]، فيستفاد من ذلك أنّهم أرادوا من إطلاق الابن عليهم لأجل إظهار أنّهم مورد عنايته عزّوجلّ وعطفه ومحبّته، فلا يجازيهم على أفعالهم، كما لا يؤاخذ الأب الحنون ولده المسيء، فهم من الله تعالى بمنزلة الأبناء من الأب، فلهم أحكام خاصّة

---

١. متّى: ٥ / ٩.

٢. يوحنّا: ٣ / ٩ و ١٠.

تختلف عن سائر الخلق، فكيون الغرض من هذا الاختصاص هو معافاتهم عن العذاب والعقوبة، وأنّهم مهما عملوا من القبائح لا سبيل إلى تعذيبهم، لأنّه يناقض ما خصّهم به من المزيّة والفضل، وما حباهم من الكرامة، فلا محالة مصيرهم إلى النعمة الدائمة والكرامة الأبديّة، ولأجل ذلك كان الردّ عليهم حاسماً وواضحاً من دون تأويل وشبهة.

والآية الشريفة ترشد الناس إلى أمر عظيم، وهو ترك التقوّل على الله تعالى والتزام الأدب معه عزّوجلّ، فإنّه لا يجوز نسبة صفة أو قول إليه تعالى إلّا إذا وردت الرخصة فيه، ومن هنا كانت أسماء الله تعالى توقيفيّة، لابدّ من ورود الإذن في إطلاق اسم عليه جلّ شأنه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

احتجاج عليهم إلزاماً وتبكيتاً. والخطاب لنبيّه الكريم ﷺ، لأنّه واسطة الفيض، وتتضمّن هذه الحجّة أُموراً أحدها النقض عليهم، والثاني الردّ عليهم بما هم معترفون به، والثالث البرهان على بطلان دعواهم بالمرّة، تأكيداً وإرشاداً لهم بالابتعاد عن تلك المقالة وما يماثلها في الفساد.

أمّا الأمر الأوّل، فإنّ مقالتهم تلك تقتضي عدم تعذيبهم بذنوبهم وأمنهم من كلّ عذاب دنيويّ أو أُخرويّ، مع أنّه عزّوجلّ يجازيهم على أعمالهم ويعذّبهم بذنوبهم ويوآخذهم على خطاياهم وما اقترفوه من المعاصي والآثام، ومنها هذه المقالة التي تقوّلوا بها على الله تعالى بغير حجّة ولا برهان فهم كسائر أفراد البشر، فإذا كنتم أبناء الله تعالى وأحباءه فلابدّ أن لا يعذّبكم، فإنّ الأب لا ينكل بابنه والمحبّ لا يُعذّب حبيبه، فلستم إذاً أبناءه ولا أحباءه.

وإطلاق الآية المباركة يشمل العذاب الدنيويّ والأُخرويّ، وقد حكي عزّوجلّ في القرآن الكريم كلا النوعين من العذاب الواقع عليهم، لا سيما اليهود

الذين قصّ القرآن المجيد الشيء الكثير من أحوالهم.

وعذابهم هذا يختلف عن البلايا والمحن، التي تقع على المؤمنين وأولياء الله تعالى، فإنّها ليست مؤاخذة على ذنب عملوه، ولا عذاب بسبب معصية اقترفوها، ولا هي ناجمة عن سخط إلهي نكالاً ووبالاً عليهم، بل هي لزيادة القُرب والدرجات ونيل الكمالات، أو لتربية النفس والسريرة، فهي بالأحرى نعمة وكرامة على المؤمنين، وعذاب ووبالٌ على الكافرين المعاندين، وفي الأثر المعروف: «البلاء للولاء»، وفي الحديث: «أشدّ الناس بلاء الأنبياء عليهم السلام، ثمّ الأمثل فالأمثل»، وقد تقدّم في أحد مباحثنا السابقة أنّ البلايا والمحن والمصائب الدائرة في هذا العالم، إنّما يشترك فيها المؤمن الصالح، والفاجر الصالح على حدٍّ سواء، وهي من سنّة الله تعالى على خلقه، وإنّما تختلف من حيث الأثر والعنوان والغرض، فإنّها للمؤمنين كرامة ومنحة ربانيّة حاصلة من محبّة إلهيّة لهم، وعذاب ونكال لغيرهم، كما أثبتنا ذلك غير مرّة، ويدلّ على ذكرناه قوله تعالى: **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾**[1]، فإنّه عزّوجلّ جمع بين النوعين من البلاء الواقع على الطائفتين، وبيّن تعالى أنّه يختلف من حيث الأثر والعنوان والغرض.

قوله تعالى: **﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾**.

بيان للأمر الثاني من الأُمور التي احتجّ الله تعالى بها عليهم، وهو الردّ عليهم بما هم معترفون به، فإنّهم لا ينكرون أنّهم من أفراد البشر من جنس ما خلقه الله تعالى من غير مزيّة لهم على غيرهم، ويتضمّن هذا الدليل نفي البنوّة عنهم مطلقاً،

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

فإنّ البشر لا يصلح لأنّ يكون ابناً لله جلّت عظمته ، لإمكان صدور القبيح والزلّات والهفوات منه ، وأنّه يؤخذ بما يصدر منه ، والابن مسانخ لأبيه ، فإذا ادّعوا بنوّتهم له تعالى ، فلابدّ أن لا يصدر منهم ذلك ولا يؤاخذوا بما يصدر منهم .

قوله تعالى : ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ .

تتمّة للدليل السابق ، ويمكن أن يكون نتيجة الأدلّة التي تناقض دعواهم ، أي أنّه إذا أقرّوا بأنّهم بشر من جملة ما خلقه الله تعالى ، داخلون تحت سلطانه يتحكّم فيهم إرادته ومشيئته ، فلا يحابي أحداً من مخلوقاته ، وهو تعالى الحَكَم العدل، يجازي عباده على أعمالهم ، فيغفر لمَن يشاء منهم ، ويعذّب من يعلم بأنّه يستحقّ العذاب ، ماضٍ حكمه ، فلا يمنع من مشيئته مانع، أو يتحكّم في إرادته شيء .

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ .

بيان للأمر الثالث الذي احتجّ عزّوجلّ به عليهم ، ويتضمّن هذا الدليل البرهان على نفي البنوّة عنه مطلقاً ، فهو الخالق للسماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات ، فالجميع مملوك له عزّوجلّ ، ومربوب له مقهور تحت إرادته ، فلا ينتمي شيء منها إليه تعالى إلّا بالمعبوديّة والمملوكيّة ، يتصرّف فيها بما شاء إيجاداً وإعداماً ، إحياءً وإماتة ، إثابةً وتعذيباً. وهو الغني عن خلقه ، فلا يحتاج إليهم ، بل هم محتاجون إليه ، فلا يمكن أن يتصوّر له بنون .

وهذه الآية الشريفة تماثل الآية التي ذكرت آنفاً ، إلّا أنّها ختم تلك بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، لأنّها في مقام نفي الغرابة في الخلق وامتياز بعضهم على بعض ، فأثبت القدرة التامّة لنفسه على خلقه ، فلا امتياز له عليهم من هذه الجهة ، وأمّا آية المقام فإنّها في مقام بيان الجزاء على الأعمال ، فختمها بقوله

تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، فإنّه سيجازيهم على أفعالهم وأقوالهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

فإنّه سيحاسبهم على أفعالهم وأقوالهم، فيثيب المحسن على إحسانه، ويُعاقب المسيء على إساءته، ولا يصرفه صارف عن ذلك الجزاء.

وفي الآية المباركة إشعار بأنّه سيعذّب أصحاب تلك الدعاوي الباطلة، على كفرهم وغرورهم وتقوّلهم على الله تعالى بغير حقّ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾.

خطاب لهم بالرجوع عن غيّهم والدخول في دين الحقّ، بعدما دحض شبهاتهم التي غرّتهم في دينهم، والخطاب يتضمّن اللّطف في الدعوة، وهو تأكيد للخطاب السابق في الدعوة إلى الإيمان، إلّا أنّهما يفترقان في أنّ الأوّل دعوة إلى الرسول الذي أيّده الله تعالى بكتاب يهدي بإذنه عزّوجلّ إلى ما فيه الخير والسعادة، وهذا الخطاب يتضمّن مضافاً إلى الدعوة إلى ما ورد في الخطاب السابق، أنّه يقطع جميع الأعذار عنهم، فيكون سياقه إتمام الحجّة عليهم، مع أنّه لا يخلق هذا الخطاب عن لطف، فإنّه عزّوجلّ بعدما أقام الحجّة عليهم بدحض دعاويهم الباطلة، حَسُن منه أن يذكّرهم بحجّته عليهم يوم القيامة إذا أصرّوا على غرورهم ولجاجهم وضلالهم.

وحذف المتعلّق في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾، تفخيماً للأمر وتعميماً له، ليشمل كلّ ما هم محتاجون إليه في سبيل سعادتهم الدنيويّة والأُخرويّة، وما يوجب صلاح أنفسهم، وإصلاح أُمورهم الفرديّة والاجتماعيّة، المادّيّة والمعنويّة. ويدخل فيه بيان ما كانوا يخفون من الكتاب، وما يدلّ على أنّه حجّة الله تعالى عليهم، وما بيّنه عزّوجلّ في دفع شبههم ودعاويهم، فيكون من أقوى

الأدلّة على أنـّه رسول الله تعالى، نزل عليه الوحي المبين.

قوله تعالى: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

مادّة (فتر) تدلّ على السكون وزوال الحدّة من الشيء، قال الراغب: «الفتور: سكون بعد حدّة، ولين بعد شدّة، وضعف بعد قوّة»، فتختصّ هذه المادّة بالسكون الخاصّ، لا كلّ سكون، وفي حديث ابن مسعود لمّا مرض بكى، فقال: «إنّما أبكي لأنّه أصابني على حال فترة ولم يصبني في حال اجتهاد»، أي في حال سكون وتقليل من العبادات والمجاهدات.

والمعنى: على سكونٍ خالٍ عن ظهور رسول من رسل الله تعالى، وعلى انقطاع من الوحي، فكانت الحاجة ماسّة إلى بيان الشرائع والأحكام بعدما كتموها.

وتدلّ الآية الشريفة على كتمانهم للحقّ، وتحريفه عن كتبهم، وشدّة الحاجة إلى البيان، وترشد إلى هذا أنّ النبيّ ﷺ هو الرسول الذي بشّرت به الكتب الإلهيّة السابقة، إذ لم يكن رسول آخر غيره في هذا المقطع الخاصّ من الزمان، الذي اختلف في مدّته. والمشهور أنـّها خمسمائة سنة أو أكثر بقليل، فجاء رسولنا يبيّن لكم جميع ما تحتاجونه في حياتكم، ليقطع معذرتكم، ويفنّد حجّتكم في يوم القيامة، فكانت هذه الفترة من موراد الامتحان والإبتلاء.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

بيان للعلّة التي أوجبت مجيء الرسول، وتقدّم الكلام في إعراب مثل هذه الجملة في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾[١]، وقلنا إنّ التقدير كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا.

---

١. سورة النساء: الآية ١٧٦.

وكيف كان، فالآية المباركة تدلّ على قطع معذرتهم، من توهّم اندثار الشريعة، وانطماس آثارها، وانقطاع أخبارها، فلا شريعة ولا بشير ولا نذير يهديهم إلى مواطن الوعد والوعيد.

وهذه الآية المباركة تشير إلى ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾**[1]، من أنّ الأُمم يوم القيامة تجحد تأدية رسالات رسلهم، وتقول ما جاءنا من بشير ولا نذير، ويكون الرُّسل والأنبياء عليهم حجّة، وتقول بلى قد جاءكم بشير و نذير.

قوله تعالى: **﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾**.

ردعٌ لمعذرتهم وقطعٌ لها، فقد جاءكم بشير ونذير يبيّن لكم أُمور دينكم. والآية الشريفة تدلّ على عدم انقطاع الوحي بالمرّة، وفي الحديث عن عليّ عليه السلام: «لا تخلو الأرض عن قائم لله بحجّة، إمّا ظاهر مشهور، وإمّا خائف مغمور».

من هنا ذهب علماؤنا (قدس الله أسرارهم) إلى أنّ في زمان الفترة بين نبيّنا صلى الله عليه وآله وبين عيسى عليه السلام أنبياء وأئمّة مستورين خائفين، منهم خالد بن سنان العبسي وغيره، فيكون المراد من الفترة هو أن لا يكون نبيّ ولا وصيّ نبيّ ظاهر مشهور.

قوله تعالى: **﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

تعليل لجميع ما سبق، فإنّه قادر على إرسال الرُّسل وإنزال الشرائع تترى من دون انقطاع، فلم تكن فترة حقيقيّة، ولكنه عزّوجلّ جعل تلك الفترة خالية عن الرُّسل الظاهرين المشهورين لحِكَمٍ كثيرة، فهو القادر على كلّ شيء، فلا يعجزه نصرة نبيّه الكريم وإعلاء كلمته.

---

١. سورة النساء: الآية ٤١.

والآية المباركة ردّ على اليهود الذي يزعمون أن لا شـريعة بـعد شـريعة التوراة، زعماً منهم بامتناع النسخ والبداء عليه عزّوجلّ، فإنّ ذلك ينافي عـموم قدرته، فهو القادر على كلّ شيء ولا يعجزه أمر.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: تدلّ مجموع الآيات الشريفة على حقيقة أعمال الرُّسل وبعض خصوصيّاتهم، فقد ذكر عزّوجلّ أنّ الأنبياء والرُّسل إنّما بعثوا لهداية الناس إلى الكمالات، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، الذي يوردهم إلى السعادة والفوز بالفلاح والدخول في الجنّة.

وبيّنت الآيات الشريفة أنّ الأنبياء عليهم السلام هم من أفراد البشر لا يختلفون عنهم، فليسوا خارجين عن هذه الحقيقة، ولم تكن لهم مزيّة عن بقية أفراد الناس إلّا بما ميّزهم الله تعالى بالفيض القدسيّ والوحي الإلهيّ، وصفاء السريرة، وتميّزوا بالتقوى والعمل الصالح، وقد شدّد النكير على مَن يخرجهم عن هذه الحقيقة ويدخلهم في مصاف الإله أو الملائكة.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، على أنّ أهل الكتاب قد أخفوا كثيراً من الأحكام الإلهيّة والمعارف الربوبيّة، وكان لإخفائهم لها أساليب متعدّدة ومظاهر مختلفة، وقد حكى القرآن الكريم العديد منها في مواضع متعدّدة، وهو يدلّ على تحريفهم لكتبهم المقدّسة وبُعدهم عن الحقّ وانطماس نور الفطرة فيهم.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، على أنّ غرض الكتاب الإلهيّ والقرآن العظيم، هو بعث نور الفطرة في النفوس وإزاحة ما يوجب انطماسه واضمحلاله، وبيان ما أفسده الزائفون المضلّون.

وتعدّ هذه الآية الشريفة من معاجز القرآن الكريم، فإنّه لولا هذا النور

المبين لضلّ الإنسان في ظلمات الجهل والكفر، ولانطمس نور الفطرة بالشبهات والأكاذيب، ولما عرف الناس ما يحتاجون إليه لهدايتهم.

والآية المباركة تخبر عن حقيقة ما طرأ على التوراة والإنجيل من الضياع والفساد، وما فعله رؤساء اليهود والنصارى في دينهم وما عبثوا به في كتبهم المقدّسة.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾**، على أنّ هذا الجائي قائم بهذا النور بنحو من أنحاء القيام المعروفة، فإنّه نور من الله العظيم، موضح الغوامض الكتاب المبين، ومبيّن للمعارف الربوبيّة.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾**، اشتراط فعليّة الهداية الإلهيّة باتباع رضوانه، فتدور الهداية إلى السلام والسعادة مدار اتّباع رضوان الله تعالى، وتختصّ الهداية في المقام بأن تورد من اهتدى سُبل السلام جميعها أو بعضها، حسب لياقة الشخص ومقدار استعداده.

والظاهر من الآية الكريمة أنّ اتّباع الرضوان هو ما تدعو إليه الفطرة المستقيمة وقرّرته الشرائع الإلهيّة، ولا ريب أنّ اتّباع الرضوان لا يتحقّق إلّا بالعمل بما تأمر به الفطرة والشريعة، والانتهاء بنواهيها، واجتناب سبيل الظلم الذي نفى عزّوجلّ منه الهداية عن الظالمين، قال تعالى: **﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[1]، فالآية الشريفة تعد الفرد المؤمن إلى هداية عظمى، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، المهيمنة على جميع سبل الهداية، وهي الغاية القصوى من إنزال الشرائع الإلهيّة.

كما يستفاد من الآية المباركة أنّ الميزة الأساسيّة لهذه الهداية الخاصّة، هي كونها تورد المهتدي إلى تلك السبل التي تدعو إلى السلام، والخضوع لله تعالى

---

١. سورة الجمعة: الآية ٥.

والاستسلام له، وبهذه الميزة يمكن تمييز هذه السبل عن سبل الشيطان، التي تدعو إلى العصيان والخروج عن الطاعة، وتورد سالكها إلى الشقاء والحرمان.

ويمكن عدّ هذه الآية الشريفة من الآيات المعدودة التي تبيّن حقيقة السبيلين؛ سبيل الله وسبيل الشيطان.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ**﴾، أنّ الخروج من الظلمات إلى النور الذي هو من آثار الكتاب المبين، لابدّ أن يكون بإذنه عزّوجلّ، ومورد مشيئته وعلمه، لما له من الأهميّة العظمى في تهذيب النفوس، ورفع الشبهات والشكوك، وتنوير القلوب، كما عرفت في التفسير، وبهذا القيد يمكن إبطال دعوى المدّعين الزائفين الذين يدّعون الكمال وإخراج الناس من الظلمات، فقد يكون الأمر بالعكس وهو لا يعلم بذلك، فلابدّ من التماس طرق الخروج من الظلمات إلى النور من صاحب الشرع فقط، ويؤيّد ذلك ما يأتي من الآيات المباركة، حيث ذكرت جملة من دعاوي أهل الكتاب وعقائدهم وهم يعتقدون صحّتها، وأنّها تهدي من يعتقد بها إلى الصراط وتخرجه من الظلمات، وقد عدّها عزّوجلّ من الظلمات وأنّها من سبل الشيطان.

ومن جميع ذلك تعرف أهمّية هذا القيد (بإذنه) في المقام لسدّ جميع الذرائع الفاسدة والدعاوي الباطلة، والتماس طرق الخروج من الظلمات إلى النور، ممّن يعلم جميع الخصوصيّات وبيده الكمال والسعادة.

السابع: يستفاد من ذكر أُمّ المسيح في الآيات الشريفة، التنصيص على أنّ المسيح مخلوق حادث، وأنّ له أُمّاً، فكيف يكون إلهاً؟!

كما أنّ الآيات الشريفة تحدّد حقيقة الإله في القرآن الكريم وسائر الكتب الإلهيّة، وهي أنّه لا يتعلّق بشأن من شؤون الإله ولا بشيء من مخلوقاته قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجزه شيء منها إذا تعلّقت إرادته بهلاكها، وإلّا فلا يكون

إلهاً، ولا ريب في عدم انطباق هذا الحدّ على المسيح بن مريم عليه السلام، فإنّ عجزه بيّن كما هو معلوم، فلا يستحقّ الأُلوهيّة.

والمستفاذ من سياق قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾، أنّ الإهلاك والإماتة والإعدام لم يكن عن سخط وغضب، بل لإظهار القدرة التامّة، وللإعلام بأنّ المسيح الذي نسبت إليه الأُلوهيّة إنّما هو داخل تحت قهره وملكوته وسبحانه وتعالى، فالآية المباركة تشتمل على نفي الأُلوهيّة عن غيره تعالى، واختصاصها لنفسه عزّوجلّ.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، على انحصار الأُلوهيّة فيه جلّت عظمته، لأنّ كلّ شيء مملوك له تعالى، ومنه المسيح، والمملوكيّة تنافي البنوّة، كما يدلّ على نفي الشريك في إلوهيّته ببيان نفوذ مشيئته وشمول قدرته، لأنّه الله الجامع لجميع صفات الكمال، ولعلّه لذلك كرّر لفظ الجلالة في هذه الآية الكريمة مرّات.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾، على أنّ الناس من هذه الحيثية وهي كونهم بشراً خلقهم الله تعالى، كسائر خلقه على حدّ سواء، لا مزيّة لأحدهم على الآخر، فهم مخلوقون مربوبون، لا يمكن لأحد منهم الاستغناء عن خالقه ومربوبه، والقرب والبُعد عن رحمته، إنّما يحصلان من ناحية العبد المخلوق، فمَن آمن وعمل صالحاً فسوف يغفر الله تعالى له، فيستحق المعافاة، ومَن كفر فسيعذّبه الله، وهذا ينافي ما ادّعاه أهل الكتاب من أنّهم أبناء الله وأحباؤه، كما عرفت في التفسير.

العاشر: إنّما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ دون ما يرادفه من الألفاظ كالإنسان، لأنّ البشر متمحّض في المادّة، وتحمّل المكاره دون الإنسان وغيره، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾[1]، فعبّر عن الخلق من

١. سورة ص: الآية ٧١.

المادّة (طين) بالبشر، وكذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾[1]، فتدلّ الآية الشريفة على بطلان زعمهم من أنّهم أبناء الله.

الحادي عشر: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾**، وحدانيّة الله تعالى وانحصار الألوهيّة فيه ونفي الشريك، ونفوذ مشيئته وإرادته، وأنّه لا يعجزه شيء من ما ملكه، فإنّه مقهور تحت إرادته وسلطانه وعاجز عن معارضته.

وتعدّ هذه الآية الشريفة من أهمّ الآيات القرآنيّة على إثبات تلك الأُمور، ولعلّه لذلك كرّره عزّوجلّ في المقام للتأكيد، وللإعلام ببطلان دعاوى الزائفين الضالّين، فإنّ الله جلّ شأنه هو المستجمع لجميع صفات الكمال، وليس غيره كذلك.

***

بحث روائي:

في «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾**، قال: «يبيّن لكم النبيّ ما أخفيتموه ممّا في التوراة من أخباره، ويدع كثيراً لا يبيّنه».

أقول: لعلّ عدم بيانه ﷺ لما في التوراة لمصالح كثيرة رحمة منه ﷺ عليهم، لأنّه نبيّ الرحمة ورسول الرأفة، أو كان ذلك من المعارف التي وردت في القرآن نظيرها، أو الأحكام التي لا تختلف مع ما ورد في الشريعة الإسلاميّة. أو كان ذلك التأخير حتّى تستكمل عقولهم بالبراهين الربّانيّة، إلى غير ذلك ممّا يمكن أن يقال في المقام.

وفي «الدّر المنثور» عن ابن عبّاس، قال: «مَن كفر بالرجم، فقد كفر

---

١. سورة الفرقان: الآية ٥٤.

بالقرآن من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ**﴾، قال: فكان الرجم ممّا أخفوا».

أقول: قد تقدّم أنّ الإيمان بالقرآن وحدة متكاملة، وإنكار أحد أحكامه يوجب الكفر بجميعه، وأنّ المراد بالكفر الوارد في الحديث هو الإنكار له المستلزم للكفر، وأنّ الرجم كغيره من الأحكام، ورد في التوراة المصونة من يد التحريف، كتمته اليهود وبيّن ذلك النبيّ ﷺ.

وفي «الدّر المنثور» في قوله تعالى: ﴿**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، بإسناده عن أنس، قال: «مرّ النبيّ ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلمّا رأت أُمّه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني ... فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار! فقال ﷺ: لا والله، ولا يلقي حبيبٌ حبيبه في النار».

أقول: لا شك أنّ الحبيب لا يعذّب حبيبه حتّى بعذاب الفراق وحرّ ناره، ولو عذّبه كذلك في عالم الشهادة وصبر، يكون ذلك لرفع مقامه وعلو درجته ولتقرّبه إليه جلّ شأنه، وأنّ عدم عذابه في الآخرة لا ينافي ابتلائه في الدنيا لرقيه إلى سموّ مراتب الحبّ له، رزقنا الله تعالى رشحةً من رشحات فيض حبّه، وجعلها مستقرّة في قلوبنا.

وفي «الكافي» بإسناده عن أبي الربيع، قال: «حَجَجنا مع أبي جعفر عليه السلام في السنة التي حجّ فيها هشام بن عبد الملك، وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب، فنظر إلى أبي جعفر في ركن البيت وقد اجتمع عليه الناس، فقال نافع: يا أمير المؤمنين مَن هذا الذي تداك عليه الناس؟! فقال: هذا نبيّ أهل الكوفة، هذا محمّد بن علي عليه السلام، فقال اشهد لآتينه ولأسألنّه عن مسائل لا يجيبني فيها إلّا نبيّ. قال: فاذهب فاسأله لعلّك تخجله، فجاء نافع حتّى اتكئ على الناس ثمّ أشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا محمّد بن علي إنّي قرأت التوراة والإنجيل والزبور

والفرقان، وقد عرفت حلالها وحرامها، وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيب فيها إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ، قال: فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه فقال: سَلْ عمّا بدا لك، فقال: أخبرني كم بين عيسى ومحمّد من سنة؟ فقال: أخبرك بقولي أو بقولك؟ قال: أخبرني بالقولين جميعاً، قال: أمّا في قولي فخمسمائة سنة، وأمّا قولك فستّمائة سنة».

أقول: تقدّم في التفسير أنّ الفاصل الزماني بين الرسولين لم يكن فيه نبيّ معلن وحجّة ظاهريّة، وإلّا فالحجّة الواقعيّة ـ سواء كانت نبيّاً أو وصيّاً ـ غير معلنة لا تنقطع في سلسلة الزمان كما ثبت ذلك في علم الكلام.

وأمّا الاختلاف في الفترة بين الرسولين فكثير، فذهبت الإماميّة إلى أنّها خمسمائة سنة كما في الرواية، وذهب قتادة وغيره إلى أنّها ستمائة سنة أو ما شاء الله من ذلك، وعليه الجمهور، وذهب الضّحاك إلى أنّها أربعمائة سنة وبضعاً وثلاثين، وذهب ابن جريح إلى أنّ الفترة كانت خمسمائة سنة، وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون.

ويمكن الجمع بين الأقوال بأنّها على سبيل الاستنتاج من سلسلة الزمان، وأنّه على نحو التقريب لا التحديد الواقعي، ومثل هذا الاختلاف وإن كان كثيراً، إلّا أنّه لا يضرّ بشيء، ولا يترتب عليه أي حكم، والله العالم.

وعن البيهقي في «الدلائل» عن ابن عبّاس، قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله اليهود إلى الإسلام فرغّبهم فيه وحذّرهم، فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر اليهود اتّقوا الله، فوالله إنّكم لتعلمون أنّه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهودا: ما قلنا لكم هذا، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ**

جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ـ الآية﴾».

أقول: الرواية تدلّ على عناد اليهود وانحرافهم عن الفطرة المستقيمة وإنكارهم للحقّ الواضح، ويظهر منها مصلحة الفترة، أي حتّى يعترفوا بالحقّ ويقرّوا به فيها، وقد كشف القرآن الكريم عن نواياهم الفاسدة بعد ذلك، والله العالم بالحقائق.

وعن البيهقي في «الدلائل» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾**، قال: «أتى رسول الله ﷺ ابن أُبيّ وبحرى بن عمر و وشاس بن عدي، فكلّمهم وكلّموه، ودعاهم إلى الله وحذّرهم نقمته، فقالوا: ما تخوّفنا يا محمّد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله تعالى فيهم الآية».

أقول: الرواية من باب التطبيق؛ لأنّها تشمل كلّ من ادّعى المنزلة عند الله تعالى، ولم يقنت له جلّ شأنه، وتعدّى حدوده تعالى وأحكامه، فهو يعذّبه سواء كان من اليهود أو النصارى أو المجوس، فالمدار على التقرّب على الإيمان والعمل الصلاح، كما أنّ المناط في العذاب على الكفر والعمل السيء.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾**، قال: «يعني بالنور النبيّ ﷺ وأمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام».

أقول: لأنّ بهم أخرجنا الله تعالى من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والمعرفة، وأنّ الأئمّة المعصومين كالعلل المبقية للعلّة الأصليّة، كما تقدّم مكرّراً.

***

بحث عرفاني:

ورد لفظ النور في الكتب السماويّة كثيراً، لا سيما في القرآن الكريم باختلاف متعلّقه وإضافته:

فتارةً: أُضيف إلى نفسه الأقدس، قال جلّ شأنه: **﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ**

وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نورٍ﴾[٣].

وفي الدُّعاء المأثور: «أنت نور السماوات والأرض».

وأُخرى: أُضيف إلى خلقه، مثل قوله تعالى محكياً عن أحوال المؤمنين في يوم الحساب: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾[٥].

وثالثة: إلى الكتب النازلة من عنده عزّوجلّ على رسله الكرام، كما قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[٨]، وهو القرآن الكريم.

ورابعة: أُضيف إلى الرُّسل والأنبياء، قال تعالى في وصف نبيّنا الأعظم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ

---

١. سورة النور: الآية ٣٥.

٢. سورة التوبة: الآية ٣٢.

٣. سورة النور: الآية ٤٠.

٤. سورة التحريم: الآية ٨.

٥. سورة البقرة: الآية ١٧.

٦. سورة المائدة: الآية ٤٤.

٧. سورة المائدة: الآية ٤٦.

٨. سورة التغابن: الآية ٨.

وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[١]، بل أُطلق على خلفائه المعصومين عليهم السلام، كما في الروايات.

وخامسة: أُضيف إلى الدِّين النازل من السماء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[٢]، والجامع بين هذه الأقسام هو الحقّ، فيدور مداره.

وسادسة: اختصّ النور بغير هذا العالم، أي عالم البرزخ والقيامة، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

ويمكن أن يقال: إنّ جميع تلك الأقسام يرجع إليه سبحانه وتعالى، لما اختصّ به من إشراق الجلال وسبحات العظم التي تضمحلّ دونها كلّ شيء، وإنّ سائر الأنوار بارقة ورشحة من ذلك النور العظيم ـ كما في بعض الدعوات المأثورة ـ ولولاه لكانت الظلمة فاشية ومستقرّة. نعم للإضافة أثرها الخاصّ يحصل من الاستعداد والأهليّة أو القابلية، وإنّ الاختلاف فيه حصل منها وبها.

حقيقة النور:

تقدّم في أحد مباحثنا السابقة أنّ كثيراً من حقائق الأشياء ـ خصوصاً المعنويات التي هي بعيدة كلّ البُعد عن عالم المادّة ـ مستورة عنّا ومحجوبة عن

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٤٦ ـ ٤٥.

٢. سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

٣. سورة الزمر: الآية ٦٩.

٤. سورة التحريم: الآية ٨.

إدراكاتنا، إلّا ما أصابتها عقولنا في عالم الإمكان بقدرها، وأنّ ذلك لا يظهر الحقيقة ولا يبيّن الواقع، بل هو كشف عن بعض الآثار الدالّة على الوجود، وعن بعض الفلاسفة أنّ التعاريف للحقائق كلّها ليست إلّا بيان بعض الآثار، لا من باب الكشف للحقيقة، لأنّه على وجه التحديد غير ممكن، للاختلاف في الأنواع، وللسير الاستكمالي فيها وتفاوت الاستعدادات، إلى غير ذلك من الأُمور التي ذكروها، ولذلك قالوا: «العلم بحقائق الأشياء صعب المنال جدّاً»، ويظهر ذلك أكثر وضوحاً في مثل الروح، والعلم، والوحي، والموت، والحياة، والوجود، وغيرها.

ومن ذلك: النور، فقد عرّفوا حقيقته بتعاريف متعدّدة، لعلّ أسلمها: «أنّه كيفيّة خاصّة ظاهرة بنفسها»، وأنّه «خلاف الظلمة».

والمناقشة فيه واضحة، لأنّه لم يعرف حقيقته وواقعه.

وعن ثالث: «هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره»، وهذا يرجع إلى الأوّل.

وعن رابع: أنّ حقيقته الوجود، والتغائر بينهما لفظي.

وفيه: أنّ الوجود أعمّ بالكتاب والسنّة والعقل كما هو واضح.

وعن خامس: أنّه الصراط المستقيم الموصل للحقيقة.

وفيه: على فرض التنازل أنّه تعريف بأحد المصاديق.

وعن سادس: أنّه القوّة، أو الحلاوة في الباطن، أو الوصول إلى الحقّ، والمناقشة فيه واضحة جدّاً، وأنّ ما ذكر من المصطلحات الصوفيّة التي هي بعيدة عن الماء المعين، ومنهج الشرع المبين، والصراط المستقيم.

فالصحيح ما تقدّم من أنّ النيل إلى الواقع والحقيقة غير ميسور، وأنّ هذه التعاريف كلّها تقريبية، قد يقنع الذهن بها وإن لم تقتنع النفس، وعدم النيل إلى الحقيقة لا يضرّ بالسير والسلوك بعد الدرك أنّه من جند القلب، وبه تكشف

المبهمات وترفع الظلمات ويتميّز الحقّ من الباطل، فيحقّ الحقّ ويبطل الباطل، فينتصر القلب بإقباله على الحقّ بالنور المشرق عليه، وتنهزم الظلمات وتوابعها، إذ لا بقاء للظلمة مع إشراق النور ووضوحه.

اختلاف النور:

النور كالوجود ينقسم إلى حقيقة ومجاز، فالنور الحقيقي هو نور المبدأ جلّ شأنه، كما هو الوجود الحقيقيّ، وسائر الأنوار إشراق منه، وهذا معنى ما ورد في الدُّعاء المأثور: «أنت نور الأنوار»، أو «أنت ربّ الأنوار». وإنّ اختلافه في عالم الشهادة والإمكان حسب سعة إشراقه وانتشاره أو تحديده، بل يختلف بمدى أثره وبارقته على القلب، وحسب مناشئه ومصادره.

ولا يمكن تحديد هذا الاختلاف، لتفاوت النفوس، واختلاف الأسباب والآثار، والتقرّب إليه مرتبةً ودرجةً، ودنواً وبُعداً، إلّا أنّ الجامع الذي ممّا لا ريب فيه هو الكشف للنور، كما أنّ للبصيرة الحكم، وللقلب الإقبال والادبار، ولكن جميعها تختلف باختلاف المراتب والدرجات.

أمّا النور الحقيقيّ الذي لا يتصوّر فيه التشكيك، فهو النور المختصّ بالمبدأ جلّ ثناه، الذي تجلّى به، وسمّى نفسه به، فقال تعالى: **﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**، فإنّه اللّامحدود من جميع الجهات ـ جلالاً وجمالاً، وإشراقاً وملكوتاً ـ فلا يتصوّر نور دونه، والأنوار كلّها فائضة من بحر جبروته، كما ورد في الدُّعاء المأثور: «يانور النور، يا منوّر النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدّر النور، يا نور كلّ نور، يا نوراً بعد كلّ نور، يا نوراً فوق كلّ نور، يا نوراً ليس كمثله نور»، فالكائنات كلّها رشحة من رشحات نوره، وفيض من بحار أنواره، فعليه لا يعقل أن يكون الكون ظلمة ـ كما عن بعض أهل العرفان ـ لإضافته إليه وخلقه بالإرادة

التكوينيّة، إلّا أن يراد من الظلمة في حقّ أهل الحجاب، لا لأهل الحقّ والعرفان.

وبتعبير أوضح: أنّ ذاته تعالى حقيقة النور الذي لا يوصف ولا يمكن تحديده إلّا بسلب النقائص عنه، مستور عنّا كنهه، جامع للكمالات، وإليه تنتهي الكمالات، ومنه أفاضت الأنوار.

وممّا ذكرنا تسقط دعوى بعض أهل العلم من أنّ النور جسم وعرض، الباري جلّ شأنه منزّه عنهما، فلابدّ من التأويل في الآية الشريفة، فإنّ ذلك النور ليس كسائر الأنوار كما عرفت، فلا حاجة إلى التأويل.

على أنّ مقام المظهريّة، والتجلّي، والإشراق غير مقام الذات، وفي بعض روايات نفي الرؤية: «كيف أرآه وحجابه النور»، أي أفاض من نور ذاته نور حجابه، فهو تعالى محجوب، وفي الدُّعاء المأثور: «اللهم ربّ النور العظيم»، أو قوله عليه السلام مخاطباً له جلّت عظمته: «أنت نور النور».

والحاصل: أنّ تجلّيه تعالى بالنور، ليس من قبيل النور المتصف بالكيف والعرض في عالم الإمكان المحدود بالمعقول، وإن كانت السماوات والأرضين كلّها أنواراً أشرقت من نوره العظيم بعدما كانتا معدومتين، فلا داعي لالتماس المجاز في الآية المباركة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي المنوّر لهما، وإن كان ذلك صحيحاً في حدّ نفسه، كما لا معنى للمبالغة فيها أصلاً كما عن بعض، والبحث نفيس جدّاً نتعرّض له في الآية الشريفة المناسبة له إن شاء الله تعالى.

وقد تقتبس النفوس المستعدة أنوارها من الصحف المطهّرة النازلة من السماء على قلب الرُّسل والأنبياء عليهم السلام، فتهتدي إلى الكمال اللائق، وتصل إلى المقام الراقي.

كما أنّ النور يشرق من وجود الرُّسل والأنبياء عليهم السلام على القلوب القابلة أو اللائقه للسير والسلوك لعرفان الحقّ والتوجّه للخالق، وكذا من الأولياء بل

العلماء العاملين بعلمهم المتّقين، الذين وصفهم علي عليه السلام في خطبة همّام.

وقد يشرق النور من جميع الممكنات التي وجدت بالإرادة التكوينيّة، الدالّة على خالقها وبارئها وجاعلها على النفوس القابلة للوصول إلى معرفة موجدها ومدبرها.

وهذه الأنوار كلّها قابلة للشدّة والضعف، ولها مراتب، وفي كلّ مرتبة درجات، وفي كلّ درجة منازل، وفي كلّ منزلة مراحل، وتفصيل ذلك خارج عن موضوع الكتاب.

آثار النور:

الأنوار الإلهيّة تؤثّر في القلوب، وتوجب سعادة النفس ورقيّها، وتخلّف حقائق هي السبل للفوز بالكمالات، فبالنور يميّز الإنسان الحُسن من القُبح، وبعد ذلك البصيرة تذعن أو تحكم على الحسن بحسنه وعن القبيح بقبحه، ثمّ القلب يقبل على ما ثبت حسنه، ويدبر عن ما ثبت قبحه، فتحصل السعادة بعرفان الحقّ، فهذه الحقائق تستند إلى النور، وهو السبب لها، ولذا اشتهر عندهم «الأنوار مطايا إلى العلّام»، لأنّها تشرق على النفوس المستعدة، فتوصلها إلى وادي المعرفة وتربطها مع خالقها.

ولا فرق في تلك الأنوار الفائضة منه جلّ شأنه أن تشرق من الرُّسل، والكتب، أو الأكوان، كلّ لها أثرها الخاصّ على النفس، إن لم تكن على القلوب أكنة.

أقسام النور:

الأنوار المحسوسة بعين البصر المنتشرة من الأجسام النيرة، كالقمرين

والنجوم والأرض وغيرها، أنوارٌ خارجيّة لها أثرها الخاصّ في عالم الإمكـان، ولسنا في مقام بيانها لأنّـها مدركة لكلّ أحد حتّى البهائم، فـلا خـصوصيّة لهـا سوى الآثار، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[١]، والضوء أخصّ من النور، وفي الدُّعاء المأثور: «يا خازن اللّيل في الهواء، وخازن النور في السماء».

وأمّا الأنوار المعنوية التي تدركها البصيرة، فهي على قسـمين: دنـيويّة، وأُخرويّة، والأوّل كنور العقل والعلم، ونور الإيمان، وإنّ الحياة في هـذا العـالم متقوّم بهذه الأنوار، ولولاها لم تسعد حياة، وهـو المـراد مـن الآيـة الشـريفة: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٢]، وفي الحديث: «العلم نور يقذفه الله في قلب مَن يشاء».

ومن الأنوار المعنويّة التي تدركها البصيرة، النور الذي يشرق من الكـتب السماويّة، لا ستئضاءة السبل وإيصال السالك إلى منزل القرب إليه تعالى، وكذا الأنبياء والأولياء كما مرّ.

وهناك أنوار أُخرى ذكرها علماء العرفان، وهي:

الأوّل: نور الطالبين، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة ويظهر نور اليقظة، والروايات الدالّة على ذلك كثيرة، وفي الدُّعاء المأثور: «وهَبْ لي نوراً ترفع بـه ظلمة الجهل عنّي، واطلب به رضاك».

الثاني: نور السائرين، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار، ويظهر به بهجة المعارف والأسرار، وفي كثير من الدعوات السؤال منه جلّ شأنه بإفاضته علينا، ويعبّر عنه بنور الإقبال، ولعلّه المراد من الحديث الوارد عن نبيّنا الأعـظم ﷺ:

---

١. سورة يونس: الآية ٥.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

«إنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر والنفس، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة يُعرف بها؟ قال ﷺ: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

الثالث: نور الوصال أو التوجّه، وبه يحصل الشهود ويشهد القلب مولاه.

وهناك تقسيم آخر، وهو قريب ممّا ذكرنا، نور الإسلام، ونور الإيمان، ونور الإحسان، فبالأوّل الانقياد والإذعان، وبالثاني يكشف ظلمات الشرك الخفي، ويظهر بهجة الإخلاص والصدق والوفاء، وبالثالث تنكشف ظلمة الآنية ويظهر نور وجود المبدأ كما هو، ولهذه الأنوار مراتب ودرجات.

وعن بعض العرفاء المحققين: أنّه بنور الإسلام الواقعيّ يتحقّق الفناء في الأفعال، وبنور الإيمان يتحقّق الفناء في الصفات، وبنور الإحسان يحصل التمكين في الفناء في الذات.

واستغنى بعض منهم عن النور الثالث بذكر الثاني، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الفناء في الصفات قريب من الفناء في الذات، وأنّ الصفات لا تفارق الموصوف، فمن يرى سمعه بالله تعالى وبصره بالله سبحانه ـ كما في بعض الروايات ـ يرمى وجوده بالله جلّت عظمته، فمهما تحقّق أحدهما تحقّق الآخر، ولكن لا على نحو الوجود والموجود حتّى يستلزم المحاذير، بل على نحو المظهريّة والفناء فيه جلّ شأنه، ولذيل الكلام بحث نفيس طويل ننتظر الفرصة للتعرّض له إن شاء الربّ جلّت عظمته وأراد.

وأمّا الثاني: فهو يختصّ بالمؤمنين والأولياء والصالحين، قال تعالى: **﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾**[1].

---

١. سورة التحريم: الآية ٨.

وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١]، أي بوجود الأنبياء والأولياء والمؤمنين العالمين في أرض الحساب.

وهناك تقسيم آخر لنوره جلّ شأنه، وهو نور الأعظم، ونور العظيم، ونور العظمة، كما ورد في الدعوات المأثورة، ويحمل ذلك على مراتب تجلّياته أو يحمل على إدراكاتنا لتلك الأنوار، والله العالم.

إشراق الأنوار:

كما أنّ للأنوار المحسوسة شروقاً وغروباً تدلّ على وجودها و آثارها الخاصّة، كذلك للأنوار المعنويّة، فإنّ لها إشراقها على القلوب والنفوس، ولابدّ فيها من إزالة الحُجُب المانعة من الإشراق، وهي تعلّق القلب بالمادّة والمادّيات وتوطين حبّ الدنيا فيه، وقد يغرب النور عنه وتخمد الفطرة، كما عن عليّ عليه السلام: «إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان»، وأنّ القلوب تقبل على ما يوجب التصفية، وتدبر عمّا يمنعه من التخلية والتحلية، إلّا إذا وصلت إلى مرحلة لا تؤثّر فيها الأنوار مطلقاً، وأظلمت من جميع الجهات، وحسب التعبير القرآني: القساوة، أو أشدّ من الحجارة، أو ران على قلوبهم، فحينئذٍ يتمثّل الإنسان في الشرّ ويصير مصداقاً للشرور (نستجير بالله تعالى)، ومع ذلك كلّه فهو قابل للرجوع إلى الفطرة والاستعانة بها لإزالة الخبائث عنه ورفع الحجب، كما يأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

لوازم النور:

الأصل في النور الخير، والفرح، والسرور، والطاعة لله جلّت عظمته كما

---

١. سورة الزمر: الآية ٦٩.

أنّ الظلمة يتعقّبها الحجاب والشرّ والجهل والقسوة والضيق والشدّة والبُعد عن الله تعالى ، فالخير للنور من قبيل لوازم الماهية في الأشياء ، لا يمكن التفكيك بينهما أصلاً ، مثل الزوجيّة للأربعة ، وفي المقام لازم الحقيقة ، والظلمة تتعقّبها الصفات السيّئة المضادّة للنور وصفاته .

ومرادنا بالأصل ذلك ، لا الأصل المصطلح في علم الأُصول، وسيأتي إن شاء الله تعالى توضيح ذلك في الآيات المناسبة ، كما يأتي أقسام الخير والفرح والسرور أيضاً .

منازل النور ودرجاته:

تقدّم أنّ النور الحقيقي الذي لايمكن تحديده منحصر به تعالى ، وأنّ ما سواه على منازل ودرجات حسب الإشراق منه جلّ شأنه ، فأوّل نور أنزله تعالى عن ذاته الأقدس وأظهره بنور قدرته من العدم ، كان نور نبيّنا الأعظم ﷺ ، ففي الحديث : «أوّل ما خلق الله نوري» ، وعنه ﷺ : «كنت نوراً بين يدي ربّي قبل خلق آدم عليه السلام بأربعة عشر ألف عام ، وكان يسبّح ذلك النور وتسبّح الملائكة بتسبيحه ، فلمّا خلق الله آدم أودع ذلك النور في صلبه» ، وفي الحديث عن ابن عبّاس عنه ﷺ : «لمّا خلق الله آدم عليه السلام أهبطني في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذفني في صلب إبراهيم، ثمّ لم يزل تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتّى أخرجني بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط» .

وأمّا أنوار الأئمّة المعصومين عليهم السلام ، فهي أشرقت من نوره عزّ وجلّ ، وكانت في العرش كما في بعض الروايات ، ثمّ هبطت إلى عالم الشهادة، وبعد ذلك ظهرت الموجودات بوجود نوره جلّت عظمته على حسب الترتيب؛ المجرّدات

العلويات ثمّ السفليات، وكلّما كانت أقرب إلى العـلويات والمـجرّدات كـانت أشرف منزلة، وهكذا بالنسبة إلى المؤمنين حسب درجات إيمانهم، وهذا معنى قوله ﷺ: «أنا من الله والمؤمنون منّي».

وعلى ضوء ما ذكرنا ظهر مراد ما هو المشهور بينهم من أنّـه تعالى أوّل ما خلق العقل الأوّل، ثمّ بقية العقول العشرة، وسيأتي إن شاء الله تعالى توضيح ذلك مفصّلاً.

***

الآية ٢٠ ـ ٢٦

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ
مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي
كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝٢١ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا
قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝٢٢
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً
مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا
نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ
عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝٢٦﴾.

الآيات الشريفة تذكّر بني إسرائيل بضروب من النّعم الجسام، وتعرّفهم باعتنائه عزّوجلّ بهم، حيث فضّلهم على مَن عاصرهم ومَن تقدّمهم من أُمم الأنبياء، وشرّفهم بما منحهم من الآلاء والنعم العظيمة. فابتدأ جلّ شأنه على من عاصرهم معهم بنداء نبيّهم موسى بن عمران عليه السلام لهم، ما يدلّ على مزيد القرب والمزية. ثمّ ذكّرهم بجعل الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، ثمّ أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدّسة الذي كان اختباراً عظيماً

لهم وامتحاناً لنفسياتهم، التي تأثّرت كثيراً بما فرضه فرعون والمصريّون عليهم من العبوديّة وأنواع الظلم عليهم، وكان من نتائج ذلك أنّهم أعرضوا من ذلك وجابهوا نبيّهم بأسوء مجابهة، فاعتذروا بضعف قوّتهم أمام قوّة الجبّارين الذين يحكمون الأرض المقدّسة، فخسروا أهمّ نعمة من النعم الإلهيّة التي أرادها الله تعالى لهم، فأوقعهم عزّوجلّ في التيه، لتهذيب تلك النفوس المريضة وترويضها على تحمّل التكاليف.

وفي سرد هذه القصة للرسول ﷺ والمؤمنين العبرة والموعظة والتذكير. وبيان كيفيّة نقضهم للمواثيق التي أمر الله تعالى بالوفاء بها، وقد ذكر جلّ شأنه جملة منها في ما سبق من الآيات الشريفة، وفي آيات المقام ذكر تعالى جملة أُخرى.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾.

تذكيرٌ لليهود بالنعم الجسام، وتوطئة لبيان شناعة فعلهم في نقض المواثيق وكفران نعم الله تعالى. وتفصيل لكيفيّة نقضهم المواثيق، وتسجيل عليهم بما سلف منهم من الجنايات.

والخطاب للرسول الكريم إعراضاً عن خطابهم، وقد ذكر عزّوجلّ نداء موسى عليه السلام لليهود الدالّ على كمال القرب والمزيّة لهم بالاعتناء بهم، حيث أضافهم إلى نفسه ثمّ عقّبه بتذكيرهم بما خصّهم من الآلاء والنعم الجسام، استمالة بهم ونصحاً لهم في تنفيذ مواثيقه عزّوجلّ.

وتقدّم الكلام في معنى النعمة في قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[1]،

---

١. سورة المائدة: الآية ٣.

وهي إما مصدر أو اسم مصدر، ونسبتها إلى الله تعالى تدلّ على شرفها وعظيم النعمة منه عليهم.

والمراد منها في المقام جنس النعمة، ومجموع النعمة التي أنعم الله عليهم وخصّهم بها، وفي ذكرها بالمقام التذكير باستزادتها واستتمامها، وطاعتهم لله تعالى ورسوله شكراً منهم على تلك النعمة، وتنشيط همّهم لتنفيذ أحكامه عزّوجلّ، والوفاء بعهوده عموماً، والدخول في الأرض المقدّسة خصوصا، لأنّ دخولهم لها يحتاج إلى مزيد الهمّة والنشاط، فإنّ به تتمّ النعمة وتتّضح حقيقتهم بعد الجهد المرير والعمل الدؤب في إصلاحهم، كما أنّ به يتحقّق استقلالهم.

وكيف كان، فإنّ النعم التي اختصّت بها بنو إسرائيل كثيرة، وقد ذكر تعالى في المقام ثلاثة أنواع منها للتذكير، والموعظة، ومزيد الاعتناء، وتذكيرهم بالوقت الذي وقعت فيه النعمة أبلغ من تذكيرهم بما وقعت فيه.

وظاهر الآية الكريمة أنّ ما ورد فيها كان بعد خروجهم من مصر، وإنجاء الله تعالى لهم من ظلم فرعون والمصريين، وأنّ قضية التيه كانت في الشطر الأخير من زمان مكث موسى عليه السلام فيهم، ويؤكّد ذلك ما ورد في بعض الروايات أنّه عليه السلام مات في التيه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

تفصيل بعد إجمال، وقد قسّم سبحانه وتعالى النعم التي أنعمها على بني إسرائيل إلى نعم معنويّة ـ منها: جعل الأنبياء فيهم الذين هم واسطة الفيض، وسبب الاستكمال، وظهور المعجزات الباهرات على أيديهم التي كانت السبب الوحيد في ظهور الحقّ وإنقاذ بني إسرائيل من الظلم، وخروجهم من مملكة الجبابرة والعتاة ـ وإلى نعم ظاهريّة، وهي جعلهم ملوكاً ذوي كيان مستقلّ، بعد أنّ كانوا أذلاء مستعبدين في حكم الطغاة، كما حكى عزّوجلّ حالهم في عدّة

مواضع من القرآن الكريم، فكانت هذه الآية المباركة من أهمّ الآيات الشريفة التي تذكّرهم بضروب الآلاء والنعم، وتعرّفهم باعتنائه سبحانه وتعالى بهم، وتفضيلهم على من عاصرهم ومَن تقدّمهم من الأُمم، فقد خصّهم بأعظم النعم وأشرفها، وهي أنـّه تعالى جعل كثيراً من الأنبياء فيهم، الذين هم من عمود نسبهم ومن قومهم بالخصوص، وقد ذكر عزّوجلّ أسماء جملة منهم في القرآن الكريم، مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، والأسباط، وموسى، وهاورن، وغيرهم ممّن هم من المستعلنين، وأمّا المستخفون الذين لم يرد ذكرهم في القرآن الكريم فهم كثيرون، وقد امتازت بنو إسرائيل بهذه النعمة العظيمة، فلم تكن أُمّة من الأمم في مرّ العصور أن يبعث منهم هذه الكثرة من الأنبياء، ولعلّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]، إشارة إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾.

بيان للنوع الثاني من النعم التي أنعم الله تعالى على بني إسرائيل، وهي النعمة الظاهريّة. وتغيير الأُسلوب فيها إنّما هو لبيان أنّ هذه النعمة قد شملتهم بأجمعهم من دون استثناء، بخلاف النعمة الأُولى التي اختصّت ببعضهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾، وإن كان أثرها يرجع إليهم جميعاً، لأنّ النبوّة أمر إلهيّ يخصّ الله تعالى به مَن يشاء من عباده، بخلاف الملوكيّة، فإنّها قد تشمل الجميع.

ومادّة (ملك) تدلّ على التسلّط والاستيلاء، وهو يختلف باختلاف متعلّقه، وله مراتب متفاوتة جداً، أعظمها وأعلاها مرتبةً هو ملكيّة الله تعالى لما سواه، فإنّ هذه الملكية هي الحقيقيّة، وغيرها ترجع إليه بنحو من الأنحاء، وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يزيد عن مائة وثلاثين موضعاً، وتستعمل

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٧.

بالنسبة إلى جميع العوالم، قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2]، وقد تقدّم ما يتعلّق بها في سورة الفاتحة، فراجع.

والمراد به في المقام هو الاستقلال بالنفس والتسلّط عليها ومالكيتهم لأمرهم بالحرية والتدبير والملكية، بعد أن كانوا عبيداً أرقاء للقبط والفراعنة، ليست لهم أيّة سلطة على أنفسهم وأموالهم وأُمور معاشهم، يسومونهم سوء العذاب، كما ذكر عزّوجلّ في عدّة مواضع من كتابه الشريف، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3].

والفرق بين هذه الآية الشريفة وآية المقام، أنّ الأخير في مقام تعظيم النعم والتعريف باعتنائه عزّوجلّ بهم وتفضيلهم على غيرهم، فناسب ذلك ذكر نداء موسى عليه السلام إيّاهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾، بالإضافة إلى ضميره، إيماء بالقرب والمزيّة، بخلاف آية النداء.

وكيف كان، فإنّ سياق الآية الشريفة يدلّ على صيرورتهم ملوكاً، إذ لم يذكر عزّوجلّ: «وجعل فيكم ملوكاً»، كما هو الشأن في النعمة الأُولى، وهذا يؤكّد على أنّ المراد من الملوكيّة غير ما هو المعروف، بل هو التسلّط على أنفسهم والاستيلاء على شؤونهم وأموالهم، وإن قدّر الله تعالى أن يكون فيهم ملوك كطالوت، وداود، وسليمان، وغيرهم، ولكن ذلك حصل بعد عصر موسى عليه السلام بزمان كثير، والآية الشريفة تدلّ على حصولها لهم في عصره عليه السلام

---

١. سورة غافر: الآية ١٦.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٨٩.

٣. سورة إبراهيم: الآية ٦.

وتحقّقها فيهم في زمانه ﷺ.

وممّا ذكرنا يظهر فساد ما قاله بعض المفسّرين في المقام، من أنّ المراد من (جعلهم ملوكاً) هو ما قدّر الله تعالى فيهم من الملك، الذي يبتدئ من طالوت فداود إلى آخر ملوكهم، فتكون الآية المباركة وعدا بالملك وإخباراً بالغيب، فإنّ ذلك خلاف ظاهر الآية الشريفة كما عرفت.

وقال بعضهم: إنّ المراد به مجرّد ركوز الحكم فيهم، كما كانت عليه العرب قبل الإسلام. ويرد عليه ما أورد على سابقه.

وكيف كان، فالآية الكريمة تعظّم أمر هذه النعمة فيهم، فإنّها نعمة الحرية، والاستقلال والخروج عن التبعيّة والاستذلال.

قوله تعالى: ﴿**وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾.

نعمة أُخرى تشمل جميع ألطافه عزّوجلّ وعناياته بهم التي أُنزلت بآيات باهرات، من فلق البحر، ونجاتهم من بطش فرعون، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسّلوى، وانفجار الحجر، وغير ذلك ممّا كان له الأثر العظيم في حياتهم الدنيويّة والأُخرويّة، والتي اختصّوا بها من بين سائر الأمم، فلم تتوفّر على أُمّة ممّن تقدّم على عهد موسى ﷺ ما توفّرت وتواردت على بني إسرائيل، فكانوا هم المفضّلين على غيرهم من هذه الناحية، ولعلّ في قوله تعالى: ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[1] إشارة إلى ذلك، واللّام في العالمين للاستغراق، فيشمل جميع الأُمم الماضية من دون اختصاص بعالمي زمانهم كما عن بعض، فإنّ ظاهر الآية الشريفة يدلّ على أنّه لم تكن أُمّة من الأُمم إلى ذلك الوقت قد حظيت بمثل ما حظيت به بنو إسرائيل من هذه النِّعم، ولا يخفى أنّ التفضيل له مراتب كثيرة

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٢.

وجهات متعدّدة، فإذا فضّلت بنو إسرائيل من هذه الجهة، فهو لا يدلّ على نفي التفضيل عن غيرهم من ناحية أُخرى، وحينئذٍ لا يحتاج إلى ارتكاب التأويل في هذه الآية الشريفة، والقول بأنّها نزلت في شأن هذه الأُمّة، دفعاً لما قد يتوهمّ من تفضيل بني إسرائيل عليها.

قوله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**﴾.

أمر بدخول الأرض المقدّسة، بعد استمالتهم واستنشاط هممهم بذكر نعم الله تعالى عليهم، واستثارتهم بتذكيرهم آلائه العظيمة. ويستفاد من القرائن الحافّة بالكلام أنّهم كانوا يبغون التمرّد على الامتثال والنكوص عن الطاعة، ولذا كرّر النداء مع الإضافة التشريفيّة، حثّاً على الامتثال واهتماما بشأن الأمر، ثمّ أكّده بالنهي عن الارتداد وإلّا كان عاقبته الخسران.

ومادّة (قدس) تدلّ على التنزّه والطهر، يقال: تقدّس الله، أي تنزّه. وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّ روح القدس نفث في روعي»، يعني جبرئيل عليه السلام، لأنّه خلق من طهارة، والروح هو النفس ومركز القلب، وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يقرب من عشرة مواضع، وتقدّم الكلام فيها في قوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[١]، فراجع.

والأرض المقدّسة هي الأرض المطهّرة من رجس الشرك، والتي يمكن إقامة الدين فيها، ولعلّ هذا هو معنى البركة التي وصف عزّوجلّ الأرض التي وعدهم بها، قال تعالى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾[٢]، فإنّ البركة هي الخير الكثير، وأعلاه مرتبة هو إقامة الدين وبسط

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

الحقّ والعدل ورفع قذارة الشرك، وبذلك يمكن الجمع بين كلمات المفسّرين في المراد من المقدّسة في المقام.

واختلفوا في تعيين الأرض المقدّسة، فقيل: هي الشام، وقيل: هي الطور وما حوله، وقيل: اريحاء، وقال بعضهم: دمشق وفلسطين، وقال آخر: الأردن، وقيل غير ذلك.

والحقّ أن يقال: إنّه لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنّة الشريفة تحديد هذه الأرض الموعودة، إلّا أنّ توصيفها بالبركة كما قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[١] يقرب أنّه المسجد الأقصى وما حوله، فيستفاد أنّ هذه الأرض المقدّسة هي هذه المنطقة بالخصوص، ولعلّ ما ورد في بعض الروايات من أنّها الشام، هو أقرب الاحتمالات، فإنّ أرض الشام موصوفةبالبركة عبرالعصور ومرّالتاريخ،وهي تشمل المسجدالأقصى وما حوله.

ومادّة (كتب) تدلّ على الثبوت واللزوم، سواء كان تكوينيّاً أم تشريعيّاً، وكلاهما ورد في القرآن الكريم، وتقدّم البحث عنها في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾[٢]، والمراد به قضاؤه عزّوجلّ في توطّنهم في الأرض المقدّسة، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾[٣]، وهذه الكتابة وإن كانت مجملة من حيث الوقت والأفراد الذين يسكنون تلك الأرض، إلّا أنّ الخطاب للأمّة من غير تعرّض للأفراد والأشخاص

١. سورة الإسراء: الآية ١.

٢. سورة البقرة: الآية ١٨٣.

٣. سورة القصص: الآية ٦.

وأحوالهم، كما هو شأن أغلب الخطابات القرآنيّة، كما أنّ هذه الكتابة وإن كانت مطلقة في المقام، إلّا أنّها مشروطة بالاستعانة بالله والصبر على الطاعة وتحمّل المشاق، كما يدلّ عليه قوله تعالى حكاية عن قول موسى عليه السلام: **﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾**[1]، وإطلاق الصبر يشمل الصبر عن المعصية، والصبر في الحوادث وتحمّلها، واكتساب التقوى في التكاليف الإلهيّة، وعند تحقّق هذا الشرط منهم تنجز الوعد الإلهيّ، كما دلّت عليه الآية الشريفة: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾**[2].

والمستفاد من مجموع الآيات الشريفة أنّ استيلائهم على الأرض المقدّسة وتوطّنهم فيها، إنّما كان كلمة إلهيّة، وقضاء ربّانياً مشروطاً بالاستعانة بالله عزّوجلّ، والصبر بجميع أقسامه، واكتساب التقوى، فإذا تحقّقت منهم يتنجّز الوعد، وعند انتفائها تشتدّ التكاليف الإلهيّة الشاقّة عليهم، كما تدلّ عليه آيات كثيرة تبيّن أحوالهم وأخبارهم، مذكورة في مواضع متعدّدة في القرآن الكريم.

ومن هنا حرم عليهم دخول الأرض المقدّسة، لما أنكروا ذلك وأعرضوا عن الطاعة، كما أخبر سبحانه وتعالى في قوله: **﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾**[3]، وهذا أيضاً يؤكّد على أنّ دخول الأرض المقدّسة كان مكتوبا عليهم، مشروطاً غير قابل للتغيير والتبديل، وإن لم يكن الوقت معلوماً

---

١ . سورة الأعراف: الآية ١٢٨ ـ ١٢٩.

٢ . سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

٣ . سورة المائدة: الآية ٢٦.

في الآيات الشريفة، ولذا قيل إنّ المشافهين بخطاب الدخول إلى الأرض المقدّسة ماتوا وفنوا عن آخرهم في التيه، ولم يدخل الأرض المقدّسة إلّا أبناؤهم وأبنائهم مع يوشع بن نون. وقد ورد ذكر الوعد مع الشرط في كتاب العهد القديم، راجع سفر التكوين ٦٢: ٥، وسفر تثنية الاشتراع ١ : ٦، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

تأكيد في أنّ الأمر بالدخول مشروط ولا يمكن أن ينال ذلك إلّا بالعمل بالشرط، وبيان في أنّ النكوص عن الطاعة يرجعهم إلى الادبار، فينالوا الأمرّين من العذاب، فيكون انقلاب خسران بجميع النعم التي أرادها الله تعالى لهم، ومنها الدخول إلى الأرض المقدّسة، والكرّة على أعداء الله تعالى، وإقامة دين الحقّ وبسط العدل، فالمراد من الخسران خسران الدارين.

ويستفاد من الآية الشريفة أهمّية هذا الحكم الإلهيّ في تكوينهم وتحقيق سعادتهم، وعظيم أثره في حياتهم الدنيويّة والأُخرويّة، لأنّ الجزاء المترتّب على النكوص والإعراض كان عظيماً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾.

بيان لكيفيّة إعراضهم عن الطاعة، ونقضهم للميثاق.

ومادّة (جبر) تدلّ على إصلاح الشيء بضرب من القهر، وفي حديث علي عليه السلام: «وجبّار القلوب على فطرتها»، أي إصلاحها وتثبيتها على ما فطرها من معرفته جلّت عظمته والإقرار به، شقيّها وسعيدها، ومنه الجبّار من الآدميّين الذي له السطوة والقوّة، فيجبر غيره على ما يريد ظنّاً منه الإصلاح وعلى نحو العلو، ومنه الجبر، وهو الإكراه، وفي الحديث المعروف: «لا جبر ولا تفويض»، كما أنّ منه جبر العظم، وهو إصلاحه، كما مرّ في الحديث، وفي الدُّعاء المأثور

عن علي عليه السلام: «يا جابر كلّ كسير، ويا مسهّل كلّ عسير»، وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يقرب من عشرة مواضع، كلّها تدلّ على الذمّ، إلّا ما اطلق عليه تبارك وتعالى، قال عزّوجلّ: ﴿**الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾[1]، ومعناه الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر أو نهي، أو يقهر خلقه على الموت والنشور.

وقيل: هو العالي فوق خلقه، وسيأتي البحث عنه إن شاء الله تعالى، فإنّ الجبّار من الناس هو الذي يجبر نفسه بنقيصته بادّعاء منزلة من التعالي الذي لا يستحقّها، أو يجبر غيره على ما يريد على نحو العلو والتكبّر والقهر، ولأجل هذا قيل: نخلة جبّارة وناقة جبّارة، يتصوّر القهر بالعلو على الأقران، فهي صفة مذمومة، قال تعالى: ﴿**وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾[2]، وقال تعالى حكايةً عن عيسى بن مريم: ﴿**وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**﴾[4].

وإذا اُطلقت عليه عزّ اسمه كان حقيقةً وصفة كمال، لأنّه استحقّ كلّ علو وكبرياء، فيجبر خلقه بضروب من التدبير والحكمة المتعالية، فهي صفة ذمّ ومدح ـ كالمتكبّر والمتعال ـ فإنّها مدح للخالق وذمّ للمخلوق، لأنّها تنبئ عن نقص فيه، بخلاف الخالق جلّت عظمته.

والجبّار: صفة مبالغة، وقال الفرّاء: «لم اسمع فعالاً من أفعل إلّا في موضعين: جبّار من أجبر، ودرّاك من أدرك»، وقد اختلفوا في المراد من هؤلاء الجبّارين، وذكروا اُموراً فيهم لا تنطبق على القواعد والسنن الطبيعيّة، فتكون

---

١ . سورة الحشر: الآية ٢٣.

٢ . سورة إبراهيم: الآية ١٥.

٣ . سورة مريم: الآية ٣٢.

٤ . سورة القصص: الآية ١٩.

أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة والواقع .

وكيف كان ، فإنّ المستفاد من سياق الآية الشريفة أنّهم أُناس أُولوا بطش وقوّة قد سكنوا الأرض المقدّسة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ .

اشتراط منهم في تنفيذ هذا الحكم ودخول الأرض بخروج القوم الجبّارين ، وهذا الشرط يكشف عن ضعف كامن في نفوسهم، وشعورٍ بالذلّ حتّى أثّر على قواهم الجسديّة ، فصار الخور والجبن ملازمين لهم ، فتمنّوا خروج الجبابرة بطرق أُخرى غير القتال ، لتكون تلك الأرض غنيمة باردة لهم ، ونظير ذلك واقع في مرّ التاريخ ، ويعاني منها الشعوب المستضعفة الذين قهرت إرادتهم وسلبت حريتهم الولاة العتاة الجبابرة ، ونقل لنا التاريخ أنّ بعض العبيد كانوا يرجعون باختيارهم إلى خدمة سادتهم أثناء الحملة على تحريرهم في القرن الماضي ، فلابدّ حينئذٍ للقائد لمثل هؤلاء أن يتصرّف بسرعة لإصلاح نفوسهم ، وتنشيط هممهم ، وجلب النفع لهم ، ولا يقتصر على التخيّل والأُمور الوهميّة .

وقد تضمّنت هذه الآيات الشريفة على أُمور تربويّة دقيقة في إصلاح تلك النفوس المريضة ، فقد بدأت بتذكيرهم نعم الله تعالى وايتائهم من الأُمور العظام التي لم يؤت أحداً من العالمين ، ثمّ أمرهم بالدخول في الأرض المقدّسة ، ليتحقّق أهمّ عامل من عوامل التكوين السياسيّ لهم ، وأعظم دعامة من دعامات التحرير والاستقلال فيهم . وبعد ظهور حقيقتهم في رفضهم الدخول بالقتال جبناً ، ولانهيار معنوياتهم بسبب العبوديّة المقيتة الطويلة ، ثمّ يأتي الوعظ والإرشاد ، فإذا لم ينفع ذلك يأتي دور الإصلاح النفسيّ والبدنيّ في ترويضهما على الطاعة وبعث روح المقاومة والشجاعة في نفوسهم، وتحمّل المشاق في سبيل تكوين سيادتهم ، وهذا ما تحقّق في التيه الذي كتب الله تعالى عليهم مدّة أربعين عاماً ،

وسيأتي في البحث العلمي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

وعدٌ منهم بالدخول، وإن كان حقيقته هو الردّ للحكم الإلهيّ، والكنوص عن طاعة موسى عليه السلام، وإنّما ذكروا ذلك تصريحاً مع أنّه مفهوم ممّا سبق، تأكيداً وتنصيصاً على أنّ امتناعهم من الدخول إنّما هو لأجل وجود الجبابرة فيها، فلابدّ أن يخرجوا منها بأي سبب كان من غير قتال، فإنّه لا طاقة بهم، ويؤكّد ذلك إتيان الجملة الاسميّة المصدرة بـ(ان) في الجزاء، للدلالة على تحقّق الدخول وثباته عند تحقّق الشرط، وهذا القول منهم يثبت ما ذكرناه آنفاً من تأثّر نفوسهم من العبوديّة الطويلة، فلم يتقبّلوا بسهولة حريتهم ورجوع استقلالهم، فقد أحبّوا خروج الجبابرة بسبب من الأسباب التي لم يكن لهم أي ارتباط به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

بيان لمنهج آخر من مناهج التربية الإلهيّة في إصلاح النفوس، وهو الوعظ والإرشاد والتذكير بعواقب الأُمور.

وفي الآية المباركة التعريض لهم بأنّ الخوف لابدّ أن يكون ممّن يخاف سطوته التامّة وقدرته الكاملة، فلا يخاف من مخلوق يدّعي القوّة والسطوة وهو مقهور تحت إرادة خالقه، فيدلّ السياق على أنّ المراد بالمخافة هي مخافة الله عزّوجلّ، بالتحرّز عن عصيانه والإعراض عن طاعته.

وقد حذف اسم الجلالة لتربيب المهابة وتنشيط هممهم، والإرشاد بأنّ الذين يخاف منهم ليسوا كذلك، وأنّ الخوف حقيقة إنّما ينبغي أن يكون من الله تعالى.

كما أنّ الآية الشريفة تدلّ على أنّ في القوم رجالاً كانوا يخافون الله جلّت عظمته، ويتّقونه في أحكامه المقدّسة، ومنهم هذان الرجلان، وقد اختلفوا في

اسم هذين الرجلين، فقيل ـ وهو المعروف وبه وردت بعض الروايات ـ : يوشع ابن نون وكالب بن يوفنا (يفنه)، وذكر بعضهم أنّهما وردا في التوراة أيضاً، وقيل غير ذلك.

وكيف كان، فقد قال بعضهم: إنّ ضمير الجمع في (يخافون) عائد إلى بني إسرائيل، والضمير العائد إلى الموصول محذوف، فمعنى ذلك: وقال الرجلان من الذين يخافهم بنو إسرائيل قد أنعم الله عليهما بالإسلام، وذكروا وجوها في تثبيت هذا القول.

منها: ما رووه عن سعيد بن جبير، كما يأتي في البحث الروائي.

ومنها: ما قرأه بعضهم (يُخافون) بضمّ الياء، وجعلها الزمخشري شاهدة على هذا القول، أي من الذين يخافوهم بنو إسرائيل، ولكنّ ظاهر الآية الكريمة وسياقها يدلان على ما ذكرناه، وغيره ممّا تكلّفوا يحتاج إلى دليل، لا سيما أنّ ما استدلّوا به لم تثبت حجيّته.

ومنها: ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ الخوف من العدو أقرب إلى الذهن من غيره.

وفيه: أنّ ذلك أبعد، والأقرب هو الخوف منه جلّ شأنه.

قوله تعالى: **﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾**.

بالاطمئنان والتثبيت والوقوف على الحقّ والثقّة بوعده جلّ وعلا، وهو صفة ثانية من صفات الرجلين اللّذين يخافان الله تعالى. ولا شكّ أنّ هذه النعمة عظيمة، حيث أوصلتهم إلى مقام الخوف من الله تعالى، الذي لم يصل إليه إلّا من خصّه الله تعالى بالكرامة، وحباه بالنعمة العظيمة، وهو من صفات الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

ولا ريب أنّ هذه الآية الشريفة تدلّ على أنّ مخافتهما لم تكن من أُولئك

القوم الجبّارين، وإلّا لما اختصّا بهذه النعمة، ولم يكد يتحقّق فيهم الاهتداء من الخروج من هذا المأزق، فيرشدوا قومهم بالدخول عليهم الباب كما سيذكره عزّوجلّ، فمن جميع ذلك يستفاد أنّ هذه النعمة هي نعمة الولاية التي اختصّ بها المؤمنون المخلصون، ومن أهمّ درجات الإخلاص الحقيقيّ هو الخوف من الله جلّ شأنه، بل هو حقيقته وقوامه، وأولياؤهم الذين لا يخشون غيره تعالى، قال جلّ شأنه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وممّا ذكرنا يظهر أنّه لا فرق بين أن يقال: إنّ متعلّق (أنعم) هو الولاية، أو يكون الخوف، فإنّه بالآخرة يرجع إلى الأوّل، كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾.

أي: باغتوهم ولا تمهلوهم ليجدوا للحرب مجالاً، وعلى هذا فلا يختصّ بباب البلدة كما قيل، بل يشمل أوّل بلدة من بلاد الجبابرة تلي بني إسرائيل، فإنّ عنصر المباغتة لا يختصّ بأمر معيّن، فإنّ الظروف المتاحة تعيّن ذلك، فلعلّ المراد بالباب ما له شأن في ضعف قواهم ويمهّد الطريق للاستيلاء عليهم، فإنّ ذلك استعمال شائع، لا سيما في مثل هذه الظروف.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

وعد منهما بالنصر والغلبة على العدو، وتأكيد منهما لهم بذلك، وإنّما حصل لهما هذا الجزاء والتأكيد إما اعتماداً على وعد منه عزّوجلّ لموسى بن عمران عليه السلام بتوريث الأرض لنبي إسرائيل كما أخبر به موسى عليه السلام لهما، أو أنّهما عرفا ذلك بإلهام منه عزّوجلّ لهما، لأنّهما كانا من نقباء بني إسرائيل الإثني عشر، أو أنّهما عرفا ذلك من القرائن الحافّة وحالات الجبّارين، فإنّهم أجسام لا قلوب فيها، فلا

---

١. سورة يونس: الآية ٦٢.

يحتاجون إلى قتال إذا باغتوهم وعملوا بما اقترحه هذا الرجلان.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

تشجيع لهم وتطييب لنفوسهم، وحثّ لهم بالاعتماد على الله تعالى والتوكّل عليه، وترك التواني والتواكل، فإنّه يلزم عليهم أن يعملوا بما عندهم من الطاقة، فإنّ التوكّل إنّما يكون بعد ذل الوسع، ومراعاة قانون الأسباب والمسبّباب في عالم الإمكان، كما عرفت ذلك في بحث التوكّل، فراجع سورة آل عمران الآية ١٦٠. وإنّ الشرط في ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ محقّق لموضوع التوكلّ، فإنّ الإيمان به عزّوجلّ حقّ الإيمان، والتصديق بوعده ممّا يوجب التوكلّ عليه حتما، فيجب عليهم القيام بما يقتضيه إيمانهم، ويستفاد منه التهييج والإلهاب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

عناد الرجلين منهم وإصرار على التمرّد والعصيان، وإعراض عن مخاطبة الرجلين الذين دعوا بما دعى إليه موسى عليه السلام، ازدراء بهما، والجملة تتضمّن العناد عن الدخول في الأرض المقدّسة وإياساً من النصر، واشتملت على وجوه من الإهانة والتهكّم بمقام موسى عليه السلام، فقد صرّحوا بالمخالفة وأصرّوا على الاستكبار ونقض الميثاق، ولذا أوجزوا في الكلام مع موسى عليه السلام بعدما أطنبوا فيه في بادي الكلام، ومن المعلوم أنّ الإيجاز بعد الإطناب في مقام الجدال والمخاصمة لايخلو عن الإهانة وكراهة استماع الحديث، ثمّ التأكيد على الإعراض باستعمال أداة النفي الدالّة على التأبيد، وتأكيد بقولهم ﴿أَبَداً﴾، ومجابهته بجواب تنبئهم بكلام خارج عن حدود الأدب.

قوله تعالى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾.

بيان لجهلهم لصفات الربّ عزّوجلّ، وفساد فطرتهم، وجفاء طبائعهم، فإنّ

كلامهم هذا يدلّ على كونهم مشبّهين وثنيّين، إذ وصفوه تعالى بالذهاب والانتقال، وهما من صفات الأجسام، وقد أخبر عزّوجلّ أنّهم نكصوا عن التوحيد وعبدوا العِجْل، فقال حكاية عنهم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]، ومن هنا تعرف أنّ هذه الجملة على معناها الحقيقي، فلا نحتاج إلى التكلّف في إخراجها عنه وحملها على المعنى المجازي كما فعله بعض المفسّرين، فإنّهم قصدوا ذهابهما حقيقة، كما يستفاد من ظاهر العطف ﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلَا﴾، ويدلّ عليه ذيل الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وهذه العبارة تدلّ على جفائهم، وبُعدهم عن الأدب الرفيع، ومنتهى التمرّد، والمبالغة في العصيان، والاستهانة والاستهزاء به عزّوجلّ وبرسوله، وعدم المبالاة بهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

أي: لا نبرح عن مكاننا ولا نقاتل، وقد قالوا ذلك استهانة بالله تعالى وبرسوله موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.

استنصار من موسى عليه السلام في إجراء الأمر الإلهيّ، وشكوى منه عليه السلام إلى ربّه لحال نفسه وأخيه، والاعتذار إليه تعالى، والتنصّل من فعل قومه وفسقهم، فإنّه عليه السلام لم يتعرّض لحال غيرهما من المؤمنين، فإنّ المقام يقتضي التعرّض لحال أنفسهما، لا حال من خرج عن الطاعة وفسق عن أمره.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

والعبارة تدلّ على غاية الانقطاع إليه عزّوجلّ، فقد توجّه إلى ربّه جلّ شأنه بقلب مليء بالحزن، مشفق خائف وجل، وبمثله تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة، وذكرنا أنّ اسم «الربّ» له أهمّية خاصّة في الدُّعاء، وأثر عظيم في استجابته، وهذا القول يدلّ على عظم هذا الأمر وأهمّيته في حياة بني إسرائيل، فإنّه عليه السلام لم يتركهم على حالهم، ولم ينصرف عنهم بمجرّد إعراضهم واستهانتهم له، فإنّ هذا الأمر له الأثر الكبير في تثبيت دعوته واستمرارها، وإنّه أساس كلّ أمر ونهي فيهم، وفي الإعراض عن هذا الأمر تشتّت كلمتهم، وإهدار وحدتهم، ولهذا فقد بثّ شكواه إلى ربّه جلّت عظمته، وطلب منه عزّوجلّ إصلاح الأمر بعد ما بلّغ هذا الحكم، ودعاهم إليه بأبلغ وجه فأعذر فيه، فلو لم يكن الموضوع بمثابةٍ من الأهميّة كما عرفت، لكان مقتضى الحال أن يرجع إلى ربّه ويطلب الفصل بينه وبين قومه الفاسقين الذين واجهوه بأشدّ الامتناع، ويستمد منه العون في إحلال هذه العقدة، كما صنعه الأنبياء الذين سبقوه والذين لحقوه عند ما كان أقوامهم يعارضونهم بالردّ والامتناع، وهو شأن التبليغ والدعوة، فيقول إنّي بلّغت وأعذرت ولا أملك لهم أمراً إلّا نفسي وأخي، وقد قمنا بما علينا من واجب التكليف، بل رجع إلى ربّه واشتكى إليه وبثّ حزنه ممّا فعله قومه، واستنصره في إجراء الأمر الإلهيّ، مع بذل نفسه ونفس أخيه في سبيل تطبيقه، فإنّ كلّ واحد منهما يملك من نفسه السمع الطاعة والامتثال، كما يملك من نفس هارون فإنّه خليفته ووصيّه ووزيره، وهذا لا ينافي أنّه عليه السلام كان يملك من غيره ممّن أخلص لله تعالى وله من المؤمنين السمع والطاعة، كما حكي عنهم في ما سلف من الآيات المباركة.

ومن ذلك يعرف فساد ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ هذه العبارة تدلّ على أنّه لم يكن يوقن بثبات الذين أخبر الله تعالى عنهما آنفاً، فإنّها لا تدلّ على

ذلك بشيء من الدلالات ، فهو عليه السلام إنّما اقتصر على نفسه وأخيه ، لأنّهما واسطتا الفيض، والمبلّغان عن الله تعالى فقد بالغا في الدعوة وناضلا أشدّ النضال في سبيل تنفيذ هذا الحكم ، ولكنّهما جُوبِها بأشدّ الامتناع والاستهانة من قومها ، كما حكي عزّوجلّ .

وكيف كان ، فلا يستفاد من قوله عليه السلام الردّ لما أمر به ربّه ، ولا الاعتذار منه عن عدم الدخول ، بل كان مصراً على تنفيذه طالباً منه النصرة والعون ، فإنّ فيه حياتهم الماديّة والمعنويّة ، وفيه تثمر جهوده .

والظاهر من العبارة أنّ قوله : ﴿وَأَخِي﴾ ، معطوف على الياء في قوله : ﴿إِنِّي﴾ . والمعنى : أني لا أملك إلّا نفسي وأخي مثلي لا يملك إلّا نفسه ، فهما اللّذان يملكان نفسيهما على الطاعة والامتثال، ويعرفان حقّ المعرفة ما لهذا الأمر الإلهيّ من عظيم الأثر .

وقيل : إنّه معطوف على قوله : ﴿نَفْسِي﴾ ، أي أنّي لا أملك إلّا نفسي وأملك أخي ، فليس لي غيرهما ، فلا ناصر لي ولا معين ، فإنّ القوم أعرضوا عن الطاعة وامتنعوا عن الامتثال ، ولا بأس به أيضاً ، فإنّه يرجع إلى الأوّل ، فإنّ كلّ واحد منهما يملك نفسه على الطاعة والامتثال ، فكان يملك موسى أخاه هارون على السمع والطاعة له ، فإنّ طاعته من طاعة الله ، كما يملك الخلّص من المؤمنين به على قلّتهم .

قوله تعالى : ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ .

دعاء منه عليه السلام في القضاء الفصل وبيان الحكم العدل من دون طلب للعذاب الإلهيّ عليهم ، فإنّه عليه السلام كان الشفيق عليهم من السخط الربوبيّ حريصاً عليهم من نزول النقمة ، ولكنّه كان يعلم أنّ بقاءهم كذلك يفوّت الغرض الذي بعث لأجله إليهم ، فلابدّ من معالجة الموضوع وإصلاحهم وتهذيب نفوسهم ، فاختار عزّوجلّ

التيه وكتبه عليهم، وهو أمر تربويّ إصلاحيّ، وإن تضمّن المشقّة والعذاب عليهم، فإنّه لابدّ منه، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فإنّه وعدٌ منه عزّوجلّ على عدم نزول العذاب عليهم وإنّما هو تربية وإصلاح.

والآية المباركة تدلّ على أنّهم بإعراضهم عن الطاعة والامتثال ومجابهة رسولهم بأسوأ كلامهم، قد خرجوا عن خالص الإيمان والتوحيد، ودخلوا في التشبيه، وارتكبوا إثماً كبيراً.

ومادّة (فرق) تدلّ على الفصل والتمييز. ومنه فرق الشعر إذا فصله وميّز بينه، ومنه القضاء وفصل الخصومات، قال تعالي: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[3].

وهذا هو المراد به هنا، أي الفصل بينه وأخيه عليهما السلام وبين قومه الذين عاندوه وأعرضوا عن طاعته بالحكم العدل، وهو يدلّ على حصول البينونة، والمباعدة بين الطائفتين بسبب فسقهم، فقد صارا خصمين.

والفرق هو الفصل بين شيئين، وقال بعضهم: فرقت ـ بالتخفيف ـ في المعاني، وفرّقت ـ بالتشديد ـ في الأعيان، كما يقال: فرقت في الكلام، بالتخفيف، وفرّقت بين العبدين، بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

---

١ . سورة الدخان: الآية ٤.

٢ . سورة آل عمران: الآية ١٠٥.

٣ . سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

بيان حكم العدل والقضاء الفصل ، ومنه يستفاد أنـّـه ﷺ لم يـطلب مـنه عزّوجلّ نزول العذاب والسخط الإلهيّ ، بل طلب ما هو صـلاحهم فـيه ، فـإنّهم عانوا ما عانوا من شدّة العذاب الدنيويّ ، من فرعون وآله ، كما حكى عزّوجلّ في كتابه الكريم ، فكان موسى ﷺ شفيقاً عليهم، فاستجاب عزّوجلّ دعاء نبيّه فحرم عليهم دخول الأرض المقدّسة حتّى طهرت نفوسهم وتزكّت بتحمّل المشاق .

والحرمة هنا حرمة منع ، أي ، التحريم التكوينيّ ، وهو القضاء ، لا التحريم التعبديّ التشريعيّ ، فإنّهم كانوا مأمورين بدخولها من دون نسخ ، كما يقال : حرّم الله وجهك على النار ، وقال تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾[١] ، وقـال تـعالى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٢] .

ومادّة [تيه] تدلّ على التحيّر ، يقال : تاه ، يتيه ، تيهاً ، وتوهاً ، إذا تحيّر ، وفي حديث معرفة الله تعالى : «فتاهت به سـفينته» ، أي إذا ضـلّ وتـحيّر ، والأرض التيهاء هي التي لا يهتدى فيها ، وقد استعملت بالياء والواو ، أي : تـهيته ، واليـاء أكثر ، واللام في الأرض للعهد .

والمعنى : أنـّـهم مـمنوعون مـن الأرض المـقدّسة ، فـلا يـدخلونها ولا يملكونها مدّة أربعين سنة ، يسيرون في الأرض تائهين متحيّرين لا يرون طريقاً ولا يدرون إلى أين ينتهي مسيرهم ، فلا هم أهل مقام في البلد ، ولا هم أهل بدو يعيشون كعيشة القبائل .

والتحريم في هذه المدّة له من الحِكَم الكثيرة والمصالح المـتعدّدة ، وقـد ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ لعدد الأربعين ميزة خاصّة وأثاراً مـهمّة فـي إصلاح النفس وتهذيبها ، وسيأتي في البحث العلمي مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

---

١ . سورة القصص : الآية ١٢ .

٢ . سورة الأنبياء : الآية ٩٥ .

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

الأسى هو الحزن، وقال الراغب: «وحقيقته اتّباع الفائت الغم، يقال: آسيت عليه أسىً، وأسيت له»، أي: فلا تحزن على القوم الفاسقين، والخطاب لموسى عليه السلام، وفيه تقرير منه تعالى لوصفه عليه السلام إيّاهم بالفاسقين في دعائه، وهو يدلّ على أنّ سبب نزول النقمة هو أنّهم فاسقون استحقّوا وبال عصيانهم، فلا ينبغي أن يحزن على مثل هؤلاء.

وقال بعضهم: إنّ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله، والمراد بالقوم الفاسقين معاصروه صلى الله عليه وآله من بني إسرائيل لما عاندوه. وهذا صحيح، لكنّ ظاهر الآية الشريفة يأباه، وإن أمكن القول بأنّ الغرض من نقل قصص بني إسرائيل هو العبرة والموعظة والإرشاد، وتطييب نفس الرسول صلى الله عليه وآله ممّا لاقاه منهم.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

ذكرنا غير مرة أنّ (إذ) في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، مفعول لفعل محذوف، خوطب به سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ، بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ في غاية الفصاحة والبلاغة، فإنّ توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت ﴿وَإِذْ قَالَ﴾، أبلغ من توجيهه إلى ما وقع فيه، وإن كان هو المقصود بالذات. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ إمّا متعلّق بالنعمة إن جعلت مصدراً، أو بمحذوف وقع حالاً منها إذا جعلت اسماً، أي اذكروا أنعامه علكيم.

وذكرنا أنّ تغيير الأُسلوب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ يدلّ على أنّهم تغيّرت أحوالهم عمّا كانت سابقاً، فصاروا كلّهم ملوكاً، وهو يدلّ على أنّ المراد بالملك غير ما هو المصطلح عليه في علم السياسة والتدبير.

واللّام في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ للعهد، أي عالمي زمانهم وما سبقهم، أو للاستغراق لجميع من سبقهم، كما عرفت في التفسير.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ إما مجزوم بالعطف، وهو الظاهر، أو منصوب في جواب النهي من قبيل: لا تكفر فتدخل النار، وناقش فيه جمعٌ.

والجملة الاسميّة: «فإنّا داخلون» المصدّرة بـ(ان) فيها الدلالة على تقرير الدخول وثباته عند تحقّق الشرط، وفيه التأكيد على عدم دخولهم ما داموا فيها.

والقراءة المعروفة في قوله تعالى: (يخافون) بفتح الياء، وقرأ بعضهم بضمّها. وجعلها الزمخشريّ شاهدة على أنّهما من الجبّارين، وقد عرفت ما

يتعلّق بذلك في التفسير، وفيه احتمالان آخران مذكوران في الكتب المفصّلة، فراجع.

وجملة: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ صفة ثانية لرجلين، أو اعتراض. وقيل غير ذلك.

و(أبداً) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾، معنى الدهر الطويل، و«ما داموا فيها» بدل من «أبداً»، إما بدل البعض، أو بدل الكلّ من الكلّ، أو عطف بيان لوقوعه بين النكرتين.

ويجوز في أخي ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ وجوه من الإعراب، **منها**: إنّه منصوب بالعطف على اسم «ان»، أو أنّه مرفوع بالعطف على فاعل (املك) للفصل، أو أنّه مبتدأ خبره محذوف، أو أنّه مجرور بالعطف على الضمير المجرور على رأي بعض النحويّين. واشكل على بعض الوجوه بأُمور مذكورة في محلّها، فراجع.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، فالمعروف أنّ الأربعين ظرف منصوب بـ(محرمة)، فيكون التحريم مؤقتاً بهذه المدّة، فلا تنافي بينه وبين قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، لأنّ الكتابة غير مؤقتة والتحريم مؤقت، وهو الظاهر من الآية المباركة كما عرفت آنفاً، ويأتي في البحث الدلالي مزيد بيان.

وقيل: إنّ الأربعين ظرف لقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ﴾ مقدّماً عليه، فيكون التحريم مؤبداً، إذا التقدير: فإنّها محرّمة عليهم أبداً يتيهون في الأرض أربعين سنة.

والظاهر هو الوجه الأوّل، ويؤيّده أنّ الغالب في الاستعمال تقديم الفعل على الظرف، لا تأخّره عنه. وعلى فرض القول بالوجه الثاني، فإنّ التحريم لايكون مؤبّداً، لقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فإنّ

الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إمّا بيانيّة لكيفيّة حرمانهم، أو حال من ضمير (عليهم).

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ على فضل بني إسرائيل وعظيم ما أنعم عليهم، لجملة من النعم الماديّة والمعنويّة، ولم تكن في القرآن الكريم مثل هذه الآية الشريفة التي تعدّ على بني إسرائيل أنواع النعم، وتدلّ على تفضيلهم على غيرهم، وما حباهم الله تعالى من الكرامة والفضل العظيم، فلم تسبقهم أُمّة من الأُمم بمثل هذه النعم، ولكنّهم كفروا بها وأعرضوا عمّا أمرهم به الله تعالى، ومع ذلك فإنّه عزّوجلّ لم يتركهم سدىً، فقد ابتلاهم بأنواع المِحَن والبلاء، فقد ابتلوا على قدر الكفر، ولعلّ كتابة التيه عليهم لأجل ازدرائهم بالنعم، ووقوعهم في اضطراب فكري ونفسي، فكان لابدّ من تيه ماديّ لتصلح به نفوسهم وترجع أفكارهم إلى السداد وتهتدي قلوبهم إلى الرشاد، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

الثاني: يستفاد من سياق الآيات الشريفة في المقام النظام الإلهيّ في تنظيم شؤون الناس، وهو يمرّ بمراحل متعدّدة.

منها: التهذيب بالتزكية والتعليم بإرسال الرُّسل والأنبياء، وهذا ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

ومنها: النضج الفكريّ وجعل الإنسان حرّاً، مالكاً لنفسه، حرّاً في تصرّفاته، لا تؤثّر عليه الأفكار الدخيلة، ولا يقبل الابتزاز والظلم والعدوان،

ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾.

ثمّ مرحلة الاختصاص والتميز بما يمنحهم ربّهم من أنواع النِعَم المادّيّة والمعنوّية التي لها الدخل الكبير في تكوين هويّتهم وشخصيّتهم، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ولأجله تميّز بنو إسرائيل عن غيرهم من سائر الأُمم.

ثمّ المرحلة الأخيرة، وهي الاستقلال في الأرض التي تعتبر المرحلة الأشدّ صعوبة من تلك المراحل الأخيرة، فإنّها تحتاج إلى جهاد وكفاح مستمر، فإنّ على الأرض تطبيق واقع النظام الإلهيّ التي تبقى مهداً للأجيال القادمة ومدرسة للتهذيب والإصلاح، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾، ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ إشارة إلى جميع تلك المراحل، فإنّها ممّا كتبه الله تعالى على كلّ أُمّة تريد السعادة والصلاح لها، فإنّها بدون هذا النظام الدقيق لا يمكن الوصول إليهما.

وهذه المراحل هي متكاملة مترابطة ترابطاً دقيقاً، ولكلّ واحدة منها أُسساً وقواعد متقنة، قد شرحها عزّوجلّ في القرآن الكريم وبيّنتها السنّة الشريفة بياناً شافياً، ولا يمكن نيل الغرض المحمود منها إلّا بتطبيقها تطبيقاً كاملاً، فإنّ الإعراض عن هذا النظام الربانيّ يوصل الإنسان إلى طريق مسدود، لا يوقعه إلّا في متاعب تسلب راحته، و لا يهدأ له البال وتزدحم عليه المشكلات التي ليست لها علاج صحيح إلّا بالرجوع إلى الطاعة وتطبيق نظام الشريعة الغرّاء.

وفي أحوال بني إسرائيل ـ من ابتداء حياتهم في مصر حتّى خروجهم منها والدخول في التيه، وما لاقوه ومن المتاعب ـ العظة والعبرة لمَن أراد أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً، وأُسوة لمَن أراد الخير والصلاح والسعادة للمجتمع، وإيصاله إلى سمو الرقي.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، أنّ الإعراض عن طاعة الله تعالى واتّباع أنبيائه الكرام يوجب سلب السعادة والوقوع في الخسران، وإطلاقه يشمل جميع أنواع الخسران الماديّ والمعنويّ.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا﴾، على غاية الإحباط والشعور بالذلّ الكامن في نفوسهم نتيجة استعبادهم الطويل وتذليلهم المرير من قبل فراعنة مصر، فإنّ الظلم المستمر يؤثّر على النفوس، بل حتّى على الجمادات كما تدلّ عليه عدّة آيات، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١]، وفي الحديث: «إنّ الظلم يذر الدِّيار بلاقع من أهلها»، قد دلّت عليه التجربة.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾، أنّ الخوف من الله تعالى يوصل الإنسان إلى المقامات السامية والمنازل العالية، وأنّه ممّا يوجب أن ينعم الله تعالى عليه بأنواع النِّعم الإلهيّة.

السادس: يمكن أن يستفاد من حذف المتعلّق في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ العموم، أي الخوف من الله العظيم والعمالقة، وخوفهم من الله تعالى؛ لأنّهما كانا على درجة من الإيمان، والخوف من العمالقة؛ لأنّهم كانوا ذوي سطوة وقوّة، ولا يمكنهم الغلبة عليهم إلّا بالحيطة والحذر واتّخاذ الأسباب الظاهريّة، ثمّ التوكلّ على الله تعالى، ولذا اقترحا على قومهم من بني إسرائيل بالدخول عليهم الباب، والخوف من أبناء قومهم في إظهار الحقيقة وبيان الواقع لهم لضعف إيمانهم، ولوجود الذلّ الكامن في نفوسهم، ولذا دأبوا على إنكار الحقّ ومجابهة المحقّ

١. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

بأسوأ إنكار.

وعلى هذا تكون الآية الشريفة من الأدلة على تشريع التقيّة وجوازها ـ بل وجوبها ـ في مورد الخوف والضرر حسب اختلاف الموارد.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي**﴾، على غاية رقي الإنسان في مدارج الكمال، بحيث يملك نفسه ويقدر في التسيطر على مشاعره وتوجيهها إلى الصراط المستقيم وجعلها تحت إرادته عزّوجلّ واتّباع شرائعه وتوجيهاته وإرشاداته، ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة الراقية من الكمال إلّا بالمجاهدات الكبيرة، والتزام الطاعة والتقوى، واجتياز المراحل الصعبة التي تكون في هذا الطريق، ولم يصل إلى هذه المرتبة إلّا المخلصون من عباد الله تعالى الذين استثناهم إبليس من غوايته، كما حكي تعالى عنه بقوله: ﴿**وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1].

والآية الشريفة تدلّ أيضاً على عظمة هارون أخي موسى عليه السلام، فقد كان الوفي لأخيه والمطيع لأوامره وتعليماته والمنفِّذ لتشريعاته، حتّى انتهى به الأمر إلى جعل نفسه بين يديه، فصار موسى عليه السلام مالكاً لها كما ملك نفسه، وهذه هي المرتبة الأخيرة من مراتب الطاعة لله تعالى ولنبيّه عليه السلام، ولم يصل إلى هذه المرحلة إلّا إذا ملك نفسه بالمجاهدة.

ومن هنا تعرف أنّه لا فرق بين أن نقول: إنّ كلمة (أخي) عطف على (نفسي)، أو على الضمير في (لا املك) فإنّ أحدهما يلازم الآخر كما هو معلوم.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾، على أنّ الفسق والخروج عن الطاعة يوجب البينونة بينه وبين الله تعالى وأنبيائه العظام، فإنّ بني إسرائيل أعرضوا عن الطاعة وفسقوا عن أمر ربّهم وتعليماته، ولذا طلب

---

١. سورة الحجر: الآية ٣٩ـ ٤٠.

موسى عليه السلام أن يفرّق بينه وبين قومه بحكمٍ يكون فيه الفصل والحدّ عن فسقهم وطغيانهم، وذكرنا أنّ هذا الدُّعاء منه عليه السلام لم يكن طلباً لنزول العقاب عليهم، فإنّه عليه السلام جاهد جهاداً مريراً معهم حتّى أوصلهم إلى هذه المرحلة من حياتهم، فلابدّ من علاج ذلك حتّى لو استلزم المشقّة الشديدة، فكتب الله تعالى لهم التيه، وقد كان موسى وأخوه عليهما السلام في غنى عنه، ولكنه جعل نفسه ونفس أخيه تحت إرادته ومشيئته تعالى. ومن هنا يظهر السرّ في تقديم ﴿**رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي**﴾ على دعائه.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾، مناسبة العقاب مع العصيان، فإنّهم أعرضوا من طاعة الله ورسوله، ولم ينفّذوا ما أمرهم تعالى بدخول الأرض المقدّسة، الذي أراد عزّوجلّ منه استقلالهم وتطبيق شريعته فيها، وقد جابهوا نبيّهم أسوء مجابهة، وأظهروا ما هو كامن في نفوسهم من التردّد والحيرة والاضطراب ولم يبدوا العزيمة، فكان ذلك سبباً في الدخول في التيه الذي هو الحيرة والاضطراب أيضاً، ولكن فعل بهم هذه في الأرض لتمرين نفوسهم على تحمّل المشاقّ وقبول المتاعب والصعاب، فتستقرّ على أمر واحد، بخلاف ما كانوا عليه قبل التيه من اضطراب فكري، وضعف في الإرادة والصعوبة في قبول الخير والصلاح، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

العاشر: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾، أنّ حرمة الدخول إلى تلك الأرض المقدّسة مغيّاة إلى أربعين سنة، فإنّ هذه المدّة كافية لتصفية النفوس وتزكيتها وتهذيب القلوب من الفساد وتربية الأبدان على تحمّل المشاقّ، وقد ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ لعدد الأربعين الأثر الكبير في ذلك.

وذكر بعضهم أنّ الحرمة أبديّة، جزاء أعمالهم السيّئة، وهتكهم لحرمات الله

تعالى، وجرأتهم على نبيّه الكليم، ومجابهته بأسوء مجابهة، ولكنّ هذا القول ينافي ظاهر الآية الشريفة، فإنّ الحرمة فيها لم تكن تشريعيّة بحتة، بل للحرمة التكوينيّة فيها مجال واسع، فإنّه بعد ظهور نواياهم الفاسدة وسريرتهم المريضة لا يبقى موضوع للدخول إليها، فإنّه مشروط بأُمور أغلبها إن لم تكن كلّها منتفية عندهم آنذاك، فلابدّ من علاج ذلك ليتسنّى لهم الدخول، فإنّهم أُمّة تميّزت عن غيرها بأن أنعم الله تعالى عليها بعد العذاب المرير الذي قاسوه مدّة مكثهم في مصر، على أنّ أرض الله تعالى لم تكن ملكاً لأحد من عباده، فإنّها يرثها عباد الله الصالحون، فكانت فترة التيه كافية لتربيتهم على الصلاح، فإن كانوا كذلك، فهم الوارثون وإلّا فسيرثها غيرهم من الصالحين، وللبحث تتمّة يأتي في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

***

بحث روائي:

في «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً**﴾، «يعني: في بني إسرائيل، لم يجمع الله لهم النبوّة والملك في بيت واحد، ثمّ جمع الله ذلك لنبيّه».

أقول: الرواية في مقام بيان أفضليّة نبيّنا الأعظم ﷺ على موسى عليه السلام، فجعل في بيته ﷺ النبوّة والملك، أي الولاية كما يأتي، وأمّا في بيت موسى عليه السلام لم يكن كذلك، وإنّما كان في بني إسرائيل.

وعن محمّد بن سليمان الديلمي، عن أبيه، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً**﴾؟ قال عليه السلام: الأنبياء رسول الله ﷺ وإبراهيم وإسماعيل وذريّته، والملوك الأئمّة، قلت: وأي الملك أفضل؟ قال: ملك الجنّة والنّار».

أقول: الرواية ـ مع قطع النظر عن السند ـ مضطربة المتن. ولعلّ الإمام عليه السلام أراد ذكر أجلّ المصاديق لمطلق الأنبياء ـ لا تفسير الآية المباركة ـ لأنّ ما ورد فيها من ذكر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا من بني إسرائيل، كما هو واضح، وكذا بالنسبة إلى الأئمّة للملوك، والمراد من الذيل الملك (بالفتح)؛ والأولى ردّ علمها إلى أهله.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾**، قال: «كان الرجل من بني إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار، يسمّى ملكاً».

أقول: سياق الآية الشريفة الامتنان على بني إسرائيل، كما تقدّم في التفسير، وما ورد في الرواية سار في جميع الأُمم، ولا يستحقّ ذلك الامتنان من الله جلّت عظمته، ولعلّ المراد التفوّق النسبي، ومَن كان كذلك عدّ في بني إسرائيل ملكاً، لأنّهم كانوا عبيداً للفراعنة. وكيف كان، فقد وردت روايات كثيرة في هذا المعنى، فلابدّ من صناعة التأويل فيها حتّى تلائم سياق الآية المباركة.

وعن الشيخ المفيد في «أماليه» بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لمّا انتهى بهم موسى إلى الأرض المقدّسة، قال لهم: **﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾**، وقد كتبها الله لهم، قالوا: **﴿يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**، فلمّا أبوا أن

يدخلوها حرّمها الله عليهم فتاهوا في أربع فراسخ أربعين سنة، يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين.

قال أبو عبد الله عليه السلام: كانوا إذا أمسوا ناد مناديهم استتموا الرحيل فيرتحلون بالحدّ أو الزجر، حتّى إذا أسحروا أمر الله الأرض فدارت بهم فيصبحوا في منزلهم الذي ارتحلوا منه، فيقولون: قد أخطأتم الطريق، فمكثوا بهذا أربعين سنة، ونزل عليهم المنّ والسّلوى حتّى هلكوا جميعاً، إلّا رجلين يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وأبناءهم، وكانوا يتيهون في نحو من أربع فراسخ، فإذا أرادوا أن يرتحلوا يبست ثيابهم عليهم وخفافهم، قال: وكان معهم حجراً إذا نزلوا ضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكلّ سبط عين، فإذا ارتحلوا رجع الماء إلى الحجر ووضع الحجر على الدابة، وقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ موسى عليه السلام قال لنبي إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لهم، ثمّ بدا له فدخلها أبناء الأبناء».

أقول: الظاهر التصحيف والاشتباه من النساخ، والصحيح، قال: قال أبو جعفر عليه السلام، فتكون رواية واحدة كما يقتضي السياق، وإلّا فالرواية متعدّدة. وكيف كان، فالروايات في كيفيّة التيه وما جرى عليهم فيه كثيرة منقولة عن طرق الشيعة والسنّة، كما أنّ التيه في نفسه خارق للعادة، وكان لأجل مصالح وحكم كذلك، وما جرى على بني إسرائيل فيه من خوارق الطبيعة، وأنّ الروايات الواردة في حياة بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام تدلّ على أنّ ذلّ الرقيّة كان فاشياً في مجتمعهم، ولم تكن لهم أيّة نفسيّة توجب اندفاعهم للخروج عنها إلّا بتغيير جذري لطبائعهم، وهو قد حصل في التيه، ولعلّ خوارق العادة أو انثلام الطبيعة فيه لم تكن إلّا لأجل إرشادهم إلى الخالق الرحيم، وإنّه قادر على تغيير ما ارتكز في نفوسهم من الذل والانكسار كما تقدّم في التفسير، ولا بد أن يكون كذلك

بحكم العقل والفطرة.

ثمّ إنّ اختلاف الروايات في ما جرى عليهم في التيه لا يضرّ، لأنّها قريبة المعاني نوعاً ما، ولا شيء فيها ما يخالف الكتاب، ولذلك لا جدوى في سردها والجمع بينها، وسيأتي ما يتعلّق بالبداء إن شاء الله تعالى.

وفي رواية حريز عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده، لتركبن سنن مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، حتّى لا تخطون طريقهم ولا يخطئكم سنّة بني إسرائيل.

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: قال موسى عليه السلام لقومه: **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾**، فردّوا عليه وكانوا ستمائة ألف: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾** أحدهما يوشع بن نون والآخر كالب بن يوفنا هما ابنا عمّه، فقالا: **﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**، قال: فعصى أربعون ألفاً وسلم هارون وابناه ويوشع ابن نون وكالب بن يوفنا، فسمّاهم الله فاسقين، فقال: **﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**، فتاهوا أربعين سنة لأنّهم عصوا، فكانوا حذو النعل بالنعل، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض، الحديث».

أقول: أمّا قاعدة ركوب السنن الماضية حذو النعل بالنعل في هذه الأمّة، فقد وردت فيها روايات كثيرة مروية عن طرق الشيعة والسنّة، ودلّت التواريخ المعتبرة على ذلك، ولا مجال لنقل الوقائع بعد كثرة الشواهد.

وأمّا ذكر العدد في الرواية، فهو تقريبيّ لا دقّي، ولا يضرّ الاختلاف في الأقل والأكثر، كما مرّ.

وتطبيق الآية الشريفة على ما حصل من الحوادث بعد ارتحال نبيّنا

الأعظم ﷺ إلى الملأ الأعلى من باب التطبيق، والقاعدة المتقدّمة تشهد على ذلك.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس، قال: «خلق لهم ثياب لا تخلق ولا تذوب».

أقول: يمكن أن يكون ذلك من متانة الصنع والمادّة بحيث يعمر الثوب أربعين سنة وأكثر. وأمّا الكيفيّة من الطول والقصر وغيرهما، فكانوا يغيّرونها باختيارهم، لأنّ أكثر ما يطرأ على الثياب من الفساد من كثافات البدن الحاصلة من الغذاء، وكان غذائهم المنّ والسّلوى، ولم يكن فيهما الكثافة كما في غيرهما من الأغذية.

كما يمكن أن يكون ذلك من الإعجاز وخوارق العادة، كانفجار الماء من الصخرة، ويدلّ على ذلك ما ورد في «الدرّ المنثور»، قال: «ظلّل عليهم الغمام في التيه قدر خمسة فراسخ أو ستة، كلّما أصبحوا ساروا غادين، فإذا امسوا إذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه، فكانوا كذلك أربعين سنة وهم في ذلك ينزل عليهم المنّ والسّلوى ولا تبلى ثيابهم، ومعهم حجر من حجارة الطور يحملونه معهم، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً».

وفي رواية أُخرى فيه أيضاً: «كانت بنو إسرائيل إذا كانوا في تيههم تشبّ معهم ثيابهم إذا شبّوا»، وذكرنا مراراً أنّ خوارق العادة تعمّ الجمادات وغيرها.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» قال في قوله تعالى: **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾**، قال: «فإنّ ذلك نزل لما قالوا: **﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾**، فقال لهم موسى عليه السلام: **﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾** فـ**﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾**، فقال لهم موسى عليه السلام: لابدّ أن تدخلوها، فقالوا له: **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**، فأخذ موسى بيد هارون، وقال كما حكي الله: **﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي**

وَأَخِي ـ يعني هارون ـ **فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**، فقال الله: **﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾**، يعني مصر لن يدخلوها أربعين سنة **﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾**، فلمّا أراد موسى أن يفارقهم فزعوا وقالوا: إن خرج موسى من بيننا أُنزل علينا العذاب، ففزعوا إليه وسألوه أن يقيم معهم ويسأل الله أن يتوب عليهم، فأوحى الله إليه: إنّي قد تبت عليهم على أن يدخلوا مصر وحرّمتها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض عقوبة لقولهم: **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾**، فدخلوا كلّهم في قرية والتيه إلّا قارون، فكانوا يقومون في أول الليل ويأخذون في قراءة التوراة، فإذا أصبحوا على باب مصر دارت بهم الأرض فتردّهم إلى مكانهم، فكان بينهم وبين مصر أربعة فراسخ، فبقوا على ذلك أربعين سنة، فمات هارون وموسى في التيه ودخلها أبناؤهم وأبناء ابنائهم، فروي أنّ الذي حفر قبر موسى ملك الموت، تمثّل في صورة البشر، ولذلك لا يعرف بنو إسرائيل قبر موسى، وسئل النبيّ ﷺ عن قبره؟ فقال: عند الطريق الأعظم عند الكثيب الأحمر، قال: وكان بين موسى وبين داود خمسمائة سنة، وبين داود وعيسى ألف ومائة سنة».

أقول: المستفاد منها ومن الروايات الواردة في ضمن جميع الآيات الشريفة المتعلّقة بقصة التيه المذكورة ـ بعضها في سورة البقرة، الآية ٦١ وبعضها في المقام ـ أُمور:

الأوّل: أنّ الأرض المقدّسة هي الصحراء الممتدة من الشام إلى مصر، أي: صحراء سيناء، وحدّدت جوانبها كما يأتي في البحث التأريخي.

الثاني: أنّ بني إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وخلّصوا أنفسهم من عذاب فرعون، لم يخضعوا لموسى عليه السلام مع ما له من الفضل عليهم، ولذلك وقعوا في الشدّة والعذاب الإصلاحيّ والتربويّ، فأصابهم ظمأ ومجاعة في صحراءٍ قفر ـ كما تقدّم في موجز حياتهم في سورة البقرة، الآية ٦١، وسيأتي مزيد بيان ـ

فأمرهم موسى عليه السلام بالهبوط إلى مصر لشدّ عزائمهم وليجدوا مآربهم، فأبوا دخولها لما لاقوه سابقاً من العذاب المرير والذلّة القاسية، فعاندوا موسى عليه السلام وأساؤا الأدب بربّهم ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فوقع عليهم العذاب التربويّ، أي حرم عليهم دخول مصر أربعين سنة، والحكمة في ذلك كثيرة كما تقدّم.

الثالث: أنّ السير في التيه إمّا أنّه معجزة خارقة للعادة كما في الرواية، «دارت بهم الأرض».

أو سلب الله مشاعرهم التي تدلّهم على الطرق، فجهلوها ووقعوا في متاهاتها، فكانوا يسيرون السير الدائريّ مثلا وهم لا يشعرون.

أو أنّهم لا يتمكّنون من السير المحدود، فسلب الله تعالى قدرتهم من السير أكثر، لمرض أو غيره من حوادث الجو أو الأرض.

أو ضيّق عليهم زمان السير، فكانوا ينامون أكثر اليوم ثمّ يسيرون في متاهات الأرض في زمان محدود خاصّ.

ويمكن أن يقال: إنّ جميع هذه الاحتمالات موجودة فيهم حسب الإيمان به عزّوجلّ والتقرّب لديه تعالى، فدارت الأرض على بعضهم وتاه آخرون فيها، وأنهك بعضهم المرض من السير، أو ضيّق عليهم الزمان، إلى غير ذلك من الأُمور التي يمكن أن تحتمل فيهم.

وأمر بني إسرائيل في زمان حياة موسى عليه السلام لم يكن عادياً، بل إنّ المعجزات وخوارق العادة كانت حافةً بحياتهم وسارية في مجتمعاتهم.

وفي «تفسير العيّاشي» عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّه سئل عن قول الله ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، قال عليه السلام: كتبها لهم ثمّ محاها، ثمّ كتبها لأبنائهم فدخلوها، والله يمحو مايشاء ويثبت وعنده أُمّ الكتاب».

أقول: ظاهر الرواية البداء في حقّهم، فكتب لهم الدخول ثمّ حرّمه تعالى

عليهم. ولكنّ سياق الآية المباركة لا يدلّ على ذلك، لأنّ حرمة دخولهم فيها أربعين سنة كانت من الآثار الوضعيّة لأعمالهم، ولذلك دخلها أحفادهم بعد ما تركوا تلك الأعمال وأصلحوا أنفسهم، إلّا أن يراد من البداء غير معناها المصطلح.

وفي «تفسير العيّاشي» بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**﴾، قال عليه السلام: «كتبها لهم ثمّ محاها».

أقول: إنّ المحو كان نتيجة أعمالهم ومن آثارها، وكان مؤقتاً.

وعن الصادق عليه السلام في رواية أبي بصير: «إنّ بني إسرائيل قال لهم وادخلوا الأرض المقدّسة، فلم يدخلوها حتّى حرّمها عليهم وعلى أبنائهم، وإنّما دخلها أبناء الأبناء».

أقول: الرواية ظاهرة في ما تقدّم إلّا أن يقال: إنّ جميعهم أُمّة واحدة، وإنّ الخطاب متوجّه إلى الأُمّة، فحينئذ يتحقّق البداء بملاحظة الأفراد، ويدلّ على ذلك رواية إسماعيل الجعفي عن الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: أصلحك الله ﴿**ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**﴾، أكان كتبها لهم؟ قال: أي والله لقد كتبها لهم، ثمّ بدا له لا يدخلونها ـ الحديث».

وعن ابن سنان، عن الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**﴾، قال: «كان في علمه أنّهم سيعصون ويتيهون أربعين سنة ثمّ يدخلونها بعد تحريمه إيّاها عليهم».

أقول: تقدّم أنّ من دخل الأرض المقدّسة كانوا أحفادهم، لا نفس المخاطبين، فلا يكون من البداء إلّا بالوجه الذي تقدّم.

وفي «تفسير علي بن إبرهيم» بإسناده عن محمّد بن مسلم، قال «قلت

لأبي جعفر عليه السلام: كان هارون أخا موسى لأبيه وأُمّه؟ قال: نعم، أما تسمع الله يقول: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾؟! فقلت: أيّهما أكبر سنّاً؟ قال: هارون، قلت: كان الوحي ينزل عليهما جيمعاً؟ قال: الوحي ينزل على موسى عليه السلام وموسى يوحيه إلى هارون، فقلت له: أخبرني عن الأحكام والقضاء والأمر والنهي، كان ذلك إليهما؟ قال عليه السلام: كان موسى عليه السلام الذي يناجي ربّه ويكتب العلم ويقضي بين بني إسرائيل، وهارون يخلفه إذا غاب عن قومه للمناجاة. قلت: فأيّهما مات قبل صاحبه؟ قال عليه السلام: هارون قبل موسى، وماتا جميعاً في التيه، قلت: فكان لموسى ولد؟ قال: لا كان الولد لهارون والذرّية له».

أقول: الرواية تدلّ على أنّ موسى عليه السلام وهارون كليهما قادا بني إسرائيل، ولكن كان لموسى عليه السلام الفضل والشرف على هارون، والأخبار مختلفة في موضع قبر موسى عليه السلام، ولكنّ أكثرها تدلّ على أنـّه في التيه، لأنّه توفى فيه، عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «عند الطريق الأعظم عند الكُثيب الأحمر»، كما مرّ.

وفي «الكافي» بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مات داود النبيّ يوم السبت مفجّواً، فأظلّته الطير بأجنحتها، ومات موسى كليم الله في التيه، فصاح صائح من السماء: مات موسى وأيّ نفس لا تموت».

أقول: لعلّ الوجه في تظليل الطير بأجنحتها كان احتراماً وإكراماً لداود، وكان الصياح في السماء نعياً على موسى، لأجل أهمّية الحادثة وتجليلاً لشأنه عليه السلام.

وفي «الدّر المنثور» في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾، قال: «أبداً»، وفي قوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: أربعين سنة».

أقول: ما ذكره خلاف ظاهر الآية الشريفة وأنـّهم دخلوا الأرض المقدّسة

كما في الآية الشريفة، وتقدّم أنّ الحرمة وضعيّة لا تكليفيّة.

***

بحث تأريخي:

ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ حياة بني إسرائيل كانت مليئة بخوارق العادات، حافلة بالقصص العجيبة والحكايات الغريبة، قلّما تكون أُمّة غيرها بهذه المثابة، فقد تميّزت بأنّها كانت مورد لطفه عزّوجلّ وعنايته وإحسانه، فأنعم عليها بما لم ينعم على غيرها من الأُمم قبلها، قال تعالى: ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾[2].

وقد حكى القرآن الكريم جملة منها فصارت هذه الأُمّة مثالاً للكرامة الإلهيّة، نستلهم ممّا أفاض عزّوجلّ عليها من التشريعات والإرشادات والتوجيهات في تكوين الفرد تكويناً صالحاً، وبناء مجتمع سعيد وفق قواعد حكيمة متقنة.

والآيات الشريفة التي تقدّم تفسيرها قد سجّل فيها سبحانه وتعالى كليّات النعم الإلهيّة التي تكرّم بها على بني إسرائيل، وهي في نفس الوقت تعتبر القاعدة المتينة في بناء النظام الإلهيّ الدنيويّ والمجتمع السعيد، فقال عزّوجلّ: ﴿**إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾، وتقدّم في بحثي الدلاليّ والروائيّ بعض الكلام فراجع.

إلّا أنّ هذه الأُمّة مع عظم فضلها وكبير ما أنعم عليها، كان الواجب عليها شكر تلك النعم بإطاعة مَن أنعم عليها وخصّها بها، فتفي بعهودها التي أخذت

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٢.

٢. سورة المائدة: الآية ٢٠.

منها، ولكنّها نكصت عن إيمانها وأعرضت عن طاعة ربّها، ونقضت عهودها، ولقد حذّرهم الله تعالى مكرّراً وعلّق استدامة تلك النعم على الوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[1]، ووعظهم نبيّهم موسى بن عمران ﷺ وحذّرشم من وبال أفعالهم وعاقبة أمرهم، فأصروا على العناد واللّجاج استكباراً، حتّى استحكم فيهم العصيان ونقض المواثيق، فلم تنفعهم الزواجر، فعاقبهم الله تعالى بأنواع العذاب، فصاروا مثلاً للعبرة والموعظة بعد ماكانوا مثالاً للكرامة الإلهيّة، وقد انغرس فيهم بعض الصفات السيئة والعادات الباطلة، فظلّت أجيال بني إسرائيل تتوراثها على مرّ العصور، كما حكى عزّوجلّ أحوالهم في القرآن الكريم، ولقد عانى الأنبياء والمصلحون في سبيل إصلاحهم وتهذيبهم، وتحمّلوا أنواع الشدائد والمشاقّ، فلم ينالوا ما يريدونه لتماديهم في الغي وشدّتهم في التمسّك بعاداتهم الباطلة وصفاتهم السيّئة وقسوتهم على أنبيائهم، حتّى قتلوا منهم جميعاً كبيراً.

ولعلّ من أحد أسباب كثرة إرسال الأنبياء فيهم أنّ إرادته عزّوجلّ تعلّقت بتهذيبهم وإرجاعهم إلى رشدهم وإصلاحهم وتزكيتهم، وقد اقتضت حكمته تعالى أن ينزل من التشريعات الشديدة والأحكام القاسية في الوصول إلى الهدف الذي أرسل الرُّسل إليه، بسبب عنادهم وغيّهم.

ونحن نذكر في هذا البحث من تلك الأحكام قضية التيه التي ذكرت في جميع الكتب الإلهيّة المعروفة، والتي كتبها الله تعالى عليهم مدّة أربعين سنة، وهي قضية مهمّة في حياة بني إسرائيل، وتعدّ هذه القضية منعطفاً تاريخياً في حياة بني إسرائيل، وتعتبر من أعظم الأحداث في التأريخ الإنساني، لما وقع فيه من خوارق العادات وغرائب الأمور، فصار التيه بحدّ نفسه مدرسة تربويّة

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٠.

إصلاحيّة، وقد طال زمانه حتّى مات فيه جمع كبير ممّن خرج مع موسى بن عمران عليه السلام، ومات هو وأخوه في التيه، فلم يبق منهم إلّا اثنان، أحدهما يوشع بن نون الذي تولّى قيادة بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وكان من أحد أصفيائه، فاستطاع هو ومَن معه من أحفاد بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة بعد عناء شديد.

ونذكر في هذا البحث حقيقة التيه، وأسبابه، ومدّته، ومكانه، والحكمة فيه، والحوادث الواقعية فيه.

حقيقة التيه:

لمعرفة حقيقة التيه يجدر بنا أن نتعرّف على حياة بني إسرائيل في مصر قبل الخروج منها، ولو على سبيل الإيجاز، فقد تقدّم في سورة البقرة بعض الكلام أيضاً، فنقول: اتّفق المؤرخون على اختلاف مذاهبهم على أنّ بني إسرائيل كانوا في مصر شعباً مستضعفاً ذليلا، فقد استعبدهم المصريون، وأذلّهم الفراعنة وساموهم سوء العذاب، كما حكى عزّوجلّ أحوالهم في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم، وكان من نتائج ذلك أن تأثّرت نفوسهم بسبب الظلم المستمر عليهم، فضعفت فيهم روح الثار والانتقام، وخسروا ملكة الشجاعة والإقدام، فأنسوا بالذلّ والعبوديّة، وألفوا الظلم والاستعباد، فلم تكن الحرية عندهم شيئاً ذا أهمّية، ولم يعيروا لها أيّ اهتمام، فأحبّوا القعود ورضوا النكد من العيش، ورفضوا التحلّي بمكارم الأخلاق، فكاد أن تنطفئ فيهم ملكة الإستكمال، حتّى تعلّقت إرادته عزّوجلّ أن يبعث فيهم مَن يخلّصهم من العذاب، ويهديهم إلى سواء السبيل، فالتفّوا حول موسى بن عمران عليه السلام وهم بمصر، لا كرسول ونبي همام، بل كقائد مقدام، يُرجى على يده الخلاص من ظلم المصريين واستعبادهم،

ولذلك لم يكادوا يتحقّقون من نجاتهم من فرعون حت شغبوا على موسى نبيّهم العظيم عليه السلام، وأعرضوا عن طاعته بعدما أخذ منهم المواثيق، فصاحوا به وبأخيه هارون: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1]، وقد نقلت لنا التوارة صوراً متعدّدة من ذلك التمرّد، وورد في إحداها أنّهم قالوا: «ليتنا متنا في مصر إذ كنّا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنّكما أخرجتمانا إلى هذا الجمهور بالجوع»[2]، والسرّ في ذلك واضح، فإنّ الحرية لم تكن عندهم شيئاً يذكر، ولم تبعثهم الكرامة الإنسانيّة ولم ينهض بهم طلب الفضائل، فقد تربّوا على الذلّة، والصغار، ونقض العهد والميثاق، والخروج عن الطاعة، فصار العناد واللّجاج من سماتهم المعروفة. ومن هنا كان الأمر بدخول الأرض المقدّسة عليهم عظيماً، لأنّه يستلزم الحرب بينهم وبين السكان الذين يقطنون فيها، وهم يخافون الحرب، وقد بذلت محاولات عديدة لإرضائهم بالدخول، ووعدهم عزّوجلّ بالنصر، ولكنّهم أصرّوا على موقفهم، كما حكى عنهم القرآن الكريم فقالوا: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ومقالتهم هذه تكشف عن كبير عصيانهم وعظيم جبنهم، فأحبّوا أن يكون الدخول إلى الأرض المقدّسة عن طريق المعجزة الإلهيّة، لأنّهم كانوا يدركون أنّهم شعب احتفت بهم الكرامة الإلهيّة، وكثرت فيهم المعاجز وخوارق العادات، حتّى عرفوا بها ولم يتنبهوا أنّ تلك المعاجز إنّما كانت لأجل ايقاظهم عن سباتهم، وبعث روح الاستكمال فيهم، وتربيتهم بالتربية الإلهيّة الصالحة، تدفع عن نفوسهم تلك الذلّة والصغار التي تربّوا عليها.

ومن هنا نعرف أنّ التيه الذي كتبه الله تعالى عليهم إنّما كان الغرض منه هو

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

٢. سفر الخروج: ١٦٠ / ٢ ـ ٣.

إعدادهم إعداداً ماديّاً ومعنوياً، لتحمّل المسؤولية الإلهيّة، وتربيتهم تربية صالحة، التي لابدّ من توفّرها في كلّ شعب يريد السعادة في الحياة، فكانوا في تيه فكريّ لا يمكنهم معرفة تلك الحقائق وما تتطلبه الحياة من الوسائل التي لا يمكن أن تنال إلّا بإصلاح نفسيّ وبدنيّ وفق منهج تربويّ دقيق، وهذا هو الذي أراده موسى عليه السلام حين طلب من ربّه أن يفرّق بينه وبين القوم الفاسقين، فإنّه لم يطلب العذاب لأُمّة لا تعرف الحياة الكريمة وهي في عمى وجهالة.

ومن جميع ذلك نعلم أنّ حقيقة التيه تبتني على إصلاح الفكر والنفس عن طريق ترويضها على تحمّل المشاق وتربيتها على حرية البداوة، وفق منهج إصلاح تربويّ، لطرد ما يكمن في النفس من مفاسد الأخلاص وغرس مكارمها، وهذا يحتاج إلى وقت طويل تبعاً لشدّة تلك المفاسد وقوّتها، ومقدار رسوخها في النفس وكميتها، فكانت مدّة التيه أربعين سنة، وهي ليست بكثيرة بعدما عرفت من مفاسد أخلاقهم وشدّة عنادهم ولجاجهم.

أسباب التيه:

لا شك أنّ ما يجري في هذا العالم إنّما يكون وفق قانون الأسباب والمسبّبات، لكن قد يكون بعض الأسباب معروفة، وربما يكون بعضها الآخر قد خفي علينا، ولابدّ حينئذٍ لمعرفتها من علم إلهيّ، إمّا عن طريق الوحي أو الإلهام.

والتيه الذي وقع فيه بنو إسرائيل لم يخرج عن هذا القانون، فإنّ له أسباباً متعدّدة.

منها: ما يرجع إلى ضعف الروح المعنويّة عندهم بسبب الظلم المستمر عليهم وتربيهم على الذّل والصغار، فخارت قواهم واحتقروا أنفسهم، ويستفاد هذا من قوله تعالى حاكياً عنهم: **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**.

ومنها: الاضطراب الفكريّ الذي حصل لهم نتيجة العبوديّة المفروضة عليهم أثناء وجودهم في مصر، فإنّ شعور الفرد بأنّه مسلوب الإرادة ممنوع من كثير ممّا خلقه الله تعالى لعباده في الأرض، لهو كاف في فقدان الأمل، وإخماد غريزة الاستكمال فيه، وإيقاعه في حيرة واضطراب فكريّ.

ومنها: فساد الأخلاق، لأنّ الشعوب التي تنشأ في عهد الاستبداد والتي تستأنس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها ويذهب بأسها وتذلّ نفوسها وتشعر بالذلّ والمسكنة وتألف الخضوع، وإذا طال زمان الظلم تترسّخ هذه الأخلاق في النفوس وتصير مغروسة حتّى تكون كالغرائز والطبائع.

ومنها: عدم رسوخ الإيمان المطلوب في قلوبهم، ولم تتهذّب نفوسهم بالتعليمات والتوجيهات التي أتى بها موسى بن عمران عليه السلام، ولذا تراهم يتمرّدون عليه ويعصون أوامره مرّة بعد أُخرى، بل رجعوا إلى عبادة العجل، لأنّ الوثنيّة التي عاشوا فيها في مصر كانت عالقة في أذهانهم، كما حكي عزّوجلّ عنهم في القرآن الكريم، قال تعالى **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**[1].

ومنها: الجهل بكثير من الحقائق التي تقوم عليها هذه الحياة، وإعراضهم عن قبول ما يكون سبباً في صلاحهم وسعادتهم.

ولأجل هذه الأسباب وغيرها ممّا حكى لنا القرآن الكريم صوراً متعدّدة منها، فشلوا في تنفيذ الأمر الإلهيّ بدخول الأرض المقدّسة التي أراد عزّوجلّ منها إصلاحهم وتكوينهم أُمة واحدة لها كيانها، وقائدها، وشريعة، ودستوراً وحاكماً يتولّى أمرها وشؤونها، وفق نظام إلهيّ، بعد أن كانوا أُسرة صغيرة متفرّقة

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

في أرض مصر، عرضة للعبوديّة والسخرية والإهانة والاستبداد، فأعرضوا عمّا أراده الله تعالى لهم وعصوا أمر ربّهم، فابتلاهم الله تعالى بالتيه أربعين سنة لإصلاحهم وتهذيبهم فيه، وكان لابدّ من ذلك بحسب قانون الأسباب والمسبّبات التي تقوم عليه الحياة، ويظهر للمتتبّع كثير ممّا ذكرناه وغيرها إذا رجع إلى التوراة سِفْر العدد، الذي هو السفر الرابع من أسفارها، الفصلين الثالث عشر والرابع عشر، فإنّ فيهما تفصيلاً لقصة التيه.

مكان التيه:

المعروف أنّ التيه هي الصحراء التي تقع بين الشام ومصر، أي أرض سيناء، وبالتحديد قلب شبه جزيرة سيناء، التي تقع في الطرف الجنوبيّ الأقصى لفلسطين، على مقربة من ايله، بينهما عقبة لا يصعدها راكب لصعوبتها، والتي لابدّ من اجتيازها للوصول إلى الأرض المقدّسة من بلاد الشام، وكان طولها أربعين فرسخاً، وينتهي أحد حدودها إلى بحر فاران الذي غرق فيه فرعون، وفاران مدينة على تل بين جبلين. وحدّها الآخر شرقاً أرض بيت المقدس وجنوبيّ فلسطين، وهي صحراء رمليّة، وفيها مواضع صلبة قفر لا نبات بها إلّا في بعض المواضع.

ومن مدن التيه ومواضعه حويرك، الخلصة (الوسا)، والخلوص (لسا)، السبأ (بيرسبه) المدرة، وجبل هور الذي دفن فيه هارون ﷺ، والكُثيب الأحمر الذي دفن فيه موسى بن عمران ﷺ، حيث كان يرى أرض فلسطين دون أن يدخلها، وقد ورد بعض هذه الأسماء في الدُّعاء المعتبر المشهور بدعاء السمات.

وفي هذه الصحراء هام بنو إسرائيل ولم يدخلوا مدينة ولا آووا إلى بيت. وجاء في التوراة: «و في هذه القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب

عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً الذين تذمّروا عليَّ ... فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر، وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتّى يفتن جثثكم في القفر، تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي، أنا الربّ قد تكلّمت لأفعلن هذا بكلّ هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليَّ. في هذا القفر يفنون وفيه يموتون»[1]، وقد ضرب موسى وهارون خيمة الاجتماع، وهي المسمّاة في بعض الدعوات المعتبرة قبّة الرمّان ـ أو قبّة الزمان ـ وفيها البقعة المباركة من جانب الطور الذي هو جبل كان يذهب إليه موسى ﷺ لتلقّي التوراة أو للمناجاة، كما في بعض الروايات.

مدّة التيه:

اختلف المؤرخون غير المسلمين في مدّة التيه التي كتبت على بني إسرائيل، ولكن ليس لكلّ طائفة منهم دليل صحيح تستدّل على مدّعاها، بحيث تقنع النفس به، والذي صرّح به الكتاب العزيز والسنّة الشريفة أنّها أربعون سنة، وهذه المدّة كافية لإصلاح النفس وتهذيبها من الصفات الرذيلة.

وفي هذه المدّة لا هم مدنيّون يعيشون عيش السعة، ولا هم بدويّون يعيشون عيشة القبائل، وكانوا في العذاب الاصطلاحي والدوران التربويّ والمجتمع الفاقد للنظام، فتمزّقوا وتفكّكوا ولم يبق منهم إلّا أقلّ القليل، فدخلوا الأرض المقدّسة.

الحوادث في التيه:

ينقل المؤرخون كثيراً من الحوادث التي وقعت في التيه، ولكنّ تلك

---

١. سفر العدد: الفصل الرابع عشر الآيات ٢٢ ـ ٣٥.

تحتاج إلى دليل يعتمد عليه ، والمهم هو أنّ التيه ـ كما عرفت ـ عملية تأديبيّة تهذيبيّة إصلاحية أرادها الله تعالى لهم .

ولا ريب في أنّ مثل هذه العملية تحتاج إلى ظروف وأحكام خاصّة تتلائم مع وظيفة التأديب والطبيعة التي وقع فيها التيه ، والهدف الذي كتب لأجله على بني إسرائيل ، ولم يخلو من بعض المعاجز والكرامات ، إتماماً للحجّة عليهم ، ونذكر في المقام بعض ما ذكره المؤرخون ووردت به بعض الروايات .

منها : أنّهم هاموا في الأرض وتاهوا فيها ، فكانوا يمشون في الأرض طول اليوم ، فإذا حلّ بهم الليل قطنوا في مكانٍ وناموا فيه ، ثمّ إذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في نفس المكان الذي ابتدأوا السير منه ، وقد ذكر العلماء في تفسير ذلك وجوهاً ذكرنا بعضها في البحث الروائي .

ويمكن أن يكون ذلك عقوبة إلهيّة جرّاء شنيع أفعالهم ، أو لأنّهم لهم يعرفوا حدود تلك الأرض التي وقع فيها التيه ولا مسارها وسائر خصوصياتها ، فكانوا يهيمون في الأرض تائهين ، فإذا تعبوا حلّوا في مكان لم يعرفوا أنّهم في نفس المكان الذي ابتدأوا منه السير .

ومنها : موت أكثرهم ، بل جميع الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر ، إلّا يوشع وكالب ، لعصيانهم وتمرّدهم على الله تعالى ورسوله بعدما أراهم عزّوجلّ عجائب الآيات ، فأخذهم الله بذنوبهم وأهلكهم وأنشأ من بعدهم جيلاً هم أقرب إلى تقبّل الأحكام ، وعدل الشريعة من آبائهم وجعلهم الوارثين للأرض المقدّسة .

ومنها : موت موسى بن عمران الذي تحمّل من العناء والتعب الشديدين في سبيل هدايتهم وإصلاح قومه ، وكذا مات هارون أخو موسى عليه السلام ووزيره ووصيّه ، وقد كان موتهما بلا شكّ خسارة عظيمة لقومهما ، لا سيما أنّهم كانوا يجتازون

أصعب الاختبار والامتحان.

ومنها: إنشاء أماكن محترمة ومعدّة للعبادة أصبحت من شعائر الله تعالى، كقبّة الرمّان التي كانت خيمة لموسى بن عمران وأخيه هارون، وطور سيناء وغيرهما ممّا ورد ذكره في التوراة.

ومنها: ظهور الآيات العظيمة، كنزول المنّ والسّلوى، والحجر الذي انبجست منه اثنتا عشرة عيناً، كما حكى الله تعالى في القرآن الكريم.

الحكمة من التيه:

ظهر ممّا ذكرنا الحكمة في التيه، وأهمّها كما مرّ تهذيب الأُمّة وإصلاح المجتمع الذي ذاق طعم عذاب الذّلة والقسوة، بحيث انهارت جميع ركائزها. ولو لا التيه لما تمكّنت بنو إسرائيل من إصلاح أنفسهم ممّا فرض عليهم في مصر، وصارت كطبيعة ثانويّة لهم، لا يمكن إزالتها إلّا بالدور الذي كتبه الله تعالى لهم. وقد تقدّم في التفسير بعض حِكمٍ أُخرى فراجع.

***

بحث عرفاني:

المستفاد من الآيات المباركة والسنّة الشريفة أنّ العذاب النوعيّ ـ أو الشخصيّ ـ الواقع على الأُمم أو الأفراد لم يكن مجرّد نقمة من الله تعالى، فإنّه خير محض وإليه ينتهي الخير ومنه يصدر كلّ خير، ولا يمكن نسبة الشرّ إليه جلّت عظمته، كما يأتي بيان ذلك في الآيات المناسبة له إن شاء الله تعالى، فالأُمم التي حلّت بهم النكبات ووقع عليهم العذاب، هي المسؤولة عن ذلك، وهي التي باختيارها أنزلت البلايا، فإنّ العذاب والنكبات مسببات لابدّ لها من أسباب ـ سواء كانت ظاهريّة أو معنويّة، طبيعيّة كانت أو شرعيّة ـ وقد يكون العذاب يؤثّر

تأثيراً معاكساً ، بحيث تصلح النفس ويتهذّب المجتمع وينشطه للقيام بإصلاح اسسه وركائزه ، وأكثر الأمم التي حلّ بهم العذاب كما يحكيه القرآن الكريم كان من قبيل ذلك . ومن هنا لا وقع للإشكال الذي ذكره بعض الفلاسفة من أنّ العذاب الإلهيّ ينافي محبّته لخلقه وعلاقته تعالى بهم ، لأنّ ذلك إمّا من الآثار الوضعيّة ، أو للإصلاح ، أو الكفّارة لبعض الأعمال السيئة ، أو للقرب إليه جلّ شأنه . ولذلك قال بعضهم : إنّ العذاب إن تعلّق به رضاه جلّت عظمته وإن كان دخول النار ، كان عذباً لأهله لا عذاباً ، كما عن سيّد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام في دعواته الشريفة ، ودعاء كميل أكبر دليل على ذلك .

بل عن بعض أكابر الصوفيّة إنكار العذاب من أصله ، ولكن لا يمكن الالتزام بذلك بالأدلّة العقليّة ، خصوصاً بالنسبة إلى الكافرين والمنافقين . وللبحث تتمّة نتعرّض لها إن شاء الله تعالى .

***

الآية ٢٧ ـ ٣٢

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ
الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا
أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي
وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ
أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ
يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

الآيات الشريفة تحكي قصة ابني آدم، اللذين قتل أحدهما الآخر ظلماً وحسداً من القاتل، وأنّه ندم على فعلته الشنيعة ـ كما تبيّنه الآيات المباركة ـ ولما ينفعه الندم فأصبح من الخاسرين. وقد فقد صوابه فجهل ما يفعل بجسد أخيه، حتّى تعلّم من الغراب ما تمكّن أن يواري جسده في التراب، ويظهر من ذلك أنّه أوّل قتلٍ وقع على وجه الأرض، فكان ظلماً فظيعاً وحدثاً عظيماً، كما

تدلّ عليه الآيات الشريفة، فكان هذا الحدث سبباً في أن يكتب عزّوجلّ على بني إسرائيل أنّ من قتل نفساً محترمة من غير سبب شرعيّ، يكون ظلماً على الناس جميعا، وأن من أحياها فكأنّما أحيى الناس جميعاً. وقد أرسل جلّ شأنه الرُّسل بالبيِّنات لهداية الناس، إلّا أنّهم أعرضوا عن التشريعات الإلهيّة وعصوا أوامرهم وأسرفوا في ذلك، فكانت النتيجة هي انتشار الفساد وخسران الإنسان.

وممّا ذكرنا يظهر ارتباط هذه الآيات بسابقتها، من حيث أنّها تبيّن أنّ المنشأ لقتل ابن آدم أخاه هو الحسد الكامن في النفس، الذي له مظاهر مختلفة، فقد ظهر في ابني آدم فأوجب قتل أحدهما الآخر، وفي بني إسرائيل له صور ومظاهر متعدّدة، التي أوجبت ابتعادهم عن الحقيقة وإبائهم عن الإيمان برسول الله ﷺ وإعراضهم عن الحقّ استكباراً.

ثمّ إنّ هذه الآيات المباركة تمهيد لما سيأتي ذكره من بيان حكم المحاربة وبيان جنايات بني إسرائيل.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾.

خطاب لنبيّه الكريم ﷺ بتلاوة الحقّ عليهم، إعلاماً لهم بأنّ ما هو الموجود عندهم باطل، وإرشاداً لهم بأنّه لا يمكن لأحد التقوّل في ذلك إلّا بوحي إلهيّ، فيكون حجّة عليهم، وتقدّم الكلام في مادّة (تلو)، وقلنا: إنّها بمعنى تبع، ومنها التلاوة، لمتابعة الكلمات بعضها تلو بعض. ولم تكد تستعمل إلّا في قراءة كلام الله تعالى المجيد، قال تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾[1]، أي يقرؤونه ويتّبعونه حقّ اتّباعه.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢١.

والنبأ: هو الخبر الذي له شأن من الفائدة والجدارة بالاهتمام، فلا يقال لكلّ خبر نبأ.

والمراد بـ(آدم) هو أبو البشر الذي ورد ذكره في القرآن الكريم بهذا الاسم. وأبناه هما اللّذان من صلبه، والمعروف في كتب التاريخ أنّهما هابيل الذي تقبّل الله تعالى قربانه المحسود عليه، وقابيل الحاسد وهو القاتل أخاه ظلماً وعدواناً.

وذكر بعضهم أنّ المراد بآدم رجل من بني إسرائيل تنازع ابناه في قربانه، فتقبّل من أحدهما دون الآخر، فقتل الذي ردّ قربانه أخاه الذي تقبّل منه قربانه، ولذلك قال تعالى بعد سرد القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

ولكن هذا القول مردود من جهات، ويكفي فيه أنّه لم يقم دليل معتبر عليه، مع أنّ المتبادر من ذكر (آدم) في القرآن الكريم هو أبو البشر، ولم يرد غيره بهذا الاسم فيه.

كما أنّ ذيل الآية الشريفة يدلّ على ما ذكرناه، فإنّ أوّل قتل وقع على هذه البسيطة هو الذي حكاه عزّوجلّ من ابني آدم، فكان قتلاً فظيعاً وحدثاً عظيماً، وكان سبباً في تشريع قاعدة كلّية في مطلق القتل، وفيها من الحكمة ما يستفيد منها جميع الأُمم كسائر المواعظ والحكم، حيث لا تختصّ بأُمّة دون أُخرى.

وأمّا وجه كتابة هذه الحكمة على بني إسرائيل، إمّا لأنّ شريعتهم أوّل شريعة عامّة، أو لأجل أنّهم أُمّة العناد واللّجاج والاستكبار، وتأريخهم معروف بالفتن والحروب.

وسياق الآية الشريفة يدلّ على وعظهم وتحريضهم على الإيمان، ونبذ العناد مع الرسول الكريم واتّباع الحقّ.

وكيف كان، فقد ذكر المفسّرون والعلماء في المقام روايات غريبة وحكايات عجيبة، لا يمكن الاعتماد عليها، وإنّما ذكر عزّوجلّ القصة على وجه

الإجمال في المقام لبيان الحقّ فيها، فإنّها لم تخل عن تحريف وتزييف فيها، فإنّها ذكرت في الفصل الرابع من سفر التكوين من التوراة، وفيها من القرائن كتجسّم الباري عزّوجلّ. ولكشف غريزة البشر وإظهار أنّ الحسد كامن في نفوسهم، وهو الذي يؤدّي إلى التباغض والتباين والبغي والقتل، إلّا أن يهذبه الإنسان ويستفيد منه على الوجه السليم. وقد ذكرنا أنّ الحسد أمر غريزي في كلّ إنسان، ولا يمكن الاستغناء عنه في حياته، إلّا أنّه لابدّ من الاستيلاء عليه وكبح جماحه، لئلّا يؤدّي إلى الفساد، وقد سنّت الشرائع الإلهيّة من الأحكام والتوجيهات والإرشادات ما يجعله في الطريق الصحيح والاستفادة منه على الوجه المطلوب، ومن جملة تلك ما ورد في هذه الآيات الكريمة على ما ستعرف، فكانت في هذه القصة العبرة والموعظة والتعريض ببني إسرائيل على ما فعلته من الجرائم وتحريضهم على الإيمان بالحقّ ونبذ الحسد والتباغض والعناد.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾.

القربان كفعلان، ما يتقرّب به إلى الله تعالى وغيره من ذبيحة وغيرها، وهو في الأصل مصدر، ويجمع على قرابين أيضاً، وقد غلب استعماله عندنا في ذبائح النسك. والسياق يدلّ على أنّ كلّ واحد منهما قرّب قرباناً يتقرّب به إلى الله تعالى، وتشهد به الروايات الآتية، واحتمال أنّهما قرّبا قرباناً واحداً كانا شريكين فيه، ضعيف.

ولم تبيّن الآية الشريفة ماهيّة القربان ولا كيفيّة التقرّب به، فإنّ لكلّ قوم شأناً فيها، والقربان معروف عند أهل الكتاب إلى هذا اليوم.

قوله تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

التقبلّ هو القبول، لكن مع اهتمام بالمقبول وزيادة عناية به، فيكون أخصّاً

منه، وإنّما تقبّل من أحدهما لأنّه أخلص النيّة لله تعالى ورضي بحكمه وعمد إلى أحسن ما عنده، ولم يتقبّل من الآخر، لأنّه لم يخلص النيّة في قربانه وسخط بحكم الله تعالى ولم ينل من التقوى شيئاً.

ولم تبيّن الآية الشريفة كيفيّة القبول ولا طريق علمهما به، ولكن ورد في بعض الروايات أنّ القبول كان محسوساً، وذلك بورود نار إلهيّ تأكل القربان، ويشهد له قوله تعالى: ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

وكيف كان، فهو لا يضرّ بعد أن علما بالقبول.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

توعيد بالقتل ممّن لم يتقبّل منه القربان وهو القاتل، لفرط الحسد الذي نشأ من قبول قربان أخيه ورفعة شأنه عند ربّه عزّوجلّ، والظاهر من الآية المباركة أنّ الحسد هو السبب في القتل فقط، فلم يكن هناك سبب آخر غيره، لأنّ المقتول لم يجرم بحقّ أخيه جرماً يستحقّ القتل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة في قانون المجازاة وقبول الأعمال والعبادات، وهذه الحقيقة تبتني على قاعدتين مهمّتين، هما أساس قانون الجزاء في الإسلام.

الأولى: ثبوت المجازاة، الذي لا يتمّ بأيصال كلّ عامل إلى جزاء عمله وتقديره بميزان القسط والعدل، فيثاب المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، ليكون سبباً لارتداع الظالم الذي يعدّ جزاء أعماله بنفسه، ويرغّب المحسن إلى الزيادة في الإحسان.

وهذه القاعدة لا تتمّ إلّا بنظام خاصّ متقن يقوم على العلم والقدرة

والحكمة المتعالية، ولذا كان من شؤون الربوبيّة العظمى لربّ العالمين، وقد تقدّم بعض الكلام في سورة الفاتحة فراجع.

الثانية: وهي أنّ قبول الأعمال مطلقاً إنّما يدور مدار التقوى، التي هي أساس الكمالات، ولا يمكن تحصيلها إلّا بجهد شخصيّ مرير، وتدلّ عليها جملة من الأدلّة، منها هذه الآية المباركة التي ترمز إلى معنىً دقيق يعدّ بنفسه من أُسس قانون المجازاة الإلهيّة، وهو أنّ حرمان الإنسان من جزاء عمله إنّما يكون من تقصيره، ولابدّ من السعي في إزالة ما يكون مانعاً عن القبول، ولا يمكن ذلك إلّا بالتقوى، فلابدّ من الاجتهاد في تحصيلها مهما أمكن، ليكون محظوظاً عند ربّ العالمين، لا السعي في إزالة حظّه ونعمته، فإنّ ذلك يضرّه ولا ينفعه.

ومن ذلك يعلم أنّ القصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ﴾ قصر القلب، ردّاً لما زعمه القاتل من قبول عمله حسباناً منه أنّ الامر لا يدور مدار التقوى، وأنّ التقي وغير التقي في ذلك على حدّ سواء، إلّا أنّ الآية الشريفة قصرت القبول على المتّقي فقط، فلا حظّ لغيره من عمله.

والظاهر من الآية المباركة وما ورد في تفسيرها عن المعصومين عليهم السلام والتأمّل في أحوال قابيل وارتداده عن شريعة آدم عليه السلام، أنّ المراد من التقوى هنا هو الموت على الإيمان، لا التقوى الخاصّ، فكيف بالأخصّ، فلا يصحّ التمسّك بهذه الآية الشريفة لعدم قبول أعمال فساق المؤمنين إن ماتوا على الدين الحقّ، ويمكن استظهار ذلك من جملة كثيرة من الأخبار، ومن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[1].

وكيف كان، ففي الآية الكريمة العبرة والموعظة للعاملين بأن لا يغترّوا بأعمالهم، إذ المناط كلّه هو التقوى، فما أنعى هذه الآية الشريفة على العاملين

---

١. سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨.

أعمالهم وهي ترشد المؤمنين إلى إزالة ما يكون مانعاً عن قبول أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

بيان لخلق كريم من مكارم الأخلاق التي تحثّ الشرائع الإلهيّة إليها، تحرّض الناس على التحلّي بها، وهو يرشد إلى أصل من أصول الأديان السماويّة، وهو أصل احترام الدماء والنفوس، الذي يعدّ من القواعد المهمّة في الفقه الإسلامي، وفيه من الحكمة البالغة والموعظة الحسنة ما يكون سبباً في السعادة والفلاح ونيل الكمالات، ويبيّن أنّه لابدّ من نبذ روح الانتقام، وعدم إضمار السوء والشرّ بالنسبة إلى الآخرين، حتّى إذا أرادوا الشرّ له، لأنّ السبب في ذلك هو الخوف من الله تعالى، الذي هو من أسمى الغايات وأجلّها.

ومن ذلك يعرف أنّ ذلك لا ربط له بمسألة وجوب الدفاع عن النفس وإن أدّى إلى القتل إذا توجّه الضرر إليها، لأنّ المسألة تبيّن حكماً شرعيّاً في ظروف خاصّة، في حين أنّ الآية المباركة تبيّن حكماً أخلاقيّاً يعدّ من الكمالات الواقعيّة، فإنّها تدلّ على أنّ أحد الأخوين أضمر السوء لأخيه وأخبره بأنّه يريد قتله ظلماً وعدواناً، إلّا أنّ الأخ الآخر أظهر عدم إضمار السوء له، ولم يرد أن يقابل الجناية بمثلها، لا جبناً ولا خوفاً منه، بل خوفاً من الله تعالى فقط، فإنّه يرى سعادته في ذلك، فهو وإن كان يحقّ له دفع الظلم عن نفسه، لكنّه اختار شقاء أخيه باختياره قتله لأن يسعد هو من دون أن يتلبّس بظلم، لأنّه ينافي التقوى، ولا يتفّق مع الخلق الكريم الذي يريد أن يتحلّى به، ليكون أقرب إلى الكمال، وقد أكدّ ذلك كلّه بـ(لام) القسم، وبجملة النفي الاسميّة المقرون خبرها بالباء، وذكر الصفة (بباسط) دون الفعل، لأنّ نفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، ولبيان التبري عن متمّمات الفعل فضلاً عنه، كلّ هذا التأكيد للإعلام بأنّه لا يضمر السوء، وأنّه بعيد عن الانتقام، وأنّه يسعى إلى نيل الكمال، لا إعمال غريزة من الغرائز

الإنسانيّة ونيل لذّة وقتية مباحة له من قبل الشرع، وترك سعادة أبديّة وكمالاً واقعياً، وهذه هي روح الشرائع الإلهيّة وأصل من اُصول المعارف الدينيّة، أراد الأخ العالم المتّقي أن يلقيه إلى أخيه الجاهل، ابتغاء مرضاة الله تعالى، فهو لم يستسلم لأخيه القاتل، وإلّا لقال: إنّك إن أردت أن تقتلني ألقيت نفسي بين يديك استسلاماً لك، وإنّما قال: «لأقتلك»، أي إذا أردت البغي والظلم فلم أرد ذلك لا خوفاً ولا جبناً، فكن في مأمن من قبلي، ويدلّ على ذلك ما في بعض الروايات أنّ قابيل كان يخاف من هابيل، وقد قتله غيلة، فلا يعارض بأنّ قابيل وإن أفرط في الظلم، ولكن هابيل قصّر في التصدّي عن الاعتداء ولم يقابله بالدفاع عن نفسه، فإنّه كما عرفت لم يرد القتل فقط، ولم يقل: إنّي لم ادافع عن نفسي.

والآية المباركة تبيّن صفاء فطرة هابيل وطهارة طينته.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

تعليل للامتناع عن بسط يده ليقتله بألطف اُسلوب وأبلغ موعظة وأحسن استعطاف، أي لا أريد أن يراني الله تعالى باسطاً يدي لقتل أخي وظالماً له، فإنّ ذلك من موجبات سخطه وعقابه، وهو ربّي وقد أحسن إليّ وأنعم عليّ بأنواع النعم، وربّ العالمين الذي يربيهم بفضله وإحسانه، فلا ريب أنّ الاعتداء عليهم أعظم مفسدة وإخلال بالغرض.

وفي الآية الشريفة إرشاد إلى لزوم خشية الله تعالى على أتمّ وجه، فإنّه ربّ العالمين الذي يربيهم بالعدل، فيجازي المعتدي بالعذاب بما يغرس في نفوسهم غريزة الخوف منه عزّوجلّ، فلا يرتكبوا ظلماً يوردهم مورد الهلكة والخسران.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾.

تعليل آخر لا متناعه عن البسط وبيان له أيضاً، ولذا ترك العطف بينهما ، والمراد بالإرادة هنا هي اختيار أحد الأمرين عند دوران الأمر بين الخير والشرّ، فإنّه قد اختار طريق الخير ، وهو الموت مع السعادة وعدم تحمّل تبعات الإثم وآثاره السيئة ، وإن استلزم شقاء أخيه باختياره السيء الحياة مع الشقاء والخسران والدخول في سخط الله تعالى ، فيتحمّل إثم فعلي لو فعلته ، الذي تركته باختيار السعادة وترك المقابلة بالمثل ، وأثم فعله الشنيع أيضاً .

ومادّة (بوء) تدلّ على اللّزوم ، ومنه أبوء بنعمتك ، أو أبوء بذنوبي ، أي أقرّ وألتزم ، منه الرجوع ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾[1] ، أي رجعوا إليه والتزموا به ، وتقدّم الكلام فيه فراجع .

وممّا ذكرنا يظهر وجه الضعف في ما قيل في المقام، من أنّه ذكر إرادته لتمكين أخيه من قتله ليشقى بالعذاب حتّى يكون هو سعيداً ، فإنّه لم يرد تمكين أخيه من قتله ، لأنّه من التسبيب إلى ضلال أحد وشقائه ، وهو ظلم محكوم بالفطرة ، وإنّما هو أراد ذلك إن اختار أخوه قتله ، وقد ذكرنا آنفاً أنّه لم يمكّن نفسه من القتل أبداً ، وإلّا اشتركا في الإثم ، فالآية الكريمة بمجموعها تدلّ على أنّ هابيل لم يضمر الشرّ لأخيه أبداً ، ولم يحدّث نفسه في التعدّي على أخيه ، وإن أضمر أخوه الشرّ له ، فإنّ ذلك لا يكون سبباً في الهلاك والخسران ، فإذا اختار الأخ قتله ، فإنّه يرجع إلى نفسه الشريرة ، فهو يتحمّل تبعات فعله ، لأنّه المباشر للقتل ، وتبعات إثمي لو فعلته ، فيحمّله إثم المقتول على تقدير قتله إيّاه .

أو أنّ المراد من الآية الشريفة أنّه لو اختار القتل فقتل أخاه ، تحمّل جميع آثامه ، لأنّه اعتدى على مظلوم لا يستحقّه ، فيورث القاتل جميع آثام المقتول ، الذي لو لم يقتله لجازاه الله تعالى بها ، إلّا أنّه بقتله إيّاه أورثه الله تعالى إيّاها ، وقد

---

١ . سورة الأنفال : الآية ١٦ .

وردت ذلك في بعض الروايات.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

الآية من قبيل ترتّب المسبّب على السبب، الذي هو اختار طريق الشرّ، أو ارتكاب المآثم التي توجب النار ويكون من أصحابها، فيدرك ألمها وعذابها.

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

تقرير لما قبله، وفيه التعليل على كونه من أصحاب النار التي أُعدّت للظالمين. وفي الآية المباركة الدلالة على أنّ تحمّل القاتل إثم المقتول إنّما هو لأجل التنبيه بالظلم، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، فإنّ ذلك صحيح بالنسبة إلى أصل القضية وطبع كلّ عامل.

وأمّا إذا كان هناك دليل من الخارج على تحمّل بعض إثم الآخرين، فلا إشكال حينئذٍ والعقل لا يحكم بقبحه.

وبعبارة أُخرى: أنّ مؤاخذة الإنسان بذنب غيره قبيح لو لم يكن سبباً في تحمّله له، فإنّ الأسباب تتبع المصالح، كما بالنسبة إلى أحكام العقل العملي التي تتبّع المصالح، فإذا اعتبر الشارع أو المجتمع الإنسانيّ أنّ الفعل الصادر عن أحد هو فعل صادر عن غيره، فيحكم بمؤاخذته به، كما ورد أنّ: «مَن سنّ سنّة سيّئة كتب له وزرها ووزر مَن عمل بها»، لأنّه السبب في إيقاع الفساد فيه، فإنّ المجتمع قد يسلب عن الباغي جميع حسناته ويؤاخذه بسيئات غيره، أو يعتبر أوزار المظلوم أوزاراً للظالم، لأنّه بفعله قد تملّكها بسبب الظلم عليه، فهذه الآية الشريفة تبيّن وجه تحمّل قابيل إثم هابيل، ولا نحتاج بعد ذلك إلى أقوال المفسّرين، الذين لهم في تفسير هذه الآية وجوه لم يقم دليل على اعتبارها، ولا

---

١. سورة النجم: الآية ٣٨.

يساعد عليها ظاهر الآية المباركة .

قوله تعالى : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ .

الآية الشريفة في غاية الفصاحة والبلاغة تبيّن الصراع المرير داخل النفس الإنسانيّة بين قوى الخير وقوى الشرّ ، وتغلّب النفس الأمّارة وانقيادها لتفنيذ الشرّ ، ولا ريب أنّ ذلك لابد أن يمرّ بمراحل وخطوات وهمسات في النفس ووساوس ، فإن تغلّب إحدى القوّتين على الأخرى لا تكون بسهولة ، إلّا إذا اعتادت النفس على إحداها ، فتكون طوع إرادة الإنسان ، وهذا ما تدلّ عليه كلمة «طوّعت» ، التي هي أبلغ من (أطاعت) ونظيراتها ، فإنّ الأُولى تدلّ على الانقياد التدريجيّ ، كما أنّ الإطاعة تدلّ على الدفعيّ ، فيستفاد منها أنّ النفس لم تصل إلى الطوع والانقياد إلّا بعد اقترابها إلى الفعل السيء تدريجاً ، وفي خطوات حثيثة ، ويدلّ على ذلك سياق الآية المباركة ، فإنّها تبيّن المراحل التي تقدّمت على الفعل ، فابتدأت بإثارة النفس بقبول قربان هابيل دون قربان قابيل ، وقد بيّن أوّل السبب في عدم قبول قربان الأخير وكان عليه إزالة المانع ، إلّا أنّ الإثارة تلك تبدّلت إلى حسد رهيب في النفس استولى على مشاعره ، فنشأت الإرادة إلى القتل ، ثمّ الجزم إليه بعد انقياد النفس الأمّارة واستيلائها على العقل والفطرة ، فوقع القتل .

فالآية الشريفة من الآيات المعدودة التي تبيّن واقع النفس الإنسانيّة ، والصراع الواقع بين قوى الشرّ وقوى الخير ، ولتجاذب الواقع بين دواعي الحكمة والموعظة ، وصوارف الفطرة ودواعي النفس الأمّارة .

وبالجملة : أنّ هذا التنازع يحسّ به كلّ إنسان عند إرادة ارتكاب جريمة ، أو فعل شنيع ، كما تدلّ عليه آيات أُخر في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم ، وسيأتي مزيد بيان في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف المفسّرون في معنى «طوّعت»، فذكر بعضهم بأنّها تأتي بمعنى شجّعت، وآخرون بمعنى زيّنت، فيكون قوله تعالى: ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ مفعولا به. **وقيل**: طاوعت، أي طاوعت له نفسه في قتل أخيه، فالقتل منصوب بنزع الخافض.

والحقّ أن يُقال: إنّ ذلك وإن كان صحيحاً إلّا أنّ لها دلالتها الدقيقة، لا تظهر في الذي ذكروه في المقام كما عرفت، فقد انقادت له نفسه في قتل أخيه وأطاعت أمره بعد سلسلة من الصراع والتجاذب بين النفس الأمّارة والفطرة والعقل، فكانت طاعة تدريجيّة بتذليلها، وهذا المعنى لا يظهر في ما ذكره المفسّرون.

قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُ﴾.

بعد أن لم تنفعه المواعظ والزواجر وتغلّبت صوارف الفطرة والحكمة والعقل، فانقادت له نفسه الأمّارة، فقتل أخاه ظلماً وعدواناً.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾.

الذين خسروا كلّ ما يمكن أن ينال به الفوز والفلاح، فقد خسر نفسه بإفساد الفطرة، وخسر دنياه إذ بقي مدّة عمره نادماً محزوناً، وخسر آخرته بارتكاب الظلم، فلعنه الله تعالى ولعنه اللّاعنون، فلم يكن أهلاً لنعيم الآخرة، لأنّها دار المتّقين.

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾.

إعلام لسقوط نفس قابيل عن قابلية الإلهام والإفاضة عليها بلا واسطة من الله جلّ جلاله، أو من التعلّم من والده النبيّ المعصوم عليه السلام بطريق السؤال مثلاً على نحو الكلّية لا لخصوص الواقعة. ثمّ لا يخفى كما أنّه تبارك وتعالى

بالصالحين من عباده، حيث لم يرض عزّ وجلّ بأن يكون جسد عبده الصالح مورد افتراس السباع، فدبّر تعالى له كيفيّة دفنه بهذا التدبير الحسن.

والبحث التفتيش والطلب عن شيء، وسمّيت سورة التوبة بسورة البحث، لما تضمّنت من البحث عن أسرار المنافقين، وهو إثارتها والتفتيش عنها. وقيل: إنّ أصل استعماله إنّما هو في البحث في التراب، والمراد به هنا الحفر الحاصل من استمرار البحث وإطالته، كما يدلّ عليه الفعل المضارع.

واللّام في «ليريه» للتعليل، والمضير المستكن فيه يعود إلى الله تعالى، أو للصيرورة والعاقبة إذا كان الضمير عائداً إلى الغراب، والثاني هو الأقرب، وإن كان المعنى صحيحاً على التقديرين.

وجملة (كيف يواري) مفعول ثان (ليري)، ومادّة «ورى» تدّل على الستر، ومنه التواري، أي التستّر، ويطلق الوراء على ما هو خلف الشيء. والمراد بالمواراة هو الدفن، بحيث يستر الجسد عن أعين الناس. والسوأة هي ما يكرهه الإنسان؛ وتُطلق على العورة لما تسوء ناظرها، والمراد بها في المقام جميع الجسد.

وظاهر الآية المباركة أنّ الله بعث غراباً إلى المكان الذي يراه القاتل، يبحث في الأرض برجليه ويفتش فيها مستمراً حتّى إذا أحدث حفرة، اهتدى قابيل كيف يواري جسد أخيه المقتول، بعد أن كان متحيّراً في كيفيّة التخلّص منه. هذا هو المعنى الظاهر من الآية الشريفة.

ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُ﴾، أنّ قابيل كان بعيداً عن كلّ ما يمكن أن يتوصّل به إلى كيفيّة التخلّص من سوأة أخيه، لا سيما بعد ما ذكر أنّ ظلمه كان سبباً لانقطاع الفيض عنه، وقد تعلّم ذلك من الغراب الذي بعثه الله تعالى لأجل هذه الغاية فقط، فلابدّ أن يكون تعليمه له مستجمعاً للخصوصيات

التي توجب رفع الحيرة عنه، التي هي من أهمّ موجبات شذوذ الذهن وعدم اهتدائه إلى شيء أيضاً، فمن المتحمل أن يكون الغراب قد تنازع مع غراب آخر فاقتتلا، ثمّ بحث القاتل مستمرا في الأرض ليحدث حفرة يدفن فيها الغراب المقتول، فكان في ذلك النكاية والتقريع والإرشاد والتعليم، ولعلّ ما ورد في بعض الروايات من ذكر بعض الخصوصيّات إنّما هي مأخوذة من ظاهر الآية الشريفة.

وذكر بعض المفسّرين أنّ القصد من بعث الغراب إنّما هو إراءة المواراة وكيفيّتها، وقد حصلت ببحث الغراب في الأرض ثمّ دفنه فيها شيئاً. وما ذكره صحيح، إلّا أنّه لم يتحقّق جميع تلك الغايات التي ذكرناها آنفاً، مع أنّه لا يتّفق مع سذاجة الفهم والحيرة التي كانت مستولية على قابيل، فكانت حالته تقتضي مزيداً من التعليم والدقّة فيه.

وكيف كان، فقد بعث عزّوجلّ الغراب بالخصوص، لما ذكر أنّ من عادته دفن بعض الأشياء في الأرض، الذي هو مظهر من مظاهر حيطته وحذره الشديد، فقد ورد في بعض الأخبار: تعلّموا من الغراب حذره.

قوله تعالى: **﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾**.

تحسّر وتلهّف وتأسّف على ما فاته من الفائدة، وندم على إهماله التفكير في الاستفادة ممّا عنده من الإمكانات في التماس الحيلة لمواراة سوأة أخيه حتّى تعلّمه من الغراب بسهولة، وتقريع للنفس بالعجز أن يكون مثل الغراب في المواراة، وتوبيخ لها في إيقاعها في الشقاء مدّة من غير سبب، وتأنيب للضمير في فعله الشنيع بإظهار الندامة عندما عرف أنّه أهمل الأسباب المؤدّية إلى دفع

المضرّة عن نفسه، وبيان تألّمه على حاله، كلّ ذلك يستفاد من ظاهر الآية الشريفة.

وكلمة «ياويلتا» التي تدلّ على التحسّر والتلهّف، تقال عند حلول الدواهي والعظائم، والويلة كالويل الهلكة والبلية، والألف في الكلمة بدل ياء المتكلّم. والأصل (يا ويلتي)، والنداء للويلة لإفادة ما فاته من السبب والوسيلة، كما عرفت آنفاً.

والاستفهام للتعجّب من عجزه، والخطاب مع نفسه كما هي العادة في مثل هذه الحالة، وفيه التعجّب من عجزه ممّا اهتدى إليه الغراب وكونه أشرف منه.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ﴾.

بيان للحالة التي تعرض لكلّ إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ والفعل الشنيع، وارتكابه ما يكره أن يطّلع عليه الناس أو يرفضه المجتمع، وربّما يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله تعالى، والتألّم من التعدّي على حدوده، وارتكاب ما لا يرضاه عزّوجلّ، وفي الحديث: «كفى بالندم توبة». وأما إذا كان سببه فوت منفعة أو حدوث مضرّة، فلا يكون الندم حينئذٍ توبة، كما هي العادة في ما إذا ظهر للإنسان بعد ارتكابه الفعل أنـّه قصّر في تدبير أمره واتخاذ الحيطة اللازمة عند ارتكابه الجريمة، ولذا لو عاد فإنّه يصلح ما فاته في المرّة الأُولى، فلا يكون مثل هذا الندم توبة.

الظاهر من الآية المباركة أنّ ندامته من جهة عجزه عن مواراة سوأة أخيه، أو ندمه على أصل القتل قبل أن يتّخذ جميع الإجراءات، وقبل أن يعرف ما يصنع بجسد أخيه، فالندامة تأثير روحي خاصّ في الإنسان يعرض عند ارتكاب الخلاف، ولكن يختلف أسبابها، فقد يكون من الله تعالى، فتكون حميدة موجبة للتخفيف عن الظالم، كما يحدث كثيراً عند المجرمين عند حصول النقمة عليهم.

وكيف كان، فإنّ ندم قابيل لا يفيده لما ارتكبه من الفعل الشنيع الذي لا يغفر بمجرّد الندم، لما عرفت في بحث التوبة من عدم كفاية الندم في رفع آثار الذنب في بعض الجرائم الموبقة.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

تشديد في أمر القتل، وتأكيدٌ على حرمة إراقة الدم من غير سبب شرعيّ، وبيان إلى أنّ قتل النفس المحترمة يستعقب الغضب الربوبيّ والسخط الإلهيّ.

ومادّة (أجل) تدلّ على الجرّ، ومنه الأجل وهو الوقت الذي يجرّ إليه الأمر المتقدّم، والآجل نقيض العاجل، وأجل بمعنى نعم، لأنّه انقياد إلى ما جرّ إليه، والإجل للقطيع من بقر الوحش، لأنّ بعضه ينجرّ إلى بعض، كما أنّ منه قولهم: فعلت ذلك من أجل كذا (بفتح الهمزة)، أو من إجلاك، وقد أحل عليهم أجلاً (بفتح الهمزة وقد تكسر)، أي جني وجرّ عليهم، فتطلق الأجل على الجناية لأنّها تجرّ على مرتكبها الوبال لما يخاف من أجلها.

وكيف كان، فقد استعملت الكلمة في التعليل، وغالب استعمالها في الرديء والشرّ، واسم الإشارة (ذلك) إلى قصة ابني آدم، والجرم الذي أجراه أحد الأخوين على الآخر ظلماً وعدواناً، فأوجبت تلك الجناية أن كتب الله على بني إسرائيل هذه الحقيقة الاجتماعيّة، التي بها تستقيم الحياة الإنسانيّة، والتي تعدّ من أهمّ الأحكام التي تنظم العلاقات بين الأفراد، وتستقيم أُمورهم الدنيويّة التي تفتضي جلب السعادة والفوز بالفلاح.

ويستفاد من الآية المباركة التشديد في هذا القضاء الإلهيّ، لما في طباعهم من الاستهزاء بأحكام الله تعالى والتعنّت واللّجاج، وقد عرفوا بسفك الدماء وإثارة الغضب الإلهيّ، كما حكى عزّوجلّ أحوالهم في القرآن الكريم، إلّا أنّها عامّة تشمل جميع الأُمم، فإنّها من التوجيهات الربوبيّة القيّمة التي تشدّد في هذا

الأمر وتعطي له أهمّية خاصّة، ويثبت للإنسان قيمته الواقعيّة من بين الموجودات.

وذكر بعضهم أنّ اسم الإشارة يرجع إلى قوله تعالى: **﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾**، أي كان ذلك سبباً لندامته، ولكنّه بعيد كما هو معلوم، فإنّ ندامته لم تغيّر الواقع، وإنّ جنايته هي التي سببت ندامته، فكانت فاجعة عجيبة وسبباً للكتابة على بني إسرائيل.

قوله تعالى: **﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾**.

استثناء من قتل النفس المحرّم، وهو ما إذا كان قتل النفس مقابل نفس أُخرى، أي القِوَد والقصاص، الذي أثبته عزّوجلّ في قوله الآتي: **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾**، وقد أباحه في قوله تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾**[1].

والباء للمقابلة، أي مَن قتل نفساً بغير قتل نفس يوجب القصاص والقود، كما ذكرنا التفصيل في الفقه، ومَن شاء فليرجع إلى كتابنا (مهذب الأحكام).

قوله تعالى: **﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾**.

أي: بغير فساد، وهو عام يشمل كلّ ما يقابل الصلاح. وقد ورد بعض المصاديق في الكتاب والسنّة، منها ما يذكره عزّوجلّ في الآية التالية: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾**.

ومنها: الشرك وقطع الطريق، والخروج على الإمام المعصوم عليه السلام، ونحو ذلك ممّا ستعرف.

ومنها: القتل بغير سبب من تلك الأسباب التي أذن بها الشارع، فالقتل

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٧٨.

كذلك يكون فساداً في الأرض.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

لأنّ الفعلين يشتركان في الفظاعة وهتك حرمة الدماء وعصيان الله تعالى، ولأنّ الواحد بمنزلة النوع، فمَن استحلّ دم أحد بغير حقّ، فقد استحلّ دم غيره وهانت عليه المآثم وارتكاب المحرّمات وهتك الحرمات، بلا وازعٍ ديني أو غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

أي: ومَن كان سبباً لحياة نفس محترمة بإنقاذها من المهالك وموجبات الموت بوجه من الوجوه، كانقاذ الغريق وفكّ الأسير ونحو ذلك، فكأنّما أحيا الناس، لأنّ الإنسانيّة حقيقة واحدة في جميع الأفراد، ويشترك فيها الفرد كما يشترك فيها الأفراد، ولازم ذلك أنّ قتل نفس واحدة بمنزلة قتل الجميع وإحيائها بمنزلة إحياء الناس جميعاً، وأنّ الباعث في الصورة الأخيرة هو احترام الإنسانيّة ومعرفة قيمة الحياة، ونزعة الشفقة والرحمة التي هي من صفات الباري عزّوجلّ، فيكون إحياء نفس واحدة احتراماً للإنسانيّة وقياماً بحقوقها.

يضاف إلى ذلك أنّ الآية الشريفة ترمز إلى معنى أدقّ، وهو الإشارة إلى الطبع الإنسانيّ المشتمل على الهوى، والحسد، ونزعة التقلّب، وحبّ التسلّط على الغير، فإذا كبح جماح هذه النزعة وجعلها تحت زمام الحكمة والعقل، تحقّقت السعادة والصلاح، ووصل الفرد والمجتمع إلى الكمال المنشود، وصارا من مظاهر الخالق والمعبود. وأمّا إذا اقترن الطبع الإنسانيّ مع الهوى والحسد، حملاه على المنازعة والتباغض وهتك الحرمات، وقتل النفس المحترمة، فإنّ في ذلك الفساد وإبطالاً للغرض الإلهيّ الذي من أجله خلق الله تعالى الإنسان،

لأنّه يستدعي سلب الأمان و بعث روح الانتقام والفناء والإفناء.

وهذا ما يشير إليه قول ابن آدم المقتول: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، لأنّه علم بأنّ القتل بغير الحقّ منازعة لربّ العالمين وضدّ الغرض الإلهي، فلأجل سدّ جميع أبواب العدوان، ولئلّا يحمل الإنسان أيّ سبب واه على التعدّي والقتل والظلم، ممّا ذكره عزّوجلّ في الآيات المباركة السابقة من الحسد، والكبر، واتّباع الهوى، وجحد الحقّ الذي طالما اتّصف اليهود بها، وكانت الأسباب في صدور الفجائع والقبائح عنهم، كما قصّ تعالى قصصهم، ولأجل كلّ ذلك كتب عزّوجلّ عليهم أنّ النفس الواحدة بمنزلة الجميع، فيكون قتلها بمنزلة قتل الجميع، وإحياؤها بمنزلة إحياء الجميع، لتقوّمه بالأفراد، ولأن صلاح الفرد صلاح المجتمع.

وممّا ذكرنا يظهر فساد ما استشكل به في المقام من أنّ التنزيل يفضي إلى نقص الغرض، الذي هو بيان عظمة قتل النفس من حيث الإثم والأثر، فكلّ ما زاد عدد القتل ازدادت الأهميّة، وهذا التنزيل يفضي إلى خلاف ذلك، فإذا كان قتل الواحد بمنزلة قتل الجميع، يستلزم أن لا يقع بأزاء الزائد على الواحد شيء، لأنّ الواحد مقابل الجميع ويبقى الباقي وليس بأزائه شيء، ولأنّ قتل الواحد إذا كان بمنزلة قتل الجميع، فإن اريد به قتل الجميع الذي يشتمل على هذا الواحد، كان لازمه مساواة الواحد مجموع نفسه وغيره، وهو باطل، وإن اُريد قتل الجميع باستثناء هذا الواحد، كان معناه: مَن قتل نفساً فكأنّما قتل غيرها من النفوس، وهو بعيد عن سياق الآية الشريفة وباطل في نفسه.

والجواب عن جميع ذلك: بأنّ الآية المباركة لا تنظر إلى هذا التنزيل العددي منه، بل تشير إلى معنى دقيق كما عرفت، فتنزل الواحد منزلة الجميع من حيث الحقيقة الإنسانيّة، كما عرفت آنفاً.

وهذه الآية الشريفة من الآيات المعدودة في القرآن الكريم التي تعطي الأهميّة للإنسانيّة، وتثبت حقوق الإنسان التي تنادي بها الجاهلية المعاصرة، تجاهلاً منها بالحقيقة الإنسانيّة، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

تقرير لما كتب آنفاً وتأكيد له، وتشديد عظيم للأمر، وتجديد للعهد، والجملة عطف على صدر الآية الشريفة، أي ولقد جاءتهم رسل الله تعالى بالآيات الواضحة يحذّرونهم القتل وما يترتّب عليه من الفساد والدمار.

والتأكيد بالقسم لكمال العناية بمضمون الآية المباركة، كما أنّه تبارك وتعالى قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، تصريحاً بوصول الرسالة إليهم وتناهيهم في العتو والاستكبار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

تأكيد آخر لما تقدّم، ويستفاد منه عظيم منزلة ما ورد في الآية الشريفة من مجيء اسم الإشارة الذي وضع موضع الضمير، للإيذان بكمال تميّزه وانتظامه لسلوكه مسلك الأُمور المشاهدة، وإتيان (ثمّ) الدالّ على التراخي في الرتبة والاستبعاد، وللدلالة أيضاً على أنّه متممّ للكلام السابق.

والمعنى: لقد جاءتهم رسلنا بالبراهين الواضحة، وبيّنوا لهم آثار سفك الدماء، وقتل النفس المحترمة، وحذّروهم من عواقبها، ولكنّهم أصرّوا على الاستكبار وأسرفوا في الأرض بالقتل، وفرّطوا في شأن الأحياء، وهتكوا المحارم وسفكوا الدماء وجاوزوا الحقّ، فلم تغن عنهم تلك السيئات، ولا اهتدت نفوسهم ولم تتهذّب عقولهم.

والإسراف في كلّ شيء هو التجاوز عن حدّ الاعتدال مع عدم المبالاة به،

قال تعالى في شأن نهي ولي المقتول عن تجاوز حدّ القصاص: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾[١]، والغالب في استعماله في مورد الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[٢].

***

١ . سورة الإسراء: الآية ٣٣.

٢ . سورة الفرقان: الآية ٦٧.

بحوث المقام

بحث أدبي:

(إذ) في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً**﴾، ظرف منصوب بقوله تعالى: ﴿**نَبَأَ**﴾ وجوّز بعضهم أن يكون متعلّقاً بمحذوف وقع حالاً منه، واشكل عليه بوجوه مذكورة في الكتب المطوّلة.

وقيل: إنّه بدل من النبأ على حذف المضاف، أي اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت.

وردّ بأنّ (إذ) لا يضاف إليها إلّا الزمان، نحو: يومئذ وحينئذٍ، والنبأ ليس بزمان. وأُجيب عنه بالمنع بأنّه لا فرق بين نبأ ذلك الوقت ونبأ (إذ).

وقال الزمخشري: يقال: قرّب صدقة وتقرّب بها، لأنّ تقرّب مطاوع قرب. وردّ بأنّ تقرّب ليس من مطاوع قرب، لا تّحاد فاعل الفعلين، والمطاوع يختلف فيه الفاعل، فيكون من أحدهما فعل ومن الآخر انفعال، نحو: كسرته فانكسر، فليس قربت صدقة وتقرّبت بها من هذا الباب.

ويُجاب عن ذلك: بأنّ حقيقة المطاوعة إنّما هي تجاوز الفعل عن الفاعل، سواء كان هناك فعل آخر أم لم يكن، ففي الحديث: «من عادى وليّاً لي فقد بارزني بالمحاربة»، وما ذكره المستشكل هو الغالب، لا أن تتقوّم حقيقة المطاوعة به، فافهم.

وتقدّم الكلام في قوله تعالى: ﴿**مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**﴾، ونزيد هنا أنّ المعروف في علم النحو أنّه إذا اجتمع قسم وشرط، كان الجواب للسابق منهما إذا لم يتقدّمهما ذو خبر، وفي المقام يمكن أن تكون الجملة جواباً للقسم،

وعرفت أنّ الجملة في غاية الفصاحة والبلاغة، فقد تضمّنت المبالغة في نفي أنّه ليس من شأنه القتل ولا ممّن يتّصف به، بل تبرّأ عن مقدّمات القتل، فضلاً عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ من التطوّع، وهو الانقياد، وأصله طاع، أي انقاد، ثمّ عدّي بالتضعيف، فصار الفاعل مفعولاً، وقرئ فطاوعت، بمعنى فعلّ، و(له) لزيادة الربط، ولا يتمّ الكلام والربط بدونه.

و(أصبح) في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾، بمعنى صار، ولم يدلّ على الوقت، والجملة تدلّ على المبالغة على خسرانه، إذ الم يقل سبحانه: «فأصبح خاسراً».

والغراب طائر معروف، ويجمع في القلّة على أغربة، وفي الكثرة على غربان، وقيل: إنّه مشتقّ من الاغتراب.

و«كيف» في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾، منصوب بقوله: «يواري»، والجملة استفهاميّة في موضع مفعول ثان لـ«يريه».

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ﴾، للتعجّب من عجز نفسه، والمعروف (يا ويلتا) بألف منقلبة عن الياء، وقرئ (يا ويلتى) على أصل ياء المتكلّم.

وما في قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا﴾ في الموضعين كافّة مهيّئة لوقوع الفعل بعدها، و«جميعاً» حال من «الناس»، أو تأكيد.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ على أهمّية هذا النبأ وعظمته، ولا غرو في ذلك فإنّه أوّل قتل وقع على هذه البسيطة، وأوّل حدث

يكشف عن غريزة البشر التي جبلت على التباين والاختلاف والتحاسد، المفضي إلى البغي والظلم والقتل وما يترتّب على ذلك من آثار، وأوّل موضوع بيّن وجه الحكمة في ما شرّعه الله تعالى من الأحكام على البغاة والظالمين والقتلة من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل، وأوّل حادثة بيّنت احتياج الإنسان إلى الأحكام والتشريعات والتوجيهات، وأوّل فعل كشف عن حرية الإرادة والاختيار في الإنسان على هذه الأرض.

ولعلّ ذكر الحقّ في المقام، لبيان تلك الوجوه وغيرها ممّا لم نذكره، وللإشارة إلى أنّه قد ذكر فيه ما لم يستند إلى دليل معتمد، وأنّ بني إسرائيل هم الذين حرّفوا هذا الموضوع وادخلوا فيه بعض الأباطيل.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ**﴾، على مشروعيّة تقديم القرابين، بل هو من الفطريات، ولم تخلو شريعة من الشرائع السماويّة منها، وإن اختلفت في بعض الخصوصيات، إلّا أنّها اتّفقت على أن يكون القربان خالصاً لوجهه الكريم، ولا يختصّ بنوع خاصّ، فيشمل كلّ ما يصحّ التقرّب به إليه عزّوجلّ.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾، على حقيقة واقعيّة تدعو إليها الفطرة المستقيمة، وقد أخبر بها هابيل في وقت لم تنطمس الفطرة بالحُجُب والموانع.

ويستفاد من الحصر أنّ القبول يدور مدار التقوى التي لها مراتب متفاوتة جداً، وتختلف درجات القبول مدارها، ومن المعلوم أنّ التقوى التي كانت مطلوبة في زمان ابني آدم، غير التقوى المطلوبة في الشرائع المتأخّرة، والعظمى من تلك المراتب ما عليه في شريعة الإسلام التي حوت من الكمالات أسماها ومن مراتب التقوى أكملها وأغلاها، فكان الجزاء عظيماً على قدر عظمة

التشريعات فيها، وسيأتي في البحث الكلاميّ ما يرتبط بالمقام.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾، على أنّ الخوف منه جلّت عظمته هو من أعظم الحواجز عن ارتكاب المحرّمات، وأهمّ المعدات لنيل ملكة التقوى، والعلّة الوحيدة التي يمكن أن تكبح الشهوات والنفس الأمّارة وتقويمها بمكارم الأخلاق، وتزيينها بمحامد الصفات، وقد تقدّم الكلام في الخوف، وذكرنا أنّه من الصفات السيئة، إلّا الخوف من الله تعالى، فإنّه صفة حميدة، ولم ينلها إلّا مَن بلغ مرتبة من العلم والعمل الصالح.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ**﴾، على أنّ بعض المعاصي ممّا يوجب كسب مظالم الغير وتحمّل آثامه، لشناعتها وفظاعتها، وممّا يعتبرها العرف والعقل موجباً لتحمّل آثامه وتبعات من وقع عليه الظلم، كالقتل العمديّ والبغي على الآخرين، فإنّه يوجب انتقال إثم المقتول ظلماً إلى قاتله، مضافاً إلى إثمه، ويدلّ أيضاً على أنّ المظلوم ممّن ينتصر الله تعالى له إن عاجلاً أو آجلاً.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ**﴾، على حقيقة من الحقائق الواقعيّة التي يدركها الإنسان عندما يهمّ بالمعصية وارتكاب الآثام.

والمستفاد منه أنّ النفس يصعب عليها ارتكاب المعصية، لا سيما القتل؛ فإنّه مستصعب عظيم على النفوس، ولا يصل الفرد إلى حدّ الارتكاب إلّا بعد صراع بين القوى الداخليّة، فتردّه النفس الأمّارة بالسوء طائعاً منقاداً، حتّى يوقع صاحب هذه النفس في الموبقات والمهالك، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك فراجع.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ**﴾، إمكان انتفاع الإنسان بالحسّ وتعيين خواصّ الأشياء من ناحية الحسّ الحاصل من التجربة، وبعد ذلك يتوصّل الإنسان إلى الكلّيات من التفكّر في ما حصله من

التجربة والحسّ.

وتعتبر هذه الآية الشريفة من أهمّ الآيات القرآنيّة الحاكية عن حال الإنسان من حيث علومه ومعارفه، وما يفضي به البحث العلمي المبتني على الحسّ، ثمّ الاستنتاج والتفكّر وتنظيم القواعد والكلّيات ممّا يحسّه الإنسان من الجزئيات، وبذلك اختلفت نظرية المعرفة الإسلاميّة عن غيرها ممّا تقصر المعرفة على واحد من تلك المنابع، إما الحسّ أو التذكّر أو العلم الفطريّ أو غيرها، فإنّ الإسلام لا ينكر هذا الجانب أيضاً، ويقول بتعدّد ينابيع المعرفة، ولا يهمل الجانب الحسيّ أبداً، ولكن لا يعدّه المنبع الوحيد في المعرفة الإنسانيّة حتّى يستلزم إشكالات متعدّدة ذكروها في الكتب الفلسفيّة، واعتبر تلك المنابع المتعدّدة هي وحدة متكاملة يكمل أحدها الآخر، فصارت للمعرفة مصادر متعدّدة لا يمكن الاعتماد على واحد منها مع غضّ النظر عن المصادر الأُخرى، ويدلّ على ما ذكرناه قوله تعالى: **﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾**[1]، وآيات أُخرى وردت في مواضع متفرّقة، وبسبب هذه النظرية الشاملة اتّسعت المعرفة الإنسانيّة وشملت جميع الأُمور، حتّى ما وراء الحسّ، وعليها ابتنت مسألة التوحيد التي هي أبعد المسائل عن الحسّ، ولكن استثنت هذه النظرية بعض المسائل عن المعرفة أو خصّصتها ببعض الطرق والينابيع، كما هو الشأن في استنباط الأحكام الشرعيّة وتشخيصها، فخصّ العلم بها بالوحي والفطرة وما ورد في الكتاب والسنّة الشريفة، وكذا في التفكّر والتذكّر، فخصّهما بما إذا لم يكن فيه إبطال للسلوك العلميّ الفكريّ، أو مخالفاً للتقوى، والبحث نفيس يأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

---

١. سورة النحل: الآية ٧٨.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ**﴾، على أنّ هذه القصة التي ذكرت بهذا التصوير الرائع للطبع الإنسانيّ، ليست هي الوحيدة في نوعها، فإنّ الطبع يقضي باتّباع الهوى والحسد، فيأتي بما يماثلها، فيحمله على ارتكاب المآثم إن وافقته الأسباب على المنازعة وإبطال غرض الخلقة بارتكاب جريمة القتل، فكانت هذه القصة هي السبب في تشريع حكم إلهيّ يحفظ الأفراد من مثل هذه الجريمة، فاعتبر الإنسان أفراد نوع واحد وأشخاصاً لحقيقة متّحدة، يحمل الفرد الواحد من الإنسانيّة ما يحمله الكثيرون والنوع، فجعل الاعتداء على الواحد كالاعتداء على النوع، والإحياء له إحياء للنوع، لما فيه من حفظ الكرامة الإنسانيّة وتحقيق الغرض الإلهيّ من خلقة هذا النوع.

***

بحث روائي:

في «الكافي» بإسناده عن أبي حمزة الثماليّ، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى عهد إلى آدم عليه السلام أن لا يقرب هذه الشجرة، فلمّا بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها فأكل منها، وهو قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**﴾، فلمّا أكل آدم من الشجرة أُهبط إلى الأرض، فولد له هابيل وأُخته توأم، وولد له قابيل وأُخته توأم، ثمّ إنّ آدم أمر هابيل وقابيل أن يقرّبا قرباناً، وكان هابيل صاحب غنم، وكان قابيل صاحب زرع، و قرّب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه، وقرّب قابيل من زرعه ما لم ينق، فتقبّل قربان هابيل ولم يتقبّل قربان قابيل، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ**﴾، وكان القربان تأكله النار، فعمد قابيل إلى النّار فبنى لها بياتاً، وهو أوّل من بنى بيوت النار، فقال لأعبدنّ هذه النار حتّى تتقبّل منّي قرباني، ثمّ إنّ إبليس (لعنه الله) أتاه وهو يجري

من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فقال: يا قابيل! قد تقبّل قربان هابيل ولم يتقبّل قربانك، وإنّك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون: نحن أبناء الذي تقبّل قربانه، فاقتله لئلّا يكون له عقب يفتخرون على عقبك، فقتله، فلمّا رجع قابيل إلى آدم عليه السلام قال: يا قابيل أين هابيل؟ فقال: اطلب حيث قرّبنا القربان، فانطلق فوجد هابيل قتيلاً، فقال آدم عليه السلام: لعنت من أرض كما قبلت دم هابيل، وبكى آدم على هابيل أربعين ليلة».

أقول: يستفاد من هذه الرواية أُمور:

الأوّل: يحتمل أن يكون المراد من العهد الوارد في الآية المباركة ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ**﴾[1]، العهد التكوينيّ، أي الذي ركز في عقل آدم عليه السلام بأن لا يقرب الشجرة الخاصّة التي تميّزت ببعض الصفات التي تنفر عنها العقل، وأنّ ما ترتّب على مخالفة ذلك العهد من الآثار الوضعيّة ـ من الخروج عن الجنّة، والسير الطبيعيّ الاستكماليّ في هذه الدنيا، والخلود في الجنّة والنّار، وغيرها ـ كانت في الأزل مقرّرة، وأنّ إرادته تعالى تعلّقت بذلك.

وبناءً على هذا، يسقط النزاع في أنّه كيف صدر من آدم عليه السلام المعصية؟ فإنّ العهد لم يكن مولويّاً صرفاً، ويدلّ على ما ذكرنا قوله عليه السلام: «فلمّا بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها»، وأما وسوسة الشيطان لم يكن لأجل إغواء آدم عليه السلام والتسلّط عليه، وإنّما كان لأجل إغواء ذرّيته والتسلّط عليهم، وسيأتي في الآيات المناسبة تقييم هذا الاحتمال ودفع ما يطرأ عليه من الشبهات.

الثاني: أنّ أصل النسيان في البشر من لوازم وجوده وطبيعته. نعم للنسيان مراتب متفاوتة، وتختلف حسب درجات الإيمان، وحسب سير الطبيعة، وقد يكون النسيان من الشرور التي يقرب الشيطان الإنسان إليها، كما يأتي تفصيل

---

١. سورة طه: الآية ١١٥.

ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى .

الثالث : أنّ تقديم القربان إليه جلّت عظمته من لوازم الإيمان والعبوديّة لله تعالى ، سواء كانت هناك شريعة ومنهج إلهيّ أو لا ، لأنّه ممّا يستحسنه العقل ويعترف به .

ولا يختصّ القربان بالذبح والنحر ـ وإن كان أفضله ـ بل يتحقّق بتقديم كلّ شيء حتّى الزرع الذي لم ينظف ، وإنّ القبول حسب مراتب الإخلاص والكمال في الشيء .

ثمّ إنّه قد ورد في كثير من الروايات أنّه كانت علامة قبول القربان من الله جلّ شأنه أن تأتي نار من السماء وتأكله . ولعلّه كان ذلك لأجل الترغيب إلى إصلاح النفس وتهذيبها ـ ولا يكون ذلك من المعجزة ، وإن كان مقتضى عموم رحمته وعدم تحديده بشيء ، وأنّه يظهر الجميل ويستر القبيح ، أن لا يظهر قبح من لم يتقبّل قربانه في هذه الدنيا . نعم عن بعض العرفاء أنّ للقبول آثاراً معنويّة تظهر على النفس ، وأنّ سترها ـ خوفاً من العجب من أسمى الكمالات .

الخامس : ظاهر الرواية أنّ عمل قابل لم يكن خالصاً لوجهه تعالى ، ومن أثر ذلك صدر منه المعصية الشنيعة ، وكان غرضه السمعة والشهرة .

السادس : أنّ بناء قابيل بيتاً للنار وعبادته لها ، لا تدلّ على أنّه كان مجوسيّاً ، وإنّما كان ذلك عن حبّ للسمعة ، كما يعبد أهل الدنيا الماديّات ، وإلّا كانت الفطرة المستقيمة ترشد إلى الخالق الأزليّ ، خصوصاً في أوّل بدأ الخلقة .

السابع : جريان إبليس مجرى الدم في عروق الإنسان ، لا يدلّ على نفي الاختيار عنه ، بل المراد السيطرة عليه في جميع مشاعره وأحاسيسه لإغوائه ، ويقابله بعث الرُّسل والأنبياء .

الثامن : يستفاد من الرواية أهمّية النسل والعقب للإنسان ، وأنّهم يفتخرون

بمجد الآباء، فإنّ ذلك صار سبباً لإغواء قابيل.

التاسع: يستفاد من الرواية تصارع قوى الخير والشر من بدء الخلقة، وأنّ الشرّ قد يغلب الخير، ولكن ذلك لا ينافي الحِكَم والمصالح، وقد ثبت في محلّه أنّ الشرّ قد يعقب خيراً وأنّ الخير قد يعقب شرّاً، وفي إخفاء المصالح على البشر مصالح.

العاشر: يستفاد من هذه الرواية وغيرها من الروايات الكثيرة أنّ الأرض قد تكون شريرة وملعونة، وقد تكون خيّرة ومقدرة، كالإنسان، بل الزمان أيضاً كذلك، كما في غير واحد من الروايات، والأسباب في ذلك مخفيّة علينا، وتعيين تلك الصفات إمّا بواسطة الأنبياء والرُّسل، أو التجربة بالآثار الوضعيّة، وعن بعض العلماء أنّه جرّب في بعض الحيوانات وبعض البيوت.

الحادي عشر: أنّ بكاء آدم عليه السلام وسائر الأنبياء والأولياء على فقد عزيز لهم أو ما يرد عليهم من المصاب، لا ينافي التوكّل والإخلاص والرضا بالقدر والقضاء، وذلك إمّا أنّه لأجل الحزن الذي يرد على طبيعة البشر وأنّهم بشر، بل عن بعض الفلاسفة أنّ الهموم والغموم تعمّ الموجودات كلّها ما سواه تعالى، تبرز آثارها فيها حسب وجودها.

أو لأجل الخوف منه تعالى، لئلّا يسلب منهم جزاء النعمة التي أنعمها عليهم من القرب إليه جلّ شأنه أو المحبّة، أو اللّطف بهم.

أو لأجل الطمع في التقرّب إليه أكثر والرجاء في الثواب، إلى غير ذلك من الوجوه.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، عن ثوير، قال: «سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يحدّث رجالاً من قريش، قال: لما قرّب ابنا آدم القربان، قرّب أحدهما أسمن كبش كان في صيانته، وقرّب الآخر ضغثاً من

سنبل، فتقبّل من صاحب الكبش وهو هابيل، ولم يتقبّل من الآخر، فغضب قابيل فقال لهابيل: «و الله لأقتلنّك»، فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، فلم يدر كيف يقتله حتّى جاء إبليس فعلّمه، فقال: ضع رأسه بين حجرين ثمّ اشدخه، فلمّا قتله لم يدر ما يصنع به، فجاء غرابان فأقبلا يتضاربان حتّى اقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، ثمّ حفر الذي بقي في الأرض بمخالبه ودفن فيه صاحبه، قال قابيل: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، فحفر له حفيرة ودفنه فيها، فصارت سنّة يدفنون الموتى، فرجع قابيل إلى أبيه فلم ير معه هابيل، فقال له آدم عليه السلام: أين تركت ابني؟ قال له قابيل: ارسلتني عليه راعياً، فقال آدم: انطلق معي إلى مكان القربان، وأوجس قلب آدم بالذي فعل قابيل، فلمّا بلغ مكان القربان استبان له قتله، فلعن آدم الأرض التي قبلت دم هابيل، وأمر آدم أن يلعن قابيل، ونودي قابيل من السماء: تعست كما قتلت أخاك، ولذلك لا تشرب الأرض الدم فانصرف آدم يبكي على هابيل أربعين يوماً وليلة، فلما جزع عليه شكى ذلك إلى الله، فأوحى الله إليه أنّي واهب لك ذكرا يكون خلفا عن هابيل، فولدت حوّاء غلاماً زكيّاً مباركاً، فلمّا كان يوم السابع أوحى الله إليه: يا آدم إنّ هذا الغلام هبة منّي لك فسمّه هبة الله، فسمّاه آدم عليه السلام هبة الله».

أقول: الفرق بين الروايتين بسيط، ويستفاد من الرواية الثانية أنّ العلوم مطلقاً إلهاميّة ـ وإن كان يختلف سبب الإلهام ـ ولكن بعضها يرجع إلى الحسّ، ولعلّ المعصية التي ارتكبها قابيل كانت سببا لعدم قابليته للإلهام، وفي بعض الروايات: «مسخ الله عقله وخلع فؤاده تائهاً حتّى مات»، ولذا أُلهم الغراب بذلك

دون قابيل. نعم إنّ ما اقتضته الفطرة غير قابل للجهل، كما ورد في بعض الروايات: «مهما ابهموا لا يبهموا عن ثلاث: خالقهم، ومحلّ رزقهم، ومحلّ سفادهم».

وأنّ فعل الغراب كان منحصراً بالفرد، ولم تكن من طبيعته كذلك كما قيل، وإن ذكر بعضهم أنّ نوعاً منه يدفن موتاه وراثياً، ومنه ذلك الغراب.

كما يستفاد منها أنّ تنبؤ آدم عليه السلام قتل ولده هابيل كان من الإلهام، ولم يكن من الوحي، لقوله عليه السلام: «لمّا أوجس في نفسه من ذلك»، وهذا قد يعرض على الإنسان خصوصاً الأخيار منهم.

وأمّا عدم شرب الأرض الدم، فله أسباب عديدة وحِكَم كثيرة، لعلّ منها بقاء أثر دم المظلوم وعدم زواله.

وأمّا أمر آدم عليه السلام لعن قابيل لأجل ما صدر منه من الفعل الشنيع باختياره، وأنّ نداءه في السماء بواسطة بعض الملائكة، للدلالة على بعده عن رحمته تعالى لأجل ما صدر منه.

وفي «تفسير العيّاشي» بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لما أكل آدم من الشجرة أُهبط إلى الأرض، فولد له هابيل وأُخته توأم، ثمّ ولد قابيل وأُخته توأم ـ إلى أن قال: ـ ثمّ إنّ آدم عليه السلام سأل ربّه ولداً، فولد له غلام فسمّاه هبة الله، لأنّ الله وهبه له وأُخته توأم، فلمّا انقضت نبوّة آدم عليه السلام واستكمل أيّامه أوحى الله إليه أن يا آدم قد قضيت نبوّتك واستكملت أيّامك، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان، والاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوّة في العقب من ذرّيتك عند هبة الله ابنك، فإنّي لم اقطع العلم والإيمان والاسم، وآثار علم النبوّة في العقب من ذرّيتك إلى يوم القيامة، ولن ادع الأرض إلّا وفيها عالم يعرف به ديني، ويعرف به طاعتي، ويكون نجاة لمَن يولد فيما بينك وبين نوح، وبشّر

آدم عليه السلام بنوح وقال: إنّ الله باعث نبيّا اسمه نوح، فإنّه يدعو إلى الله ويكذّبه قومه فيهلكهم الله تعالى بالطوفان، وكان بين آدم ونوح عشرة آباء، كلّهم أنبياء.

وأوصى آدم عليه السلام إلى هبة الله أن مَن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه وليصدق به، فإنّه ينجو من الغرق، ثمّ إنّ آدم مرض المرضة التي مات فيها فأرسل إلى هبة الله، فقال له: إن لقيت جبرئيل ومَن لقيت من الملائكة فاقرأه منّي السلام وقل له: يا جبرئيل! إنّ أبي يستهديك من ثمار الجنّة، فقال جبرئيل: يا هبة الله! إنّ أباك قد قبض وما نزلنا إلّا للصلاة عليه فارجع، فرجع فوجد آدم عليه السلام قد قبض، فأراه جبرئيل كيف يغسّله، فغسّله حتّى إذا بلغ الصلاة عليه قال هبة الله: يا جبرئيل! تقدّم فصلّ على آدم، فقال له جبرئيل: إنّ الله أمرنا أن نسجد لأبيك آدم وهو في الجنّة، فليس لنا أن نؤمّ شيئاً من ولده، فتقدّم هبة الله فصلّى على أبيه آدم وجبرئيل خلفه وجنود الملائكة، وكبّر عليه ثلاثين تكبيرة فأمره جبرئيل فرفع من ذلك خمساً وعشرين تكبيرة، والسنّة اليوم فينا خمس تكبيرات، وقد كان صلى الله عليه وآله يكبّر على أهل بدر سبعاً وتسعاً. ثمّ إنّ هبة الله لمّا دفن آدم أتاه قابيل فقال: يا هبة الله! إنّي قد رأيت أبي آدم عليه السلام قد خصّك من العلم بما لم يخصّني به أنا، وهو العلم الذي دعاه به أخوك هابيل فتقبّل منه قربانه، وإنّما قتلته لكي لا يكون له عقب يفتخرون على عقبي يقولون: نحن أبناء الذي تقبّل منه قربانه وأنتم أبناء الذي ترك قربانه، وإن أظهرت من العلم الذي اختصّك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل، فلبث هبة الله والعقب من بعده مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة، حتّى بعث الله نوحاً وظهرت وصيّة هبة الله في ولده حين نظروا في وصيّة آدم عليه السلام فوجدوا نوحاً نبيّاً قد بشّر به أبوهم آدم، فآمنوا به واتّبعوه وصدقوه، وقد كان آدم عليه السلام أوصى إلى هبة الله أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كلّ سنة، فيكون يوم

عيدهم يتعاهدون بعث نوح وزمانه الذي يخرج فيه، وكذلك في وصية كلّ نبي، حتّى بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله».

أقول: يستفاد من هذه الرواية أُمور:

الأوّل: أنّ المواريث المعنويّة الموجودة عند الأنبياء عليهم السلام في عالم الشهادة لاتزول بموت النبيّ أو الوصيّ، وإنّما تنتقل من نبيّ أو وصيّ، خصوصاً الاسم الأعظم منها، فإنّه موجود عند الحجّة بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف.

الثاني: لعلّ بشارة آدم عليه السلام بنوح، لأنّه الأب الثاني للبشريّة كما هو الأب الأوّل لهم، فله من الأهمّية ما لم تكن في غيره من الأنبياء، كما أنّه بشّر بمحمد، لأنّه الغاية من الخلق، وهو أشرف الخلائق.

الثالث: أنّ تعليم الشرائع الإلهيّة كما يكون بالإلهام بواسطة الأنبياء عليهم السلام، كذلك قد يكون بواسطة الملائكة في هذه الدنيا.

الرابع: تدلّ زيادة التكبيرات على شرفه وتقرّبه إلى الله تعالى، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يزيد فيها في صلاته على الشهداء، وذلك لا ينافي الفرض الذي هو خمسة عندنا، وأقلّ عند غيرنا، وأنّ ما رفع جبرئيل منها كان نفلاً لا فرضاً.

وعن هشام بن الحكم، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام، لمّا أمر الله آدم أن يوصي إلى هبة الله، أمره أن يستر ذلك، فجرت السنّة في ذلك بالكتمان، فأوصى إليه وستر ذلك».

أقول: لعلّ السرّ في كتمان الأُمور التي لها شأن ـ كما حثّ عليه في كثير من الروايات ـ هو كونه أحفظ من مكائد الشيطان، كالتحريف والتضييع وغيرها.

ثمّ إنّ هناك روايات أُخرى تتعلّق بالقصة، وفي بعضها نوع من الخلل فلابدّ من التأويل، فإنّ الحال والزمان لا يدعان مجالاً لذكرها وتأويلها والله العالم.

وفي «الكافي» بإسناده عن محمّد بن مسلم، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن

قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾؟ قال: له في النّار مقعد، لو قتل الناس جميعاً لم يرد إلّا ذلك المقعد».

أقول: ومثله غيره من الروايات، وتقدّم في التفسير أنّ التنزيل في الآية المباركة حقيقيّ لما ارتسمت في نفس القاتل من الصفات السيئة، ولا تنافي ذلك زيادة العذاب لو قتل أكثر من واحد، كما دلّت عليه رواية حمران عن الباقر عليه السلام: «فإن قتل آخر؟ قال عليه السلام: يضاعف عليه».

وفي «الكافي» أيضاً بإسناده عن سماعة، عن الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾، قال: مَن أخرجها من ضلال إلى هدى فكأنّما أحياها، ومن أخرجها من هدى إلى ضلالة فقد قتلها».

أقول: المراد من الحياة والممات في الرواية الحياة المعنويّة والممات المعنويّ، كمن أخرجها من الكفر إلى الإيمان، وتقدّم سابقاً أنّهما أفضل من الحياة الجسميّة، كما تدلّ عليه الآيات المباركة والروايات المستفيضة، والرواية من باب التطبيق على أكمل الأفراد وأجلاها، أو من باب التأويل الأعظم كما في بعض الروايات، ولا تنافي النجاة من الحرق والغرق وغيرهما، لشمول الإحياء له كما هو المعلوم.

وفي «الكافي» بإسناده عن معاوية بن عمار، عن الصادق عليه السلام، قال: «مَن يسقي الماء في موضع يوجد فيه الماء، كان كمَن اعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء، كمَن أحيا نفساً، ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً».

أقول: الرواية من باب ذكر بعض الأفراد والمصاديق.

وعنه بإسناده أيضاً عن حمران، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: اسألك

أصلحك الله تعالى؟ فقال: نعم، فقلت: كنت على حال وأنا اليوم على حال أُخرى، كنت ادخل الأرض فادعو الرجل والاثنين والمرأة، فينقذ الله مَن يشاء أن اليوم لا ادعو أحداً؟ فقال: وما عليك أن تخلي بين الناس وبين ربّهم، فمَن أراد الله أن يخرجه من ظلمة إلى نور أخرجه، ثمّ قال: ولا عليك إن أنست من أحد خيراً أن تنفذ إليه الشيء ابتداءً.

قلت: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾، قال: من خرق أو غرق، ثمّ سكت، ثمّ قال: تأويلها الأعظم إن دعاها فاستجابت له».

أقول: ورد في كثير من الروايات أنّ دعاء المؤمن لأخيه في ظهر الغيب لا يردّ، وأنّ تأخير الآثار لا ينافي ذلك. وتبدّل الحالات النفسانيّة في الإنسان كثير، مؤمناً كان أو كافراً، والرواية من باب التطبيق، ولعلّ المراد من التأويل الأعظم ذكر أجلى المصاديق وأكملها للآية المباركة، وهو المراد من ذلك في كلمات الأئمّة عليهم السلام.

وفي «الدرّ المنثور» عن علي عليه السلام: «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: بدمشق جبل يقال له قاسيون، فيه قتل ابن آدم أخاه».

أقول: على فرض صحّة الرواية، فإنّها لا تنافي أن يكون الدفن في محلّ آخر، لما في بعض الروايات: «مكث يحمل أخاه في جراب على رقبته سنة».

وفي «الدرّ المنثور» عن البراء بن عازب، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما قتلت نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم القاتل الأوّل كفل من دمها، لأنّه أوّل من سنّ القتل».

أقول: وقريب منه غيره، وإنّها مطابقة لقاعدة: «مَن سنّ سنّة سيئة فله وزر مَن عمل بها»، ولعلّ هذا هو المراد من ذيل الآية المباركة: ﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ**

جَمِيعاً﴾، فتأمّل جيداً.

وعن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** قال: «مَن قتل نبيّاً أو إمام عدل، فكأنّما قتل الناس جميعاً».

أقول: الآية المباركة مطلقة، وما ذكره ابن عبّاس من باب أكمل الأفراد وأجلى المصاديق أو الأولويّة، لا من باب التخصيص.

وفي «الدرّ المنثور» بإسناده عن الحسن، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الله لا يقبل عمل عبدٍ حتّى يرضى عنه».

أقول: رضاء الله تعالى عن عبده يلازم التقوى وهي المناط، لأنّ غيرها لا يقبل، ولا يدور الإخلاص إلّا عليها، ولكنّ الواعظين بها كثيرون والعاملين بها قليلون، وللتقوى مراتب مختلفة ودرجات كثيرة، كما أنّ رضاه تعالى كذلك.

واعلم: أنّ هناك روايات ذكرها السيوطي في «الدرّ المنثور» تدلّ مضامينها على ذمّ الانقياد والجلوس بترك الدفاع، وأنّ هابيل ترك الدفاع عن نفسه، فوقع القتل عليه.

وهذه الروايات لابدّ من حملها على ما إذا لم يستلزم تضييع الحقّ ولا التعدّي على حرمات الله تعالى، وإلّا فإنّ الدفاع عن النفس، وانتصار الحقّ، وكشف الكرب عن المظلوم بردع الظالم، وحفظ مشاعر الدين عن المعتدين بالجهاد وغيرها، ومن الواجبات العقليّة النظاميّة، أكد عليها الشرع.

ومن المحتمل أنّ الروايات صدرت عن أشخاص أرادوا منها جوانب خارجية، لعلّ منها صرف المسلمين عن الحرب مع علي عليه السلام ضدّ معاوية أو الخوارج أو طلحة والزبير، أو تجميد دوافعهم التي كانت تؤيدّ الحقّ وتسانده.

وكيف كان، فلابدّ من حمل الروايات وإلّا فتطرح.

وهناك روايات أُخرى تتعلّق بقصة قابيل ومجازاته، ذكرها أرباب التفاسير ـ كالسيوطي وغيره ـ لا يقبلها العقل، وهي أشبه بالقصص الوهميّة أو الخرافات الخياليّة، فلابدّ من طرحها أيضاً، والله العالم.

***

بحث كلامي:

وردت كلمة التقوى في القرآن والسنّة ـ بل في الكتب السماويّة ـ كثيراً، وحثّت عليها الشرائع الإلهيّة ورغبّت إليها. وهي صفة ـ أو حالة نفسانيّة ـ تعرض على الإنسان الملتزم بالدين، وقد تزول عنه حسب العوامل النفسيّة والمكائد الشيطانيّة، فهي من الأُمور الإضافيّة، تختلف حسب درجات الإيمان والثقة بالمبدأ عزّ وجلّ.

وهي في اللّغة: جعل النفس في وقاية ممّا يخاف. بل جعل نفس الخوف تقوى، من باب تسمية مقتضي الشيء باسم مقتضاه.

وقد عرّفت في الشرع بتعاريف متعدّدة، ولعلّ أسلمها: حفظ النفس عمّا يؤثم. وذلك بترك المحظور، ويتحقّق باجتناب بعض المباحات، أي التنزّه عن الحلال مخافة الوقوع في الحرام، لما روي: «الحلال بيّن والحرام بيّن، ومَن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه»، وغيره من الروايات قال الله تعالى: **﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1].

وقيل: إنّها صفة راسخة في النفس توجب الاجتناب عن المآثم والمشتبهات، وهذا التعريف يرجع إلى الأوّل، وإنّما الاختلاف في التعبير.

وقيل: هي الامتناع عن الرديء باجتناب ما يدعوا إليه الهوى، وهذا أعمّ ممّا تقدّم.

---

١. سورة الأعراف: الآية ٣٥.

وكيف كان، فإنّه لا يمكن تحقيق التقوى إلّا بترك المشتبهات، فضلاً عن المحرّمات، ففي رواية يونس عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: «أرشدنا للزوم الطريق المؤدّي إلى محبّتك والمبلغ إلى جنّتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب، ونأخذ بآرائنا فنهلك، فإنّ مَن اتّبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء الناس تعظّمه وتصفه، فأحببت لقائه من حيث لا يعرفني، لأنظر مقداره ومحلّه، فرأيته في موضع قد أحدقوا به جماعة من غثاء العامّة، فوقفت منتبذاً عنهم متغشّياً بلثام، انظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتّى خالف طريقهم وفارقهم، ولم يقر، فتفرّقت جماعة العامّة عنه لحوائجهم، وتبعته أقتفي أثره، فلم يلبث أن مرّ بخبّاز فتغفّله فأخذ من دكانه رغيفاً مسارقة، فتعجّبت منه، ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ مرّ بعده بصاحب رمّان، فما زال به حتّى تغفّله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجّبت منه ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ أقول: وما حاجته إذاً إلى المسارقة، ثمّ لم أزل اتّبعه حتّى مرّ بمريض فوضع الرغيفين والرمّانتين بين يديه ومضى، وتبعته حتّى استقرّ في بقعة من صحراء، فقلت له: يا عبدالله لقد لحقت بك وأحببت لقاءك فلقيتك، لكنّي رأيت منك ما شغل قلبي، وإنّي سائلك عنه ليزول به شغل قلبي، قال: ما هو؟ قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين ثمّ بصاحب الرمّان فسرقت منه رمّانتين، فقال لي: قبل كلّ شيء حدّثني مَن أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم من أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله، قال: حدّثني ممّن أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة، قال: لعلّك جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قلت: بلى، قال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرّفت به وتركك علم جدّك وأبيك، لأنّه لا ينكر ما يجب أن يحمد ويمدح فاعله، قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله، قلت: وما الذي جهلت؟ قال: قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾، وإنّي لمّا سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولمّا سرقت الرمّانتين كانت سيّئتين، فهذه أربع سيّئات. فلمّا تصدّقت بكلّ واحد منها كانت أربعين حسنة، انقص من أربعين حسنة أربع سيّئات، بقي ست وثلاثون.

قلت: ثكلتك أُمّك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت قول الله عزّ و جلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، إنّك لمّا سرقت رغيفين كانت سيئتين، ولمّا سرقت الرمّانتين كانت سيّئتين، ولمّا دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنّما أضفت أربع سيِّئات ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيِّئات. فجعل يلاحيني فانصرفت وتركته».

ويستفاد من هذه الرواية أنّ القبول مطلقاً يدور مدار التقوى، ولولاها فالأعمال مجرّد صور لم يكن لها لبّ. نعم لكلّ منهما مراتب ودرجات، والتقوى هي المسلك المهمّ للوصول إلى ساحة قربه ولاستقرار حبّه تعالى في القلب. وقد ذكر علماء السير والسلوك أنّ مقامات الرقي هي مراتب التقوى، وقسّموها إلى تقوى العوامّ وتقوى الخواصّ، وتقوى أخصّ الخواصّ. ثمّ إنّ المراد من التقوى في الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، هو مجرّد التقرّب إليه عزّ وجلّ مع تقريره به، لا التقوى المصطلح، لتناسب ذلك لبدء التشريع وتلائمه مع بثّ النسل، ولم تكمل الحجّة بتمام جهاتها. ولكن تقدّم أنّ للتقريب إليه تعالى مراتب ودرجات، وأنّه لم يرد مثل هذا التعبير القرآني إلّا في هذه الآية فقط.

***

الآية ٣٣ ـ ٣٤

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

الآيتان الشريفتان تبيّنان أهمّ الأحكام الاجتماعيّة التي يقوم عليها النظام العامّ وثبات الأمن والأمان، وتحرّمان المحاربة والإفساد المخلّين للنظام والموجدين للخوف العامّ.

ففي الآية الشريفة الأُولى يبيّن تعالى حدّ المحاربة، الذي هو شديد على قدر عظمة الجرم، الذي هو المحاربة مع الله العظيم ورسوله الكريم، وكان الحدّ مركّباً من الخزي في الدنيا بالقتل والصلب والقطع من خلاف والنفي من الأرض، والعذاب العظيم في الآخرة.

وفي الآية الثانية يبيّن عزّوجلّ حكم مَن تاب قبل القبض والاستيلاء عليه، وغفران الله تعالى له.

ولا يخلو ارتباط هاتين الآيتين بما سبق، كما تشمل المحاربة القتل الذي بيّنته الآيات السابقة في قصة قتل ابن آدم أخاه، وما كتبه الله تعالى على بني إسرائيل من أجله، الذي لا يعدو أن يكون منعاً للإفساد والمحاربة، إفساداً

للنظام، فكانت هذه الآيات المباركة بياناً لعقاب الإفساد الذي خلت الآيات السابقة منه.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾.

مادّة (حرب) تدلّ على التعدّي وما يضادّ السِّلم والسّلام؛ من الأذى والقتل والضرر على النفس والمال، والحرب (بالتحريك) هو أن يسلب الرجل ماله، يقال: حربه يحربه ـ على وزن تعب ـ إذا أخذ ماله، فهو حريب ومحروب. والمستفاد من اشتقاق هذه الكلمة أنّ الحرب أعمّ من القتل، فتشمل الاعتداء والسلب وإزالة الأمن والإخلال بالنظام العامّ، ولا ريب أنّ ذلك يستلزم بحسب الطبع والعادة استعمال السلاح والتهديد، وربّما القتل وأنحاء الأذى والضرر. وقد ورد في السنّة الشريفة تفسير الآية المباركة بشهر السيف ونحوه ممّا ستعرف، فهو إنّما يكون من باب المثال.

والمحاربة مفاعلة، وقد ذكرنا في مواضع متعدّدة أنّ المفاعلة لا تتقوّم حقيقة معناها بطرفين كما يدّعيه بعض، بل هذه الهيئة تدلّ على صدور الفعل من شخص وإنهائه إلى آخر، سواء صدر منه فعل أم لا.

والمحاربة مع الله تعالى بالمعنى الحقيقيّ مستحيلة، فلابدّ أن يكون المراد منها مخالفة أحكامه المقدّسة والاستهزاء بتعاليمه وتشريعاته ونقضها، كما أنّ محاربة الرسول صلى الله عليه وآله إنّما هي إبطال ولايته في الأُمور التي ثبتت من جانبه عزّوجلّ، ويدخل فيه أذيّة أولياء الله تعالى الذين ثبتت ولايتهم من جانب الرسول صلى الله عليه وآله بأمر من الله تعالى، فتكون محاربة الله ورسوله معاداة الله تعالى ومخالفة أحكامه ونقضها وعدم تنفيذها وإبطال ولاية أولياء الله تعالى، وإعلان مخالفتهم ومعاداتهم.

وبعبارة أُخرى: تكون المحاربة مع الله ورسوله هي عدم الإذعـان لديـنه بعدم حفظ الحقوق وعدم إقامة تشريعاته، والاستهزاء بشعائر الدين ومقدّساته، فترجع المحاربة مع الرسول ﷺ إلى المحاربة مع الله تعالى، فإنّ الرسول ﷺ من مظاهر الحقّ، كما أنّ منها ولاية أولياء الله تعالى.

قوله تعالى: **﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾**.

بيان لبعض مصاديق محاربة الله ورسوله التي تقدّم معناها، والفساد ضـدّ الصلاح، ومَن عمل شيئاً كان سبباً للفساد يقال: إنّه أفسده، والسعى فساداً، أي الإفساد في الأرض، وهو ما كـان سـبباً للإخـلال بـالنظام العـامّ وإزالة الأمـن والأمان، فيدخل فيه قطع الطريق وقتل الناس ظلماً، وغير ذلك ممّا ذكره الفقهاء في المقام، ويرجع كلّ ذلك إلى عدم الإذعان بدين الله تعالى وتضييع الحـقوق، فيتلازم الوصفان، ومن ذلك يعرف أنّـه لا يكفي مجرّد المحاربة مع المسلمين إذا لم نرجع إلى ما ذكر. ويدلّ عليه أنّ الرسول ﷺ لم ينفذ في المحاربين من الكفّار بعد الظهور عليهم والظفر بهم حدّ المحارب عليهم، وسيأتي بيان ذلك إن شاءالله تعالى.

قوله تعالى: **﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾**.

بيان لحدّ المحاربة وجزائه. والجملة خبر المبتدأ في قوله تـعالى: **﴿إِنَّـمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ﴾**. والتقتيل والتصليب والتقطيع، تفعيل من القتل والصلب والقطع، الدالّة على زيادة في المعنى المجرّد، ولعلّها إمـا لأجـل الزيـادة عـلى القصاص، لأنّه حدّ شرعيّ وحقّ إلهيّ، لا يسقط بعفو الولي، أو لأجـل التكـثير والمبالغة في القتل باعتبار الأفراد، لأنّـهم سعوا في الأرض فساداً، والصلب قتلة

مؤذية ، والكلمة مشتقّة من الصلب (بالتحريك) . والصليب بمعنى الودك (الدهن) أو الصديد الذي يخرج من بدن الميت . والهيئة التي تشبه المصلوب تسمّى صليباً .

وقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أي تقطع مختلفة ، بمعنى إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى . وصيغة التفعيل في هذا النوع أظهر . والمراد بقطعها ، قطع بعضها دون الجميع ، أي إحدى اليدين وإحدى الرجلين مع مراعاة الاختلاف في الجانب .

وأمّا النفي من الأرض ، فهو بمعنى الطرد من البلد إلى بلد آخر ، وهو مضافاً إلى أنه عقاب ظاهراً ، هو عملية إصلاحية تأديبيّة . وقيل : إنّ المراد بالنفي هو الحبس ، لكنّه لا دليل عليه ، سيما بعد كونهما عقوبتين .

ولفظة «أو» إنّما تدلّ على التفصيل والترديد ، المقابل لمطلق الجمع ، وأما الترتيب أو التخيير فلابدّ أن يستفاد من القرائن الخارجيّة ، لأنّ المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة جداً ووجوه شتّى ، فقد شرّعت لكلّ مرتبة منها عقوبة معينة وحدّ خاصّ ، وفى الروايات المروية عن الأئمّة الهداة عليهم السلام الدلالة على أنّ الحدود الأربعة مترتّبة بحسب درجات المحاربة والإفساد ، وسيأتي نقل بعضها إنه شاء الله تعالى .

وقيل : إنّ (أو) للتخيير ، فللإمام أن يحكم على مَن يشاء من المحاربين ، ويمكن إرجاعه إلى ما سبق ، وإلّا فلا دليل عليه في المقام ، كما عرفت آنفاً .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا﴾ .

الخزي الفضيحة والذّل ، أي ذلك الجزاء من القتل ، والصلب ، والقطع ، والنفي ، ذلٌّ وهوانٌ للمحاربين المفسدين في الدنيا ، ليكونوا عبرة لغيرهم من المفسدين .

قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

لا يعلم قدره لعظم جنايتهم. وإنّما اقتصر في الدنيا على الخزي وفي الآخرة على العذاب، لأنّ الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، وعذاب الآخرة أعظم من الخزي في الدنيا.

والآية المباركة تدلّ على الجمع بين عقاب الدنيا وعذاب الآخرة، وهو يدلّ على عظم الجناية لما لها الأثر الكبير في النفوس وتدنيسها بارتكاب الفواحش والآثام، و قلّما تكون جناية يجمع فيها بين الأمرين، فإنّه قد دلّت روايات متعدّدة على أنّ الحدّ في الدنيا والجزاء الدنيويّ يرفع العقاب في الآخرة، إلّا في بعض الجنايات، منها هذه الجناية، كما تدلّ عليه الآية الشريفة، فلا يستفاد منها قاعدة كلّية.

قوله تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ**﴾.

الاستثناء من عقاب المحاربين المفسدين في الأرض، الذين حكم عليهم بالخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة.

وحطّ العذاب عنهم بشرط التوبة قبل القبض عليهم، فإنّها ناشئة عن العلم بقبح عملهم والعزم على عدم العود، وهي التوبة النصوح.

وأمّا بعد القبض، فلا أثر للتوبة، فإنّ منشأها الخوف من عقاب الدنيا، ولذا لا يسقط الحدّ عنهم.

قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

لأنّه بالتوبة صار أهلاً لمغفرته ورحمته. أي فاعلموا أنّ الله يغفر لهم ذنوبهم، ويرحمهم برفع العقاب عنهم.

وقيل: إنّ الآية المباركة تدلّ على تعلّق المغفرة بغير الأمر الأُخرويّ. ولكن يمكن القول بشمول المغفرة والرحمة لكليهما، العقاب الدنيويّ والعذاب الأُخروي.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾**، على أنّ محاربة الله ورسوله من الأُمور المبغوضة عند الفطرة الإنسانيّة، حيث لم يذكر سبحانه وتعالى حكم المحاربة، وأوكله إلى الفطرة، وذكر جزاءها الذي يدلّ على أنّها من المعاصي الكبيرة التي أوعد الله تعالى عليها النّار، والمحاربة مع الله تعالى ورسوله معلومة لكلّ إنسان تدعو فطرته إلى عبادة خالقه والوفاء بعهوده، التي منها الالتزام بأداء التكاليف، ومراعاة حقّ العبوديّة معه عزّوجلّ، ولأجل ذلك أطلق الكلام في المقام ولم يذكر خصوصيات المحاربة، وإن بيّن في بعض الموارد وفي مواضع من القرآن الكريم والسنّة الشريفة، قال تعالى في النهي عن الربا: **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾**[1].

والمستفاد من جميع ذلك أنّ المحاربة تتحقّق بمحاربة الشرع، ومقاومة تنفيذه، والاستهزاء بالأحكام الإلهيّة، وهتك حرمات الله تعالى، ويدلّ على ذلك التعليل الوارد في بناء المنافقين لمسجد ضرار: **﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**[2]، وعموم الآية الشريفة يشمل الجميع، فلا تخصّ المحاربة بالمسلمين فقط، بل يشمل الكفّار أيضاً، فكلّ مَن انطبق عليه عنوان المحارب مع الله ورسوله، يشمله حكمه وينفذ

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٧٩.

٢. سورة التوبة: الآية ١٠٧.

فيه جزاؤه في جميع الأعصار وبأي شكل كانت المحاربة.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾**، على أنّ مجرّد الفساد ليس كافياً في صدق عنوان المحارب على المفسد، بل لابدّ أن يكون سعياً منه في الفساد والإفساد، ولم يبيّن عزّ وجلّ خصوصيات الفساد في المقام، لمعلوميّته لدى كلّ عاقل، وقد ذكر في القرآن الكريم من مصاديقه قتل النفس المحترمة، قال تعالى حاكياً عن الملائكة: **﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾**(١).

ومنها: قطع ما أمر الله به أن يوصل، قال تعالى: **﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾**(٢).

ومنها: إهلاك الحرث والنسل، قال تعالى: **﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾**(٣).

ومنها: ترك بعض الأمور الاجتماعيّة الواجبة التي لها دخل في تنظيم المجتمع الإسلاميّ وإقامة أركان العدل الإلهيّ، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾**(٤).

---

١ . سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢ . سورة البقرة: الآية ٢٧.

٣ . سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

٤ . سورة الأنفال: الآية ٧٣.

ومنها: الطغيان في البلاد، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾**[1].

ومنها: ابتغاء العلو في الأرض، قال تعالى: **﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾**[2]، وقد ورد في شأن فرعون: **﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾**[3].

ومنها: بخس الناس أشياءهم، قال تعالى: **﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**[4].

ومن ذلك يعلم أنّ ما ورد في السنّة الشريفة إنّما هو من باب المثال، كقطع الطريق وإخافة الناس وإزاحة الأمن والأمان والسلب والنهب والإخلال بالنظام.

والظاهر من الآيات الشريفة الواردة في مواضع متفرّقة، أنّ الفساد في الأرض من مظاهر محاربة الله ورسوله، بل هما متلازمان، فإذا أُطلق أحدهما يراد به الآخر أيضاً.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾**، أن المحاربة على مراتب ودرجات، لكلّ مرتبة منها حدّ خاصّ موكول إلى نظر الإمام العادل المخالف لهواه في تشخيصه، ويدلّ على ما ذكرناه بعض الروايات.

والمستفاد من الآية المباركة أنّ المناط في إجراء الحدّ ليس مجرّد القتل والصلب وغيرهما، بل الغرض هو تطهير الأُمّة منهم وتهذيب نفوس الأشرار،

---

١. سورة الفجر: الآية ١١ ـ ١٢.

٢. سورة القصص: الآية ٨٣.

٣. سورة القصص: الآية ٤.

٤. سورة هود: الآية ٨٥.

فيحتاج إلى مزيد عناية في القتل والصلب والقطع، بأن يكون كلّ واحد من الأربعة عملية إصلاحية تربويّة، فيكون تقتيلاً مع شدّة ليكون ردعاً للغير وإصلاحاً للأمّة، وكذا الصلب والقطع.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، على أنّ الحدّ والخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة إنّما يكون خاصّاً بهم لا يتعدّاهم إلى غيرهم، الذين قد يتّفق أن يكون عملهم عمل المحارب، ما لم ينطبق عليهم عنوان المحاربين، كما يدلّ على أنّ العذاب في الآخرة يكون عظيماً بقدر تأثير فسادهم وإفسادهم، وذلك قد يلازم الخلود كما فصّلناه سابقاً.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ على عدم المطابقة بشيء من الجزاء السابق لمَن تاب من المحاربين قبل القدرة عليه، والتصدير بجملة: «فاعلموا»، للدلالة على تحقّق الغفران وثبوته فوق كلّ شيء من العواطف والأهواء والنزعات، وتقدّم الكلام في نظير هذه الآية الشريفة في سورة البقرة، فراجع.

***

بحث روائي:

في «التهذيب» للشيخ بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله قومٌ من بني ضُبّة مرضى، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: أقيموا عندي، فإذا برأتم بعثتكم في سرية، فقالوا: أخرجنا من المدينة، فبعث بهم إلى إبل الصدقة يشربون من أبوالها ويأكلون من ألبانها، فلمّا برأوا واشتدّوا قتلوا ثلاثة ممّن كان في الإبل، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فبعث إليهم علياً عليه السلام، وإذا هم في واد قد تحيّروا ليس يقدرون أن يخرجوا منه قريباً من أرض اليمن، فأسرهم وجاء بهم إلى رسول الله، فنزلت الآية: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي**

الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾».

أقول: وقريب منه ما في «الكافي». وأكل اللبن محمول على أكل الأقط المتّخذ من اللبن.

وذكر السيوطي في «الدرّ المنثور» روايات تدلّ على أنّ القوم من بني عُرينة أو عُكل، وسمل رسول الله ﷺ أعينهم لأنّهم سملوا أعين الرعاة، وفي بعضها نهي عن سمل الأعين بعد ذلك، ولم يرد في رواياتنا سمل الأعين على ما تفحّصت عاجلاً، لأنّ ذلك من المثلة، وقد نُهى النبيّ ﷺ عنها.

وكيف كان يستفاد من هذه الرواية وأمثالها أُمور:

الأوّل: أنّ الخيانة والغدر والإفساد مرفوضة في الشرع بجميع وجوهما، ولابدّ من التصدّي لمنعها بكلّ السبل.

الثاني: أنّ جزاء الخيانة لابدّ أن لا يتعدّاها، لقاعدة المثليّة في العقوبات، وقد تكون الخيانة عظيمة والغدر كبيراً، فجزاؤهما يكون كذلك.

الثالث: أنّ الجزاء المترتّب على الخيانة المعبّر عنه في الشرع بالحدّ أو التعزير أو القصاص والنفي، لابدّ أن يكون تحت إشراف ولي الأمر، سواء كان نبيّاً أو نائباً عنه، كالفقيه الجامع للشرائط، ولا يستلزم إراقة الدماء وهدرها بلا مبرّر، لأنّه يوجب الفوضى في المجتمع.

والرواية من باب التطبيق، وإنّ نزول الآية في واقعة لا يصير مخصّصاً لها، كما هو واضح.

وفي «الكافي» بإسناده عن عمرو بن عثمان بن عبيد الله المدائني، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «سئل عن قول الله عزّوجلّ: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾**، فما الذي إذا فعله استوجب واحدة من

هذه الأربع؟ فقال: إذا حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً ولم يقتل ولم يأخذ المال، نفي من الأرض، قلت: كيف ينفى في الأرض، وما حدّ نفيه؟ قال: ينفى من المصر الذي فعل فيه ما فعل إلى مصر غيره، ويكتب إلى أهل ذلك المصر أنّه منفيّ فلا تجالسوه ولا تبايعوه ولا تناكحوه ولا تؤاكلوه ولا تشاربوه، فيفعل ذلك به سنة، فإن خرج من ذلك المصر إلى غيره، كتب إليهم بمثل ذلك حتّى تتمّ السنة، قلت: فإن توجّه إلى أرض الشرك ليدخلها؟ قال: إن توجّه إلى أرض الشرك ليدخلها قوتل أهلها».

أقول: ظاهر الرواية الترتيب في إجراء الحدود بحسب اختلاف مراتب الفساد، ولكن ذكرنا في الفقه أنّ ذلك يدور مدار نظر الحاكم الشرعيّ وما يترتّب من المصالح والمفاسد، حسب اختلاف الظروف والأشخاص، فيصنع بهم على قدر جنايتهم، كما تدلّ على ذلك رواية جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية المباركة:

«قلت له: أي شيء عليهم من هذه الحدود التي سمّاها الله عزّوجلّ؟ قال عليه السلام: ذلك إلى الإمام إن شاء قطع، وإن شاء نفى، وإن شاء صلب، وإن شاء قتل. قلت: النفي إلى أين؟ قال عليه السلام: ينفى من مصر إلى آخر، وقال: إن علياً عليه السلام نفى رجلين من الكوفة إلى البصرة».

على أنّ سياق الآية المباركة يدلّ على ما ذكرنا من التخيير للإمام الذي يراعي المصالح، وما دلّ على الترتيب يحمل على الأولويّة والأفضلّية، وتقدّم البحث في كتاب الحدود من (مهذب الأحكام)، مَن شاء فليرجع إليه.

ثمّ إنّ المستفاد من الآية المباركة والسنّة الشريفة أنّ حدّ المحارب هو ما تقدّم بلا طرو موجب آخر، فمَن شهر سيفاً أو سعى في الأرض فساداً وقتل نفساً تؤخذ منه الدية لو رضي أولياء المقتول بها ثمّ يقتل، لأنّه محارب ومفسد، أو

ينفى من الأرض حسب ما يراه الحاكم الشرعي، كما ورد في رواية محمّد بن مسلم بن أبي جعفر عليه السلام، قال: «أصلحك الله، أرأيت إن عفى عنه أولياء المقتول؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: إن عفوا عنه فعلى الإمام أن يقتله، لأنّه قد حارب وقتل وسرق، فقال أبو عبيدة: فإن أراد أولياء المقتول أن يأخذوا منه الدية ويدعونه، ألهم ذلك؟ قال: لا، عليه القتل» وتمام الكلام موكول إلى الفقه.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مَن حارب الله وأخذ المال وقَتل، كان عليه أن يُقتل ويُصلب، ومن حارب وقتل ولم يأخذ المال، كان عليه أن يُقتل ولا يصلب، ومَن حارب وأخذ المال ولم يقتل، كان عليه أن يقطع يده ورجله من خلاف، ومَن حارب ولم يأخذ المال ولم يقتل، كان ينفى، ثمّ استثنى فقال: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾**، يعني يتوبوا من قبل أن يأخذهم الإمام».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بصدر الرواية، وأما ذيلها فإنّ مقتضى سعة رحمته وبسط فضله وحبّه لخلقه أن يكون الأمر كذلك، والله العالم.

وذكر السيوطي في «الدرّ المنثور» روايات توافق مضمونها مع ما تقدّم، فلا حاجة إلى سردها والمناقشة في الأُمور البسيطة فيها.

وفي «الكافي» بإسناده عن سورة بن كليب، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجل يخرج من منزله يريد المسجد أو يريد حاجة، فيلقاه رجل فيستقفيه فيضربه فيأخذ ثوبه؟ قال: أيّ شيء يقول فيه من قبلكم؟ قلت: يقولون هذه دغارة معلنة، وإنّما المحارب في قرى مشركة، فقال: أيها أعظم حرمة دار الإسلام أو دار الشرك؟ قلت: دار الإسلام، فقال: هؤلاء من أهل هذه الآية **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ـ إلى آخر الآية﴾**».

أقول: ما ذكره الراوي من أنّ المحارب يختصّ بالمشركين، وردت بذلك

روايات ذكرها السيوطي في «الدرّ المنثور»، وإنّ مقتضاها تفوّق أهل الشرك على المسلمين في هذا الحكم، وهذا ممّا لا يرضاه العقل والنقل، كما أشار إليه الإمام عليه السلام، ولا يخفى أنّ الرواية من باب التطبيق لا التخصيص، والله العالم.

***

بحث عرفاني:

تقدّم سابقاً أنّ الأسباب في تطهير النفوس المنحرفة عن فطرتها المستقيمة وتزكيتها كثيرة جدّاً، بل عن بعض أنّها معسورة الحصر، وعدّوا منها الحدود والتعزيرات، كما ورد في بعض الروايات التصريح بذلك.

والتعبير بأنّ الحدود والتعزيرات فيوضات إلهيّة ومكارم ربانيّة لأجل صلاح المجتمع وإصلاحها في عالم الشهادة، والفوز بالمقامات السامية في عالم الآخرة، كان مطابقاً للواقع. هذا كلّه إذا لم تكن الجريمة ممّا يوجب غضبه تعالى وسخطه، وإلّا لا يطهّره الحدّ والتعزير في عالم الشهادة؛ لأنّ الظرف غير قابل لذلك، فينتقم الله منه في عالم الآخرة، ولعلّ ما ورد في بعض العقوبات أنّه لم يجعل الشارع له حدّاً خاصّاً في الدنيا لأجل ذلك وأنّه يوجب سخطه.

إن قلت: إنّ الصفات السيئة والأفعال القبيحة كلّها توجب غضبه وسخطه، وإنّ الحدود جزاء شرعيّ، وإنّ العقاب تابع لسخطه وغضبه.

قلت أوّلاً: أنّ غضبه وسخطه لهما مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً ـ بل متباينة ـ وأنّ الحدود توجب رفعهما وإزلة الجريمة والخبث الباطنيّ، فيرضى الله عنه.

وثانياً: أنّ الحدود توجب محو الذنوب، وإنّها كالتوبة، وبعد ذلك لا وجه لأنّ يكون العبد مورد غضبه وسخطه.

والحاصل: أنّ الغضب الإلهيّ والسخط الربانيّ يرتفعان بما قرّره الشارع

لرفعهما ، سواء كان حدّاً أو تعزيراً أو توبة نصوحاً . نعم جَعْل العبد نفسه مورد تعلّق غضبه تعالى ينافي العبوديّة ويضاد الانقياد ، ولا يناسب السير والسلوك ، عن بعض أعلام العرفاء : التخلية بترك المساوئ وهجرها أولى من التحلية بفعل الحسنات . وإنّ بعض الآيات المباركة تشير إلى ذلك أيضاً ، والله العالم ، وللبحث ذيل يأتي في الموارد المناسبة للآيات الشريفة .

***

الآية ٣٥ـ ٤٠

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

لمّا بيّن عزّوجلّ جزاء المحاربة وعظيم جنايتها لما لها من الأثر السيء في النفوس وتعطيل النظام، فكان الخزي في الدنيا و العذاب العظيم في الآخرة، وفي هذه الآيات الشريفة ذكر سبحانه وتعالى بعض الطرق لإصلاح النفوس وترويضها على احترام المواثيق والعهود ونبذ الفساد والإفساد، فأمر عزّوجلّ بالتقوى لعظيم أثرها في تهذيب الإنسان وإصلاحه، ثمّ بالطاعة والإخلاص له لترويض النفوس على التوجّه إليه تعالى، والتوسّل به في قضاء الحاجات، وصرف النظر عمّا ليس بمحمود، ثمّ بيّن حال الذين كفروا في يوم القيامة وسوء منقلبهم وخلودهم في النار والعذاب المقيم، وفي ذلك الموعظة والعبرة. ثمّ ذكر جزاء السارق والسارقة اللذين يختلفان عن المحاربين في أنّهما يسرقان خفية

دون المحاربين، وجعل عقاب السارقين بما اجتمع فيه الوازع النفسيّ والتهذيب والإصلاح والخوف من العقاب والنكال والعبرة، فلم يقتصر فيه على جانب واحد، وجعل الباب مفتوحاً لمَن يتوب ويريد الإصلاح، فإنّ الله غفور رحيم يقبل توبة عباده إذا صلحوا. ثمّ ختم الآيات الشريفة بإثبات القدرة التامّة ونفوذ حكمه في مخلوقاته، زيادة في المهابة وتحقيقاً للهداية والموعظة، التي ما برح القرآن الكريم عنهما بأساليب متعدّدة متميّزة، لا تبلى جدّتها ولا تملّ قراءتها، فإنّ كلّ أُسلوب منها يتضمّن من الأمور البلاغيّة الأدبيّة، ويتخلّله من أسماء الله وصفاته العليا، ويشتمل على المعارف والتوجيهات وطلب تقواه تعالى والتوجّه إليه والإخلاص له، ما يجعل الكلام محبّباً للنفوس، ولذلك ترى أنّ القرآن وإن اشتمل على أهداف معيّنة وأغراض معلومة، قد ذكرت في مواضع متعدّدة، لكنّها ليست من التكرار المملّ، وهذا من معاجز هذا الكتاب العظيم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾.

بيان لأحد الكمالات الواقعيّة التي لابدّ من السعي إليها، وتقدّم الكلام في هذا النداء الربوبيّ الذي يتضمّن من اللّطف والتذكير والموعظة ما لا يتضمّنه أي خطاب آخر، وقد أمر تعالى المؤمنين بالتقوى لما لها الأثر العظيم في تهذيب النفوس وتكميلها بالكمالات الواقعيّة، وإزالة الموانع والحُجُب، وما يوجب سخطه عزّ وجلّ، فيكون ترتّب ما يأتي على هذا الحكم كترتّب المعلول على العلّة التامّة.

قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

مادّة (وسل) تدلّ على التقرّب والتوصّل إلى أمر بشيء. يقال: وسل إلى

كذا، أي تقرّب إليه بشيء، والوسيلة فعيلة بمعنى ما يتقرّب به إلى الله تعالى ويتوصّل إليه عزّوجلّ، من ترك المعاصي وفعل الطاعات مع الرغبة إلى مَن يتقرّب إليه وما يتقرّب به، وقال الراغب: (إنّها أخصّ من الوصيلة، لتضمّنها معنى الرغبة)، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرّي مكارم الشريعة.

أقول: لا ريب أنّ التقرّب إليه تعالى والتوسّل به إلى ثوابه والزلفى منه، إنّما يشترط أن يكون موافقاً لما ورد في الشرع المبين، كما أنّ فعل الطاعات وترك المعاصي لابدّ أن يكون مع العلم وتحرّي مكارم الشريعة، وقد ورد في بعض الأخبار: «إنّ الله لا يقبل دعاء قلب ساه أو لاه»، فالعلم وموافقة الشرع المبين من مقوّمات التقرّب إلى الله تعالى. ومن هنا كان ابتغاء الوسيلة إليه عزّوجلّ من شؤون العبوديّة لله تعالى، التي لا تتحقّق إلّا بإيجاد الرابطة بين العبد وربّه، فيكون المراد من ابتغاء الوسيلة ابتغاء الطاعة لله تعالى، التي لا يمكن أن تتحقّق إلّا بذل العبوديّة وتوجيه المسكنة والفقر إليه عزّوجلّ، والتضرّع لدى جنابه، والخشية منه تعالى، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلّا باتّباع الشريعة والتقوى، فكانت التقوى هي العلّة والغاية، وهذا يدلّ على أهمّية التقوى، فإنّه قلّما اجتمع في شيء العلّة الفاعليّة والغائيّة. ولعلّه لأجل ذلك أمر بالتقوى أوّلاً، ثمّ بابتغاء الوسيلة إليه، وهذه الآية الشريفة على إيجازها البليغ تتضمّن جميع الكمالات الواقعيّة، فهي الذريعة لكلّ خير وسعادة، ومنجاة من كلّ شقاء وعذاب، وفيها تظهر حقيقة العبوديّة وتزول الحُجُب والأغيار، فإنّه لا منجى إلّا بالتوسّل إليه عزّ وجلّ والإعراض عمّا سواه، وابتغاء الوسيلة إليه تبارك وتعالى لا يختصّ بطريقة معيّنة، بل كلّ ما يوجب التوسّل به إليه فهو صحيح، ففي الحديث: «انّ الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق»، إلّا ما ورد النهي عنه في الشريعة الغرّاء، كما في

عبادة الأصنام، والذبح لغير الله تعالى، وغيرهما ممّا حكاه عزّوجلّ في القرآن الكريم، وما ذكر في السنّة الشريفة، وليس من الأخير التوسّل بالأنبياء والأولياء ما يزعمه بعض، فإنّ الله تعالى جعلهم أبواب رحمته في الأرض، وقد قال تعالى: **﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾**[١]، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾**.

كمال آخر من الكمالات الواقعيّة، وترتّبه على سابقه من قبيل ترتّب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر)، فيكون المراد من الجهاد الأعمّ من الأصغر والأكبر، كما أنّ المراد من سبيله هو الجهاد في ما يرتضيه تبارك وتعالى.

فيكون المعنى: جاهدوا أنفسكم بحملها على اتّباع وابتغاء الوسيلة إليه عزّوجلّ، وكفّها عن الأهواء، وجاهدوا أعداء الله تعالى الذين يصدّون عن الحقّ، واحتمل بعضهم أن يكون المراد منه هو الجهاد مع الكفّار، نظراً إلى تقييده بكونه في سبيل الله تعالى، الذي إذا ذكر مع الجهاد يكون المراد منه القتال، بخلاف ما إذا أُريد الأعمّ، فإنّه يكون خالياً عن التقييد، كقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[٢].

وعلى هذا، يكون ذكره بعد الأمر بابتغاء الوسيلة إليه من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لأهمّيته. إلّا أنّه ممّا يبعد هذا الاحتمال سياق الآية الشريفة والقرائن المحفوفة بها، التي تدلّ على أنّ المراد منه الأعمّ، والتقييد بكونه في سبيل الله لايصرفه عن المعنى العامّ، لا سيما بعد كون الجهاد مع النفس من أصعب الأُمور،

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٩.

٢. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

وتتداخل فيه كثير من الأوهام والظنون، وهو مزلّة الأقدام وممتحن الرجال، فلابدّ من تحديد مسلكه وتعيين طريقه بكونه في سبيل الله، لئلّا يكون مرتع الشيطان، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ**﴾[1].

قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

أي: إذا تحقّق ذلك كلّه منكم فهو السبب للفوز بالفلاح، الذي هو أقصى الغايات وأبعدها، فإنّه الوصول إليه عزّوجلّ والفوز بكرامته، والسعادة في المعاش والمعاد، وهذا هو الكمال الذي يسعى إليه الإنسان في سعيه وتحمّله الجهد والمشقّة في ابتغاء مرضاة الله تعالى والتقرّب إليه.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ**﴾.

تعليل لمضمون ما قبله، وتأكيد على وجوب مراعاة الأحكام السابقة، وترغيب في المسارعة إلى تحصيل الوسيلة إليه عزّوجلّ، وبيان إلى بطلان ما توسّل به الكفّار يوم القيامة للنجاة من العذاب. والآية تدلّ على أنّ سبب الفلاح والنجاة كامن في نفس الإنسان، ولا يجديه شيء خارج إذا لم يكن راجعاً إلى كسب الإنسان وفعله، وقد أكّد عزّوجلّ ذلك في عدّة مواضع من القرآن الكريم، قال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[2].

ومعنى الآية: أنّ الذين كفروا لو افتدوا جميع ما في الأرض لينجيهم من عذاب يوم القيامة لم ينفعهم ذلك، لا يكون بدلاً عمّا ذكره عزّوجلّ في صدر الآية من التقوى وابتغاء الوسيلة والمجاهدة في سبيله، فإنّ تلك هي التي تصرف

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٨.

٢. سورة الشمس: الآية ٩ ـ ١٠.

العذاب عن أنفسكم. وإنّما اقتصر عزّوجلّ على الفدية بما في الأرض، لأنّها أقصى ما يقدر عليه ابن آدم من الملك الدنيويّ عادة.

قوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾.

زيادة في الرغبة، وتأكيد على كينونة ما في الأرض، والمثل على طريق المعيّة لا بطريق التعاقب، لبيان فظاعة الأمر وهول الموقف.

قوله تعالى: ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ليجعلوه فديةً لأنفسهم من عذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: لا يتقبّل الله ذلك منهم ولا ينقذهم من العذاب الذي استحقّوه بسبب أعمالهم ولا سبيل لخلاصهم منه، بل هم في عذاب مؤلم في كمال الإيلام لهم، لأنّ من سنّته عزّوجلّ أنّ الذي ينجيهم من العذاب، إنّما هو الإيمان والعمل الصالح. وتقدّم أنّه إنّما يتقبّل الله من المتّقين، فلا تنفع الكافرين الفدية، ولا ترفع عنهم العذاب الذي استحقّوه بكفرهم وسيئات أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾.

بيان لحالهم في النّار، وهو يدلّ على كمال إحساسهم بالعذاب، وأنّ الفطرة الأصليّة التي كانت تتألّم من العذاب في الدنيا لم تتغيّر ولم تنتف عنهم، بل تتأثّر بالنّار، ويتألّمون ويريدون الخلاص من العذاب والخروج من النار، فإنّها دار العذاب والشقاء وما هم بخارجين منها البتة، والجملة تدلّ على الثبوت والدوام، الآية الشريفة تدلّ على عدم قبول الشفاعة والعدل والفدية منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

تعليل لما سبق، وهو يدلّ على عدم تناهي العذاب كماً وكيفاً ومدة، أي لهم عذاب ثابت لا يزول ولا يفارقهم أبداً.

قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾.

جملة مستأنفة والواو للاستئناف، ودخول الفاء على الخبر يدلّ على أنّ الكلام في مقام التفصيل.

والتقدير: وأما السارق والسارقة ... إلى آخره. والسرقة هي أخذ الشيء في خفية، ومنه استراق السمع، وسارقة النظر، ومنها السرقة في الفقه الإسلامي، أي أخذ مال الغير خفية. والسرق والسرقة (بكسر الراء فيهما) اسم للشيء المسروق، والمصدر من سرق يسرق سرقاً (بفتح الراء)، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس، ومستلب، ومنتهب، ومحترس الذي يسرق حريسة الجبل، يشمل الجميع الغصب. وقد تستعمل السرقة في مطلق النقص، كما في الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «وأسوأ السرقة الذي يسرق من صلاته، وقيل: وكيف يسرق من صلاته؟ قال ﷺ: لا يتمّ ركوعها ولا سجودها».

والقطع هو الإبانة والإزالة، والآية الشريفة وإن كانت مطلقة، إلّا أنّ السنّة الشريفة بيّنت شروط الحكم، فلا يصحّ إجراء الحدّ إلّا إذا توفّرت جميع الشروط المعتبرة في السارق والشيء المسروق والمسروق منه، فليس كلّ سرقة يجري عليها الحكم المزبور، كما هو مذكور في الفقه. راجع كتابنا «مهذب الأحكام».

واليد هي الجارحة المعروفة، وتطلق في الإنسان على المحدود من المنكب إلى أطراف الأصابع، وقد يطلق على الأبعاض أيضاً كما عرفت في آية الوضوء. والمراد منها في المقام جزء معيَّن، وهو الأصابع كما دلّت عليه الروايات المتعدّدة، وسيأتي نقل بعضها.

وذهب الجمهور إلى أنّ القطع من الرسغ، وقيل: من المنكب، والمسألة

محرّرة في الفقه.

واستعمال الجمع (أيديهما) مع أنّ المراد منه التثنية، إمّا لأجل ما قيل من أنّه استعمال شائع في أعضاء الإنسان المزدوجة، كالقرنين والأُذنين واليدين والرجلين والقدمين، فكلّ شيء يوجد في الانسان إذا أُضيف إلى مثنى جمع، تقول: أشبعت بطونهما وهشّمت رؤوسهما، قال تعالى: **﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾**[1].

أو لأجل أنّ كلّ مفرد إذا أردت به التثنية قد يجمع، كما حكي: وضعا رحالهما، يريد به رحلي راحلتيهما، وقيل غير ذلك.

والظاهر أنّ الآية الشريفة ترمز إلى معنى أدق من تلك، وهو أنّ الموضوع لما كان من الأُمور الاجتماعيّة التي تضرّ بالاجتماع، ويفسِدُ أخلاق أفراد المجتمع، فإذا قام أحدٌ منهم بالسرقة فالمجتمع هو المسؤول عن تقويمه وتهذيبه، وإلّا كانوا مقصّرين، يشترك كلّ واحد من أفراده في هدم كيان المجتمع، ولعلّه لذلك استعمل لفظ الجمع لإلقاء المسؤوليّة على المجتمع في الحفظ والتربية والإصلاح.

وكيف كان، فالمخاطب في قوله تعالى: **﴿فَاقْطَعُوا﴾** من له أهليّة إقامة الحدود، كالأنبياء والأوصياء وحكّام الشرع المبين، فليس لكلّ أحد إقامة الحدّ، إلّا إذا رجع إليهم وأذنوا له بإقامة الحدّ. والتصريح بأنّ الحدّ يشترك فيه الرجال والنساء كما في حدّ الزنا، لأنّ كلّ واحد من الذنبين يقع من كلّ منهما، فأراد الله تعالى زجرهما معاً والتأكيد على قبحه، وإن كانت النساء تشترك مع الرجال في الأحكام. وإنّما قدّم السارق في آية السرقة، وقدّم الزانية في آية الزنا، لأنّ السرقة في الرجال أشيع منها في النساء، لأنّها مبنيّة على القوّة، وهي في

---

١. سورة التحريم: الآية ٤.

الرجال أكثر، كما أنّ الزنا في النساء أشيع منه في الرجال، لأنّه مبنيّ على الشهوة، وهي في النساء أشدّ.

قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾.

تعليل لما سبق، وهو منصوب إمّا لكونه مفعولاً لأجله. أو حالاً من القطع، المفهوم من قوله سبحانه ﴿فَاقْطَعُوا﴾. والباء للسببية، أي فاقطعوا أيديهما جزاء لهما بعملهما الشنيع وكسبهما السيء، وإنّما ذكر الكسب لبيان أنّ السرقة إنّما تباشر بالأيدي فتقطعان لما باشراه من الكسب.

قوله تعالى: ﴿نَكَالاً مِنَ اللهِ﴾.

مادّة (نكل) تدلّ على الحجز والمنع، واستعملت في العقوبة لأنّها تمنع الناس عن الذنب، ومنه النّكل (بالكسر) لقيد الدابة.

ولا ريب في أنّ قطع اليد من أجدر العقوبات لمنع السرقة، فإنّه يفضح صاحبه، وتكون علامةً من علامات الذلّ والعار، ليكون منعاً له عن ارتكاب الجرم، وعبرة يعتبر بها غيره من الناس فيكونوا في مأمن من أموالهم وأرواحهم.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: والله غالب على أمره لا يقهره أحد، حكيم في أفعاله وتشريعاته.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾.

تفريع على ما ذكره عزّوجلّ من كون الحدّ جزاء بما كسبا ونكالاً، فإنّ الهدف من تشريعه هو المنع من السرقة ورجوع المنكول به عن معصيته. فمَن تاب من السرّاق من بعد ظلمه على نفسه وعلى الآخرين، ورجع عن ذنبه رجوع ندم على ما فعل، وعزم على الترك، و أصلح نفسه بالتزكية، وأرجع ما سرقه إلى

أصحابه، وتفصى من تبعاته، وقد عرفت في بحث التوبة أنّ ما اجتمع فيه حقّ الله تعالى وحقّ الناس، لا تتمّ التوبة إلّا بأداء الحقّين، ويكفي في حقّ الله تعالى الندم والعزم على الترك. وأما حقّ الناس فيعتبر فيه الإصلاح، وهو يختلف باختلاف الموارد، ففي السرقة يجب ردّ المسروق إلى مالكه والاسترضاء منه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾.

أي: يقبل الله تعالى توبته، فلا يؤاخذه بالجريرة ويغفر له ويسقط عنه العذاب. وإطلاق الآية الشريفة يقتضي سقوط الحدّ عنه، كما يدلّ عليه بعض الروايات أيضاً.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تعليل لما سبق، أي أنّ ذلك من مقتضى رحمته، وهو الغفور الرحيم، والآية تدلّ على أنّ التوبة والمغفرة تفضّل منه تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

تعليل يبيّن وجه الحكمة في التشريع السابق، والخطاب لنبيّه الكريم إرشاداً لمَن له أهليّة الخطاب، وفيه إيماء إلى أنّ السارق الذي يريد من السرقة جمع المال فهو مخطئ في ذلك، فإنّ الله له ملك السماوات والأرض، يهب لمن يشاء ويمنع عن من يشاء، فهو القادر على كلّ شيء.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

بيان لبعض شؤون ملكيته لما سواه، فإنّ له أن يحكم في مملكته ورعيته بما يشاء ويريد من عذاب ورحمة. وفي الآية التعليل أيضاً على قبول توبة السارق والسارقة إذا تابا وأصلحا من بعد ظلمهما. وإنّما قدّم العذاب على

الرحمة خلافاً لما هو المعهود من تقديم الأخيرة على الأوّل، لمراعاة الترتيب في صدر الآية الشريفة، حيث ذكر جزاء السارق والسارقة ثمّ ذكر التوبة، فلا ينافي سبق رحمته على عذابه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تقرير لمضمون ما سبق، وتعليل لقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإنّ من شؤون الملك هو القدرة التامّة، التي هي من مظاهر قيوميته المطلقة. وقد تقدّم في آية الكرسي من سورة البقرة بعض الكلام فراجع.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

الظرف في قوله تعالى: **﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾**، متعلّق بـ(الوسيلة) قدّم عليها للاهتمام، وهي صفة لا مصدر حتّى يمتنع تقدّم معموله عليه، وقيل: متعلّق بالفعل قبله. وقيل: بمحذوف وقع حالاً منه. و(لو) في قوله تعالى: **﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾**، خبر (إنّ) في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**، وجوابها **﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾**. و(مثله) في قوله تعالى: **﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾**، معطوف على (ما) في قوله تعالى: **﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾**، الذي هو اسم (أن) و(لهم) خبرها. وقيل غير ذلك. وإنّما ذكر (لو) لتهويل الأمر وتفظيع الحال. و(جميعاً) توكيد للموصول، أو حال منه. وقال بعضهم: إنّ (الواو) في **﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾** بمعنى (مع)، فيتوحّد المرجوع إليه. وقد فصّل الكلام في المقام بما لا تستدعيه الحال، ومن شاء فليراجع الكتب المفصّلة.

ولم يذكر عزّوجلّ الافتداء المفهوم من الكلام، إيذاناً بأنّه أمر محقق الوقوع غني عن الذكر، وللمبالغة في تحقّق الرد. وذكر بعضهم أنّ الجملة: «ما تقبل منهم» تتضمّن التمثيل، ويقصد منها تنزيل التفصي عن العذاب منزلة من يكون له ذلك الأمر العظيم، ويحاول التخلّص من العذاب فلا يتقبّل منه، وقال بعضهم: إنّه لا يراد منها الاستعارة التمثيليّة، بل إيراد مثال وحكم يفهم منه لزوم العذاب لهم. و(يريدون) في قوله تعالى: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾**، ظاهر في المعنى الحقيقي، وقيل: محمول على معنى: يكادون يخرجون منها لقوّتها وشدّة عذابها.

وكيف كان، فإنّ في ذكر هذه الحكمة الدلالة على شدّة الحاجة، والإتيان

بالجملة الاسمية: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، المصدّرة بـ(ما) الدالّة على تأكيد النفي لدخول الباء في خبرها، فيه الدلالة على سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها، فإنّها تدل على دوام الثبوت. أما قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾، فالقراءة المعروفة فيهما هي الرفع على الابتداء والخبر محذوف، والتقدير حكمهما، وقيل: الخبر هو جملة (فاقطعوا). وردّ بأنّ الفاء لا تدخل إلّا في خبر المبتدأ الموصول بظرف أو مجرور أو جملة صالحة لأداة الشرط. وقرئ بالنصب على تقدير اقطعوا السارق والسارقة ... فيكون النصب على الاشتغال. وردّ بما هو مذكور في التكب المفصّلة فراجع.

والجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، خبر مقدّم، ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبتدأ، والجملة خبر (أن)، وهي مع ما في حيّزها مادّة مفعولي (تعلم).

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: تعتبر الآية الشريفة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾، من الآيات المعدودة التي اشتملت على أهمّ المعارف الربوبيّة، وهو علم المبدأ والمعاد، والسبيل الموصل إليه تعالى، والفوز بكرامته في الآخرة، والتوجيهات السامية، والإرشادات القيّمة التي تعدّ المؤمن إعداداً علميّاً وعمليّاً وعقائديّاً للفوز بالسعادة والفلاح. فقد احتوت من المعارف على أسماها، ومن الكمالات على أعلاها، ومن المكارم على أشرفها وأغلاها، وعالجت أهمّ قضية من قضايا المؤمن بأُسلوب موجز فصيح. فأمر عزّوجلّ أوّلاً بالتقوى لأنّها أساس كلّ كمال، وأصل التخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل،

وهي المعدّة لا بتغاء الوسيلة إليه عزّوجلّ، والمقتضية لامتثال التكاليف الإلهيّة والجهاد في سبيله، ثمّ إنّ ابتغاء الوسيلة إليه عزّوجلّ من أعظم غايات خلق الإنسان، فهو العلّة للدخول في رضوان الله تعالى والفوز بكرامته، وسيأتي في البحث الروائي ما يدلّ على أنّ الوسيلة هي أعلى درجة في الجنّة، فاجتمعت العلّتان الفاعليّة والغائيّة في هذا الأمر، وهو يدلّ على أنّه من الأهميّة بمكان عظيم، فإنّ فيه تظهر العبوديّة وتتحقّق الطاعة المطلوبة، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى والصراط المستقيم، وبه يستعدّ ويتهيّأ لنيل الفيوضات الربانيّة والواردات الإلهيّة، وهو الملجأ القويم في التخلّص من مكائد الشيطان ووساوسه، وهو المنجاة من سخط الله تعالى وعذابه، وهو الركن الوثيق الذي تركن إليه النفس الإنسانيّة عند تزاحم الصوارف وتوارد الهموم والغموم. وبالجملة: فهو الكمال الذي ينشده الإنسان ويسعى إليه، بل هو الجامع لجملة من الكمالات الواقعيّة.

ولم يبيّن عزّوجلّ في هذه الآية الشريفة كيفيّة الابتغاء، ولا خصوصيات الوسيلة، ولعلّ السرّ في ذلك واضح، فإنّ فطرة كلّ مخلوق تدعو إلى التوجّه إلى خالقه والتوسّل إليه بكلّ ما أمكنه من الوسائل والعلل لنيل مقصوده، فكلّما صفت الفطرة وخلصت النية من الشواغل الماديّة والصوارف الشيطانيّة، كانت الوسيلة أنجح وأدلّ على المطلوب، وقد ذكر في الكتاب والسنّة التأكيد على بعض الوسائل:

منها: العبادات، وأعظمها الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. قال عزّوجلّ من قائل: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾[1].

ومنها: الدُّعاء الذي هو من أعظم الوسائل إليه عزّوجلّ، قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا**

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٥.

يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[١]، وفي الحديث: «الدُّعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض»، وتقدّم في بحث الدُّعاء ما يتعلّق به.

ومنها: الصدقات الواجبة والمندوبة، ماليّة كانت أو غيرها، التي حثّ الشرع المبين وأكّد عليها تأكيداً بليغاً.

قال تعالى: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾**[٣].

ومنها: إقامة الشعائر، كالحجّ وزيارة المساجد والقبور وغيرها ممّا ندب إليه الشرع، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾**[٤].

ومنها: التوسّل بخاتم الأنبياء والمرسلين وذرّيته الطاهرين عليهم السلام، وزيارة قبورهم والاعتناء بشأنهم، فإنّهم مظاهر رحمته ومورد لطفه وعنايته، قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾**[٥]، وقد ورد في السنّة الشريفة روايات متواترة تدلّ على استحباب زيارتهم والتوسّل بهم إلى الله تعالى لقضاء الحاجات ونجح المهمات، من شاء فليراجع الكتب المعدّة لذلك.

ومنها: الالتزام بإتيان المندوبات وترك المكروهات، فإنّها من حمى الله

---

١. سورة الفرقان: الآية ٧٧.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

٣. سورة البقرة: الآية ٢١٧.

٤. سورة الحج: الآية ٣٢.

٥. سورة النساء: الآية ٦٤.

تعالى، كما في الحديث.

ومنها: ذكر الله تعالى، كما ندب إليه القرآن الكريم والسنّة الشريفة، قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[1]. ومن ذكره عزّوجلّ ذكر النبيّ والأئمّة الطاهرين بالصلاة عليهم وبيان فضائلهم، فإنّ ذكرهم من ذكر الله كما ورد في أحاديث كثيرة.

ويمكن القول بأنّ الوسيلة بمعناها الوسيع، يشمل كلّ أمر حسن، فإنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، إلّا ما ورد النهي عنه في الشرع المبين، كعبادة الأوثان والشرك بالله تعالى والمحرّمات الشرعيّة.

ومنها: التنزيه عمّا حثّ الشارع على تركه، كالمكروهات. ويستفاد من قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾، أنّ التقوى وابتغاء الوسيلة لا يتّمان إلّا بالجهاد والصبر على الطاعة أو عن المعصية، وهو محفوف بالمكاره والصعاب.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، على أنّ الوسيلة التي شرّعها الله تعالى للوصول إلى مرضاته والفوز بكرامته، ما كانت سبباً لتزكية النفوس، وما يعدّ إليها هو العمل المشروع كما عرفت آنفاً، ويدلّ على ذلك كلمة (الابتغاء) الدالّة على التحمّل المكرّر والجهاد المرير، وما ذكر من الجزاء الذي أعده لمَن يبتغي الوسيلة وهو الفلاح والنجاة.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾، على أنّ المجاهدة إنّما تكون بعد التوسّل بالوسيلة، وأمّا قبله فلا سبيل له حتّى يجاهد، فيستفاد منه أنّ الجهاد لابدّ أن يكون بأمر من الإمام المعصوم وتحت إرشادة.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ على أنّ الفلاح هو الغاية القصوى من عمل الإنسان، لأنّه الجامع لجميع الكمالات الواقعيّة، ولذا نرى أنّه

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٤١.

لم يذكره عزّ وجلّ إلّا بعد بيان جملة من الإرشادات والتعليمات التي تعدّ المؤمن لتلّقي هذا الجزاء العظيم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] وغيرها من الآيات الكريمة.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾، أنّ الخلاص من العذاب منحصر في التوسّل بالوسيلة والمجاهدة في سبيله، وأنّ مَن كفر فلا طريق له إلى الخروج من العذاب ولا منجى له من سخطه عزّوجلّ وعقابه.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾، على أنّ الاختيار ثابت في الآخرة أيضاً، فلو كان مسلوباً عن الناس يومئذ لما صحّت الإرادة من أهل النار بالخروج منها، فهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج منها، ولكنّهم مقهورون فيها، لأنّه سبقت كلمته عزّوجلّ أن يعذّب الظالمين بالنار. ففي الحديث: «يقال لأهل الجنّة: لكم خلود ولا موت، ولأهل النّار: يا أهل النّار خلود ولا موت».

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ﴾، على أنّ الحدود التي شرّعها الله تعالى في هذه الدنيا، إنّما هي جزاء على الأفعال التي اكتسبها الناس، ويطابق الجزاء مع العمل، كما أنّها حدود تربويّة إصلاحيّة لإصلاح النفوس وتزكيتها، وتطهير لهم من الذنب الذي ارتكبوه، فليست هي انتقاماً من فرد لصالح أفراد أو مجتمع.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، على تمام قدرته ونفوذ سلطانه في مملكته بأبلغ أُسلوب وأتمّ وجه.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾، على أنّ التوبة

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

في المقام لابدّ أن يظهر أثرها على المذنب بأن يكون عليه سيماء الصالحين التائبين، وقد تقدّم أنّ الصلاح في كلّ ذنب يناسب ذلك الذنب.

العاشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾، على أنّ العذاب هو الأصل القريب من الإنسان، وإنّما يصرفه عنه الإيمان والتقوى وابتغاء الوسيلة، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً**﴾[١]، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾[٢].

***

بحث روائي:

في «الكافي» عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة: «أنّها أعلى درجة في الجنّة».

أقول: يستفاد من الحديث أنّ الوسيلة اسم لأعلى درجة في الجنّة، ولعلّه من باب إطلاق السبب على المسبّب.

وفي «مجمع البيان» عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها درجة في الجنّة لا ينالها إلّا عبد واحد، وأرجوا أن أكون أنا هو».

أقول: بعدما دلّ على أنّ الوسيلة هي أعلى درجة في الجنّة، فلا تكون إلّا لمَن نال الشرف العظيم والدرجة الرفيعة، وحاز قصب السبق على جميع الأنبياء والمرسلين، فينحصر في الفرد الواحد وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ويلحق به الأئمّة الطاهرون، فإنّهم الوسيلة إلى الله تعالى.

وأمّا طلبه من أُمّته أن يسألوا الله له هذه الدرجة، فإنّما هو لأجل تعليمهم

---

١. سورة مريم: الآية ٧١ ـ ٧٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

الدُّعاء والتضرّع لديه عزّوجلّ، فإنّه لم ينل أحد الدرجة إلّا مَن أفاضها الله تعالى عليه.

وفي «العيون» عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، قال: «الأئمّة من ولد الحسين مَن أطاعهم فقد أطاع الله، ومَن عصاهم فقد عصى الله، وهم العروة الوثقى والوسيلة إلى الله».

أقول: الروايات في مضمون ذلك متعدّدة، وهي من باب بيان أجلى المصاديق وأهمّها، بل يستفاد من ظاهر الآية الشريفة الآمرة بالتقوى والجهاد في سبيله، أنّ الوسيلة منحصرة فيهم عليهم السلام، فلا يمكن أن تتحقّق في غيرهم، فإنّ بهم يمكن الإيمان، وتتمّ التقوى ويتحقّق الجهاد، ومن ذلك يظهر الوجه فيما رواه العيّاشي عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، قال: «أعداء عليّ عليه السلام هم المخلّدون في النار أبد الابدّين ودهر الداهرين».

وأمّا آية السرقة، فهي من آيات الأحكام التي تمسّك بها الفقهاء في كتبهم الفقهيّة لإثبات أحكام السرقة، ونحن نذكر في المقام الروايات الواردة في السرقة، والمال المسروق، وما ورد في حدّ السرقة والتوبة منها، ونذكر بقية الأحكام في البحث الفقهيّ إن شاء الله تعالى.

ما ورد في السرقة:

ففي «صحيح محمّد بن مسلم» عن الصادق عليه السلام: «كل من سرق من مسلم شيئاً قد حواه وأحرزه، فهو يقع عليه اسم السارق، وهو عند الله السارق».

أقول: ظاهر الحديث أنّ كلّ شيء كان في حرز إذا أُخذ منه يعدّ سرقة، ولكنّ في رواية السكوني عن جعفر، عن آبائه، عن علي عليه السلام، قال: «كلّ مدخل

يدخل فيه بغير إذن يسرق منه السارق فلا قطع عليه، يعني الحمّام والأرحية».

أقول: ظاهره أنّ الأخذ من الموضع الذي يحتاج في الدخول إلى الإذن يعدّ سرقة، فهو يشمل ما إذا كان في حرز أو لم يكن، فيكون ما ورد في صحيحة محمّد ابن مسلم من باب المثال لكلّ تصرّف يتوقّف على رضا صاحب المال والإذن منه، ويدلّ على ما ذكرناه ما رواه أبو بصير، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في من سرق من منزل أبيه، فقال: «لا تقطع، لأنّ ابن الرجل لا يحجب من الدخول إلى منزل أبيه، هذا خائن». وكذا ما ورد في من سرق من أخيه وأُخته. وفي الأجير والصنف، فإنّه لا قطع عليهم جميعاً.

فالمستفاد من جميع ذلك أنّ السرقة التي توجب القطع، هي الأخذ من الحرز، أو من موضع لم يكن لغير المتصرّف فيه الدخول إلّا بإذن صاحبه، وحرز كلّ شيء بحسبه، والمسألة مذكورة في الكتب الفقهيّة فراجع.

ومن ذلك كلّه يستفاد أنّ السرقة لابدّ أن تكون سرّاً فلا تقع في العلن، وذكرنا أنّ اشتقاق الكلمة أيضاً يدلّ على ذلك.

ما ورد في المال المسروق:

وردت روايات كثيرة على أنّه يعتبر في القطع أن يكون المال المسروق بمقدار ربع دينار.

ففي «التهذيب» عن محمّد بن مسلم، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: في كم تقطع يد السارق؟ فقال عليه السلام: في ربع دينار. قلت له: في درهمين؟ فقال وفي ربع دينار بلغ الدينار ما بلغ، قلت: أرأيت مَن سرق أقلّ من ربع الدينار، هل يقع عليه حين سرق اسم السارق؟ وهل عند الله سارق في تلك الحال؟ فقال عليه السلام: كلّ مَن سرق من مسلم شيئاً قد حواه وأحرزه فهو يقع عليه اسم السارق، وهو عند الله

سارق، ولكن لا تقطع إلّا في ربع دينار أو أكثر، ولو قطعت يد السارق فيما هو أقلّ من ربع دينار لألفيت عامّة الناس مقطعين».

أقول: هذه الرواية حاكمة على جميع أخبار الباب، لأنّها بين النفي والإثبات، وبمضمونها روايات أُخرى من الخاصّة والجمهور عمل بها المشهور من الفقهاء.

ففي «صحيح البخاري» و«مسلم» بإسنادهما عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلّا في ربع دينار فصاعداً».

وبأزائها روايات أُخرى تدلّ على أقلّ من ذلك أو أكثر، ولكنّها إمّا محمولة أو مطروحة، كما فصّلناه في كتابنا (مهذب الأحكام).

ويستفاد من صحيحة محمّد بن مسلم أنّ حكم القطع عن الأقلّ ارفاقي وتخفيف من الله تعالى، رحمة منه بعباده.

ما ورد في حدّ السرقة:

ذكرنا في آية الوضوء والتيمّم أنّ اليد في الإنسان تطلق على ما هو المحدود من أطراف الأصابع إلى الكتف، وتطلق على أبعاض ذلك أيضاً، إطلاق اسم الكلّ على الجزء بقرينة خاصّة حاليّة أو مقاليّة، وهذا يجري في آية السرقة أيضاً وإن كانت مطلقة، إلّا أنّ الروايات دلّت على أنّ القطع مقيّد بجزء خاصّ، ويدلّ على ذلك ما رواه الكليني في «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «أنّه سئل عن التيمّم، فتلاً هذه الآية: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾**، وقال: **﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾**، قال: فامسح كفّيك من حيث موضع القطع».

أقول: المستفاد منه أنّ اليد محدود فيهما، وأنّ القطع يقع على جزء من اليد التي يجب غسلها في الوضوء.

وفي «التهذيب» عن إسحاق بن عمّار، عن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «تقطع يد السارق ويترك إبهامه وصدر راحته، وتقطع رجله ويترك عقبه يمشي عليها».

أقول: الرواية تدلّ على أنّ القطع يقع على أطراف الأصابع.

وفي «تفسير العيّاشي» عن زرقان صاحب ابن أبي داود وصديقه بشدّة، قال: «رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتم فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أنّي قدمت منه عشرين سنة، قلت له: ولم ذاك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبي جعفر محمّد بن علي بن موسى عليه السلام اليوم بين يدي أمير المؤمنين المعتصم، قلت له: وكيف كان ذلك؟ قال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمّد بن علي عليه السلام، فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟ قلت: من الكرسوع، لقول الله في التيمم: ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**﴾. واتّفق معي على ذلك قوم، وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأنّه لمّا قال: ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾ في الغسل، دلّ ذلك على أنّ حدّ اليد هو المرفق، قال: فالتفت إلى محمّد بن علي عليه السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلّم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني بما تكلّموا به، أيّ شيء عندك؟ قال: اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه، فقال: أمّا إذا أقسمت عليّ بالله إنّي أقول: إنّهم أخطأوا السنّة، قال: القطع يجب أن يكون من مفصل أُصول الأصابع فيترك الكفّ، قال: وما الحجّة في ذلك؟ قال عليه السلام: قول رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أعضاء الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾ يعني هذه الأعضاء

السبعة التي يسجد عليها، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ وما كان لله لم يقطع، قال: فأعجب المعتصم ذلك فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ، قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنّيت أنّي لم أك حيّاً. قال زرقان: إنّ ابن أبي داود قال: صرت إلى المعتصم بعد ثلاثة، فقلت: إنّ نصيحة أمير المؤمنين عليّ واجبة، وإنّي أكلّمه بما أعلم أنّي أدخل به النار. قال: وما هو؟ قلت: إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيّته وعلماؤهم لأمر واقع من أُمور الدين، فسألهم عن الحكم فيه فأخبروه بما عندهم من الحكم في ذلك، وقد حضر المجلس بنوه وقواده ووزراؤه وكتّابه وقد تسامع الناس بذلك من وراء بابه، ثمّ يترك أقاويلهم كلّهم لقول رجل يقول شطر هذه الأمة بإمامته، ويدّعون أنّه أولى منه بمقامه، ثمّ يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء؟ قال: فتغيّر لونه وانتبه لما نبّهته له، وقال: جزاك الله عن نصيحتك خيراً ـ الحديث».

أقول: الحديث يدلّ على أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، وأنّه لا يمكن الأخذ بإطلاق آية مع الإعراض عن القرائن الأُخرى مطلقاً، كما يدلّ على أنّه لا يمكن الاستغناء عن المعصوم عليه السلام في فهم ظواهر الآيات، فإنّهما لن يفترقا. وهناك أقوال أُخرى في قطع اليد أغلبها مروية عن العامّة، وأما الخاصّة فاتّفقت كلمتهم على أنّ القطع إنّما يقع على الأصابع فقط، والتفصيل مذكور في الفقه. والرواية تدلّ أيضاً على أنّ الإقرار يوجب القطع، وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

سقوط الحدّ بالتوبة:

ذكرنا أنّ ظاهر الآية الشريفة تدلّ على سقوط الحدّ عن التائب عن السرقة، وأنّه تفضّل من الله تعالى عليه. والروايات وإن دلّت على ذلك أيضاً،

إلّا أنـّها خصّصت ذلك بما إذا كانت التوبة قبل الثبوت عند الحاكم.

فقد روى الشيخ في «التهذيب» عن الصادق عليه السلام، قال: «إذا جاء السارق من قبل نفسه تائباً إلى الله تعالى وردّ سرقته على صاحبها، فلا قطع عليه».

أقول: وردت في مضمون ذلك روايات متعدّدة، وقد أخذ بها المشهور (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين). ويدلّ على ذلك أيضاً ما ورد من النهي عن تعطيل حدّ من حدود الله تعالى، وبأزاء هذه الأخبار بعض الروايات التي تدلّ على أن للإمام العفو، وقد أخذ بها جمع من الفقهاء وخصّ بعضهم بما إذا كان ثبوت السرقة بالإقرار دون ما إذا ثبتت بالبينة، والمسألة مذكورة في كتب الفقه فراجع.

وهناك أقوال أُخرى منسوبة إلى غير الإماميّة مَن شاء فليراجع مظانها.

***

بحث فقهي:

اشترط الفقهاء في السرقة التي يترتّب عليها الأحكام المزبورة أُموراً:

الأوّل: أن يكون الأخذ سرّاً، فلا تقع السرقة علناً وإن كانت حراماً وتسمّى سلباً ونهباً، كما عرفت.

الثاني: أن يكون أخذ المال بغير إذن صاحبه، كما عرفت.

الثالث: أن لا يدّعى شبهة محتملة فيه.

الرابع: أن لا يكون أميناً كالمستودع والأجير ومثلهما الضيف، وأن لا يكون والداً ولا مملوكاً، فلو سرق الأب مال ولده أو المملوك من مال سيّده، فلا قطع، ولا مكرهاً على السرقة.

الخامس: أن يكون المسروق بمقدار ربع دينار، فلا قطع فيما دون ذلك. وتثبت السرقة بالبينة والإقرار مرّتين. وهناك فروع مذكورة في الفقه من شاء

فليراجع كتابنا (مهذب الأحكام).

***

بحث عرفاني:

يعدّ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، من الآيات القويمة في السير والسلوك إلى الله تعالى، لأنّه يقوّي الروابط بين العبد وخالقه، ويشدّد على إظهار العبوديّة، ويجعل جميع حالات العبد تحت المراقبة والمراعاة، فقد أمر سبحانه بابتغاء الوسيلة إليه عزّوجلّ الذي هو من شؤون العبوديّة الحقيقيّة، وأكّد على ذلك بالاهتمام به واتّخاذه مطلباً حقيقيّاً وبغية له، والإعراض عن غِيره عزّوجلّ، ولأهمّية ذلك في شؤون العبد، فقد حفّه تبارك وتعالى بأمرين مهمّين، لهما الأثر العظيم في تحقّقه على الوجه المطلوب، وترتّب الأثر عليه، وهما التقوى، والجهاد في سبيله تعالى، ولا ريب أنّ الاستكمال وطلب الزلفى لديه عزّوجلّ إنّما يصحّ بعد تزكية النفس أوّلا من رذائل الصفات وذمائم الأخلاق، فإنّها من أقوى الحجب الظلمانيّة المانعة من الكمال والاستكمال، ثمّ تحلية النفس بالصفات الحميدة والأخلاق المرضية، ليتحقّق القرب والاستعداد، وأخيراً أمر عزّوجلّ بالجهاد في سبيله، فإنّ الوصول إلى تلك المرتبة لا يكون بسهولة ويسر، وإنّما يحتاج إلى جهاد وصبر ومثابرة، ولعلّ الآية الشريفة ترشد إلى أنّ المؤمن لابدّ له من مراحل ثلاث: شريعة، وحقيقة، وفيض، فإذا تحمّل بالشريعة وتوجّه إلى الله تعالى بابتغاء الوسيلة، اشتاقت نفسه إلى حضرة الملك، وتغلّب عليها الشوق بالتوجّه إليه عزّوجلّ، فيشتغل بمجاهدة النفس ومحاسبتها، وأوّل المنازل هو ترك الدنيا والعزوف عن زخرفها وزبرجها، ثمّ إسقاط جميع الروابط بمخالفة الهوى والاشتغال بالتوجّه إليه عزّوجلّ، فمن خرق عوائد نفسه تحقّق سيره ووصوله،

ويعرف ذلك بحبّ الله تعالى وابتغاء الوسيلة إليه وجعله شغله الشاغل ، فإذا جاهد الإنسان نفسه حتّى هذّبها وأظهرها من الحجب والموانع ، رجعت نفسه إلى أصلها ، وهو الحضرة التي كانت فيها ، فإنّه لم يكن بينها وبين محلّها إلّا الحجب الظلمانيّة ، فإذا تخلّصت عادت إلى محلّها الأرفع ، ولعلّ هذا هو الفلاح الذي وعد عزّوجلّ للسالكين في طريق الحقيقة والسائرين بنور معرفته ، فإنّ الروح مهما تطهّرت وصفت من كدرات الحسّ عرجت إلى عالم الجبروت ، فلم يحجبها عن خالقها شيء ، فالآية الشريفة تبيّن الأثر العظيم لابتغاء الوسيلة ، ومنها يظهر أنّ المجاهدة إنّما تكون بعد التوسّل بالوسيلة ، وأما قبله فلا سبيل له حتّى يجاهد ، ولعلّه لذلك عقّب عزّوجلّ على ذلك بأنّ الخروج عن تلك التعليمات كفر ، ومن يتبع غير ذلك السبيل لا يمكنه الوصول إلى تلك المقامات، مهما حاول وبذل كلّ ما في وسعه ، فإنّه لا يزيده إلّا بعداً وحجاباً ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ، فإنّ القبول إنّما ينحصر طريقه في ما ذكره عزّوجلّ .

***

الآية ٤١ ـ ٤٧

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ
وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ
يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ
فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ
يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ
لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾
وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ
وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ
بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

الآيات الشريفة لا تخرج عن الغرض الذي أُنزلت هذه السورة المباركة

لأجله، وهو بيان العهود والمواثيق المأخوذة عليه والإيمان المطلوب منه، والحثّ على العمل بها والتحذير عن مخالفتها، وقد ذكر عزّوجلّ فيما سبق السبل الموصلة إلى الحقّ والطرق المفضية إلى العمل بالشريعة، واعتبر أنّ من يعرض عنها يكون كافراً منكراً للحقّ، فلا ينفعه ما يفديه للنجاة من العذاب الأليم الذي أعدّه لنفسه، وفي هذه الآيات يذكر تعالى الأصناف الذين زاغوا عن الإيمان وتمادوا في الغي، فأنكروا الحقّ ونكثوا عهود الله ومواثيقه، فذكر تعالى المنافقين الذين يؤمنون بأفواههم خوفاً أو طمعاً ولم تؤمن قلوبهم، كما حكى عزّوجلّ عنهم في آيات أُخرى. ثمّ ذكر اليهود الذين كفروا بالحقّ وأعرضوا عن الطاعة وخالفوا أوامر الله تعالى، فذكر من صفاتهم ما يدلّ على تماديهم في الغي:

منها: أنّهم سمّاعون للكذب يتّبعونه ولا يتّبعون الحقّ.

ومنها: تحريفهم لكلام الله تعالى بما تمليه أهواؤهم.

ومنها: أكلهم للسحت وارتكابهم لجميع المحرّمات. وقد حذّرهم عزّوجلّ وأوعدهم الخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة. ثمّ أمر نبيّه الكريم بالإعراض عنهم، فإنّهم قوم لا خلاق لهم، ووعده ﷺ بالنصر، وأمره بالحكم بينهم بالقسط إذا تحاكموا إليه. ثمّ بين عزّوجلّ حقيقة حالهم بأنّهم كابروا الحقّ بعدما عرفوه، فلم يحكموك إلّا بما يكون فيه نفعهم، وقد ردّهم عزّوجلّ بأنّ عندهم التوراة التي أنزلها الله تعالى لهدايتهم، وفيها من الأحكام والمواثيق والتوجيهات التي حَكَم بها النبيّون والربانيّون والأحبار الذين حفظوا حدودها وعملوا بها، وكانوا شهداء على صحّتها وعدم تحريفها. ثمّ أمر عزّوجلّ المؤمنين بعدم الخشية من اليهود الذين نصبوا العداء للحقّ، وأنّ الخشية إنّما تكون من الله تعالى فقط. وأخيراً ذكر تعالى من أحكام التوراة التي دخلت في جميع الشرائع الإلهيّة، واعتبرها الإسلام من القواعد المهمّة في تنظيم النظام. ثمّ ختم تعالى

الآيات الشريفة بذكر أهل الإنجيل الذي فيه هدى ونور، وهو المصدق لما ورد في التوراة من الأحكام والإرشادات الربانيّة والتوجيهات الإلهيّة، فأمرهم سبحانه وتعالى بالعمل بحكم الله، ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾، والآيات جميعها تهدف إلى تثبيت أحكام الله التي نزلت في سبيل سعادة الإنسان، وتنظيم النظام على أحسن ما يرام.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾.

تسلية للرسول الكريم وتطييب لنفسه الشريفة ممّا لاقاه ﷺ من المنافقين الذين يسارعون في الكفر، والذين هادوا، والخطاب بالرسالة فيه غاية التشريف والقرب، ولم يرد مثل هذا الخطاب في القرآن الكريم إلّا في موردين كلاهما في هذه السورة، أحدهما المقام، والثاني قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾[1]، وهو يدلّ على عظمة الأمر وأهمّيته عند الرسول ﷺ. وله الأثر العميق في نفسه الشريفة، فيكون هذا الخطاب تسلية له، وفيه ما يوجب عدم الحزن والخوف.

وأمّا خطاب (يا أيها النبيّ) فقد ورد في القرآن الكريم ما يزيد على عشرة مواضع.

وفي كلا الخطابين التعليم للمؤمنين بمراعاة الأدب في الخطاب مع الرسول ﷺ والحزن ضدّ السرور، وهو ألم في النفس يحدث عند فوت ما يحبّ. والفعل منه ما يكون متعدّياً بنفسه يقال: حزنه الأمر. ومنه ما يكون متعدّياً بـ(على)، يقال: حزن على ولده. ومنه ما يكون متعدّياً بالهمزة، يقال: أحزنه

---

١ . سورة المائدة: الآية ٦٧.

موت ولده. وهو مذموم في الشرع المبين، إلّا ما كان على شيء يوجب القرب والزلفى لديه عزّوجلّ، كما في حزن الرسول ﷺ على الذين يسارعون في الكفر ويصدّون عن الحقّ والوصول إلى الكمال. والحزن أمر طبيعي ومن لوازم طبيعة الإنسان، فيكون النهي عنه في الشرع نهياً عن اللوازم الاختياريّة المترتّبة عليه، كالجزع الشديد وعدم الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ونحو ذلك. والنهي عنه لايستلزم إيجاد مقابله وهو الفرح، فإنّه مذموم أيضاً، قال تعالى: **﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**[1]، إلّا إذا رجع إلى ما تفضّل الله تعالى به عليهم، كما قال تعالى: **﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**[2].

والمسارعة هي السير الحثيث والمشية السريعة، والمسارعة إلى الشيء غير المسارعة في الشيء، فإنّ الأُولى هي السرعة إليه من الخارج، وأمّا الثانية فهي السرعة من الداخل. أي يظهر من الأفعال والأقوال التمادي في الكفر. فتكون في كلمة (في) الدلالة على أنّهم مستقرّون في الكفر لا يبرحون عنه، فينتقلون من صنف من الكفر إلى صنف آخر، فتظهر عليهم موجبات الكفر مرّة بعد أُخرى، وفي الوصف **﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾** إشعار بعلّة النهي عن الحزن، أي أنّ تلك المسارعة هي السبب لحزنه ﷺ. والمعنى: لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم في الكفر، فإنّهم لم يؤمنوا حقيقة، فإذا سنحت لهم الفرصة أظهروا الكفر. والجملة تدلّ على التسلية بأبلغ وجه، فإنّ النهي عن أسباب الشيء ومباديه نهي عنه وقطع له عن أصله، فليس المراد منه نهي الرسول ﷺ، وإنّما النهي للكفّ عن أن يحزنوه بمسارعتهم في الكفر، وتسلية له ﷺ بعدم تأثيرهم

---

١. سورة الحديد: الآية ٢٣.

٢. سورة يونس: الآية ٥٨.

عليه، فإنّه الرسول المؤيّد والمنصور المسدّد.

قوله تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾.

بيان للذين يسارعون في الكفر، فإنّ مسارعتهم ثيه إنّما هو لأجل عدم الإيمان حقيقة، بل آمنوا بألسنتهم دون أن تؤمن قلوبهم، وهذه أوصاف المنافقين الذين عانى منهم الأنبياء (سلام الله عليهم أجمعين) أشدّ معاناة، وكان حزنه ﷺ منهم شديداً، لأنّ ضررهم على الإيمان وأهله كبير وعظيم.

قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا**﴾.

عطف على قوله: ﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا**﴾، فيكون المسارعون في الكفر على قسمين: المنافقين، واليهود، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ...**﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هم سمّاعون، وذكر بعض المفسّرين أنّ الجملة ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا**﴾ جملة مستأنفة تقديرها: «ومن الذين هادوا قوم سمّاعون للكذب...».

والظاهر من السياق هو الوجه الأوّل، فإنّ الصفات التي يذكرها عزّوجلّ فيما يأتي، هي لبيان حال الطائفة الثانية من المسارعين في الكفر، وأما المنافقون المذكورون في صدر الآية، فإنّ حالهم لا توافق هذه الأوصاف، وإن كان بعضها توافقهم. لكنّ العبرة بظاهر اللفظ، والمنساق منه هو ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾.

بيان لحال الذين هادوا بذكر أوصافهم، والجملة خبر لمبتدأ محذوف، أي هم سمّاعون، واللّام إمّا للتقوية كما في قوله تعالى: ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾. أو للتعليل، أي سمّاعون الكلام ليكذبوا عليك.

والمعنى: أنّهم يكثرون من سماع الكذب، مع العلم بأنّه كذب، ومَن داوم

على سماعه كان كاذباً. ويحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، سمّاعون للكذب فيك، كما يحتمل أن يكون المراد منه. سمّاعون كلامك ليكذبوا عليك، قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ قرينة على الثاني، ولعلّ حذف المتعلّق يشمل الجميع، فإنّهم مارسوا كلا الكذبين.

قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾.

أي: كثير السماع سماع قبول وطاعة لقوم آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك إما خوفاً أو إفراطاً في البغضاء. ويحتمل أن يكون المراد منه سمّاعون منك لأجلهم، وللإنهاء إليهم، وكلاهما محتمل فيهم، فإنّهم قوم توغّلوا في البغضاء والعداء للحقّ وأهله ولشخص الرسول الكريم ﷺ، كما حكى عزّوجلّ عنهم في مواضع متفرّقة من الكتاب العزيز.

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

صفة أُخرى لهم، وقد ذكرها عزّوجلّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم بأساليب مختلفة، حتّى عرف اليهود بأنّهم أهل التحريف.

والمراد من قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، أي من بعد استقرار الكلم في المواضع التي وضعها الله تعالى فيها، وهو يدلّ على زيادة في التشنيع.

وإطلاق التحريف يشمل التحريف اللفظيّ منه، أي تغيير الألفاظ وتبديل الكلام، وهو يشمل الكتمان أيضاً، والمعنويّ بالتفسير بالباطل والتأويل الفاسد وحمل الكلام على غير المراد ونحو ذلك. وقد ذكرنا ما يتعلّق به في غير المقام، فراجع.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.

في الآية الشريفة إشارة إلى واقعة ابتلى اليهود بها، فحكم فيهم حكّامهم بغير ما أنزله الله تعالى، فأرسلوا طائفة إلى الرسول ﷺ لتحكيمه في تلك الواقعة، فقالوا لهم: إنّ حكم ﷺ بما أفتى به حكامهم المحرّفون فليأخذوه، وإنّ حكم بغير ذلك فليحذروا من قبوله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾.

الفتنة الاختبار، والجملة معترضة لبيان أنّهم في حال الاختبار في دينهم ومفتونون بفتنة إلهيّة لإظهار حالهم في الكفر والضلال، تطييباً لنفس الرسول ﷺ بأنّ الأمر يرجع منه وإليه تعالى، فإنّك لن تستطيع أن تغيّر شيئاً إذا أراد الله تعالى ذلك، فلا موجب للتحزّن فيما لا تملك فيه سلطاناً.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

أي: أنّهم بلغوا في الغي والضلال مبلغاً لم تتعلّق إرادة الله تعالى أن يطهّر قلوبهم من الكفر والنفاق والخبث والضلالة، فهي باقية على قذارتها وختم عليها بالكفر. وإنّ من سنّته تعالى أن لا يطهّر قلب من تكرّر منه العصيان، وانغمس في الكيد والضلال، فأضلّهم الله وما يضلّ به إلّا الفاسقين.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

توعيد لهم جزاء على أفعالهم الشنيعة، فقد أذلّهم الله تعالى في الدنيا، وكتب عليهم الجلاء من ديارهم، وأظهر كذبهم وكفر المنافقين، وأثبت الخوف في قلوبهم من المؤمنين. وأمّا في الآخرة فإنّ لهم العذاب العظيم الذي لا يعرف كنهه وأمره إلّا الله تعالى. والضمير في (لهم) يرجع إلى كلتا الطائفتين اليهود والمنافقين. وقيل: لليهود خاصّة، والتكرير مع اتّحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد.

قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

تعليل لثبوت العذاب لهم، والإعادة إما تأكيداً، أو تقريراً، أو تمهيداً لما سيأتي، أو اهتماماً بشأن هذه الأوصاف والتأثير على النفس ليعرف المخاطب آثارها الوخيمة، فيتصدّى لإصلاح حاله، والأوصاف التي يذكرها عزّوجلّ هي لمجموع القوم من حيث هو، وقد يختصّ بعضهم ببعض الأوصاف، فإنّ قوله ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وصف لليهود الموجودين حين البعثة، الذين وصفهم عزّوجلّ فيما سبق، والتابعين لهم باعتبار تقليدهم لآبائهم، فإنّ ذلك سماع للكذب أيضاً، فإنّ اليهود سمّاعون للكذب بجميع معانيه من حيث الكذب على الحقّ، والكذب على المؤمنين، وكذب بعضهم على بعض، وتقليدهم للسلف كذباً وزوراً.

قوله تعالى: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

وصف آخر قد يكون لبعض القوم إن كان المراد من السحت الرشوة، فإنّها كانت منتشرة في طبقة خاصّة من أحبارهم وعلمائهم كما حكى عزّوجلّ في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، وإن كان المراد من السحت مطلق الحرام، فإنّ الوصف يكون لعامّة القوم، لما ذكره عزّوجلّ في مواضع متفرّقة من القرآن العظيم من أنّهم هتكوا حرمات الله تعالى، وتعاطوا المنكرات، واستحلّوا المحرّمات، وتدلّ عليه صيغة المبالغة (أكّالون)، وقد سبق في سورة النساء بعض أوصافهم فراجع.

ومادّة (سحت) تدلّ على الشدّة والهلاك. يقال: سحت الشيء يسحته، قَشَره قليلاً قليلاً، أي استأصله. ومنه الحرام، لأنّه يذهب بالطّاعات ويستأصلها فيسحت دين المرء ومروءته. ومنه السحت (بالفتح) لشدّة الأكل والشرب.

وأسحت الشيء استأصله، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾[1]، أي سيتأصلكم بعذاب. فإذا كان السحت يشمل الحرام والكسب المحرّم، فيكون له مصاديق متعدّدة. ولعلّ ما ورد في الحديث أنّ للسحت أنواعاً كثيرة مأخوذ من هذه الآيات الشريفة، ففي الخبر: «كلّ شيء غلّ من الإمام، فهو سحت، وأكل مال اليتيم وشبهه سحت، والسحت أنواع كثيرة، منها أُجور الفواجر، وثمن الخمر والنبيذ المسكر، والربا بعد البينة ـ أي بعد التحريم ـ فأمّا الرشا في الحكم، فإنّ ذلك الكفر بالله العظيم وبرسوله»، وسيأتي نقل بعض الروايات في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

وإطلاق الآية يشمل كلّ أنواع المحرّمات التي ارتكبها اليهود، فإنّهم نقضوا العهود والمواثيق وهتكوا حرمات الله تعالى. وقد أخبر عزّوجلّ عن جملة منها في عدّة مواضع، ومن أعظم ما ارتكبه أحبار اليهود ورؤساؤهم الرشوة في الحكم، التي أخبر بها عزّوجلّ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

تفريع على ما سبق، أي إذا كان حالهم كما عرفت، فإن جاءك اليهود للتحكيم بينهم، فأنت مخيّر بين أن تحكم بينهم أو تعرض عنهم، ومن المعلوم أنّ التخيير إنّما يتّبع المصالح التي يراها ﷺ.

والخطاب وإن كان مع الرسول ﷺ إلّا أنّ الحكم فيه عامّ لجميع حكّام الشرع المبين.

---

١ . سورة طه: الآية ٦١.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٨٨.

ولعلّ ما ورد عن الباقر ﷺ مأخوذ من هذه الآية الشريفة، قال ﷺ: «إنّ الحاكم إذا أتاه أهل التوراة والإنجيل يتحاكمون إليه، كان ذلك إليه إن شاء حكم بينهم وإن شاء تركهم»، وثبوت التخيير له ﷺ لا ينافي الحكم بينهم بما أنزل الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾، فإنّه يدلّ على أنّه إذا اختار الحكم بينهم، فلابدّ أن يكون الحكم بما أنزل الله تعالى من القسط، لا أن يكون بما هو الموجود عندهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً﴾.

تفصيل بعد إجمال، وبيان لحال الأمرين، وفيه تضمين لرسوله الكريم ﷺ من أي ضرر يحتمل أن يصيبه من قبلهم، كما أنّ فيه التقرير للتخيير المزبور بأنّه ليس عليه ﷺ ضرر لو أعرض عنهم وترك الحكم فيهم، فإنّ الله تعالى يعصمه منهم، وفيه التنبيه على أنّه لا يكون حكمك عن خوف منهم ولا استمالة لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

بيان لحال الأمر الثاني، ويتضمّن التعليل أيضاً. أي وإن اخترت الحكم فإنّه ينبغي أن يكون الحكم بينهم بالعدل الذي أمر الله تعالى به، لا بما يبغون، فإنّ الله لايرضى أن يرجي بينهم إلّا حكمه، فإما أن تعرض فلن يضرّوك وإن ساءهم إعراضك، وإمّا أن تحكم بالقسط، وقد تقدّم معنى القسط في سورة البقرة فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾.

تعجيب من الله تعالى لنبيّه الكريم ﷺ من حالهم، فإنّهم أُمّة ذات كتاب وشريعة، فكيف يرغبون عنهما، ويتحاكمون إلى نبيّ هم منكرون لنبوّته وكتابه وشريعته، والآية الشريفة تشير إلى أنّ ذلك التحكيم له من عندهم لم يكن لمعرفة الحقّ وتطبيق العدل، وإنّما هو لتضعيف منزلة الرسول الكريم وطلب الأهون وإن

لم يكن حكم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

أي: كيف يحكمونك وعندهم ما فيه الحقّ الذي يغني عن التحكيم، ثمّ يتولّون عنه من بعد ذلك التحكيم وبيان حكم الله في الواقعة، وفي الآية التأكيد على الاستبعاد والتعجّب. ومن ذلك يعرف أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي من بعد بيان حكم الله تعالى الموافق لكتابهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

تقرير لما سبق، وحذف المتعلّق يدلّ على العموم، أي فما هم بالمؤمنين لكتابهم لإعراضهم عنه، ولا بك لإنّهم لم يرتضوا بحكمك الذي وافق ما في التوارة أيضاً.

والإتيان باسم الإشارة (أُولئك) قصداً إلى إحضارهم في الذهن بما وصفوا به من القبائح، ولبيان العلّة بأنّهم تميّزوا عن غيرهم أكمل تمييز حتّى انتظموا في سلك المشاهدة.

وقيل: إنّه إخبار منه تعالى عن أُولئك اليهود بأنّهم لا يؤمنون بالنبيّ ﷺ وبحكمه أصلاً، ولا فرق بينهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

جملة مستأنفة تتضمّن التعليل لما ذكر في الآية السابقة، ولبيان فظاعة حالهم ببيان علوّ شأن التوراة بأحسن وجه.

وهذه الآية وما بعدها تدلان على أنّ لكلّ أُمّة من الأُمم الماضية شرائع وأحكاماً أودعها عزّوجلّ في كتب أنزلها إليهم، ليهتدوا بهداها ويستضيئوا بنورها، فيرشدوا إلى طريق الحقّ، ويكتسبوا سعادة الدنيا والآخرة، وأمر أنبياءه

العظام أن يتحفّظوا عليها من التغيير والتبديل، ويرجعوا إليها فيما اختلفوا فيه، ويحكموا بها فيما شجر بينهم، ويخافوا الله فيها ولا يخشوا غيره، وأكّد على ذلك بأنواع التأكيدات، وأخذ عليهم المواثيق والعهود، وحذّرهم من اتّباع الهوى ومتابعة الشيطان.

والمعنى: إنّا أنزلنا التوراة فيها من الهداية التي يهتدى بها، والنور الذي يستبصر به في ظلمات الجهل والضلالة، ومن المعارف والأحكام والإرشادات والتوجيهات. والآية وإن دلّت على أنّ التوراة فيها الهداية والنور، كما يدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾**[1]، لكنّها بالنسبة إلى القرآن الكريم فهي جزئي من جزئياته، فإنّه المهيمن على الكتب الإلهيّة، والجامع لجميع المعارف والأحكام، ويقتضيه السير الاستكمالي للإنسان.

قوله تعالى: **﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾**.

جملة مستأنفة تبيّن فضل التوراة وسموّ رتبتها، فإنّ فيها من المعارف والأحكام ما يمكن أن يحكم بها النبيّون الذين انقادوا لله تعالى واستسلموا لأمره فلا يستنكفون عن قبول شيء من أحكامه وشرائعه. والجملة تدلّ على عظم شأن النبيّين والتنويه بفضل هذه الصفة، فإنّ الإسلام من أشرف الأوصاف، لأنّه ينبئ عن معرفة الله تعالى والإخلاص له وطاعته والاستسلام لأمره بانقياد تامّ، والإسلام دين الله تعالى، قال عزّوجلّ **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾**[2]. فهو دين جميع الأنبياء، وأنّه الدين الواحد الذي يجمع جميع الأديان الإلهيّة، وفيه

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٩.

التعريض باليهود بأنّهم بمعزل عن الإسلام ودين الله تعالى.

واللّام في (للذين) للاختصاص، أي يحكمون لأجلهم وبما يرجع نفعه إليهم، فهم المستفيدون من تلك الأحكام، لأنّها نزلت في سبيل سعادتهم، سواء أكانت تلك الأحكام لهم أم عليهم، وفيه التعريض بهم أيضاً بأنّهم أعرضوا عمّا هو نافع لهم.

ولا تختصّ الآية الشريفة بأنبياء بني إسرائيل، فإنّ في التوراة أحكاماً إلهيّة لا تقتصر على اُمّة واحدة، وإنّ القرآن العظيم مصدّق لها كما نطق به التنزيل غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

الربّانيون: أي المنسوبون إلى الربّ، وهم العلماء المنقطعون إلى الله تعالى العرفاء به علماً وعملاً، الذين لهم شأن في تربية الناس بالتربية الربّانيّة. وفي الحديث المعروف عن علي عليه السلام: «أنا ربّانيّ هذه الأُمّة»، أي مربّيهم تربية إلهيّة. وتقدّم الكلام في اشتقاق هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[1].

ومادّة (حبر) تدلّ على الجمال والزينة، ويقال: شعر محبّر، أي مزيّن بنكت البلاغة. وثوب محبّر، أي منقش بالنقوش، ومنها الحبرة، أي البردة، وهي ثوب ذو خطوط بألوان متعدّدة.

والأحبار جمع الحبر (بفتح الحاء وكسرها). والمراد بهم العلماء العاملون الذين يحكمون بما أمرهم الله تعالى، وظاهر الآية الشريفة أنّ الربانيين هم الأئمّة عليهم السلام دون الأنبياء المبعوثين الذين يربّون الناس بعلمهم، والأحبار دون

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

الربّانيين، ويدلّ عليه بعض الأخبار.

قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾.

تعظيم لشأنهم، والضمير يرجع إلى (الربّانيون والأحبار)، أي بالذي استحفظوه من كتاب الله تعالى. والمراد به التحفّظ العملي عن ظهر القلب، يقال: حفظ فلان حرمة زيد، أي عمل فيه بما هو وظيفة احترامه، ومنه قولهم: «يحفظ الرجل في ولده». وإنّما ذكر عزّوجلّ: «استحفظوا» دون حفظوا أو حملوا ونحو ذلك، باعتبار أنّهم حفظوها بالعمل بما ورد فيها من الأحكام، وحفظوها بالتبين، وحفظوها من التغيير والتبديل، فكانوا أُمناء على التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

ترتّب هذا على سابقه من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة، فإنّهم لما أُمروا بحفظ التوراة فكانوا أُمناء الله تعالى عليها، فلا ريب أنّهم شهداء على كتاب الله، بل تعتبر الشهادة من شؤون الحفظ المأمور به. ويمكن أن تكون الآية تأكيداً على ما سبق، يعني أنّهم مضافاً إلى عملهم بكتاب الله تعالى، يشهدون أنّ هذا تكليفهم أيضاً.

وكيف كان، فإنّ في الكلام تعريضاً للذين هادوا في عصر الرسول ﷺ، بأنّهم خرجوا عن أهليّة حفظ التوراة والشهادة عليها، وقد ذكر المفسّرون في الآية وجوها يبطلها السياق.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

تفريع على ما سبق، أي لما كانت التوارة منزلة من الله تعالى، ومشتملة على الهداية والنور، وشريعة يقضي بها النبيّون والربّانيون والأحبار، وقد أخذ منهم الميثاق على حفظها، فاعملوا بها كما عمل السلف، ولا تكتموا شيئاً من

أحكامها بأن تحرّفوها أو تعدلوا عها خشية الناس وخوفاً منهم. وعموم الآية الشريفة يشمل جميع المخاطبين الحكّام وغيرهم من المسلمين وغيرهم، فلابدّ أن تكون خشيتهم من الله تعالى بالوفاء بعهده وميثاقه والعمل بشرائعه، لا أن تكون الخشية من الناس، وقد تقدّم الكلام في مثل هذه الآية في أوّل هذه السورة، فراجع.

قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً**﴾.

أي: ولا تستبدلوا حكماً من أحكام الله تعالى طمعاً بمال أو جاه دنيويّ وغيرهما من الحظوظ الدنيويّة، فإنّها قليلة ومسترذلة مهما بلغت من الكثرة بالنسبة إلى ما فاتهم بمخالفة الأمر والحكم الإلهيّ، وقد تقدّم مثل هذه الآية الشريفة في سورة البقرة أيضاً، فراجع.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الآية: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ**﴾ متفرّعة على قوله تعالى: ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾، بتقريب أنّ الآية تدلّ على أخذ العهد والميثاق منهم على الحفظ والعمل، وأشهدهم عليه بأن لا يغيّروه فلا يخشوا في إظهاره غيره تعالى وتقدّس، ولا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، واستشهد على ذلك بآيات أُخرى كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ**

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾[١].

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً، إلّا أنّ عموم الآية يشمل اليهود وغيرهم، فإنّ الله قد أخذ من الجميع العهد على العمل بأحكامه وتشريعاته إلّا ما أذن بتركه. وقد بيّن تعالى أنّ التوراة فيها الهداية والنور وقد عمل بها النبيّون والربّانيون والأحبار، وأمرهم بحفظها، فالمناط الموجود في اليهود موجود في غيرهم أيضاً، ويدلّ عليه ذيل الآية الشريفة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

تقرير لما سبق وتأكيد له وتشديد في الأمر بأبلغ وجه، أي كلّ من رغب عن حكم الله تعالى اتّباعاً لهواه، فاولئك هم الكافرون، لأنّه لم يصدّق بما أنزله الله تعالى، فيكون ذلك كفراً. وفي الآية أشدّ التحذير عن الإخلال بما أنزله الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

بيان لبعض ما فرضه الله تعالى في التوراة قد بقيت هذه الكتابة عليهم وقرّرتها الشرائع الإلهيّة الأُخرى، وكانت خاتمتها الشريعة الإسلاميّة التي جعلت هذا الفرض قانوناً إلهيّاً بأبهي صورة وأبلغ تعبير في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[٢]، وقد اعتبر أحسن تشريع في هذا الموضوع، حيث اهتمّ بجميع الجوانب المرتبطة به، وتقدّم البحث فيه في سورة البقرة، فراجع.

والجملة عطف على قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾، والمراد بها بيان حكم

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٠.

٢. سورة البقرة: الآية ١٧٩.

القصاص في جميع أقسام الجنايات، من القتل والقطع والجرح وغيرها. أمّا القتل، ففي قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، أي أنّ النفس تعادل بالنفس وتقتل بها عند القصاص منها، وإطلاق الآية يشمل الحرّ والعبد، ولعلّه كان في شريعة موسى عليه السلام كذلك، وأما في الشريعة الإسلاميّة، فالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأُنثى.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾.

الباء للمقابلة، والمعنى: أنّ كلّ واحدة من الجوارح المذكورة تعادل بما يماثلها في باب القصاص، فالعين تفقأ بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والاذن تصلم بالأُذن، والسنّ تقطع بالسنّ إذا قلعت. وقد ذكر العلماء في إعراب هذه الجملة وجوهاً، والحقّ أنّها جمل تامّة تفيد معنى تامّاً لا يحتاج إلى التقدير أو التأويل، وسيأتي في البحث الأدبيّ بعض الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

أي: والجروح فيها قصاص أيضاً كالجوارح، وفي المقام فروع كثيرة مذكورة في الفقه، راجع كتابنا (مهذّب الأحكام). وفي الآية الشريفة إشعار بأنّ الحكم الذي حكموا به في الواقعة التي طلبوا من الرسول الحكم فيها، كان مخالفاً لما ورد في التوراة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.

بيان لاختيار المجنيّ عليه أو وليّه في إعمال حقّه أو العفو عنه، وقدّم الثاني ترغيباً إلى العفو وحثّاً على الصدقة، فتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[1].

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧٨.

والمعنى: فمَن تصدّق بما ثبت له من حقّ القصاص بالعفو عن الجاني، فهو ـ أي العفو كفّارة لذنوب المتصدّق، والله يعفو عنه كما عفا هو عن الجاني، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا من جراح أو غيره»، وفي النبويّ: «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه، إلّا رفعه الله به درجة وحطّ عنه به خطيئته». ويمكن أن يستفاد من إطلاق الآية الشريفة أنّ العفو ممّن ثبت له الحقّ كفّارة عن الجاني في جنايته أيضاً عند الله تعالى، وإن لم تسقط عنه الكفّارة ظاهراً، ولا بأس به.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾.

بيان للفرد الآخر ممّا يحقّ للمجنيّ عليه أو وليّه، وهو عدم التصدّق بما ثبت له من الحقّ، أي فإن لم يتصدّق فليحكم بما أنزل الله تعالى ولا يتعدّاه، فإنّ من لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون.

وممّا ذكرنا يظهر فساد جملة كثيرة ممّا قيل في تفسير هذه الآية الشريفة.

وإنّما ذكر عزّوجلّ: ﴿**هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾، وفي السابق: ﴿**هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾، لأنّ الآية الأُولى وردت لبيان عدم تصديقهم بما أنزله الله تعالى، وهو يستلزم الكفر، وفي المقام إنّما كان إعراضاً في التطبيق على الوجه الذي أنزله الله اتّباعاً للهوى بعد التصديق به، فكان ظلماً وذنباً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾.

بيان لبعض أحكام الإنجيل أثر بيان أحكام التوارة. وفي الآية الدلالة على أنّ عيسى بن مريم عليه السلام سلك نفس المسلك الذي سار عليه الأنبياء والربّانيون والأحبار، في الدعوة إلى الله تعالى والإسلام له، والتسليم بشرائعه وتعليماته.

ومادّة (قفي) تدلّ على الاتّباع، مأخوذة من القفا، وهو مؤخر العنق،

وتأتي متعدّية بنفسها، نحو: قفا فلان أثر فلان، إذا تبعه، وبالباء إلى المفعول الثاني مثل: قفيته بفلان إذا اتبعته إيّاه، وتستعمل في المحسوس وغيره. يقال: فلان يقفي آباءه وأشياخه، أي يتلوهم ويسير على طريقتهم.

والآثار: جمع الأثر وهو ما يحصل من الشيء، ممّا يدلّ عليه، وقد تقدّم الكلام في اشتقاق هذه الكلمة، وغلب استعمالها في الشكل الحاصل من القدم.

والمعنى: وبعثنا عيسى بن مريم عليه السلام بعد أُولئك النبيّين الذين كانوا يحكمون بما أنزل الله تعالى في التوراة، متّبعاً لآثارهم، وجارياً على سنّتهم.

قوله تعالى: ﴿**مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ**﴾.

جملة حاليّة من عيسى بن مريم تبيّن ما ورد في الجملة السابقة، وتشير إلى منزلة هذا النبيّ العظيم، وأنّ دعوته هي دعوة موسى عليه السلام والعمل بما ورد في التوراة من الأحكام.

قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ**﴾.

أي: أعطيناه الإنجيل، وقد وصف سبحانه وتعالى الإنجيل بأوصاف ثلاثة:

الأوّل: أنّه كتاب بشريّ، فإنّ الإنجيل يأتي بمعنى البشارة، وقد احتوى على جملة من التشريعات والحكم والآداب والمواعظ التي تهدي العامل بها إلى السعادة والكمال المنشودين، ويبشّره بالنعيم الدائم، ولم يبيّن عزّوجلّ خصوصيّات الإنجيل بالنسبة إلى غيره من الكتب الإلهيّة، فإنّه تعالى قال في حقّ التوراة: ﴿**قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ**﴾[1]. وأمّا القرآن فقد فصّل القول فيه، لأنّه المهيمن على

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

الكتب كلّها . والآيات النازلة في حقّه المفصّلة لخصوصيّاته وشؤونه وكيفيّة نزوله كثيرة مذكورة في مواضع متفرّقة منه .

ويستفاد من جملة (آتيناه) أنّه تعالى أعطاه هذا الكتاب دفعة واحدة . والإنجيل بكسر الهمزة وهو اسم أعجمي .

الثاني : أنّ فيه الهداية والنور ، أي يشتمل على ما يهدي من الزيغ والضلال ، ونور يبصر به طالب الحقّ ، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك بالنسبة إلى التوراة أيضاً ، فإنّ الكتب الإلهيّة كلّها تشترك في ذلك . والظاهر أنّ المراد من الهداية هي تلك المعارف التي تهدي إلى الاعتقاد الصحيح والإيمان الحقّ . والنور هو تلك التشريعات التي تهدي إلى تعيين الحقّ في مجال العمل ، وكلاهما يشترك في تعيين الصراط المستقيم، وتمييزه عن السبل الباطلة .

قوله تعالى : **﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ﴾** .

وصف ثالث للإنجيل بأنّه مصدّق لما ورد في التوراة من أحكام الله تعالى . ويستفاد منه أنّ شريعة عيسى عليه السلام لم تكن إلّا امتداداً لشريعة موسى عليه السلام ، وأنّ الإنجيل تابع للتوراة ويدعو إليها إلّا ما استثنى ، على ما حكاه عزّوجلّ في القرآن الكريم ، قال تعالى : **﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾**[1] . ومن ذلك يظهر أنّه ليس من التكرار المؤكّد ، بل الآية الأُولى وصف لنفس الرسول عيسى بن مريم عليهما السلام ، فإنّه مصدّق لما جاء به من قبل موسى عليه السلام ، والثانية وصف للإنجيل ، فإنّ ما جاء فيه إمضاء لما جاء في التوراة ، فتكون شريعتهما واحدة إلّا ما ذكره عزّوجلّ في القرآن الكريم ، كما عرفت آنفاً .

قوله تعالى : **﴿وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾** .

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٥٠ .

بعد بيان اشتراك الإنجيل مع التوراة في كونها هدى ونوراً، ذكر عزّوجلّ ما يتميّز به الإنجيل، وهو كونه هدى يهتدي بـه المـتّقون فـي اسـتكمال نـفوسهم وتزيينها بالفضائل ومكارم الأخلاق، فإنّ أكثر مـا ورد فـي الإنـجيل هـو مـن المواعظ والحكم، فيكون قوله تعالى: ﴿مَوْعِظَةً﴾ عطف تفسيريّ لقوله: ﴿هُدىً﴾، ولذا كانت شريعة موسى عليه السلام تأسيسيّة مشتملة على دستور في الحـياة ومـنهج عمليّ للإنسان. وأمّا شريعة عيسى عليه السلام، فهي شريعة إمضائية تقريريّة إصلاحية أكثر اهتمامها بإصلاح النفوس مـن مـفاسد الأخـلاق، بسـبب انـتشار الفسـاد الأخلاقي في اليهود، كما حكاه عزّوجلّ في القرآن الكريم، وبهذا يـتميّز أهـل الإنجيل عن غيرهم. وممّا ذكر عزّوجلّ المتّقين لأنـّهم هم الذين يـؤثّر الوعـظ فيهم، فيكون الوعظ وعظاً لهم دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾.

أي: أنّ أهل الإنجيل لما علموا بأنّ ما ورد فيه هو من الله تعالى، فلابدّ أن يذعنوا به، ويستسلموا لأحكامه تسليم إذعان وطاعة، ومن جـملة مـا يـجب الإذعان به هو الإيمان برسالة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله والطاعة له.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

تشديد في الأمر وتأكيد في الحكم بما أنزل الله، والفسق هو الخروج عن طريق الشرع المبين والعقل، أي أنّ أهل الإنجيل إذا لم يـحكموا بـما أنـزل الله فاولئك هم الفاسقون، لأنـّهم حرّفوا ديـن الله وخـرجـوا عـمّا أمـره عـزّوجلّ بالاعتقاد بالوحدانيّة والعمل بشريعة موسى عليه السلام، فهم بدّلوا ذلك وأسّسوا لهم ديناً مستقلاً، واعتقدوا التثليث ونبذوا الوحدانيّة المأمور بها، ففسقوا عن أمر ربّهم.

والآيات مطلقة لا تختصّ بقوم أو طائفة معيّنة، وهي تشمل جميع صـور

الحكم التي هي أربع :

الأولى : ما إذا علم بما أنزل الله ولكنّه أعرض عنه وعانده ، فهذا كافر ويدخل في قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ .

الثانية : ما إذا علم أنزل الله ولكنّه ردّه بأن غيّره أو بدّله ، وهذا ظلم يدخل في قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ .

الثالثة : ما إذا لم يعلم بما أنزل الله تعالى وحكم به ، فهذا هو الفسق ويدخل تحت قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ .

الرابعة : ما إذا علم بما أنزل الله تعالى وحكم به فهو الحقّ ، ويدلّ عليه قوله تعالى فيما يأتي : ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ**﴾[١] .

والصورتان الأُولى والثانية يتّصف بهما اليهود ، كما عرفت . وأمّا الثالثة فيتّصف بها النصارى ، فإنّهم خرجوا عن دين الله بما أوّله المتأوّلون ، فاشتبه الأمر عليهم . ولعلّ ما ورد في بعض الروايات من تقسيم القضاة إلى أربعة مأخوذ من هذه الآيات الشريفة ، وهي مطلقة لا تختصّ بالقضاء ، فتشمل التكوينيّات والتشريعيّات ، كما لا تختصّ بالحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، بل يشمل عدم الحكم بما أنزله الله تعالى أيضاً . وممّا ذكرنا يظهر السرّ فيما ورد عنهم عليهم السلام في القضاء : «لا يجلس فيه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ أو شقي» ، وقد اختلف المفسّرون في تفسير الآيات السابقة ، وأنت في غنى عن بيان ضعف كثير ممّا ذكروه بعد ما عرفت .

***

١ . سورة المائدة : الآية ٤٨ .

بحوث المقام

بحث أدبي:

جملة: ﴿**وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾، حال من ضمير (قالوا). وقيل: إنّها عطف على (قالوا)، وأما قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا**﴾، فهو عطف على قوله: ﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي همّ سمّاعون، وذكرنا ما يتعلّق بالضمير في التفسير فراجع. واللّام في قوله: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ للتقوية، وقيل: لتضمين السماع معنى القبول. ومنه: «سمع الله لمن حمده»، أن تقبّل منه حمده.

واعترض على ذلك بوجوه.

وقيل: إنّ اللام للعلّة والمعفول محذوف، أي سمّاعون كلامك ليكذبوا عليك. والأمر سهل بعد وضوح المعنى وتلازم الوجوه، فإنّ الجملة جارية مجرى التعليل للنهي. والكلام في (اللام) في قوله تعالى: ﴿**سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ**﴾، نفس الكلام في (اللام) السابقة. و(آخرين) صفة لـ(قوم)، وجملة: (لم يأتوك) صفة أُخرى، وقوله تعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾، صفة ثالثة لـ(قوم)، وإتيان الفعل المضارع للدلالة على استمرارهم على التحريف، بياناً لإفراطهم في العتو والمكابرة، والاجتراء على الله تعالى.

وقيل: الجملة مستأنفة لا محلّ لها من الإعراب.

وقيل: خبر مبتدأ محذوف راجع إلى القوم. وذكر (بعد) للتنبيه على معرفة مواضع الحقّ وتحريفه. و(شيئاً) في قوله تعالى: ﴿**فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً**﴾، مفعول به لـ(تملك)، وقيل: إنّه مفعول مطلق. وتنكير (خزي) في قوله تعالى ﴿**لَهُمْ**

فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ للتفخيم، وهو مبتدأ و﴿لَهُمْ﴾ خبره، و﴿فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ متعلّق بما يتعلّق به الخبر من الاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾، والواو للحال وجملة: (عندهم التوراة) مبتدأ وخبر، وجملة: (فيها حكم الله) حال من التوراة. و(حكم) مرفوع على الفاعليّة بالجارّ والمجرور، أي كائناً فيها حكم الله، وقيل غير ذلك. وجملة: ﴿فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ اسميّة (فيها) خبر مقدّم و(هدى) مبتدأ، والجملة حال من التوراة، وكذا جملة: «يحكم بها النبيّون». وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة أُجريت على النبيّين على سبيل المدح.

واستشكل بعضهم بأنّ المدح إنّما يتحقّق بالصفات الخاصّة التي يتميّز بها الممدوح، والإسلام أمر عامّ. ويردّ بأنّ الإسلام على درجات، فما اختصّ به النبيّون غير ما هو الموجود عند غيرهم، مضافاً إلى أنّ الصفة قد تذكر لتعظيم نفسها، وأنّ المتّصف بها عظيم الشأن والقدر. ومثل ذلك كثير في القرآن الكريم.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ...﴾، فالمعروف أنّه على النصب عطفاً على النفس. وقرئ (العين)، وما عطف عليها بالرفع باعتبار أنّها جمل معطوفة على جملة: ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ من حيث اللفظ، وقيل غير ذلك من الوجوه المذكورة في الكتب المفصّلة.

والنفس إن أُريد منها الإنسان بعينه فهو مذكر، ولذا يقال: ثلاثة أنفس، على معنى ثلاثة أشخاص. وإن أُريد بها الروح، فهي مؤنّثة لا غير وتصغيرها على (نفيسة).

وأمّا العين بمعنى الجارحة المخصوصة، فهي مؤنّثة، وأُشكل على إطلاق هذا القول، والأُذن مثلها. والأنف مذكّر والسنّ مؤنّثة، ولا تذكّر. والقاعدة المعروفة في أعضاء الإنسان: أنّ ما منها اثنان في البدن كاليد والضلع والرجل

فمؤنّث، وما منها واحد كالرأس والفم والبطن فمذكّر. ولكنّها غير مطردة، فإنّ الحاجب والصدغ والخدّ والمرفق والزند كلّ منهما مذكّر، مع أنّ الموجود منها في البدن اثنان. والكبد والكرش مؤنّثان وليس منهما في البدن إلّا واحد، ونظم بعض الشعراء هذا الخلاف في قوله:

وهاك من الأعضاء ما قد عددّته تؤنّث أحياناً وحيناً تذكّر
لسان الفتى والإبط والعنق والقفا وعاتقه والمتن والضرس يذكر

وألحق بعضهم بما ذكر الذراع والكراع والمعي والعجز، وبعضهم ذهب إلى تأنيث الذراع لا غير، والتفصيل يطلب من محلّه.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**﴾ بالنصب عطف على اسم (أنّ) و(قصاص) هو الخبر.

وفي الآيات التفات إلى الخطاب أو الغيبة، اهتماماً بشأن الموضوع وتذكيراً للمخاطب.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾، على استمرار الصراع بين الحقّ والباطل الذي هو قديم جدّاً، وامتناع إبطال الحقّ وإزالته مهما بلغ الباطل من القوّة ومسارعته في ذلك، ولابدّ أن لا يكون ذلك موجباً لحزن أهل الحقّ. وفي الآية وعد منه عزّ وجلّ لنبيّه الكريم ﷺ بانتصار الحقّ وزهوق الباطل، وقد ذكر عزّ وجلّ جميع وجوه الباطل المتمثّلة بالمسارعة في الكفر، والنفاق، وسماع الكذب، والعمل به، وتحريف الكتب الإلهيّة، وارتكاب المحرّمات، وأكل السحت، ثمّ ذكر أحوال أهل الكتاب

بالنسبة إلى الحقّ وما أنزله الله تعالى، وأمرهم عزّوجلّ بتطبيق ذلك، فكانت هذه الآيات جامعة لجملة كثيرة من وجوه الباطل التي تصدّ عن الحقّ وتمنع من تطبيقه.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾**، على أنّ النفاق من مظاهر الكفر، بل أنّه من المسارعة فيه، وقد قرن الله تعالى المنافقين بالذين هادوا، الذين وصفهم عزّوجلّ بأوصاف تدلّ على خبثهم وكمال جرأتهم على الله تعالى، في نقضهم العهود والمواثيق وارتكابهم المحرّمات، كما أنّه عزّوجلّ وصف المنافقين بأوصاف عديدة في غير هذا الموضع من القرآن الكريم، تدلّ على أنّهم أضرّ بالحقّ وأهله من غيرهم من الكفّار، وشنّع عليهم، وأظهر نواياهم الخبيثة، وأمر المؤمنين بالحذر منهم ومعالجة النفاق وإصلاح المنافقين بطرق قويمة. فإنّه من مرض القلب الذي يصعب علاجه إلّا بما بيّنه عزّوجلّ.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: **﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾** على أنّ الإصرار على سماع الكذب مرجوح في حدّ نفسه، وأنّ كثرة الجلوس مع الكذّابين يوشك أن يعدّ منهم، وتدلّ عليه جملة من الأحاديث. ففي الخبر: «كفى بالمرء كذبا أن يحدّث بكلّ ما سمعه».

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾** على أنّ التحريف إنّما كان عن علم وعمد منهم لكتاب الله تعالى وأحكامه المقدّسة وتشريعاته الحكيمة، وهذا يدلّ على شناعة فعلهم وكمال بعدهم عن الحقيقة وضلالهم واستكبارهم على الله تعالى، ويؤكّد ذلك قوله عزّوجلّ حكاية عنهم: **﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾**.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُرِدْ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللهِ**

شَيْئاً﴾، أنّ بعض المعاصي والآثام يوجب قطع العصمة بين من يرتكبها وبين الله تبارك وتعالى، فلا تؤثّر شفاعة الأنبياء والمعصومين عليهم السلام ولا دعاؤهم في رفع ما حلّ به نتيجة المعاصي وما جناه من الأفعال الشنيعة، وتدلّ عليه جملة من الآيات والروايات، وتقدّم في بحث الشفاعة بعض الكلام فراجع. كما أنّ المستفاد من قوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾**، أنّ الواردات الإلهيّة وتحقيق الرابطة بين الله وعبده، إنّما تكون بتطهير القلوب من درن الآثام ومفاسد الأخلاق، ولا تحصل هذه الطهارة إلّا بالتخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل، وأنّ التصدّي من العبد لهذا الأمر يوجب تعلّق إرادة الله تعالى في التطهير والتوفيق له. فالآية الشريفة بمنزلة التعليل لما سبق، وما يذكره عزّوجلّ من الخزي العذاب العظيم، وهذه من الآيات المعدودة التي تبيّن السرّ في سلب التوفيق عن العبد وانقطاع العصمة بينه وبين الله تعالى وأنبيائه العظام، فلا تؤثّر فيه جميع الأمور إلّا ما إذا حصل من نفس العبد ما يوجب رفع المانع منه، وقد ذكر عزّوجلّ جملة من الموانع العظيمة في الآيات الشريفة، وإنّما على الأنبياء بيان سبل الهداية والتوفيق، ثمّ الحكم عليهم بما يلائم أفعالهم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، فليس لهم التوسّط بينهم وبين الله تعالى في تطهير نفوسهم، ورفع ما حلّ بهم من الخزي والنكال، ما لم يطهروا قلوبهم من تلك الرذائل.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾**، أنّهم انهمكوا في ارتكاب المحرّمات وأكل الحرام من أيّ وجه كان، حتّى غلب على الحلال وصار أمراً مستساغاً عندهم، ويمكن أن يستفاد من صيغة المبالغة تعدّد مصادر السحت وعدم اختصاصه بالرشوة فقط، كما ذكره بعض. والآيات تدلّ على ذمّ الظلم والقدح في الحرام، ومدح العدل والقسط بين الأنام.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَمَا أُوْلَـئِكَ بِـالْمُؤْمِنِينَ﴾**، أنّ الإيمان

بالتوراة وسائر الكتب الإلهيّة والرضا بما أنزله الله تعالى فيها، من أجزاء الإيمان المطلوب، فقد نفي عزّوجلّ عنهم الايمان لمّا أعرضوا عن حكم الله تعالى فيها.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ**﴾، أنّ العلماء في جميع الأديان الإلهيّة هم حفظة كتب الله تعالى، يجب عليهم أن يحفظوا حدودها وأحكامها ومعارفها من التضييع والتحريف على الإطلاق، وأن يكونوا دعاة إليها قولاً وعملاً. ففي الحديث: «العلماء أُمناء الله في أرضه»، فصاروا شهداء على كتاب الله تعالى، والشهيد لا يمكن أن يخشى أحداً في شهادته، وأنّ الخشية إنّما تكون من الله عزّوجلّ فيما إذا خالف الميثاق الذي اخذ منه على العمل به، فيكون قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾، بياناً لحقيقة من الحقائق الواقعيّة في مجال العمل والتطبيق للشريعة الغرّاء.

التاسع: ذكرنا في التفسير وجه التكرار في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ أو ﴿**الظَّالِمُونَ**﴾ أو ﴿**الْفَاسِقُونَ**﴾، ونزيد هنا أنّ الآيات الثلاث استوعبت جميع الفروض التي يمكن فرضها في مجال العمل بالأحكام الإلهيّة، ومن جملتها القضاء، فهي تشمل عدم الحكم بما أنزل الله، والحكم بغير ما أنزله عزّوجلّ، ويدلّ عليه ما ورد في بعض الأخبار: «الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهليّة، فمَن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية»، كما أنّها تشمل كلّ الوجوه في الإخلال بها واستبدالها من التغيير والزيادة والنقص والتأويل الباطل ونحو ذلك، بلا فرق في ذلك كلّه بين أن يكون عن علم أو عن جهل، أو كان عن إعراض ونكران للحكم الذي هو الكفر، أو بترك الحكم لأجل تغيير ما أنزله الله تعالى وتبديله وهو الظلم، أو بالخروج عن الحدود والقيود التي لها الأثر في تهذيب النفوس وتزكيتها، فهو الفسق، وقد ذكر جميع الأديان الإلهيّة في هذه الآيات لبيان أنّ ما ذكر من الحقائق الإلهيّة التي لا تختصّ

بدين معيّن.

العاشر: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فِيهِ هُدىً وَنُورٌ**﴾، أنّ الكتب الإلهيّة كلّها تشترك في هدف واحد، وهو هداية البشر وإنارة الطريق له، وتكشف ما أبهم عليهم من الأحكام، كلّ بحسب لياقته واستعداده، وتدلّ على ذلك جملة من الآيات الشريفة.

***

بحث روائي:

في «المجمع» عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**ـ الآية﴾: «أنّ امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشرافهم وهما محصنان، فكرهوا رجمهما، فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك، طمعاً في أن يأتي لهم برخصة، فانطلق قوم منهم كعب بن الأشرف، وكعب بن أُسيد، وشعبة بن عمرو، ومالك بن الصيف، وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم، فقالوا: يا محمّد! أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدّهما؟ فقال: وهل ترضون بقضائي في ذلك؟ قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبرائيل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه لهم، فقال النبيّ: هل تعرفون شابّاً أمرد أبيض أعور يسكن فدكاً يُقال له: ابن صوريا، قالوا: نعم. قال: فأيّ رجل هو فيكم؟ قالوا: أعلم يهودي بقي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى. قال: فارسلوا إليه ففعلوا، فأتاهم عبد الله بن صوريا، فقال له النبيّ: إنّي أُنشدك الله الذي لا إله إلّا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، وفلق لكم البحر وأنجاكم، وأغرق آل فرعون، وظلّل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المنّ والسّلوى، هل تجدون في كتابكم الرجم على مَن أحصن؟ قال ابن صوريا: نعم، والذي ذكرتني به لولا

خشية أن يحرقني ربّ التوراة إن كذّبت أو غيّرت ما اعترفت لك، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمّد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنّه قد أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة، وجب عليه الرجم. قال ابن صوريا: هكذا أنزل الله في التوراة على موسى، فقال له النبيّ: فماذا كان أوّل ما ترخّصتم به أمر الله؟ قال: كنّا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدّ. فكثر الزنى في أشرافنا حتّى زنى ابن عمّ ملك لنا فلم نرجمه، ثمّ زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه، فقال له قومه: لا حتىّ ترجم فلاناً، يعنون به ابن عمّه فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع، فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة ثمّ يسود وجوههم ثمّ يحملان على حمارين ويجعل وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما، فجعلوا هذا مكان الرجم، فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به، وما كانت لما أتينا عليك بأهل، ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، فقال: إنّه أنشدني بالتوراة، ولولا ذلك لما أخبرته به، فأمر بهما النبيّ فرجما عند باب مسجده، وقال: أنا أوّل مَن أحيا أمرك إذا أماتوه، فأنزل الله فيه: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾، فقام ابن صوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله ثمّ قال: هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الذي أُمرت أن تعفو عنه، فأعرض النبيّ عن ذلك، ثمّ سأله ابن صوريا عن نومه، فقال: تنام عيناي ولا ينام قلبي، فقال: صدقت، وأخبرني عن شبه الولد بأبيه ليس فيه من شبه أُمّه شيء، أو بأمّه ليس فيه من شبه أبيه شيء، فقال: أيّهما علا وسبق ماء صاحبه كان أشبه له، قال: قد صدقت فأخبرني ما للرجل من الولد، وما للمرأة منه؟ قال: فأُغمي على رسول الله طويلاً، ثمّ خلي عنه محمرّاً وجهه يفيض عرقاً. فقال: اللحم والدم والظفر والشحم للمرأة، والعظم والعصب والعروق للرجل. قال

له: صدقت، أمرك أمر نبي، فأسلم ابن صوريا عند ذلك وقال: يا محمّد! مَن يأتيك من الملائكة؟ قال: جبرئيل، قال: صفه لي، فوصفه النبيّ. فقال: أشهد أنّه في التوراة كما قلت، وأنّك رسول الله حقّاً. فلمّا أسلم ابن صوريا وقعت فيه اليهود وشتموه، فلمّا أرادوا أن ينهضوا تعلّقت بنو قريظة ببني النضير، فقالوا: يا محمّد! إخواننا بنو النضير، وأبونا واحد، ونبيّنا واحد، إذا قتلوا منّا قتيلاً لم يقد واعطونا ديتهم سبعين وسقاً من تمر، وإذا قتلنا منهم قتيلاً قتلوا القاتل وأخذوا منّا الضعف مائة وأربعين وسقاً من تمر. وإن كان القتيل امرأة قتلوا به الرجل منّا، وبالرجل منهم رجلين منّا، وبالعبد الحرّ منّا، وجراحاتنا على النصف من جراحاتهم، فاقض بيننا وبينهم، فأنزل الله في الرجم والقصاص الآيات».

أقول: روي قريب منه في كتب أهل السنّة وتفاسيرهم، ويستفاد من الحديث أنّهم كانوا يعرفون أنّه النبيّ الموعود الذي بشّر به كتبهم، ولكنّهم خالفوه وعاندوه عتوّاً واستكباراً، كما أنّه يدلّ على أنّ الحكم الذي حكم به الرسول ﷺ موجود في كتبهم، وأقرّ به ابن صوريا، ولكنّهم حرّفوه وبدّلوا دين الله تعالى كما أخبر به عزّوجلّ. وذكر جمع من المتتبعين أنّ الموجود في التوراة الحاليّة الدائرة بينهم يقرب ممّا هو المذكور في الحديث، راجع التوراة الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية، كما أنّ الموجود فيها من حكم الدية يقارب ما ورد في الحديث، راجع الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس، قال: إنّ الله أنزل: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ـ أو ـ الظَّالِمُونَ ـ أو ـ الْفَاسِقُونَ﴾**، أنزله الله في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأُخرى في الجاهلية حتّى ارتضوا واصطلحوا على أنّ كلّ قتل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتّى قدم رسول

الله ﷺ المدينة، فنزلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله ﷺ يومئذٍ لم يظهر عليهم، فقامت الذليلة فقالت: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، ودية بعضهم نصف دية بعض؟ إنّما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم، فأمّا إذ قدم محمّد فلا نعطيكم ذلك، فكادت الحرب تهيج بينهم، ثمّ ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ففكرت العزيزة فقالت: والله ما محمّد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلّا ضيماً وقهراً لهم، فدسوا إلى رسول الله ﷺ فأخبر الله رسوله بأمرهم كلّه، وماذا أرادوا فأنزل الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ** ـ إلى قوله ـ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**، ثمّ قال: فيهم والله نزلت».

أقول: روى قريب منه القمّي في «تفسيره» مع الاختلاف في كيفيّة التطبيق. وممّا يهون الخطب أنّها من روايات «أسباب النزول» التي قلّما سلمت من الإشكال، والعمدة هي الأخذ بظواهر الآيات وما تدلّ عليه.

وفي «تفسير العيّاشي» في قوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾**، قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة بيضاء، وفتح مسامع قلبه، ووكل به ملكاً يسدده، وإذا أراد الله بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء وسدّ مسامع قلبه، ووكل به شيطاناً يضلّه، ثمّ تلا هذه الآية: **﴿فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً** ـ الآية**﴾**، وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**، وقال: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾**».

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة، وهي تبيّن كيفيّة توفيق الله عبده الذي لابدّ له من الاستعداد والقابلية الحاصلتين من عمل العبد وكسبه.

وفي «الكافي»: عن عمّار بن مروان، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الغلول، فقال: كلّ شيء غل من الإمام فهو سحت، وأكل مال اليتيم وشبهه سحت، وللسحت أنواع كثيرة، منها أُجور الفواجر وثمن الخمر. والنبيذ المسكر، والربا بعد البينة، فأمّا الرشا في الحكم، فإنّ ذلك الكفر بالله العظيم وبرسوله صلى الله عليه وآله».

وفيه: أيضاً عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «السحت ثمن الميتة وثمن الكلب، وثمن الخمر، ومهر البغي، والرشوة في الحكم، وأجر الكاهن».

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة من الخاصّة والعامّة وإن اختلفت في السعة والضيق، وهي تدلّ على أنّ المراد من السحت مطلق الحرام، ومن ذلك يعرف أنّ اختصاص بعض روايات السحت بالرشا في الحكم إنّما هو لأجل الأهميّة وبيان فظاعة الأمر فيه.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾**، قال: نسختها هذه الآية: **﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾**.

أقول: روى قريباً منه النحّاس في «ناسخه»، والطبراني والحاكم ـ وصحّحه ـ ابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن ابن عبّاس أيضاً، وتقدّم في التفسير أنّه لا منافاة بين الآيتين، لا لأجل نزولهما دفعة واحدة، فلا معنى للنسخ حينئذٍ، فإنّ ذلك لا يستوجب منعاً للنسخ لو تحقّق التنافي بين الآيتين، بل لأجل أنّ الآية الأُولى تثبت الخيار للرسول في الحكم بينهم والإعراض عنهم، والآية الثانية تبيّن أنّه لو اختار الحكم بينهم لابدّ أن يكون بما أنزله الله تعالى لا بما يريدونه، وسياق الآيات أيضا يدلّ على ذلك. وممّا ذكرنا يظهر أنّه لا يحتاج إلى إرجاع الضمير في قوله تعالى: **﴿بَيْنَهُمْ﴾** إلى الناس مطلقاً دون أهل الكتاب أو اليهود خاصّة، وإن كان ذلك لا يضرّ بأصل المطلب، فافهم.

وفي «التهذيب» روى الشيخ عن عبد الله بن مسكان رفعه، قال: «قال رسول الله: من حكم في درهمين بحكم جور ثمّ جبر عليه، كان من أهل هذه الآية: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، فقلت: وكيف يجبر عليه؟ فقال: يكون له سوط وسجن فيحكم عليه، فإن رضي بحكمه وإلّا ضربه بسوط وحبَسه في سجنه».

أقول: رواه الكليني أيضاً. والمراد منه هو الحكم على خلاف ما أنزله الله تعالى مطلقاً عن علم به بأن يكون حكماً بتّاً وقطعاً، كما يدلّ عليه قوله ﷺ: «يجبر عليه»، لا مجرّد إنشاء الحكم.

ويستفاد من الحديث عموم الآية وشمولها لغير اليهود أيضاً. ويدلّ عليه إطلاق الآيات الشريفة. ومنه يظهر أنّه لا وجه لتخصيصها باليهود كما ذهب إليه جمع.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير، قال: «سألت سعيد بن جبير عن هذه الآيات في المائدة، قلت: زعم قوم أنّها نزلت على بني إسرائيل ولم تنزل علينا، قال: اقرأ ما قبلها وما بعدها، فقرأت عليه، فقال: لا، بل نزلت علينا. ثمّ لقيت مقسماً ـ مولى ابن عبّاس ـ فسألته عن هؤلاء الآيات التي في المائدة، قلت: زعم قوم أنّها نزلت على بني إسرائيل ولم ينزل علينا. قال: إنّه نزل على بني إسرائيل ونزل علينا. وما نزل علينا وعليهم فهو لنا ولهم، ثمّ دخلت على علي بن الحسين فسألته عن هذه الآيات التي في المائدة وحدّثته أنّي سألت عنها سعيد بن جبير ومقسماً، قال: فما قال مقسم؟ فأخبرته بها، قال: صدق، ولكنّه كفرٌ ليس ككفر الشرك، وفسق ليس كفسق الشرك، وظلم ليس كظلم الشرك. فلقيت سعيد بن جبير فأخبرته بما قال، قال سعيد بن جبير لابنه: كيف رأيته؟ قال: لقد وجدت له فضلاً عليك وعلى مقسم».

أقول: ظهر ممّا سبق الوجه في عدم اختصاص الآيات ببني إسرائيل، والمراد من قول علي بن الحسين عليه السلام: «كفرٌ ليس ككفر الشرك ...» بعض مراتب الكفر والفسق والظلم، وأنّ الشرك أعلاها مرتبة.

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي العباس عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«قال علي عليه السلام: مَن قضى في درهمين بغير ما أنزل الله فقد كفر. قلت: كَفَر بما أنزل الله، أو بما أنزل على محمّد صلى الله عليه وآله. قال: ويلك إذا كفر بما أنزل على محمّد فقد كفر بما أنزل الله».

أقول: المراد منه أنّه لا فرق في موارد القضاء بغير ما أنزل الله، بين أن يكون عظيماً أو حقيراً. وظاهره عدم الفرق أيضاً بين أن يكون الحكم بغير ما أنزله الله تعالى. وعدم الحكم بما أنزله الله تعالى، وذيل الرواية يدلّ على أنّ ما جاء به نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله هو ممّا أنزل الله تعالى، فالحكم على خلافه حكم بغير ما أنزل الله، ومن جملة ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله ولاية أوصيائه المعصومين عليهم السلام واتّباع أوامرهم، فيكون الردّ عليهم ردّاً على الرسول صلى الله عليه وآله، والردّ عليه كفر بالله العظيم، ويدلّ على ذلك ما ورد في مقبولة عمر بن حنظلة: «الرادّ علينا كالرادّ على الله تعالى».

وروى الشيخ في «التهذيب» عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عزّوجلّ: **﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ﴾**:

قال عليه السلام: «هي محكمة».

أقول: ذكرنا سابقاً أنّ هذه الآية من الآيات الحكيمة التي قرّرتها جميع الشرائع الإلهيّة، لا سيما الشريعة الإسلاميّة، فقد فصّلتها وبيّنت جميع خصوصيّاتها.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج ابن مردويه عن رجل من الأنصار عن النبيّ صلى الله عليه وآله

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾، قال ﷺ: «الرجل تُكسر سنّه أو تقطع يده، أو يقطع الشيء، أو يجرح من بدنه فيعفو عن ذلك فيحطّ عنه قدر خطاياه، فإن كان ربع الدية فربع خطاياه، وإن كان الثلث فثلث خطاياه، وإن كانت حطّت عنه خطاياه كذلك».

أقول: روى مثله الديلمي عن ابن عمر، ويدلّ عليه بعض الروايات المنقولة عن الأئمّة الهداة عليهم السلام، كما عرفته في التفسير. ولعلّ ذكر الدية مع أنّ العفو إنّما كان عن القصاص، لأنّها قابلة للتبعيض، بخلاف القصاص الذي لا يكون قابلاً له.

***

بحث كلامي:

يدلّ قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾، على المنزلة العظيمة التي منحها عزّوجلّ لهذه الطوائف الثلاث، النبيّين والربّانيين والأحبار، فقد جعلهم تعالى حكّام الشرع المبين، الذين يحكمون بما أنزل الله لبسط العدل بين الناس وإقامة النظام الربّاني فيهم، وإيصالهم إلى الكمال المنشود، كلّ حسب لياقته واستعداده. والمستفاد من الآية الشريفة أنّ الأنبياء هم الأصل في هذا المنصب الجليل، ثمّ يأتي في المرتبة الثانية الربّانيون الذين هم حفظة الشرع المبين ببيان الحقائق وكشف ما أُبهم من الشريعة، ثمّ الأحبار الذين هم امناء الله على أحكامه المقدّسة، ولا ريب أنّ تلك لا يمكن أن تنال إلّا إذا توفّرت شروط الولاية والإمامة، والآية تبيّن أهمّ تلك الشروط، وهي ثلاثة:

الأوّل: كونهم ربّانيين يدعون إلى الله تعالى قولاً وعملاً، وقد تقدّم الكلام في معنى هذه الكلمة في سورة آل عمران. وهي لم ترد في القرآن الكريم إلّا في

صفات الأنبياء والأوصياء.

الثاني: العلم الحاصل من تعليم الله تعالى لهم خصوصيّات الشريعة والكتاب، بل الآية الكريمة تدلّ على معنى أدق، لأنّ الحفظ يدلّ على العلم والتحفّظ على ما علم من الضياع والتبديل والتغيير، فيكون أخصّ من مجرّد العلم، فإنّ الأوّل عبارة عن إيجاب الحفظ ورؤيته في المراقبة قولاً وعملاً من كلّ من وجب عليه الحفظ دون الثاني، فإنّه لم ينظر فيه هذه الخصوصية، ولعلّ هذا الفرق أوجب أن يكون هذا الوصف من صفات الأوصياء، كما أنّ هناك فرقاً آخر أيضاً، وهو أنّ الاستحفاظ يدلّ على العلم التامّ بخصوصيات الكتاب وما أنزله الله تعالى، والتكليف بالحفظ، وبيان ما كمن في نفوسهم الطاهرة من العلم، بخلاف مجرّد العلم، ولذا اعتبر في علم المعصوم أن يكون محيطاً بجميع ما تحتاج إليه الأُمّة من حلال الشريعة وحرامها، والعلم بالكتاب وشؤونه. ففي الحديث المروي عن أبي عمر الزبيريّ، المروي في «تفسير العيّاشي» عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ ممّا استحقّت به الإمامة العلم المنور ـ وفي نسخة المكنونة ـ بجميع ما تحتاج إليه الأُمّة من حلالها وحرامها، والعلم بكتابها خاصّه وعامّه، والمحكم والمتشابه، ودقائق علمه أو غرائب تأويله، وناسخه ومنسوخه، قلت: وما الحجّة بأنّ الإمام لا يكون إلّا عالماً بهذه الأشياء التي ذكرت؟ قال عليه السلام: قول الله تعالى فيمَن أذن الله لهم بالحكومة وجعلهم أهلها: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ**﴾، فهذه الأئمّة دون الأنبياء الذين يربّون الناس بعلمهم، وأمّا الأحبار فهم العلماء دون الربّانيون، ثمّ أخبر فقال: ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾، ولم يقل: بما حملوا منه».

فإنّه عليه الصلاة والسلام يشير إلى معنى دقيق، وهو أنّ علم الأنبياء أعلى

مرتبة من علم الأوصياء، الذي يختلف عن علم العلماء للذين حملوا علم الدين بالتعليم والتعلم، والأوصياء ليسوا كذلك، فإنّهم علموا الكتاب بما وصل إليهم من الأنبياء وما ألهمهم الله تعالى، ولذا كلّفوا بالحفظ ويسألون عنه، نظير قوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾[1]، أي يسألهم عمّا كلّفوا به من الصدق في الأقوال والأفعال وما كمن في نفوسهم من صفته.

إن قلت: إنّه قد ذكر عزّوجلّ الأحبار الذين هم علماء الدين في سياق الربّانيين،فلِمَ لم يشترط فيهم ما اشترط في الأنبياءوالربّانيين من العلم والعصمة؟

قلت: إنّه مضافاً إلى عدم الدليل على اشتراطها فيهم، بل وردت الأدلة على عدمه، لأنّ المقتضي للاشتراط في الأنبياء والأوصياء هو ما أخبر به عزّوجلّ من صفة الاستحفاظ فيهم وتكليفهم بالحفظ، فإنّهم رسل الله تعالى وامناؤه على الشريعة، ومبيّنوا حلالها وحرامها، والمكلّفون بحفظها، واحتياج الأُمّة إليهم كما عرفت آنفاً، وهذا بخلاف الأحبار والعلماء، فإنّه وإن أخذ العهد والميثاق منهم على بيان الأحكام الإلهيّة وحفظها، إلّا أنّه مجرّد ثبوت شرعيّ، لا ثبوت حقيقيّ مبني على العلم والعصمة عن الخطأ والغلط، والدين الإلهيّ لا يتمّ إلّا بالأخير دون الأوّل.

الشرط الثالث: العصمة من الغلط والخطأ، فإنّ العلم بالمعنى المزبور في الربّانيين الذي تبتني عليه الشهادة يستدعي العصمة، فإنّها شهادة غير ما هي المتداول عند الناس، وهي شهادة على الشريعة والكتاب كشهادتهم على الأعمال يوم القيامة، التي تقدّم الكلام فيها في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[2]. وهي شهادة حضور ومراقبة وحفظ،

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٨.

٢. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

وهي تختصّ بالأنبياء والأوصياء، ولا ريب أنّ مثل هذه الشهادة تستلزم العصمة، وإلّا استلزم الخلف، فهي شهادة حقيقيّة خالية عن الخطأ والغلط والمعاصي، ويدلّ عليه ما ورد في الحديث المزبور المروي في «تفسير العيّاشي» عن الصادق عليه‌السلام: «إنّ ممّا استحقّت به الإمامة التطهير والطهارة من الذنوب والمعاصي الموبقة التي توجب النار».

وممّا ذكرنا يظهر معنى قوله عليه‌السلام في الحديث المزبور: «فهذه الأئمّة دون الأنبياء الذين يربّون الناس بعلمهم»، فإنّهم أوصياء الأنبياء والأئمّة على الخلق والحجّة عليهم، لأنّهم علموا بالكتاب حقّ العلم، وشهدوا عليه بحقّ الشهادة.

والآية الشريفة وإن نزلت في الأنبياء والربانيين والأئمّة من بني إسرائيل، إلّا أنّ المناط موجود في غيرهم من الأنبياء والأئمّة، لأنّ الاستحفاظ والشهادة اللّذين لا يقوم بهما إلّا الربّانيون، يكونان في كلّ كتاب إلهيّ نزل من عند الله تعالى يشتمل على المعارف الربوبيّة والأحكام الإلهيّة، ويدلّ على ذلك ما رواه العيّاشي عن مالك الجهني، عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ـ** إلى قوله تعالى: **ـ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾**. قال عليه‌السلام: «فينا نزلت»، لأنّ القرآن الكريم الذي احتوى من المعارف الإلهيّة على أسماها، ومن الأحكام الشرعيّة على أكملها»، ومن المكارم على أجلاها وأعلاها هو الذي يستدعي لأن يكونوا عليهم‌السلام المصداق الأكمل لهذه الآية الشريفة.

***

الآية ٤٨ ـ ٥٠

﴿وَأنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

بعدما بيّن عزّوجلّ شأن التوراة والإنجيل وأنّهما كتاب هدى و نور، وقد حتم على بني إسرائيل الحكم بما أنزل فيهما وإقامتهما، وشدّد عليهم من ترك الحكم بهما، واعتبر ذلك كفراً وظلماً وفسقاً، يذكر تعالى في هذه الآيات شأن القرآن العظيم ومكانته العظيمة بين الكتب الإلهيّة، فهو المهيمن عليهما، وأمر نبيّه الكريم ﷺ بإقامته والحكم بما أُنزل فيه، والإعراض عمّن صدّ عن الحقّ، ثمّ بيّن سبحانه الحكمة في تعدّد الشرائع والمناهج، واعتبرها مقدّمات لهذا الدين الذي هو المقصد والنتيجة لها، فكان آخر الأديان الإلهيّة، وأمر رسوله العظيم بالاستقامة والإعراض عن الكافرين، وحذّرهم من الصدّ عن إقامة الحقّ واتّباع

حكم الجاهلية، فإنّه سيجازيهم بأعمالهم في الدنيا وسيصيبهم عذاب الآخرة بما كسبت أيديهم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

تعظيم لشأن القرآن الكريم، وتنويه بعظيم فضله وتفوّقه على سائر الكتب الإلهيّة، وبيان بأنّه الفرد الكامل الحقيق بأن يسمّى كتاباً على الإطلاق، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه لفظ الكتاب، وتظهر أهمّيته بعد التصريح باسم كتاب موسى عليه السلام، وكتاب عيسى عليه السلام، فيكون اللّام للعهد والتعظيم. و(بالحق) حال مؤكّدة من الكتاب، أي أنزلناه حال كونه بالحقّ، وإطلاقه يشمل نزوله وعلومه وأحكامه وجميع شؤونه، فهو حقّ من حقّ وفي حقّ، فلا يأتيه الباطل من أيّة جهة من جهاته.

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ﴾.

بيان لأحد أوصاف القرآن الكريم، وهو أنّه مصدّق لما بين يديه من الكتب الإلهيّة التي نزلت من عند الله، ومقرّر لما جاء فيها من الأحكام، إلّا ما نسخه الإسلام، وفي الآية الشريفة الشهادة على أنّها كتب إلهيّة، وأنّ الرُّسل الذين جاؤوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم ولم يكذبوا في رسالتهم وتبليغهم بها.

قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾.

وصف ثان له يدلّ على عظيم شأنه بين الكتب، ومادّة (هيمن) تدلّ على السلطة على شيء لأجل القيام بشؤونه، ويستلزم ذلك المراقبة والاهتمام والشهادة، وهذه حال القرآن الكريم بالنسبة إلى الكتب الإلهيّة، فإنّه القائم

بشؤونها والمتسلّط عليها بحفظها ومراقبتها وأنواع التصرّف فيها، فهو كتاب تبيان لكلّ شيء، كما وصفه عزّوجلّ في غير المقام، فيحفظ ما يكون قابلاً للحفظ كالأُصول الثابتة. وينسخ ما يكون قابلاً للتغيير والتبديل، كالفروع التي تتغيّر حسب حاجات الإنسان، وما يقع في طريق استكماله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فالقرآن مصدّق لما ورد فيها أنّها من عند الله تعالى ومبيّن لها، وله حقّ التصرّف فيها بما يشاء من النسخ والتكميل، هذا ما يمكن أن يستفاد من هذه الكلمة بمعونة القرائن المتعدّدة الواردة في مواضع متفرّقة، وقد ذكر العلماء والمفسّرون لها معاني متعدّدة ربّما تبلغ خمسة، والمتمعّن فيها يرى أنّها من لوازم المعنى، وليست هي المعنى الحقيقيّ لها، وكم لهم خلطاً بين المعنى الحقيقيّ ولوازمه، ومن هنا جاء المشترك والمترادف، ويحقّ لنا القول إنّ كثيراً من المعاني المترادفة أو المعاني المشتركة ترجع في حاقّ الواقع إلى معنى واحد، لكنّه مبهم في ضمن لوازم متعدّدة، وعلى الباحث أن يستخرج ذلك المعنى منها ويجهد في ذلك، نظراً لدقّة الموضوع، وقد سبق منّا بعض الموارد فراجع.

قوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾

ترتّب هذا على سابقه كترتّب المعلول على العلّة التامّة، أي إذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته، وأنّه الحقّ النازل من عند الله، فهو حقّ في موافقته مع

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

الكتب الإلهيّة، وحقّ فيما خالفها، فلابدّ أن تحكم بين الناس ـ ولا سيما أهل الكتاب ـ بما أنزل الله عليك من الأحكام الشريعة، فإنّه الحق الذي لا محيص عنه، وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الأمر يتعلّق بالحكم بين أهل الكتاب، وهو وإن كان صحيحاً، لكن يبعّده احتياجه إلى التقدير، أي إن حكمت بينهم فاحكم بما أنزل الله. فإنّه عزّوجلّ خيّره ﷺ بين الحكم والإعراض عنهم في قوله تعالى: **﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾**، ويمكن القول بأنّ ذلك كان في وقائع خاصّة، أو قبل أن يأمره الله بالحكم بينهم بما أنزل، فإنّه القرآن المهيمن على الكتب، وشريعته ناسخة لجميع الشرائع، فلا موجب لاختصاص الضمير في (بينهم) باليهود ـ كما ذكره بعضهم ـ أو بأهل الكتاب. بل الأنسب التعميم بالنسبة إلى جميع الناس.

وكيف كان، فإنّ في تقديم (بينهم) الاعتناء بتعميم الحكم، كما أنّ في وضع الموصول موضع الضمير، التنبيه على علّية ما في حيز الصلة للحكم، والترهيب عن المخالفة.

قوله تعالى: **﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾**.

أي: بعد وضوح الحقّ فلا تتّبع أهواء الكافرين والمعاندين الزائفة، بالإعراض والعدول عمّا جاءك من الحقّ الذي لا مرية فيه، ولا يجوز العدول عنه، وذكر الحقّ للتأكيد على أنّ ما سواه باطل، وللدلالة على كمال الاجتناب عن اتّباع الأهواء، ونهي المعصوم عليه السلام عن اتّباع الأهواء إمّا لأجل تعليم الغير، أو لأنّ النهي لمَن لا يتصوّر منه وقوع المنهي عنه جائز لا إشكال فيه.

قوله تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾**.

بيان لحقيقة من الحقائق الاجتماعيّة.

وأساس هذه الحقيقة هو اختلاف استعداد أفراد الإنسان ولياقتهم، فإنّ الله تعالى لم يخلقهم شرعاً سواء في القابلية والاستعداد والملكات، والآية الشريفة بمنزلة التعليل لما ورد قبلها من الأمر والنهي، وفيها التأكيد على متابعة الرسول ﷺ والانقياد لحكمه بما أنزل الله تعالى، لأنّ السابق وإن كان منهاجاً وشريعة، إلّا أنّ الذي كلّفوا به هو ما جاء به الرسول الأعظم، فإنّه الحقّ دون غيره ممّا نسخته هذه الشريعة التي هي أكمل الشرائع وأتمّها وأجمعها، ولا وجه لأخذ الناقص، ولا سيما أنّ الإنسان لم يبق على واحدة، فهو في طريق الاستكمال والترقّي. ومادّة (شرع) تدلّ على السبيل الموصل إلى المطلوب، ومنه شريعة الماء، أي الطريق الموصل إليه، ومنه أيضاً: ما شرعت فهي من شيء فهو شريعة، ومنه: شرع سواء، إذا تساوى القوم في أمر، وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في ما يقرب من خمسة موارد:

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا**﴾[١].

وقال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً**﴾[٢].

والشرع مصدر ثمّ جعل اسماً للطريق والنهج، فقيل: يشرع وشرع وشريعة، وتطلق على المادّيات كما عرفت في شريعة الماء، وفي المعنويّات، يقال: شريعة الله، وهي الطريقة الإلهيّة الموصلة إلى الحياة الأبديّة، وهي التي تطهّر العامل من درن المعاصي والأوساخ المعنويّة، كما يطهّر الماء الأوساخ الظاهريّة.

وكيف كان، فقد اختلفوا في معنى الشريعة، والظاهر أنّ المراد منها هي الطريقة العمليّة التي تهدي الإنسان إلى إقامة دين الله تعالى، فتختصّ بالأحكام

---

١. سورة الجاثية: الآية ١٨.

٢. سورة الشورى: الآية ١٣.

العمليّة من الأحكام والفرائض والحدود، وأمّا الدين، فهو أوسع وأشمل من حيث يشمل جميع جوانب الحياة، ويدلّ على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾[١]، فإنّه عزّوجلّ أنكر عليهم التشريع في الدين بغير إذن الله تعالى، فكانت الشريعة حصّة خاصّة من الدين، بها يتديّن المرء، ولذا استعملت هذه الكلمة في خصوص تلك الأديان الإلهيّة السابقة التي شرّعت فيها أحكاماً وفرائض ممّا ذكره عزّوجلّ في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢]، هذا ما يتعلّق بالشريعة، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى. وأمّا المنهاج فأصله الطريق الواضح البيّن، ومنه طريق نهج، أي بيّن واضح، وأنهج الأمر ونهج،إذا وضح. ومنهج الطريق، ومنهاجه.

وقيل: هو الطريق الواضح في الحياة، فإنّ لكلّ قوم عاداتهم وتقاليدهم وسننهم في الحياة، ممّا لم تنسخه الشريعة ولم يردع عنها الله تعالى.

والحقّ أنّ المنهاج هو الطريق الموضح للشريعة، فيكون تابعاً لها، أي لطريقة الهداية التي يهدي سالكها إلى الصلاح وتزكية النفوس. ومن هنا جاء في بعض الأخبار: «إنّ المنهاج السنّة، والشرعة السبيل، وأمر كلّ شيء بالأخذ بالسبيل والسنّة»، وهما مختلفان باختلاف استعداد البشر وأحوال الاجتماع.

والمراد من الجعل في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾، الجعل التشريعيّ التابع للجعل التكوينيّ كما عرفت.

والمعنى: جعلنا لكلّ أمّة من الناس شريعة ومنهاجاً لا يمكن أن تتخطّاها،

---

١. سورة الشورى: الآية ٢١.

٢. سورة الشورى: الآية ١٣.

والاختلاف وإن كا في الفرع والأحكام العمليّة ، ولكن الشرائع كلّها اتّفقت على أصل الدين وجوهره ، وهو المبدأ والمعاد ، أي توحيد الله تعالى والدعوة إليه وتسليم الوجه له ، والأنبياء مهما اختلفوا في الأحكام الفرعيّة ، إلّا أنّهم اتّفقوا في ذلك ، والآية لا تدلّ على بطلان شرع مَن قبلنا ، كما زعمه بعض المفسّرين ، فانها ليست في مقام بيان هذه الجهة ، فقد تتّحد الشرائع في كثير من الأُمور ، وإنّما تختلف فيما يرجع إلى استعداد البشر وحال الاجتماع والظروف التي تحيط بكلّ أُمّة ، وقد تبادلت الشرائع فيما بينها واختلفت في الأخذ والعطاء ، فأخذت شريعة خاتم الأنبياء ﷺ الملّة الحنفيّة التي جاء إبراهيم عليه السلام ، وأقرّت كثيراً من الأحكام التي نزلت في بقيّة الشرائع الإلهيّة ، فإنّ طريق الهداية واحدة، وإن اختلفت المسالك إليها .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ .

بيان للسبب في اختلاف الشرائع ، أي ولو شاء الله تعالى أن يجعلكم أيها الناس أُمّة واحدة بأن يخلقكم مع استعداد واحد لا اختلاف في القابليات ، فتتّحد جميع الشرائع والمناهج ، فيكون المراد من الجعل هو الجعل التكوينيّ ، بمعنى خلقهم على مستوى واحد من الاستعداد والتهيؤ والقابلية ، لا أن يكون المراد منه النوعيّة الواحدة ، فإنّ الناس أفراد نوع واحد ، أي لم يخلقهم كسائر أنواع الخلق يقفون عند استعداد واحد ، بل اختلفت العطايا الإلهيّة والفيوضات الربّانيّة لأفراد هذا النوع ، فجعلهم على تفاوت كبير في القابلية والاستعداد ، فاقتضى ذلك أن تختلف الشرائع والمناهج ، لتتمّ سعادتهم وتكون سلّماً لارتقائهم درجات الرقي والكمال ، والأُمم التي اختلفت الشرائع فيها قد ذكرها عزّوجلّ في قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[1] .

---

١ . سورة الشورى : الآية ١٣ .

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

تعليل لما سبق وبيان لأحد وجوه الحكمة في تردّد الشرائع، أي لمّا كانت العطايا الإلهيّة لأفراد نوع الإنسان مختلفة ومتفاوتة لجهات كثيرة وحكم متعدّدة، فكان لابدّ من تعدّد الشرائع طبقاً لمراتب الاستعداد والقابليات، والعلّة في ذلك هي أنّ إرادته تعالى تعلّقت بأن يكون ذلك امتحاناً لكم فيما أنعم عليكم من الأحكام والتكاليف المجعولة، ومعرفة مقدار صبركم على الطاعة وصبركم عن المعصية، ويتميّز الصالح منكم عن الطالح، والمحسن عن المسيء.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

بيان لحقيقة واقعيّة دخيلة في تشريع الشرائع، ودعوة إلى التحلّي بالفضائل ومكارم الأخلاق، بعد بيان وجه من وجوه الحكمة في اختلاف الشرائع التي أنزلها عزّوجلّ في سبيل سعادة الإنسان، إلى أن وصلت إلى شريعة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله التي حازت قصب السبق على جميع الشرائع، فصارت حاوية لجميع الكمالات المعنويّة والظاهريّة، فإذا كان أمر الشرائع هكذا فابتدروا بالالتزام بما جاء فيها من الأحكام التي في خيركم وصلاحكم، وانتهزوا الفرصة بالمسارعة بالعمل بها، فإنّ ذلك هو المقصود من تلك الشرائع، فلا تشغلوا أنفسكم بما جاء فيها من الاختلاف، فإنّه إعراض عن الهدى واتّباع للهوى، و(الاستباق) أخذ مسبق، و(الخيرات) اسم جامع لكلّ الفضائل والمكارم، وما يرجع إلى صلاح الإنسان وسعادته، وما ينفعه في الدنيا والآخرة، وإتيانه جمعاً إمّا لأجل تعدّد الشرائع، أو تعدّد الخير في الشريعة الختميّة، فتكون زيادة في الدعوة إلى الإيمان بها، ويؤيّد الأخير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا...﴾[1]، وتقدّم التفسير فراجع.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

قوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

تعليل لاستباق الخيرات، وفيه وعد للمؤمنين الذين استبقوها وبادروا إلى طلب مرضاته عزّوجلّ، ووعيد لمن شغل نفسه بما كان سبباً في شقائها، فإنّ الجميع ترجعون إليه عزّوجلّ فينبئكم بحقيقة ما كنتم فيه تختلفون، ويحكم بالحكم الفاصل بين المحقّ والمبطل، ويجد كلّ امرئ منهم جزاء عمله، إن خيراً فخيراً وإن شرّ فشرّاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾.

بيان للقسم الأخير من أقسام الحكم والقضاء بين الناس التي تقدّم ذكرها، وهذا القسم يختصّ بالحكم بما أنزل الله تعالى، وهو الحقّ الذي لا محيص عنه، والعلم بأنّه حقّ، ومنه يعلم أنّه لا تكرار في المقام، فإنّ الآيات السابقة إنّما تضمّنت بقيّة الأقسام، فكان الأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى عقيبها لبيان الحكم الواقعيّ، ونفي ما عداه، مضافاً إلى أنّ آية المقام تأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى وتحذّر من اتّباع أهواء الناس، لأنّ الحق قد وضعت معالمه واستقرّت دعائمه وأركانه بنزول هذه الشريعة، فالواجب على الناس أجمعين أن يستبقوا الخيرات في تطبيقها.

وأمّا قوله تعالى في الآية السابقة ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فإنّه أمر بالحكم بما أنزل الله تعالى بعد بيان نوعية المخالفة، ويبيّن أنّ توليهم عنه كاشف عن إضلال إلهّي لفسقهم، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[1]، فيكون توطئه لهذه الآية، وهي توضح ما تضمّنته الآية السابقة وتبيّن ما أُجمل فيها، فإنّ إعراضهم عمّا أنزل الله

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٦.

تعالى إنّما هو لأجل كونهم فاسقين، وقد أراد الله تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. وممّا ذكرنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسّرين من تفسير الآية الشريفة، فإنّه من التطويل الذي لا طائل تحته.

قوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

تحذير أكيد له ﷺ من إضلالهم له ﷺ بالصرف عن بعض ما أنزل الله إليه، وقطع لأطماعهم فيه ﷺ، وإعادة ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ لتأكيد التحذير بتهويل الخطب. فإنّ لهم أساليب متعدّدة خفيّة وجليّة في إضلال الناس وإغوائهم، وقد حكى عزّوجلّ جملة منها في مواضع من القرآن الكريم، وكشف عن بعض أساليبهم الخبيثة التي لها تأثير كبير في هذا المجال، قد تخفى على كثير من الناس، إلّا مَن عصمه الله تعالى. ومنه يظهر أنّ أمره ﷺ بالحذر عن فتنتهم مع كونه معصوماً، إمّا لأجل إعلامه ﷺ بفظاعة الأمر وشدّته، فإنّ فتنتهم له بالصرف عن بعض ما أنزل الله إليه ولو كان أقلّ قليل، هو عظيم عند الله تعالى، أو لأجل التأكيد له بأنّهم جادون في إضلاله ﷺ ولو كان في أقلّ قليل من الحكم، ولهم في ذلك أساليب متعدّدة، أو لأجل تعليم غيره ﷺ من اُمّته من الحذر منهم، أو لأجل بيان أنّ العصمة فيه لا توجب سقوط التكاليف عنه ﷺ، فهو مختار في كلّ فعل، إلّا أنّ العلم الذي علّمه الله تعالى يمنعه من ارتكاب السوء والفحشاء، وقد تقدّم الكلام في ذلك فراجع.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

تطييب لنفس الرسول الكريم، وإرشاد له ﷺ بأن لا يحزن إذا تولّوا عن الدعوة، وأعرضوا عن قبول ما أنزله الله تعالى، فإنّهم غير معجزين الله تعالى، وأنّ حكمه نافذ وسيحاسبهم على ما أجرموا، والآية الشريفة تبيّن ضلالهم بعدما

بيّنت أنـّهم فاسقون، قد خرجوا عن طاعة الله تعالى، عندما أعرضوا عـن قـبول حكمه، وفي قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾، إيماء إلى أنّ توليهم هذا إنّما هو بتسخير إلهيّ، لأنـّهم سلبوا التوفيق عن أنفسهم بالإعراض عمّا أنزله الله تعالى، فلا موجب للحزن عليهم بعدما اختاروا ذلك بأنفسهم بالإعراض عمّا أنـزله الله تعالى، كما يدلّ عليه قوله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾[1].

فإنّه يدلّ على أنّ الله إنّما خلق الدنيا ومـا فـيها لأجـل اخـتبار الإنسـان وامتحانه في قبوله الحقّ، وتمييز المحسن الذي أحسن عملاً، عن المسيء الذي أساء في عمله، فهو الذي يختار أحد الطريقين، وقـد بـعث الله تـعالى الأنـبياء والمرسلين مبشّرين ومنذرين، لينيروا لهم الطريق، فلا موجب للحزن عـليهم، وإنّما ذكر عزّوجلّ: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، وهو ذنب التولّي والإعراض الذي هو ذنب عظيم، إيذاناً بأنّ لهم ذنوباً، فهذا واحد من جملتها، وإيماءً بتغليظ العقاب، فإنّه يكفي أن يؤخذوا ببعض ذنوبهم، أيّ بعض كان، فـيهلكوا أو تسـوء عـاقبتهم، فيكون الإبهام لتعظيم ذنب التولّي. وفي الآية الإشارة أيضاً إلى كمال لطفه بعباده، بأنّه لا يأخذهم بجميع ذنوبهم دفعة واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

تعليل لما سبق، أي أنّ الله تعالى إنّما أضلّهم ويـصيبهم بـبعض ذنـوبهم، لأنـّهم فسقوا عن أمر ربّهم، وأعرضوا عن قـبول مـا أنـزله الله، وفـيه التسـلية

---

١. سورة الكهف: الآية ٦ـ٨.

للنبيّ ﷺ عن امتناع القوم من الإقرار بنبوّته ﷺ وإعراضهم عن قبول الحقّ، فإنّ أهل الإيمان قليل وأهل الفسق كثير، فلا ينبغي أن يحزن ويعظم ذلك عنده، كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

إنكار وتوبيخ وتعجيب من حالهم، فإنّ التولّي عن حكم الله عجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب، وفيه إشارة إلى أنّه ليس وراء ما أنزله الله تعالى إلّا حكم الجاهلية، فإذا تولّوا عن حكم الله عزّوجلّ، فليس هناك إلّا حكم الجاهليّة الذي يبتني على اتّباع الهوى، ومتابعة النفس الأمّارة، ويستفاد من الآية الشريفة أنّهم يعلمون أنّ ما أنزل الله تعالى هو الحقّ، فإذا تولّوا عنه فإنّما يبغون حكم الجاهلية وهذا شيء عجيب، ولذا جاءت الجملة تفريعاً على ما سبق بنحو الاستفهام، وقد تقدّم الكلام في مادّة (بغى) التي تدلّ على الطلب، كما أنّ المراد من الجاهليّة هي كلّ ملّة باطلة وحكم جائر، الذي يكون منشأها العناد واللّجاج والإعراض عن الحكم الحقّ، اتّباعاً للهوى. وقد ورد في الحديث: «انّ الحكم حكمان، حكم الله، وحكم الجاهليّة»، كما ستعرف.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً﴾.

إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه عزّوجلّ، فلا أحد أحسن حكماً من الله تعالى، ولا ريب في أنّه لا يُتبع حكمٌ إلّا لحسنه.

وإنّما أُطلق الحسن، لأنّ حكم الله تعالى يجمع حسن الدنيا والآخرة، يجتمع فيه جميع أنحائه.

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

تقرير لما سبق، واللّام إمّا بمعنى عند، أو للبيان متعلقة بمحذوف كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[١]، و«سقياً لك»، أي إنّما يتبيّن حسن الأحكام وقبحها لقوم يؤمنون ويتدبّرون الأمور، وأمّا غيرهم فلا يعلمون ذلك. وإنّما أخذ عزّوجلّ صفة اليقين للإعلام بأنّهم لو صدقوا في دعواهم الإيمان بالله تعالى، فلابدّ أن يذعنوا لأحكامه وآياته ولا يبغوا غيرها، وينكروا بأن يكون أحد حكمه أحسن من حكم الله عزّوجلّ.

***

١. سورة يوسف: الآية ٢٣.

بحوث المقام

بحث أدبي:

اللّام في الكتاب ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ للعهد والتعظيم، كما أنّ اللام في قوله تعالى: ﴿مِنْ الْكِتَابِ﴾ للجنس، ويصحّ أن تكون للعهد، أي تلك الكتب المعهودة، ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال مؤكّدة من الكتاب.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقاً...﴾ حال أُخرى من الكتاب.

وأُشكل على ذلك: بأنّه لا يصحّ كونه حالاً ممّا ذكر، إذ لا يكون حالان لعامل واحد، وهي حال من الضمير المستكن في الجارّ والمجرور قبله.

وتقدّم الكلام في معنى المهيمن، وفعله هيمن والهاء أصليّة، وله نظائر مثل بيطر، وخيمر، وسيطر، وزاد بعضهم: بيقر وشيطن، وحيعل وفيصل.

وقيل: إنّها مبدلة من الهمزة، ومادّته من الأمن، كمهراق، فقالوا: إنّ المهيمن أصله مؤمن، وهو من أسمائه عزّوجلّ، فصغّر وأُبدلت همزته هاء، وأبطله جمع آخرون، بل جعلوه كفراً، لأنّ أسماء الله تعالى لا تصغّر، وكذا كلّ اسم معظّم شرعاً.

وتقديم (بينهم) في قوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾، للاعتناء بتعميم الحكم لهم.

ووضع الموصول موضع الضمير في قوله تعالى: ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾، تنبيهاً على علّية ما في حيزّ الصلة، وترهيباً عن المخالفة.

واللّام في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾، للاختصاص. و(منكم) متعلّق بمحذوف وقع صفة لما عوّض عن التنوى، أي ولكلّ أُمّة كائنة منكم.

وأشكل على ذلك بعضهم: بأنّه لا تجوز الوصفية ، لأنّه يوجب الفصل بين الصفة والموصوف بالأجنبي ، كما يوجب الفصل بين الفعل (جعلنا) ومعموله ، وهو (شرعة).

وأُجيب عنه في المطولات، فراجع .

قوله تعالى : ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ ، استئناف مسوق للتعليل لا ستباق الخيرات بما فيه الوعد والوعيد ، و(جميعاً) حال من الضمير المجرور .

وقوله تعالى : ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ :

قيل : إنّه عطف على الكتاب ، والتقدير : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وقولنا احكم .

وقيل : إنّها عطف على الحقّ ، ولا حاجة إلى تقدير القول .

وقيل : إنّهما جملة مستأنفة اسميّة ، بتقدير مبتدأ ، أي وأمرنا أن احكم .

والحقّ : إنّها جملة مستأنفة تفيد التأكيد على تثبيت حكم الله تعالى، واتّباع الكتاب والحكم بما ورد فيه .

والفاء في قوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ للعطف على مقدّر يقتضيه المقام ، أي يتولّون عن قبول حكمك بما أنزل الله إليك ، فيبغون حكم الجاهليّة ، وقيل : محلّ الهمزة بعد الفاء ، وإنّما قدّمت لأنّ لها الصدارة ، وتقديم المفعول (حكم) للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجّب ، والمشهور أنّ (افحكم) مبتدأ و(يبغون) خبره ، والعائد محذوف . وقيل : الخبر محذوف والمذكور صفته ، أي حكم يبغون ، ولكن استضعف حذف العائد من الخبر . وأُجيب عن ذلك بأنّه جاء الحذف منه كما جاء الحذف من الصفة والصلة .

وكيف كان ، فإنّ في الآيات موارد من الالتفات يظهر للمتمعّن فيها .

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾**، على شرف القرآن الكريم وعظيم منزلته وفضله على جميع الكتب الإلهيّة. فقد تشرّف هذا الكتاب وتعظّم بالنزول من عنده عزّوجلّ، فقال تعالى **﴿وَأَنزَلْنَا﴾**، وقد ذكرنا في المباحث السابقة أنّ كلّ مورد كان فيه نوع اهتمام، وأراد عزّوجلّ إظهار القدرة والمهابة والعظمة فيه أسنده إليه بنون العظمة كما في المقام، ثمّ أسنده إلى الرسول الكريم الذي بانَ فضله على جميع الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى **﴿إِلَيْكَ﴾**، والتأكيد على كونه بالحقّ في جميع شؤونه لا يأتيه الباطل بجميع أنحائه، ثمّ بيّن عزّوجلّ بعض خصائصه في كونه مصداقاً لما بين يديه من الكتاب، لأنّه نازل من الله أيضاً، وفيه من الأحكام الإلهيّة والمعارف الربوبيّة، وكونه مهيمناً على جميع الكتب الإلهيّة، ولا ريب أنّ الهيمنة التي ذكرها عزّوجلّ في صفات القرآن الكريم هي من جميع الجهات، فهي هيمنة رقابة، فما في تلك الكتب إن طابق ما في القرآن العظيم، أُخذ به، وإلّا فلا يمكن الاعتماد عليه، كما أنّها هيمنة علميّة، فإنّ ما ورد في القرآن الكريم يفوق على جميع الكتب الإلهيّة، فإنّ فيه تفصيل كلّ شيء، ولعلّه لهذا أمر عزوجل نبيّه الكريم بالحكم بما أنزل فيه، والإعراض عمّا سواه، والحذر منهم بأن لا يضلّوه باتّباع أهوائهم، فإنّهم ذوو أساليب متنوعة في إظلال الناس.

ثمّ إنّه عزّوجلّ اهتمّ بالقرآن الكريم في هذه الآية الشريفة بما لم يهتم بغيره من التوراة والإنجيل اللّذين تقدّم ذكرهما، فمن جميع ذلك يستفاد أنّ الكتب الإلهيّة السابقة إنّما هي مقدّمات لهذا الكتاب العظيم، وأنّه يعتبر آخر حلقة من حلقات الكمال، فليس من المعقول الإعراض عنه والتغاضي عن معارفه وأحكامه، فلا كمال إلّا بالرجوع إليه وتطبيق أحكامه وشرائعه.

الثاني : يدلّ قوله تعالى : ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ ، على انحصار الحكم والقضاء بين الناس بما ورد في القرآن الكريم وأنّه الحقّ ، فلا يجوز الحكم بغيره وإن كان حكماً في الكتب السابقة ، إلّا ما قررّته الشريعة الإسلاميّة . ويؤكّد ذلك النهي عن اتّباع أهوائهم التي لها مظاهر مختلفة ، منها تحريف الكتب الإلهيّة وتغييرها وتبديلها ، وغير ذلك ممّا حكى القرآن الكريم عنه في مواضع متعدّدة ، وتقدّم بعض الكلام فيه .

الثالث : يدلّ قوله تعالى : ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾ ، على حقيقة واقعيّة داخلة في صميم خلق الإنسان ، وهي اختلاف أفراد الإنسان في الاستعداد وقبولهم للكمالات ، فإنّ لكلّ فرد أو طائفة من الناس شرعة خاصّة، ومنهاجاً معيّناً ينهجه في حياته العمليّة ، والظاهر أنّ الشرعة والمنهاج يشيران إلى ما تقوم به حياة الإنسان الماديّة والمعنويّة والدنيويّة والأُخرويّة ، فإنّ سعادته لا تتحقّق إلّا بتطبيقها على الوجه المطلوب .

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ للكمال درجات متفاوتة، لا يقتصر على طائفة معيّنة ونوع خاصّ وأمر معيّن ، فلا كمال إلّا وفوقه كمال آخر حتّى يصل إلى الكمال المطلق ، وهو الله تعالى الذي لا كمال فوقه أبداً ، وأنّ الله عزّوجلّ قادر على أن يجعل الإنسان أُمّة واحدة، تقتصر على كمال معيّن خاصّ لا ترى سعادتها إلّا في الوصول إلى ذلك الكمال المعيّن ، كما بالنسبة إلى الحيوانات ، فإنّها لا ترى سعادتها إلّا في درك تلك اللذّة الوقتيّة ، ثمّ بعد الوصول إليها تبقى جامدة حتّى تعود إليها الغريزة مرّة أُخرى ، بخلاف الإنسان فإنّه يختلف في خلقه وتركيبه عن سائر المخلوقات ، ففيه استعداد كبير في نيل الكمالات ، فإذا وصل إلى كمال استعدّ إلى نيل كمال آخر ، ولا يحدّه عن ذلك إلّا الحوادث الكونيّة وصوارف الدهر . وكمال كلّ فرد بحسب استعداده اللّائق به ، فهذه الآية الشريفة من أ-ـلم الآيات التي تبيّن حقيقة الإنسان من حيث حياته العمليّة ، وهي من أهمّ

الآيات التي تبني أهمّ أُسس علم الاجتماع، وعلى علماء هذا العلم دراسة هذه الآية الكريمة بدقّة وتمعّن، فإنّ فيها كنوزاً، ويفتح منها أبواب من العلوم والمعارف.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، على أنّ الكمال الذي يسعد الإنسان إنّما يكون في الخيرات، فلابدّ أن تكون غاية سعيه ومجده في هذه الحياة. وهي الغاية الحميدة التي لابدّ أن يتسابق إليها، لأنّها الجامعة لجميع الكمالات. وإطلاق الآية يشمل كلّ خير. وقد ذكر عزّوجلّ في القرآن الكريم مصاديق مختلفة للخير في مواضع متفرّقة، وهي تشمل جميع الأحكام الشرعيّة والفضائل والمكارم، وغيرها من الأُمور التي لها المدخليّة في سعادته.

وهو يدلّ أيضاً على أنّ اختلاف الشرائع لابدّ أن يكون سبباً للتنافس في الخيرات، لا سبباً للعدواة والبغضاء، كما أنّه يدلّ على حرية الإرادة في الإنسان.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾، أنّ آثار الاستباق إلى الخيرات إنّما تظهر في يوم القيامة، يوم الرجوع إلى الله تعالى والحشر إليه، ويوم الجزاء أو الحقّ، فيجزي المستبقين إلى الخيرات الجزاء الحسن، ويجازي الذين يختلفون في هذا الأمر على أفعالهم.

كما يستفاد من الآية الشريفة أنّ الاستباق إلى الخيرات هي الوحدة الجامعة لجميع الشتات التي تجتمع فيها جميع الكمالات، وتطرح فيها كلّ فرقة واختلاف، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، فهذه الآية الشريفة من الحقائق الواقعيّة التي لابدّ أن يتأمّل الإنسان في خصوصيّاتها، ويتسفيد منها في حياته العلميّة والعمليّة، ولأجل أهمّية هذه الآية الكريمة في حياة الإنسان، فقد ذكر فيها عزّوجلّ الضمان على نفسه، فبيّن فيها الجزاء الفاصل بين الحقّ والباطل الذي لا يبقى معه شك في أمر الدين والدنيا.

السادس: يستفاد من قوله تعالى **﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾**، أهمّية الحكم في حياة الإنسان، فقد تكرّر الأمر منه عزّوجلّ لنبيّه الكريم بالحكم بينهم بما أنزل الله تعالى، الذي يعلم مصالحهم ويعرف خصوصيّاتهم وجميع شؤونهم، فلا يحكم إلّا بالحقّ ولا ينزل إلّا ما يكون في صلاحهم وسعادتهم، ولأجل دقّة الموضوع وخطره، فقد نهى عزّوجلّ عن اتّباع الأهواء التي هي أُمّ الرذائل وأساس كلّ فساد، لا سيما في هذا الأمر الخطير الذي قلّما يسلم منه أحد إلّا من عصمه الله تعالى، كما يدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾**، واتّباع الأهواء من موجبات الفساد، وله مظاهر مختلفة وصور متعدّدة، ذكر عزّوجلّ جملة منها في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم وبيّنتها السنّة الشريفة.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾**، لطف الله تعالى بعباده، حيث لا يأخذهم بجميع ذنوبهم دفعةً واحدة.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾**، أنّ ما سوى حكم الله تعالى هو حكم الجاهليّة الذي لا يفي بالأغراض، ولا يوصل إلى المطلوب، ولا يسلم من اتّباع الأهواء، ولا يرفع الخلاف، بل يوجب الفرقة والاختلاف، كما حكى عزّوجلّ عنه في آيات متفرّقة.

***

بحث روائي:

في «الكافي» عن هشام بن سالم بن سليمان، عن خالد، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾**، قال عليه السلام: «لا يحلف اليهوديّ ولا النصرانيّ ولا المجوسيّ بغير الله، إنّ الله يقول: **﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾**».

أقول: ومثله ما رواه العيّاشي أيضاً، وما ورد في الرواية إنّما هو من باب

التطبيق، فإنّه بعد أن أمر بالحكم بما أنزل الله تعالى بينهم، فلا يجوز الحلف بغيره تعالى.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾، قال: «لكلّ نبيّ شريعة وطريق».

أقول: المراد منه أنّ المنهاج هو السبيل الذي يتّخذه كلّ نبيّ في هداية قومه، ويختلف كلّ نبيّ عن آخر بما يختصّ به من مميزات شخصيّة أو نوعيّة.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى أيضاً: «والمنهاج سبيل وسنّة، قال عليه السلام: وأمر كلّ نبي بالأخذ بالسبيل والسنّة. وكان من السبيل والسنّة التي أمر الله بها موسى أن جعل عليهم السبت».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بذلك، وهذا الحديث يؤكّد ما ذكرناه من أنّ الطريق هو السبيل الذي يتّخذه كلّ نبيّ في هداية قومه الذين يختلفون كمّاً وكيفاً، وفي سائر الخصوصيّات.

وفي «الكافي» أيضاً عن الصادق عليه السلام، قال: «القضاة أربعة، ثلاثة في النار وواحد في الجنّة، رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالجور وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحقّ وهو لا يعلم فهو النار، ورجل قضى بالحقّ وهو يعلم فهو في الجنّة».

وقال عليه السلام: «الحكم حكمان، حكم الله وحكم الجاهليّة، فمن أخطأ حكم الله حَكَم بالجاهليّة».

أقول: في ذلك روايات متعدّدة عن الفريقين مذكورة في كتب التفسير، والآيات الشريفة تدلّ على ذلك، فقد أمر عزّوجلّ نبيّه الكريم بالحكم بينهم بما أنزل الله، فهذا يختصّ بحكم الله تعالى، ثمّ أمره عزّوجلّ ثانياً بالحكم بينهم بما أنزل الله، ونهاه عن اتّباع أهوائهم كما جاء من الحقّ، فهو يدلّ على أنّ ما سوى حكم الله تعالى هو من اتّباع الهوى الذي نهاه عزّوجلّ عنه، هو يشمل الأقسام

الثلاثة، الحكم بالجور مع العلم به، والحكم بالجور مع عدم العلم به، فإنّه جور أيضاً بالملازمة، والحكم بالحقّ مع عدم العلم به، لفقد شرط الحكم بالحقّ الذي هو العلم بكونه حقّاً، و إلّا كان حكماً بالجور الذي هو من اتّباع الهوى، ويشمل الجميع حكم الجاهليّة الذي هو في مقابل حكم الله تعالى مقابلة واقعيّة، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في كتاب القضاء من (مهذب الأحكام) فراجع.

وفي «الكافي» عن الصادق عن أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليهما ـ: «الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهليّة، فمن أخطأ حَكَم بحكم الجاهليّة، وقد قال الله عزّوجلّ **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**».

***

بحث فقهي:

الآيات الشريفة المتقدّمة من أهمّ الآيات القويمة التي تدلّ على مشروعيّة القضاء والحكم بين الناس، وتذكر دعائهما في الإسلام، وهي الحكم والقاضي والمقضي عليه، وقد أكّد عزّوجلّ عليها وذكر خصوصياتها، ففي الحكم قال عزّوجلّ: **﴿وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾**، وهو يدلّ على وجوب الحكم بين الناس بما أنزله الله تعالى، فيختصّ بالعالم بكونه ممّا أنزله الله تعالى، وهو حكم الله.

ويستفاد منه أنّ غير ذلك هو ممّا لم ينزله الله تعالى، فيكون حكماً جاهليّاً. وهو يشمل الحكم بالجواز عالماً به أو غير عالم، والحكم بالحق مع الجهل به، والثلاثة حكم الجاهليّة الذي أنكره عزّوجلّ غاية الإنكار في قوله: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾**.

ولعلّ ما ورد في الروايات من أنّ الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهليّة، وما ورد في تقسيم الحكم والقضاة إلى أربعة ـ كما عرفت سابقاً ـ كلّ ذلك مأخوذ من هذه الآيات الشريفة.

وفي القاضي ذكر عزّوجلّ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، وهو يدلّ على وجوب الحكم بالحقّ الذي يثبت بالطرق الشرعيّة المعروفة، فلا يجوز اتّباع الهوى الذي هو خارج عن الطرق الشرعيّة، ويشمل ذلك جميع ما رود في آداب القاضي والقضاوة في الإسلام. منها: وجوب الإنصاف والإنصات والتسوية بين الخصوم ونحو ذلك. وأمّا الميل القلبي مع الحكم بين الخصوم بالحقّ، فالآية الشريفة لا تشمله وإن دلّت بعض الروايات على كراهته أيضاً، بل وحرّمته في بعض الموارد.

وبيّن سبحانه وتعالى أنّ عدم الحكم بما أنزله الله يجعل القاضي كافراً أو ظالماً أو فاسقاً. وفي المقضي له أو عليه فقد ذكر عزّوجلّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، فإنّه يدلّ على لزوم مراعاة الحكم ووجوب الإذعان للحكم، فإنّه الحقّ الذي ينبغي اتّباعه، وإلّا كان ظالماً لنفسه فيصيبه الله بذنبه، بل يدلّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أنّ اليقين في الأحكام الربوبيّة من مقامات العبوديّة.

***

بحث عرفاني:

إنّ السلوك إلى الله تعالى، والطريق إليه عزّوجلّ له مظاهر مختلفة، وسبل متعدّدة تختلف حسب استعداد كلّ فرد، ولكن لابدّ أن يكون موافقاً للشرع وحكم الله تعالى، وإلّا فلا يكون الطريق موصلاً إليه عزّوجلّ. ولعلّ ما ورد في الآيات الشريفة السابقة إشارة إلى ذلك، فقد نزل في القرآن الكريم من الأحكام التكاليف والكمالات ما استوعب جميع الجوانب الظاهريّة والمعنويّة للإنسان، ممّا جعلته مهيمناً على سائر الكتب الإلهيّة فأصبح فريد نوعه، فصار غاية للسالكين وأنيساً للمستوحشين ومجمعاً للخيرات، ففيه السبق وبه المسابقة، وعن طريقه تستكمل النفوس وتتخلّى عن الرذائل، ولأجل هذا أمر

سبحانه نبيّه الكريم بالحكم بينهم بما أنزله فيه، بعد أن حكم عليه بأنّه المهيمن على جميع الكتب، فإذا ثبتت له الرقابة الإلهيّة، فلابدّ أن تمرّ منه الطرق، وتستنير به النفوس، فإنّه وإن كان لكلّ واحد منكم شرعة لتهذيب النفوس ومنهاج للوصول إلى الكمالات، واجتياز المراحل حتّى الوصول إلى الكمال المطلق، إلّا أنّها لابدّ أن تتوجّه إلى ما أمر الله تعالى به، وهذا هو مطلوب العارف بالله الذي به يختلف عن غيره، فاستبقوا الأُمور الموصلة لكم إلى الكمال، حتّى يستفيض كلّ بحسب استعداده، ويستنير بما له من القابلية، ولا خير إلّا فيما أنزله عزّوجلّ، فإنّه الموصل إليه، وبه ترجعون إليه فينبئكم بما أوجب اختلافكم وتفرّقكم عمّا فيه الخير لكم، فيظهر لكم آثار ما اقتضاه الاختلاف، وهنالك الوعد الحقّ، فلا تكون مظاهرهم سبباً للفتنة، ولا تكون موجبة للانحراف عن جادة الصواب، والإعراض عن ابتغاء الخير والوصول إلى الكمال، فإنّ الحكم هو حكم الله تعالى، ويكفي في الإعراض والنكوص أنّ الله يحرمه من لذّة الوصال، ويحجبه عن اللّقاء، ولذا كان أكثر الناس فاسقين؛ لأنّهم التفتوا إلى ذواتهم، فاشتبه عليهم حبّ الذات عن حبّ اللّقاء، فيحكمون على أنفسهم بالمحبّة والوصال ـ وشتّان ما بينهما ـ وهذا هو حكم صادر عن النفس الأمّارة، لا عن علم إلهيّ، فصار حكماً جاهليّاً.

فلا تلتفت في السير غيراً وكلّ ما سوى الله غير فاتخذ كرهه حصنا
وكلّ مقام لاتقم فيه أنّه حجاب فجد بالسير واستنجد العونا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

***

الآية ٥١ـ٥٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

الآيات الشريفة الثلاثة تبيّن أهمّ الأُمور الاجتماعيّة التي فيها حياة الإسلام واستقلال المسلمين وثبات عقيدتهم، فقد حذّر سبحانه وتعالى المؤمنين اتّخاذ اليهود والنصارى أولياء، واعتبر توليتهم ظلماً يسلب الهداية التي يحتاج إليها المسلم في حياته الظاهريّة والمعنويّة، وهدّدهم بأنّه من فعل ذلك يكون منهم، لا علاقة له بهذا الدين، ثمّ ذكر عزّوجلّ بعض صفات المنافقين الذين لم يبرح الإسلام والمسلمون يعانون منهم الأمرّين، يثبّطون العزائم، ويبثّون الأكاذيب لزلزلة العقائد، وإزالة الثبات والطمأنينة عن النفوس. ثمّ يبيّن حال اليهود والنصارى، والذين اتّخذوهم أولياء ينتصرون بهم على الإسلام ودين

الحقّ، أنـّهم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين.

والآيات الشريفة تبيّن حاجة المؤمنين إلى وليّ يعصمهم من أعـدائـهم، يطبق فيهم ما أنزله الله تـعالى، فـينهى عـن مـوالاة الكـافرين، ويـثبت مـوالاة المؤمنين، وإطاعة مَن جعله الله وليّاً يرعى شؤونهم ويدبّر اُمورهم، فكانت هذه الآيات وما بعدها حلقة وصل بين التشريع والتنفيذ، والضمان على تنفيذ أحكام الله تعالى وتشريعاته. فقد أمر عزّوجلّ في الآيات السابقة تنفيذ أحكام الله ومـا أنزله على رسوله والإعراض عن غيره. ويأتي في الآيات اللّاحقة أنـّه عزّوجلّ أمر المؤمنين باتّباع الرسول ومَن جعله الله وليّـاً عـليهم، يـنفذ فـيهم أحكـامه، ويسعى في تطبيق تشريعاته وأوامره، فكان لابدّ من الضمان على ذلك من الذين يعتبرون تهديداً على الإسلام والمسلمين، فنهى عن مولاة الكافرين والمنافقين اللّذين يتربّصون بدين الله الدوائر. ومن ذلك كلّه تعتبر هذه الآيات مـع سـابقتها ولاحقتها على ارتباط تامّ وصلة وثيقة، وكلّ آية منها في حـدّ نـفسها حـلقة لا يمكن الاستغناء عنها في تثبيت ما ورد فيها مـن الأحكـام، وتـأويلها إلى غـير ظاهرها، يكون إبطالاً لمعانيها السامية وأحكامها القويمة، ومـمّا ذكـرنا يـظهر فساد ما ذكره جمع في توجيه هذه الآيات، وصرفها عن معانيها على ما ستعرف.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾**.

خطاب تحبّب واهتمام بالمؤمنين، واعتناء بالموضوع اعتناءً بليغاً، وقـد تقدّم الكلام في مثل هذا الخطاب. ومادّة (أخذ) تدلّ على تناول شيء اعـتماداً عليه. ومنه: أخذ منه العلم، أي تناول منه معتمداً عليه في نقله. ومنه: الاتّـخاذ

الذي هو الاعتماد على شيء لإعداده لأمرٍ ما، وهو افتعال باب، والمعنى لا تعتمدوا على اليهود والنصارى مستنصرين بهم، تلقون إليهم بالمودّة والمحبّة، تعاشرونهم معاشرة الأحباب.

وقد ذكر عزّوجلّ في مواضع مختلفة من القرآن الكريم مظاهر لهذا الاتّخاذ، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾**[١]، كما حدّد سبحانه وتعالى المحبّة لهم، فقال: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[٢]، فإنّ المستفاد منه أنّ شروط المحبّة هي أن لا يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، ولم يظاهروا العداء للمسلمين.

وأمّا المحبّة، فلابدّ أن تقتصر على البرّبهم والقسط إليهم، فلا تشمل جميع أنواع المحبّة التي يجب تحقّقها بين أفراد المؤمنين. ومن ذلك يستفاد أنّ التعبير بالاتّخاذ في المقام له دلالته الخاصّة، لا سيما بعد ذكر المتعلّق، وهي الولاية.

وأمّا الولاية، فقد تقدّم الكلام في معناها، وذكرنا أنّ مادّة (ولي) تدلّ على التبعية وتحقّق شيئين أو أكثر حصولاً ليس بينهما ماليس منهما، ولذلك مصاديق مختلفة:

منها: الوليّ، وهو الذي يلي أمر غيره، فيكون تابعاً له، كوليّ اليتيم، ووليّ المرأة، ووليّ الأمر، ونحو ذلك. والتبعية تشتدّ وتضعف في الموارد، وقد اختلط على كثير هذه المراتب، فاعتبروا لكلّ مرتبة معنى خاصاً لها، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك.

ومنها: الصديق والقريب، إلى غير ذلك ممّا ذكروه، والجميع إنّما هي

---

١. سورة الممتحنة: الآية ١.

٢. سورة الممتحنة: الآية ٨.

مصاديق لهذه المادّة التي لها مراتب مختلفة شدّةً وضعفاً، فكلّما اشتدّت التبعية والقرب الذي له دواعي وأسباب متعدّدة، كانت الولاية شديدة، أعلاها الولاية التكوينيّة والتشريعيّة، الثابتان لله تعالى ورسوله وأولياء الله تعالى، وقد جمعت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، فتكون جهة الولاية هي الطاعة، وقد تكون من جهة التقوى والانتصار، فالوليّ هو الناصر، وإن كانت جهة الالتيام في المعاشرة والمحبّة التي هي الانجذاب الروحيّ. وإن كانت من جهة النسب، فالوليّ هو الذي يرثه من غير مانع يمنعه، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكروها في هذه المادّة التي هي إلى الدواعي أقرب، وقد ذكرنا ما يتعلّق بها في غير المقام أيضاً، فالولاية نوع اقتراب ومعاشرة مع شيء، توجب ارتفاع الموانع والحُجُب بينهما، ويختلف شدّة وضعفاً، كما تختلف من جهة الدواعي، وأعظمها ولاية الله تعالى لعباده المؤمنين التي هي أشدّ مراتبها، التي تجتمع فيها الكثير من الجهات والدواعي، ففيها النصرة والتقوى، والمحبّة والطاعة، والوليّ فيها هو الذي يحكم في أمره بما يشاء، وغير ذلك ممّا ذكروه.

والولاية قد تكون ولاية الانتصار، فحينئذٍ يكون الولي هو الناصر الذي لايمنعه شيء عن نصرة من اقترب منه، وقد تكون ولاية المحبّة التي هي الانجذاب، فالولي هو الذي لا يملك الإنسان نفسه دون أن ينفعل عن إراته، وقد تكون ولاية النسب الذي هو نوع اقتراب بين المنتسبين تكويناً، فالوليّ هو الذي يرث من الآخر من غير مانع يمنعه، وسيأتي مزيد بيان في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

وأمّا سياق الآية الشريفة، فهو يدلّ على أنّ المراد من الولاية هي ولاية النصرة والمحبّة، أي لا تعاشروا اليهود والنصارى معاشرة الأحباب، تلقون إليهم

---

١ . سورة المائدة: الآية ٥٥.

بالمودّة وتستنصرونهم في بعض شؤونهم، كما هو الأمر بالنسبة إلى ولاية المشركين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[1]، ويدلّ على ذلك ذيل الآية الشريفة التي تقيّد إطلاق صدرها، فيختصّ النهي عن تلك الولاية التي توجب المحبّة والخلطة بينهم، بحيث يستلزم النصرة والامتزاج الروحيّ، ويرشد إلى ذلك ما اعتذر به المنافقون الذين حكى عنهم عزّوجلّ: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، فتدور عليهم الدائرة فتصيبهم منهم ومن غيرهم الجور، فيتأيدون بنصرة اليهود والنصارى، ويتّخذونهم أولياء بالمحبّة والنصرة ليسلموا من دائرتهم ودائرة غيرهم. وقد نهى عزّوجلّ المؤمنين عن مثل هذه الولاية.

وممّا ذكرنا يظهر الإشكال في ما ذكره بعض المفسّرين في المقام، من أنّ المراد بالولاية ولاية النصرة التي تجري بين شخصين أو قومين التحالف والتعاهد على نصرة أحدهما الاخر عند الحاجة، كما كانت دائرة في الجاهليّة، فيختصّ النهي بجماعة المسلمين دون جملتهم، كيف وقد حالف النبيّ ﷺ يهود المدينة وقد أصرّ على ذلك وأنكر أشدّ الإنكار أن تكون ولاية المحبّة فقط، كما ذكره جمع كثير من المفسّرين، واعتبر كون الولاية بمعنى ولاية المحبّة ممّا تتبرّأ منهم الآية الشريفة في مفرداتها وأسلوبها، كما يتبرّأ منه سبب نزولها، والحالة العامّة التي كان عليها المسلمون وغيرهم في عصر التنزيل.

واستغرب أن تحمل الآية الشريفة على النهي عن المعاشرة معهم والاختلاط بهم وإن كانوا ذوي ذمّة أو عهد، وقد كان اليهود يقيمون مع النبيّ ﷺ ومع الصحابة في المدينة، وكانوا يعاملونهم بالمساواة التامّة.

والحقّ أنّ الآية الشريفة تدلّ على معنى أعظم ممّا ذكره، فإنّها تدلّ على

---

١. سورة الممتحنة الآية ١.

حكم اجتماعيّ له الأثر الكبير في حفظ كيان الإسلام والمسلمين، وعدم ضياع معالمهم، وحفظ أخلاقهم السامية، فإنّ النهي عن محبّتهم والتودّد إليهم يستوجب كراهة عقيدتهم، وأعمالهم المنافية مع تعاليم الإسلام الحنيف وعدم الاستنصار منهم، وقد غفل عمّا ترمز إليه الآية الشريفة، وما ذكره في توجيه مراده لا يمكن الاعتماد عليه، فإنّ الإسلام لم يضيّع حقّاً من حقوق أهل الأديان الإلهيّة التي تكون في بلاده، فإنّ التزامهم تنفيذ شروط الذمّة ممّا يجعلهم في مصاف الموادين للإسلام، وعدم صدور ما يغيض المسلمين أو يكرهه الإسلام. وما ذكره من براءة الآية بمفرداتها وأُسلوبها من ذلك فهو عجيب، فإنّ الآية بأُسلوبها الرفيع ودلالة سياقها وأجزائها تدلّ على أنّ المراد هو الأعمّ دون ولاية الحلف فقط، فإنّ قوله تعالى: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾، فإنّ ذلك كلّه يدلّ على أنّ المراد من الولاية الأعمّ، ويدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿**لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾[١]، فإنّه صريح في ذلك، ويزيد أنّ هذه الولاية المنهي عنها قد يحتاج إليها في موارد الضرورة، كما كان هناك معاهدات وأحلاف بين النبيّ ﷺ وبين اليهود والمشركين، فلو كانت مختصّة بولاية المحبّة فقط، لما كان وجه لجوازها عند الضرورة، فإنّ المحبّة القلبيّة لا تصل إليها الضرورة، كما في سائر الأُمور النفسيّة والقلبيّة، وسيأتي ما يرتبط بالمقام.

وبالجملة: الآية الشريفة تدلّ على النهي عن تولّي اليهود والنصارى بالمحبّة والنصرة، فإنّ مَن تولّى قوماً لحق بهم، وقد قيل: إنّ المرء مع من أحب، وتوجب الدخول في زمرتهم.

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢٨.

وإنّما ذكر اليهود والنصارى دون أهل الكتاب كما عبّر به في غير المقام، لبيان سبب المعاداة بينهم وبين المسلمين، وأنّه الأوهام الباطل، لا من حيث كتابهم، فإنّه لو عبّر به لكان فيه إشعار لقربهم من المسلمين نوعاً ما يوجب إثارة المحبّة، فلا يناسب النهي عن اتّخاذهم أولياء، هذا بخلاف ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾[1]. فإنّ توصيفهم باتّخاذهم دين الله هزواً يستدعي أن يكون الوصف، أي كونهم ذو كتاب، ذمّاً لهم ونقيصةً لا مدحاً، فإنّ كونهم ذوي كتاب تقتضي أن لا يتّخذوا دين الله هزواً ولعباً، فإنّ ذلك يكون ادعى لأنّ لا يتّخذوا أولياء.

قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

بيان وتأكيد لما سبق، وتعليل للنهي السابق في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾.

والمعنى: لا تتّخذوهم أولياء، لأنّهم مع تفرّقهم واختلافهم وشقاقهم ومضادّتهم وتنافرهم فيما بينهم، لكنهم أولياء في العون والنصرة على الحقّ وأهله، فقد اتّحدت أراؤهم، وتجاذبت نفوسهم بسبب تلك الولاية البغيضة التي ثبتت فيما بينهم على الاستكبار عن قبول الحقّ، واجتمعت كلمتهم على المعاداة له وإطفاء نور الله تعالى، وتناصرهم على النبيّ ﷺ والمسلمين، لأنّهم استرسلوا في اتّباع الهوى، وانغمسوا في مشتهيات النفس، فالكلّ متّفقون على الكفر، مجمعون على مضارّتكم ومضادّتكم، فلا يرجى منهم خير ولا نفع لكم في الاقتراب منهم بالمودّة والمحبّة، فلا يتصور بينكم وبينهم موالاة.

---

١. سورة المائدة: الآية ٥٧.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وعيد لمَن خالف النهي، وتهديد شديد مبالغة في الزجر. و(من) تبعيضية، والتولي: هو الاتّخاذ، أي ومن يتّخذهم منكم أولياء، فإنّه يكون من جملتهم وجماعتهم، ويكون حكمه حكمهم تنزيلاً، ومثل ذلك كثير، فإنّ ارتكاب نهي من المناهي الشرعيّة، أو إتيان فعلٍ من أفعال أعداء الله تعالى، أو ترك واجبٍ من الواجبات الإلهيّة، قد يوجب الكفر ويلحق المؤمن بالكافرين، وإن كان على الإيمان ظاهراً، لأنّ للإيمان والكفر مراتب متفاوتة وكثيرة، شدّة وضعفاً، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1]، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في أحد مباحثنا السابقة، فراجع.

والسرّ في هذا التنزيل، وإلحاقهم باليهود والنصارى، لأنّهم لم يسلكوا سبيل الهداية والرشاد الذي هو الإيمان، بل سلكوا سُبل أعداء الله تعالى، فكانوا من أهل دينهم وملّتهم، فيؤول أمرهم إلى ما يؤول إليه أمر الكافرين، فلا يعقل أن يقع ذلك من مؤمن صادق في إيمانه.

والآية الشريفة، إنّما تبيّن أصل التنزيل، وأما سائر الخصوصيات فلابدّ من الرجوع فيها إلى السنّة الشريفة، نظير قوله: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2]، فإنّه يدلّ على أنّ من خالف هذا الحكم يكون من الكافرين تنزيلاً، أما الأحكام الفرعيّة المترتّبة على هذا التنزيل، فلا يمكن أن تستفاد من إطلاق هذه الآيات، لأنّه لم يكن في مقام البيان من هذه الجهة.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

---

١. سورة يوسف: الآية ١٠٦.

٢. سورة آل عمران: الآية ٢٩٧.

تعليل للوعيد السابق، وبيان لجهة التنزيل، أي أنّ من يتولّاهم من المؤمنين لا يكون سالكاً سبيل الإيمان، بل هو ظالم مثل من تولّاهم، والله لا يهدي القوم الظالمين، فهم قد ظلموا أنفسهم، لأنّهم حرموها من الهداية الإلهيّة، وظلموا قومهم بمولاتهم للكفّار الذين نصبوا الحرب للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾.

تفريع على ما سبق، فإنّ من آثار عدم هداية الله تعالى للقوم الظالمين أنّهم يسارعون في الغواية والضلال وموالاة الكافرين.

ومرض القلب الذي اختصّ القرآن الكريم بذكره، من أسوأ الأمراض التي تصيب الإنسان، فإنّه يخرجه عن استقامة الفطرة والطريق السوي إلى الشكّ والريب اللّذين يستوليان على عقيدته ودينه وخلقه، فلا يمكن له أن يحصل ثبات واطمئنان واستقرار في إدراكاته الدينية، فيكون ضعيف الإيمان، متذبذباً فيه غير مستقرّ على خلق كريم، ويظهر أثره على عمله، فيصدر منه ما يناسب الكفر والنفاق، كما في المقام، فإنّك ترى أنّ مرضى القلوب يبتدرون في توثيق ولائهم مع الكافرين وتوكيده، فيسارعون في هذا الطريق مسارعة من يرغب في شيء ويجدّ في طلبه. وسيأتي في البحث الأخلاقيّ مزيد الكلام في هذا المرض العجيب والداء العضال.

قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِم﴾.

تقدّم الكلام في معنى المسارعة، وتختلف المسارعة في الشيء عن المسارعة إليه، فإنّ الأُولى حاصلة من الداخل في الشيء والثابت فيه المستقرّ، وإنّما كانت مسارعة من مرتبة إلى أُخرى، فهم إنّما يسارعون في مولاتهم للكافرين لزيادة تمكّنهم فيها وثباتهم عليها. بخلاف المسارعة إلى الشيء الداخل فيه من خارجه.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾.

بيان لبعض وجوه الضلال التي أوجبت المسارعة في مولاة الكافرين، وهي خشية وقوعهم في المصائب والدواهي، فيرجون منهم النصرة، فهم لم يسارعوا فيهم لخشية إصابة الدائرة عليهم، وإنّما يخشون إصابتها لهم فيستنجدونهم وتكون لهم يد عندما تدور الدوائر، وتكون للكافرين الدولة والسلطة الظاهريّة على المؤمنين، وهذا من آثار مرض القلب الذي أحاط بهم، فأخرجهم عن استقامة العقيدة وسلوك الطريق السويّ، فلم يوقنوا بوعد الله تعالى ونصرته للمؤمنين، ولم يعتقدوا بصدق وعد الله تعالى، ولم يفكروا إلّا فيما يرجع إلى نفعهم الظاهريّ، فأخطأ ظنّهم ولم يجنوا من دعواهم هذه إلّا الدخول في مسلك الكافرين والحلول معهم.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة، وهي ظهور الحقّ وغلبته على الباطل وزهوقه، وأنّ كلّ ظلم لابدّ أن يظهر فضيحتها، فينقطع رجاء كلّ من طمع بالباطل وتوسّل إليه بوسائل صوّرها بصورة الحقّ، وقد ذكر سبحانه وتعالى آنفاً أنّه: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فيفضحهم ويظهر للملأ بطلان ذرائعهم وفساد عقيدتهم، وفي المقام بيّن عزّوجلّ وعده للمؤمنين بالفتح والغلبة على الكافرين، بعد ما ذكر في الآية السابقة اعتذارهم عن موالاة اليهود والنصارى، وأنّهم يخشون الدائرة عليهم، فقد تولّوا أعداء الله تعالى وخالفوا النهي الإلهي، فلابدّ من إظهار كذبهم وكشف حقيقتهم بأنّهم منافقون أظهروا للنبيّ ﷺ وللمؤمنين ما ليس في قلوبهم، فكانوا في شكّ من قدرة الله تعالى على تنفيذ وعده للمؤمنين، فالآية الشريفة وعد محتوم منه عزّوجلّ، لا من جهة أنّ (عسى) منه تعالى جزم، ومن غيره ترج، بل لأنّ سياق الكلام يدلّ على أنّه وعد محتوم، لا سيما بعد أن تضمّن قوله

تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ من الوعد، فكان لابدّ من تثبيت صدقه وتوكيد وعده.

ومادّة (فتح) تدلّ على الفصل في الشيء والقضاء فيه، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾[1]، أي افصل بيننا وبينهم. ومنه فتح البلاد، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾[2]، ومنه المفتاح ونحو ذلك.

واللّام في الفتح للجنس وليس للعهد، كما ذكره جمع من المفسّرين، فاختلفوا في تعيينه:

فقيل: إنّه فتح مكّة الذي كان به ظهور الإسلام، وبه أنجز الله تعالى وعده لرسوله.

وردّ بأنّه غير صحيح إلّا إذا نزلت الآيات هذه قبل فتح مكّة، وهو أوّل الكلام.

وأُيّد هذا القول بأنّه المراد في أغلب موارد استعمال الفتح في القرآن الكريم.

ولكن يشكل أنّه إذا كان المراد به ذلك، فقد وصفه عزّوجلّ بأنّه لا ينفع الكافرين إيمانهم بعد الفتح، هو لا ينطبق على فتح مكّة ولا على غيره، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾[3]. ومن المعلوم أنّه لا ينطبق هذ الوصف على فتح مكّة، ولا على سائر الفتوحات التي أعزّ بها الإسلام، فإنّ الإيمان منهم يقبل، فلابدّ أن يكون هذا الفتح الذي لا ينفع معه الإيمان، إمّا ذلك الفتح الذي يتبدّل فيه الحياة إلى حياة أُخرى، فيرتفع التكليف حينئذٍ، كما في تبدّل نشأة الدنيا بالآخرة، أو لأجل تبدلّ حالات الإنسان إلى

---

١. سورة الأعراف: الآية ٨٩.

٢. سورة السجدة: الآية ٢٨.

٣. سورة السجدة: الآية ٢٨ ـ ٣٠.

حالة لا تفيد معها الإيمان بارتكابه المعاصي والآثام، فقسى قلبه قسوة لا رجاء معها للرجوع والتوبة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً**﴾[1]. وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في مباحثنا السابقة.

وقيل: إنّ المراد به فتح بلاد اليهود كخيبر وغيرها.

وقيل: إنّه فتح بلاد النصارى.

وكيف كان، فإنّ جنس الفتح ينطبق على كلّ فتح يظهر الله عزّوجلّ به الإسلام ويعزّ الدين، وينصر المؤمنين على الكافرين، ويفضح به أعداءهم، ويكشف حقيقتهم ونواياهم. فتكون الآية الشريفة من الملاحم القرآنيّة التي ينبئ فيها تعالى إعلاء كلمة الإسلام وظهورة على الكفر كلّه، بعدما تستقبل الأُمّة من الحوادث ممّا تزعزع عقيدة كلّ فرد مؤمن إلّا مَن عصمه الله تعالى، فلا تختصّ الآية الشريفة بعصر النزول ولا بطائفة خاصّة، كما ذكره المفسّرون من أنّها نزلت في المنافقين، كعبد الله بن أُبيّ وأصحابه الذين كانوا يشاركون المؤمنين في اجتماعاتهم، ويظهرون إيمانهم والتودّد إليهم، وهم يضمرون المحبّة والتولّي لليهود والنصارى، استدراراً للطائفتين، فإنّ حكم الآية عامّ يشملهم كما يشمل غيرهم ممّن فيه الصفات التي ذكرها عزّوجلّ في هذه الآيات، ومن ذلك يعرف أنّه لا وجه للإشكال بأنّ مراد الآية غير هؤلاء المنافقين الآخذين بالحائطة لمنافعهم، إذ لا معنى لخسران مَن احتاط بحائطةٍ اتّقاء مكروه يخافه على نفسه، ثمّ صادف عدم وقوع ما كان يخاف وقوعه، فإنّ الاحتياط في العمل من الطرق العقلائيّة التي لا تستتبع لوماً ولا ذمّاً.

ويردّ عليه: أنّ الاحتياط الذي لا يستتبع اللّوم والذمّ هو ما كان صحيحاً

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

معتبراً عند العقلاء وقرّره الشرع، لا مثل المقام الذي يكون الاحتياط فيه بين الحقّ والباطل، وقد نهى عزّوجلّ عن مولاة الكافرين، فهم لم يطمئنوا بوعد الله من الفتح والنصرة، ومن هنا كان وجه الاشتراك بين مَن تضمّنته الآية الشريفة وسائر المنافقين، فإنّ للنفاق مظاهر مختلفة وسبلاً متعدّدة هذه أحدها، فلا بأس بالقول بأنّهم منافقون أظهروا الإيمان وخالطوا المؤمنين طمعاً بهم إن هم ظفروا بالكافرين، ووالوا اليهود والنصارى طمعاً بهم إن هم ظفروا بالمؤمنين ووقعت الدائرة عليهم.

وكيف كان، فالآية الشريفة من الملاحم القرآنيّة التي فيها إخبار عن حالات هذه الأُمّة، ووعد منه عزّوجلّ في نصرة هذا الدين، والفصل بين المؤمنين والكافرين والمنافقين ـ فقد وعدهم الله تعالى بالفتح المبين عليهم ـ وأمر فيه إعزاز هذا الدين وإظهار الإسلام وإذلال المشركين الكافرين.

وهي لا تختصّ بحكم خاصّ، بل تشمل كلّ ما فيه هذا المناط، ولو كان من الأحكام الالهيّة والتشريعات الربّانية التي فيها عزّة الإسلام ونصرته وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

أي: أنّهم أسروا في أنفسهم النفاق وتولّي اليهود والنصارى، وجدّوا في المسارعة فيه إرضاء للشهوات الدنيئة في نفوسهم، لينالوا به ملاذ الدنيا وإطفاء نور الله عزّوجلّ، وهو الذي مراد اليهود والنصارى أيضاً، ولكنّهم غفلوا عن عواقب الأُمور وأنّ الله محيط بهم، فقد يفضحهم ويقطع أملهم، فيصبحوا على ما أسرّوه نادمين. وقد ذكر عزّوجلّ في الآية التالية سبب ندامتهم، وهو حبط أعمالهم وخسرانهم في صفقتهم. والندامة إنّما تحصل من ترك ما ينبغي فعله أو فعل ما ينبغي تركه، وهم قد فعلوا كليهما، فقد تركوا حبّ دين الله والمؤمنين، ففعلوا العجائب في دينه تعالى، منها الشكّ في أمر الرسول ﷺ، وتولّي

الكافرين، ويكفي الواحد منهما في الندامة، وقطع كلّ أمل لهم في الدارين، بعدما أنزل الله تعالى من الفتح والأمور من عنده، وسوف يخسرون كلّ شيء، ويبطل سعيهم بعد فتح الله الأكبر وظهور الحقّ ومحو الباطل وزهوقه.

قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾**.

الجملة في مقام بيان التقريع لحالهم، وتخييب رجائهم، وانعكاس تقديرهم، لوقوع ضدّ ما كانوا يتوقّعونه ويترقّبونه ممّن تولّوهم.

واختلفوا في إعرابها، **فقيل**: إنّها معطوفة على ما قبلها عطف المحلّ، و(يقول) بالرفع على أنّه مبتدأ.

وقيل: إنّها مرفوعة بغير واو على أنّها جواب سؤال محذوف، تقديره: فماذا يقول المؤمنون حينئذٍ. وقرئ: (ويقول) بالنصب عطفاً على (يأتي)، أي فعسى الله أن يأتي بالفتح وأن يقول.

وقيل: إنّها عطف على قوله: **﴿فَيُصْبِحُوا﴾**، فإنّ ندامتهم على ما أسروه في أنفسهم، وقول المؤمنين: «أهؤلاء» جميعاً تقريع لهم بعاقبة توليهم ومسارعتهم فيه.

وكيف كان، فإنّ الجملة على كلّ حال تقريع وتوبيخ لهم كما عرفت.

أي: ويقول المؤمنون للمنافقين تعجّباً من حالهم وتقريعاً لهم بعاقبة أمرهم، وتبجّحاً بما منّ الله على المؤمنين من الإخلاص والنصرة، فالخطاب للمنافقين الذين في قلوبهم مرض، واسم الإشارة لليهود والنصارى، أي أنّ المؤمنين يخاطبون الذين في قلوبهم مرض: أهؤلاء اليهود والنصارى الذين أقسموا بالله ببالغ الإيمان وأغلظها إنّهم لمعكم. ويمكن العكس.

وقيل: إنّ المعنى: يقول المؤمنون بعضهم لبعض متعجّبين من عاقبة الذين في قلوبهم مرض: أهؤلاء الذين أقسموا بالله أغلظ الإيمان وآكدها إنّهم منكم

أيها المؤمنون وعلى دينكم، كما في قوله تعالى: **﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾**، أي يخافون.

وجميع ذلك صحيح، وقد ورد ما يناسبه في القرآن الكريم، وكيفما كان فالآية الشريفة تعجيب لحالهم، وتبجيل للمؤمنين، وتكريم لهم ووعدٌ بالنصرة والغلبة والجزاء الحسن، ولا اختصاص لهذا القول بالدنيا، بل هو صادر من المؤمنين في الآخرة بعد فضيحتهم ويأسهم وانقطاع أملهم، بل يمكن القول بأنّ ذلك حاصل في هذه الدنيا، فإنّ المؤمن ينظر بنور الله فيرى أنّ حال هؤلاء آيلة إلى الخسران، فيتعجّب من حالهم وهم في غفلة من عاقبة أمرهم، فالقول يمكن أن يكون لفظيّاً صادراً من المؤمنين، ويمكن أن يكون حكاية عمّاً يدور في نفوس المؤمنين، لكشف حقيقة أعداء الله تعالى والمنافقين لهم في هذه الدار الفانية، ويرشد إلى ما ذكرناه ذيل الآية الشريفة في المقام ومواضع أُخرى في القرآن الكريم.

قوله تعالى: **﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾**.

جملة مستأنفة تبيّن حقيقة حالهم وما عليه مآلهم، بلا فرق بين أن نقول هي حكاية المؤمنين، أو قول الله تعالى، فإنّ فيها التعجّب منهم من أنّه كيف آل أمرهم إلى الخسران، وحبطت أعمالهم مع مسارعتهم في تولّي أعداء الله تعالى، الشكّ في أمر الرسول ﷺ، وقد أعطوه الأيمان المغلّظة على أنّهم مع المؤمنين، فحبطت أعمالهم التي كانوا يتكلّفونها نفاقاً، وخسروا ما كان يترتّب عليها من الأجر والثواب لو كانوا في إيمانهم صادقين.

وقد ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ حبط الأعمال يختصّ ببعض الذنوب الكبيرة، والمقام منها، فإنّ النفاق والتلاعب بأحكام الله تعالى ممّا يوجب حبط الأعمال والخسران.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

جملة (بعضهم أولياء بعض) من مبتدأ وخبر في موضع النعت لأولياء، وهي جملة مستأنفة تعليلاً للنهي قبلها وتأكيداً لإيجاب الاجتناب، وإنّما وضع المظهر موضع المضمر (هم) في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـالِمِينَ﴾**، تنبيها على أنّ تولّيهم ظلم. كما أنّ الاتيان بالموصول دون ضمير القوم للإشارة بما في حيّز الصلة إلى أنّ ما ارتكبوه من التولّي بسبب ما كمن من المرض.

وجملة: **﴿يُسَارِعُونَ فِيهِم﴾** حال المفعول، وقيل: إنّها في موضع المفعول الثاني إذا كانت الرؤية قلبيّة، وهو الأصحّ. وقد ذكرنا أنّ إيثار كلمة (في) للدلالة على الاستقرار والثبات في المولاة. وذكر الزمخشريّ أنّ المسارعة بالانكماش لكثرة استعماله بـ(في)، ولكن عدل عنه المفسّرين لأنّه تفسير بالأخفى.

وقوله تعالى: **﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾** حال من فاعل يسارعون. والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها، وأصلها داورة، لأنّها من دار يدور.

وقوله تعالى: **﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِـالْفَتْحِ﴾** فيه البشارة والوعد لرسوله والمؤمنين، وقوله **﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾** في تأويل المصدر وهو خبر (عسى). وقيل: إنّه مفعول به لئلّا يلزم الإخبار بالحدث عن الذات، وهو سهل عند آخرين، والنزاع معروف في كتب النحو.

والفاء في **﴿فَيُصْبِحُوا﴾** للسببيّة، وهو عطف على **﴿يَأْتِيَ﴾** داخل معه في حيّز خبر (عسى)، وهما جملتان في عداد جملة واحدة، فلذا استغنى عن الضمير

العائد على الاسم. و(نادمين) خبر (يصبحوا).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ كلام مستأنف لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة. وقرئ: (ويقول)، بالنصب عطفاً على ﴿فَيُصْبِحُوا﴾. وقيل: على أن يأتي بحسب المعنى، كأنّه قيل: عسى أن يأتي الله بالفتح ويقول الذين ... إلى آخره. وفيه كلامٌ طويل، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في التفسير أيضاً فراجع.

وقوله تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ اسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبر، والهمزة للإنكار ولها الصدارة في الكلام.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، لأنّها تفسير وحكاية لما أقسموا به. و﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ منصوب على أنّه مصدر لـ(أقسموا) من معناه، أي أقسموا اقساماً مجتهداً فيها، وقيل: إنّه حال بتأويل مجتهدين، وأصله يجتهدون جهد أيمانهم، فالحال هي الجملة في الحقيقة. وقال غير واحد: إنّه لا ضير في تعريف الحال هنا، لأنّها في التأويل نكرة.

وكيف كان، فهو متعارض جهد نفسه إذا بلغ وسعها.

وجملة: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ إما جملة مستأنفة مسوقة لبيان مآل أمرهم وعاقبة فعلهم، من ادّعاء الولاية والقسم على المعيّة في كلّ حال، ويكون الاستفهام للإنكار.

ويمكن أن تكون من جملة مقول المؤمنين بأن يجعل هو الخبر، والموصول مع ما في حيّز صلته صفة للمبتدأ، فيكون الاستفهام حينئذ للتقرير، وفيه معنى التعجّب، وقيل غير ذلك، وقد عرفت في التفسير بعض الكلام. وأغلظها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾، وقيل: إنّ اسم الإشارة لليهود والنصارى، وقوله: (معكم) خطاب للذين في قلوبهم مرض، ويمكن العكس، وجميع ذلك صحيح، وقد ورد ما يناسبه في القرآن الكريم.

وكيفما كان، فالآية الشريفة تعجيب لحالهم، وتبجيل للمؤمنين وكرامة لهم، ووعد بالنصرة والغلبة والجزاء الحسن، ولا اختصاص لهذا القول بالدنيا، بل هو صادر من المؤمنين في الآخرة أيضاً بعد فضيحتهم ويأسهم وانقطاع أملهم. بل يمكن القول بأنّ ذلك حاصل في هذه الدنيا، فإنّ المؤمن ينظر بنور الله فيرى أنّ حال هؤلاء آيلة إلى الخسران، فيتعجّب من حالهم وهم في غفلة من عاقبة أمرهم.

***

بحث دلالي:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾**، على أحد أهمّ الأحكام الاجتماعيّة التي يحفظ بها المسلمون استقلالهم ووحدتهم ومشاعرهم اتّجاه بعضهم البعض، فيكونوا يداً واحدة كالبنيان المرصوص أمام أعدائهم الذين يتربّصون بهم الدوائر، ولأهميّة هذا الحكم الإلهيّ فقد ذكره القرآن الكريم في مواضع متفرّقة، وتعرّض إلى بعض الأسباب التي تدعو إلى اتّخاذهم أولياء، والمخاطر التي تترتّب عليه. وحذّر عزّوجلّ المؤمنين من اتّخاذ أعدائهم أولياء، وبيّن الآثار الظاهرة المترتّبة عليه في عدّة مواضع من القرآن الكريم.

أمّا الأسباب التي دعت المنافقين والذين في قلوبهم مرض إلى اتّخاذهم أولياء، فهي كثيرة:

منها: ما ورد في الآية التي تقدّم تفسيرها، قال عزّوجلّ حكاية عنهم: **﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾**.

ومنها: ما ذكره تعالى: **﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾**[1]. فإنّ

---

١. سورة النساء: الآية ١٤٤.

ولاية أعداء الله تعالى ممّا يوجب تعرّض المتولّي لسخط الله، ويجعل الله على نفسه الحجّة فيضلّه ويخدعه.

منها: الغفلة عن الله تعالى وقدرته وسلطانه ومكره، قال عزّوجلّ: **﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾**[1]، وغير ذلك ممّا ذكره عزّوجلّ في هذا الموضوع. ويمكن إرجاع ذلك إلى الغفلة عن الله والشكّ في قدرته وسلطانه، كما أشارت إليه الآية المتقدّمة. وأمّا الآثار التي تترتّب على هذا الظلم الفرديّ والجمعيّ، فهي كثيرة، ويكفي في شدّتها وهولها وفظاعة هذا الأمر أنّ الله تعالى يسلب الهداية عمّن اتّخذ أعداءه أولياء، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**. ومن نتائج سلب الهداية عنهم، أنّهم خسروا الدنياالآخرة وفي العذاب هم خالدون، وأنّ ولاية أعداء الله توجب الدخول فيهم وأن يكون من زمرتهم، وسيحشره الله تعالى معهم، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾**، وسيحرمه الله تعالى ممّا تمنّاه في ولايتهم، قال تعالى: **﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً﴾**[2]، فإنّه عزّ وجّل يرفع عنهم العزّة بعدما اتّخذوهم أولياء لابتغاء العزّة عندهم. وقال عزّ من قائل: **﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾**، وتأتي تتمّة الكلام في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

الثاني: تدلّ الآيات الشريفة على ملحمة قرآنيّة، وهي ما يؤول إليه أمر هذه الأمّة إذا تحقّق منهم الموالاة لأعداء الله تعالى، وأنّها توجب انهدام بنية هذا الدين، وأنّها تقطع أواصر الترابط بين أفراده، ولا يعود إلى عزّته ونشاط وتأثيره، إلّا أن يبعث الله من يقوم بالأمر ويعيد مجد هذا الدين ويُحيي تراثه ومعالمه إن شاء الله تعالى.

---

١ . سورة الأعراف: الآية ٣.

٢ . سورة النساء: الآية ١٣٩.

الثالث: يدلّ سياق الآيات الشريفة على أنّ الولاية المنهيّ عنها، إنّما هي الولاية التي يترتّب عليها الأثر من المخالطة والتشبّه بأعمالهم وأفعالهم والدخول في زمرتهم، دون ولاية المحبّة فقط، وإن كانت مبغوضة أيضاً. كما تدلّ عليه جملة من الروايات، وسيأتي في البحث العرفانيّ ما يتعلّق بالمقام.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾، على أنّ أعداء الله تعالى على تفرّقهم وتشتّتهم طرائق ومذاهب، إلّا أنّهم أولياء بعض في مقام الحقّ والمؤمنين، ولا تختص هذه الحقيقة بعصر النزول، بل هم كذلك ما دام الصراع بين الحقّ والباطل قائماً، ويكفي تصوّر هذه الحقيقة في الابتعاد عنهم وعدم اتّخاذهم أولياء.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾، على أنّ ولاية أعداء الله تعالى ظلم عظيم، يوجب دخول المتولّي في زمرة الكافرين، لأنّ المحبّة والمودّة تجمع المتفرّقات، وتوحّد النفوس المختلفة، وتؤثّر على الأحاسيس والإدراكات، فتتأثّر الأخلاق وتتشابه الأفعال، فيحذوا المتولّي حذو من تولاه في شؤون الحياة ومستوى العشرة، ولذا أوجبت الولاية البعد عن الله تعالى، والمتولّي لا يكون منه من شيء، فكلّما اشتدّت المحبّة والمودّة لأعداء الله، كلّما ابتعد عن الله تعالى واقترب منهم حتّى يصير واحداً منهم ويلتحق بهم، ولذا قيل: من أحبّ قوماً فهو منهم.

السادس: يستفاد من سياق الآية الشريفة أنّ الولاية المنهيّة التي توجب لحوق قوم بقوم وكونهم منهم، هي ولاية المحبّة والمودّة، دون ولاية الحلف التي تنعقد لمصالح خاصّة، وقد عقدها رسول الله ﷺ مع المشركين والكافرين في ظروف خاصّة. ويدلّ على ذلك ما ورد نظيرها عنه تعالى ناهياً عن ولاية المشركين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ**

بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ـ إلى أن قال عزّ وجلّ: ـ **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1]، فإنّ الولايتين من باب واحد، فتكون الولاية التي تقتضي لحوق مَن تولّى بمَن تولّاه هي ولاية المحبّة، وهذا ما يقتضيه الاعتبار أيضاً، فإنّ التولّي والتودّد لا يكون إلّا بين اثنين بينهما السنخيّة التي تقتضي الدخول في الأسناخ والأشباه. وقد تقدّم ما يتعلّق بذلك في التفسير فراجع.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾، على أنّ تولّي الكافر ظلم، لأنّه تعريض النفس للعذاب وابعاد لها عن مواضع الرحمة، وقطع لمسيرة الكمال الذي ينشده الإنسان في الحياة الدنيا، والله لا يهدي من كان ظالماً ومانعاً عن سبل الهداية والكمال، بل يخلّيه وشأنه ويكله إلى نفسه، وهو ممّا تعوّذ منه الأنبياء والرُّسل، فإنّه فيه هدم للكيان الإنسانيّ خلقيّاً وعقائديّاً.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾، على أنّ القلوب تمرض كما تمرض الأبدان، فلابدّ أن تكون لها صحّة وسلامة، إذ هما من المتضايفان لا يتّصف الموضوع بأحدهما إلّا إذا أمكن اتّصافه بالآخر، ولا ريب أنّ مرض القلب الذي يخبر عنه القرآن الكريم أسوأ من سائر الأمراض، فإنّه يميت القلب عن كسب الكمال، ويخرجه عن استقامة الفطرة، ويوجب انحرافه عن الصراط السوي الذي يوصله إلى الكمال المنشود. والمستفاد من الموارد التي وردت فيها هذه الكلمة، أنّ مرض القلب يوجب الإرباك في العقيدة، والشكّ والارتياب في الإيمان بالله تعالى، وعدم الطمأنينة بآياته وأحكامه وتشريعاته، وبالأخرة يؤثّر ذلك على الأعمال والأفعال التي تصدر ممّن مرض قلبه، فتكون أقرب إلى الفسق والكفر منها إلى الطاعة والإيمان. وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾،

---

١. سورة الممتحنة: الآية ١ ـ ٩.

على أنّ الله تعالى يظهر المنويّات في الدار الدنيا من القلوب قبل الآخرة، فإذا كانت حسنة ظهرت على الأقوال والأعمال، وإن كانت سيئة ظهرت كذلك لا محالة، فترى الذين في قلوبهم مرض واستبطنوا النفاق والشكّ والارتياب يسارعون في الكفر وموالاة أعداء الله تعالى، ويعرضون عن الإيمان بمحمّد ﷺ واتّباع أحكامه وتشريعاته، فسيظهر الله تعالى أعمالهم، ويصبحوا خاسرين لا تنفعهم أمانيهم ولا أعمالهم في دفع ما استحقّوه من العذاب.

***

بحث روائي:

في «الدرّ المنثور» في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى**﴾ أخرج ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر عن عبادة بن الوليد: «انّ عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبّث بأمرهم عبد الله بن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وكان أحد بني عوف ابن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أُبيّ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وقال: أتولّى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفّار وولايتهم».

وفيه: أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد، قال: «جاء عبادة ابن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنّ لي موالي من يهود كثير عددهم، وإنّي أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أُبيّ: إنّي رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أُبيّ: يا ابن الحبّاب! أرأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة، فهو لك دونه؟ قال: إذن أقبل، فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ـ إلى أن

بلغ قوله ـ **﴿وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**».

وفيه أيضاً: أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس، قال: «إنّ عبد الله بن أُبيّ بن سلول. قال: إنّ بيني وبين بني قريظة والنضير حلفاً، وإنّي أخاف الدوائر، فارتد كافراً، وقال عبادة بن الصامت: أبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير، وأتولّى الله ورسوله والمؤمنين، فأنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ـ** إلى قوله ـ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ﴾**، يعني: عبد الله بن أُبيّ ـ الحديث».

أقول: الروايات في شأن نزول الآية الشريفة التي تقدّم تفسيرها كثيرة رويت بطرق مختلفة، وتقدّم مكرّراً أنّ ذلك لا يكون سبباً لتقيّد إطلاق الآية أو تخصيصها، فالآية الكريمة عامّة تشمل ولاية المحبّة والمودّة ونحوها، ولا تختصّ بمنافقي عصر النزول ولا الكافرين فيه، يُضاف إلى ذلك أنّ الآية الشريفة كغيرها قد ذكر فيها النصارى والروايات تختصّ باليهود ولم يكن فيها للنصارى نصيب. على أنّ الرواية الأخيرة تذكر الآيات من ٥١ إلى ٦٧، وهي لا ترتبط بالقصّة البتة، ولا اتّصال بين تلك الآيات، وفيها ما نزلت في موضع معين وفرد خاصّ بالاتّفاق.

وبالجملة: فإنّ جميع ذلك ممّا يوجب وهن تلك الروايات، لا سيما الأخيرة منها.

وفي «الدرّ المنثور»: «أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾**: «نزل في بني قريظة إذ غدروا ونقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ في كتابهم إلى أبي سفيان بن حرب يدعونهم وقريشاً ليدخلوهم حصونهم، فبعث النبيّ ﷺ أبا لبابة بن عبد المنذر إليهم أن يستنزلهم من حصونهم، فلما أطاعوا له

بالنزول أشار إلى حلقه بالذبح، وكان طلحة والزبير يكاتبان النصارى وأهل الشام، وبلغني أنّ رجالاً من أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يخافون العوز والفاقة فيكاتبون اليهود من بني قريظة والنضير، فيدسّون إليهم الخبر من النبيّ ﷺ، يلتمسون عندهم القرض والمنفع فنهوا عن ذلك».

أقول: الرواية تؤيدّ ما ذكرناه في تفسير الآية الشريفة من أنّ المراد من الولاية هي ولاية المحبّة والمودّة، ولكنّها لا توجب تخصيص الآية أو تقييدها، فإنّها تبيّن بعض المصاديق، ويدلّ على ذلك ما ورد في «تفسير العيّاشي» عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام من تطبيق الآية على بعض الأفراد الذين أضلّوا الناس، وأنّهم ممّن قال الله تعالى فيهم: **﴿أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾**[1].

***

بحث أخلاقي:

قد عرفت أنّ الآية الشريفة: **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾**، تدلّ على أنّ للقلوب مرضاً كما أنّ للأبدان مرضاً، بل لا يخلو من ارتباط المرضين بعضهما مع البعض، لشدّة ارتباط القلوب بالأبدان، ومن المعلوم أنّ المرض إذا أحلّ في مكان، فلابدّ أن لا تكون هناك صحّة، إذ المرض والصحّة متقابلان، تقابل العدم والملكة، لا يتحقّق أحدهما في محلّ إلّا بعد إمكان تلبّسه بالآخر، فإنّه لا يتّصف الجدار بالمرض لعدم شأنيّته للصحّة، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من عشرة مواضع:

قال تعالى: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ**

---

١. سورة المائدة: الآية ٥٣.

٢. سورة الأنفال: الآية ٤٩.

وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾[١].

والمستفاد من مواضع استعماله أنّ مرض القلب يخرج صاحبه عن الاستقامة، ويوجب انحراف الشخص عن سواء الطريق، ويجعل صاحبه في معرض الشكّ والارتياب، كما قال عزّوجلّ عنهم في الآية السالفة: **﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾**، فيكدّر صفو الإيمان بالله ورسوله، ويسلب الطمأنينة إلى آياته وتشريعاته، ويوجب خلط الإيمان بالشرك، فلا يقدر صاحبه على التميّز بين ما هو نافع له أو ضار. ولذلك ترى أنّه يصدر عن صاحب هذا القلب في مقام العمل ما يناسب الشرك والكفر بالله تعالى وآياته، حتّى يصل إلى حدّ الكفر.

ويختلف هذا المرض كسائر الأمراض الجسمانيّة شدّة وضعفاً وكثرة وقلّة، كما تدلّ عليه الآية الشريفة: **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾**[٢]، وقال تعالى: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾**[٣].

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ هذا المرض ربّما يزيد ويستقرّ في القلب حتّى يطبع المريض في مرضه، ثمّ ينجرّ به إلى الهلاك والموت على الكفر، لكثرة معاصيه يطبع المريض في مرضه، ثمّ ينجرّ به إلى الهلاك والموت على الكفر، لكثرة معاصيه وموبقاته، قال تعالى: **﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾**[٤].

ثمّ إنّ ظاهر قوله تعالى: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾**[٥]

---

١. سورة الأحزاب: الآية ١٢.

٢. سورة البقرة: الآية ١٠.

٣. سورة التوبة: الآية ١٢٥.

٤. سورة الروم: الآية ١٠.

٥. سورة الانفال: الآية ٤٩.

أنّ الذين في قلوبهم مرض غير المنافقين ، وإن كانا يشتركان في كثير من الأفعال والآثار ، إلّا أنّ النفاق لا يكون إلّا في موت القلب والكفر الخالص ، ولكنّ مرض القلب يجتمع مع ضعف الإيمان والشكّ والتردّد ، فيميل مع كلّ ريح، ويتّبع كلّ ناعق . وأما المنافق فهو يبطن الكفر ويظهر الإيمان ليستميل المؤمنين ويكون معهم ظاهرا ، لتنفيذ مآربه كما حكى عنهم عزّوجلّ في مواضع من القرآن الكريم ، وربما يشتركان في عدم استقرار الإيمان وعدم اشتمال باطنهم منه، كما يتّفقان في بعض الأفعال. وقد يكون مبدأ النفاق هو مرض القلب، فإذا لم يعالجه صاحبه ينتهي به إلى الكفر والنفاق ، كما قال عزّوجلّ : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ـ إلى أن قال تعالى : **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً... وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**﴾[١] فإنّ المستفاد منها أنّ القوم كانوا في ابتداء أمرهم مرتابين، فزادهم الله مرضاً حتّى هلكوا بإنكارهم الحقّ واستهزائهم له . ثمّ إنّ مرض القلب تقابله سلامته التي هي الاستقامة مع الإيمان، والطّاعة لله عزّوجلّ والرسول، واتّباع أحكامه وعدم اتّباع الهوى، والإعراض عمّا سوى الله تعالى ، قال عزّ من قائل : ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[٢] ، فإنّه يدلّ على أنّ سلامة القلب إنّما تكون في الانقطاع إليه عزّوجلّ والخلوص والإخلاص له، والإعراض عمّا سواه تعالى . وعلى اختلاف درجات الانقطاع إليه والخلوص له تختلف درجات السلامة ، وبذلك يمكن أن يعالج مرض القلب ، فإنّه يتحقّق بالإيمان به عزّوجلّ، والاعتصام بحبله وإصلاح النفس والإسراع بالتوبة إليه عمّا فعل من الموبقات ، وترويض القلب على الطاعة وحسن النيّة والعمل الصالح ، وقد ورد جميع ذلك

١ . سورة البقرة : الآية ٧ ـ ٢٠.

٢ . سورة الشعراء : الآية ٨٩.

في القرآن الكريم، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ـ الآية ـ﴾[1]، الذي جمع الكمالات الواقعيّة المعنويّة والظاهريّة، وطرق معالجة الأمراض النفسيّة التي تؤثّر على حياة الإنسان الماديّة والمعنوية.

وفي خصوص مرض القلب الذي أوجب محبّة أعداء الله تعالى، فقد ذكر عزّوجلّ كيفيّة معالجته في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[2].

***

بحث عرفاني:

قد عرفت أنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، يدلّ على النهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء، وذكرنا أنّه حكم اجتماعيّ يحفظ به كيان الإسلام وهويّة المسلمين. وأنّ من أهم آثار هذا الفعل ـ أي التودّد إليهم بالمحبّة والنصرة ـ أنّه يعتبر منهم، ويكون حكمه حكمهم في الآثار الوخيمة المترتّبة على الكفر، لأنّه من ما يبغضه ربّ العباد ويوجب الابتعاد عن الحقّ، ولا يمكن اجتماع محبّة الله تعالى ومحبّة أعدائه في قلب واحد، وكلّما ضعفت إحداهما تشتدّ الأُخرى، فإذا

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

٢. سورة النساء: الآية ١٤٦.

استولت إحداهما على المشاعر، لا يصدر من صاحبها إلّا ما يناسبها من الخير والعمل الصالح، والتوجّه إلى الله عزّوجلّ، والإخلاص له إن كانت المحبّة لله تعالى ، أو الشرّ والعمل الصالح، إن كانت المحبّة لأعدائه الذين لا مناسبة بينهم وبين الحقّ ، ومن المعلوم أنّ النوايا وخفايا القلوب لها الأثر الكبير في حياة الإنسان العمليّة . وقد ورد التأكيد على الإعراض عمّا يبعّد الإنسان عن الله تعالى ، والابتعاد عن أعدائه عزّوجلّ ، وفي بعض الأحاديث : «لا تلبسوا ملابس أعدائي ، ولا تسكنوا مساكنهم ، لأنّها من مظاهر العدوان ، وهي مبغوضة عند الله تعالى ، والمحبّ لابدّ أن يبتعد عمّا هو مبغوض لدى جنابه ، فإنّ لها الأثر في سلوك المحبّ ، فمَن يريد التقرّب إلى الله تعالى ومظاهر صفاته وأسمائه العليا ، لابدّ أوّلاً أن يبتعد عمّا يكدّر القلوب ويزيل صفاءها ، فإنّها مجبولة على حبّ الله والاقتراب إلى الحقّ والعمل به ، ومن أعظم ما يكون سبباً في ذلك تولّي أعداء الله تعالى ومحاكاتهم في الأقوال والأعمال ، فإذا تحقّق ذلك يميل الإنسان إلى التقرّب إليه عزّوجلّ بتنفيذ أحكامه وشرائعه ، فإنّ ذلك كمال الإنسان ولا كمال فوقه ، وأنّ فيه سعادة الدارين .

***

الآية ٥٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

الآية الشريفة تبيّن حقيقة من الحقائق الواقعيّة، وهي أنّ قوام هذا الدين إنّما يكون بالعمل بأحكامه وتشريعاته وتعاليمه، وأنّ النكوص عن ذلك يوجب الارتداد عنه، وأنّ الله سوف يؤيّد الدين بأقوام يحبّهم عزّ وجلّ ويحبّونه، لهم صفات خاصّة لها المدخليّة في إقامة الحق وإزهاق الباطل، ولا يخلو ارتباطها بما سبق من الآيات الشريفة التي بيّن عزّ وجلّ فيها بعض التعاليم التي بها يقوم عمود هذا الدين، كما لا يخفى أنّها توطئة لأمر مهمّ هو أساس الدين وركنه الوثيق، وفيها الوعيد على مَن ينكص على عقبيه ويرتدّ عن دينه ويرفض التعاليم الإلهيّة، ووعد لمَن يطيع الله ورسوله وأولياءه.

***

---

١. سورة المائدة: الآية ٥٤.

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

تقدّم الكلام في هذا الخطاب الربوبيّ المتضمّن كمال العناية واللّطف بعباده المؤمنين، وإرشاد إلى أن ما يأتي من الأحكام لها من الأهمّية ما لا يتحمّلها إلّا مَن كان مؤمناً بالله عارفاً به مطيعاً له، أو للإرشاد إلى أن الدين الحقّ في غنى عن الإيمان المشوب بموالاة أعداء الله عزّ وجلّ، فإنّه من الكفر والشرك كما بيّن تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة، وهي أنّ الدين الإلهيّ هو أعلى شأناً، وأعظم قدراً من أُولئك الذين لا علاقة لهم به إلّا مجرّد التلفّظ به في اللّسان دون الاعتقاد بالجنان، وأنّ دين الله تعالى في غنى عن تلك الطائفة التي دبّ النفاق في قلوبهم، ووقعوا في ورطة المخالفة لأحكام الله وتشريفعاته وتعليماته، التي منها تولّي أعداء الله، وهم اليهود والنصارى الذين حذّرهم عزّ وجلّ في زمرة المنافقين الموالين لأعداء الله تعالى، ومرضت قلوبهم فلا يبالون بهذا الدين؛ لأنّهم أحبّوا أعداءه، وآثروا ما عندهم من العزّة الكاذبة، والمكانة الوهمّية الفانية، على العزّة الواقعيّة التي هي الله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، فاقترنوا بالشقاء وحرموا أنفسهم السعادة الحقيقيّة، وأنّ الله تعالى ورسوله و أولياءه في غِنىً عن هؤلاء، كما حكى عنهم عزّ وجلّ في عدّة آيات أُخرى، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

ومادّة (ر د د) تدلّ على الرجوع في الطريق الذى جاء منه، ومن هذا

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ٨.

المعنى الردّ، وهو صرف الشيء بذاته أو بحال من أحواله ، والارتداد اسم ، والردّة هي الرجوع من الإسلام إلى الكفر ، وقد ذكر تعالى الارتداد في موضعين من كتابه الكريم ، أحدهما المقام ، والثاني في قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾**[١]، وسيأتي في البحث الفقهيّ بعض الكلام .

والمعنى: أنّ مَن يخرج عن الدين القويم بإنكار حكم من أحكامه المقدّسة، يتولّى أعداء الله عزّ وجلّ الذي فيه الرجوع إلى الكفر والنكوص عن الحقّ ، فإنّه لن يضرّ الله شيئاً ، فإنّ دين الله لابدّ أن يبقى ، وسوف يستبدلهم ويأتي بقوم مؤمنين لا يرتدّون عن دين الله ، فيهم من الأوصاف ما يدلّ على ثبات إيمانهم ورسوخ عقيدتهم. وبُعدهم عمّا يبغض الله تعالى ، فكأنّ في ذكر هذه الصفات في القوم المؤمنين الذين وعد عزّوجلّ بمجيئهم وإعزاز الدين بهم، تعريضاً بحال الذين فقدت فيهم تلك الصفات بتوليهم اليهود والنصارى ، فإنّه بقدر تعلّق القلب بهم بالمحبّة والمودّة، يخلو من محبّة الله تعالى كما عرفت سابقاً ، وقد قال عزّوجلّ : **﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾**[٢]، ولأجل ذلك تراهم يتذلّلون لهؤلاء الكفّار، ويتعزّزون على المؤمنين ،كما حكى تعالى عنهم : **﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً﴾**[٣]، فكان في هذا التولّي والمحبّة لهم بوار دينهم وهلاك أنفسهم ، فلا يقيمون لهذا الدين وزناً، ولا يهتمّون بأحكام الله تعالى، ولا يتعرّضون لطاعته عزّوجلّ ، يتحرّجون عن كلّ ما يوجب إعزاز الدِّين، ويتساهلون في الجهاد عن أعدائه ، فمرضت قلوبهم، وضعفت نفوسهم، فكبر عندهم ما يترتّب من قطع الروابط الاجتماعيّة معهم ، كما حكى عنهم في آيات أُخرى :

---

١ . سورة محمّد : الآية ٢٥.

٢ . سورة الأحزاب : الآية ٤.

٣ . سورة النساء : الآية ١٣٩.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[1].

ومن ذلك كلّه يظهر أنّ المراد من الارتداد هو الرجوع عن الدين بعد وضوح معالمه وأحكامه، فيشمل الارتداد المصطلح عليه في الكتاب والسنّة، وهو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، سواء كان الإيمان مسبوقاً بالكفر أم لا، وهو المصطلح عليه عند العلماء بالارتداد المليّ والفطريّ، فإنّه بعد وضوح الدين وقيام أركانه وبيان مناهجه وقواعده، فالخروج عن طاعة الله عزّوجلّ بإنكار حكمٍ من أحكامه المقدّسة، يستلزم الارتداد والرجوع عن الإيمان، وأنّهم بخروجهم عن الإيمان لا تتزعزع أركان هذا الدين، فإنّ الله قادر على أن يحفظه من كيد الأعداء، و إنّه سوف يأتي بأقوامٍ لا يرتدّون عن دينه، ففي الآية الشريفة وعدٌ وبشارة للمؤمنين الصابرين، و تسليةٌ لرسوله الكريم، ووعيدٌ لمَن ضعف إيمانه و تعلّق قلبه بأواصر الشرك و النفاق، قال عزّوجلّ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[2]، ومن المعلوم اختلاف المنافقين في الكيد للدين والمؤمنين به، ولا سيّما أنّهم مقبلون على حكم جديد وهو من أهمّ أحكام هذا الدين؛ لأنّ به يحفظ من كيد الأعداء، وفيه تجتمع شرائعه وأحكامه، بل هو خلاصة جهد الأنبياء والمرسلين، ألا وهو الولاية والإمامة العظمى التي سيشرّعها عزّوجلّ ويأمر نبيّه الكريم ﷺ بالتصديق بها وعدم المساهلة فيها، وقد وعد بحمايته من المشركين والمنافقين، فلأجل تلك الأهمّية العظمى، أوجب

١. سورة الممتحنة: الآية ١.

٢. سورة الأنعام: الآية ٨٩.

هذا التشديد في هذه الآية المباركة؛ توطئةً لما سيأتي؛ واهتماماً بالحكم والموضوع الذي به يشيّد قوام هذا الدين وتقوم أركانه ، فاقتضى ذكر كلّ ما ورد في هذه الآية ، وهو الإخبار بالإتيان بقومٍ مؤمنين لا يرتدون عمّا يأمرهم الله ، وإنّهم يحبّون الله بالطّاعة له ، ويحبّهم بالتوفيق والهداية ، وإنّهم أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ، وغير ذلك من التأكيدات والتلويحات كما ستعرف .

وممّا ذكرنا يظهر ضعف ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ الآية الشريفة لا تتعرّض لأكثر من أنّ دين الله في غنى عن أُولئك الذين يخاف عليهم الوقوع في ورطة المخالفة، وتولّي اليهود والنصارى إلى آخر ما ذكره ، فإنّ الآية الشريفة وإن كانت تذكّر المؤمنين بذلك ، إلّا أنّها تشير إلى أمر مهمّ آخر -كما ذكرنا- ولا تخرج بذلك عن الغرض المقصود في الآيات المباركة ، كما ترتبط بما سبق من الآيات الشريفة وما سيأتى ، فالمقام والحال يقتضيان الإشادة بالموضوع والحكم والاهتمام بهما ، ولاريب أنّ الارتداد بالمعنى اللغويّ، يشمل كلّ ما ذكر في الآيات السابقة، من تولّي اليهود والنصارى المنبعث عن تعلّق القلب بهم تعلّق محبّة وودّ ، وهو يقتضى التذلّل لهم، والتعزّز على المؤمنين والترفّع عنهم ، كما حكى عزّوجلّ عنهم في آيات أُخرى في مواضع مختلفة من القرآن الكريم .

ولهذا التولّي والمحبّة للكفّار آثار سيئة ، قد توجب الكفر وتجلب النفاق ، كما قال عزّوجلّ : **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾**(١) ، وقال تعالى : **﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾**(٢) ، وإنّه يستلزم المساهلة في أُمور الدين والنكوص عن الطاعة ، ولا سيّما الجهاد عليهم، والامتناع عن مقاتلتهم التي بها قوام هذا الدين ، وقد أمروا بالابتعاد عنهم، وقطع كلّ ما يوجب الصلة معهم ، كما قال عزّوجلّ : **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ**

---

١ . سورة المائدة : الآية ٥١ .

٢ . سورة النساء : الآية ١٤٠ .

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[١]، وقد نهى تعالى عن تلك الموادّة، قال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾[٢].

وبالجملة: أنّ تولّيهم ومودتهم توجب قطع عُرى الإيمان، والابتعاد عن الله عزّوجلّ، والخروج عن طاعته، وقطع الصلة بينه وبين الله عزّوجلّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾[٣]، وقد تقدّم بعض الكلام في الآيات المناسبة فراجع.

ويظهر ممّا ذكرناه أنّ المراد بالارتداد في المقام، هو المعنى اللغويّ الواسع الشامل لجميع أنحاء التولّي للكفّار، وإلقاء المحبّة إليهم، والخروج عن الطاعة، وأنّ الآية لها ارتباط وثيق بما سبقتها من الآيات التي أخبر عزّوجلّ فيها بما ستلقى الأُمّة وهذا الدين من أيدي هؤلاء الضعفاء في الإيمان، الذين ينكصون على الأعقاب، ويرجعون عن الطاعة، ويرتدّون عن الدين، باختيارهم محبّة غير الله عزّوجلّ، وإعراضهم عن أحكام الله تعالى، وتثاقلهم عن الجهاد في سبيله، وابتغاء العزّة عند أعدائه.

وبذلك اشتملت الآية الشريفة على أهمّ الحقائق الاجتماعيّة التي تبتلى بها الأديان الإلهيّة بعد ارتحال زعيمها ومرشدها ومربّيها؛ ولذلك ترى أنّ الله عزّوجلّ أرشد الأُمّة لهذا الأمر الخطير، ونبّههم إلى تلك الحقيقة العظمى، وقد

---

١. سورة الممتحنة: الآية ٤.

٢. سورة الممتحنة: الآية ١.

٣. سورة آل عمران: الآية ٢٨.

حكى عزّوجلّ كيف حرّفت آيات الله واتّخذت هزواً وغيّرت أحكامه وسنّته وشرائعه ، على ما حكى عزجل عن الأُمم السابقة ، ولا تشذّ هذه الأمّة عنها ، فلابدّ من إتيان قوم يحبّهم الله ويحبّونه ، حافظين لحدوده وأحكامه ، ساهرين على حفظ دينه من الاندراس ، قائمين على طاعته ، مجاهدين أعداءه ، لا يخافون من لائمةٍ وتوبيخ ، وقد حدّد عزّوجلّ منهم صفات معيّنة تنسجم مع هذا الموضوع المهمّ، والعبء الثقيل الذي لا يقدر أن يتحمّله كلّ أحد ، فإنّ الدين الذي يكون آخر الأديان الإلهيّة، والرسول الذي يكون خاتم الانبياء والمرسلين ، لا يمكن أن يترك دينه من دون ضمان يضمنه من الانحراف والباطل والزيغ ، مع كثرة أعدائه من الخارج والداخل، وشدّة اهتمامهم بتحريفه، وصدّ المؤمنين عن طاعته وتنفيذه ، كيف وقد أخبر عزّوجلّ نبيّه بانحراف بعض قومه وزيغ آخرين ، وهو ﷺ قد جاهد أشدّ أعداء الله مدّة تبليغ رسالته الشريفة، وقد أشرف على الرحيل إلى الرفيق الأعلى ، فكيف يترك جهاده ودين الله سُدى بأيدي الأعداء والعابثين، فلابدّ من حفظ هذا الدِّين القويم من جميع ما يوجب الانحراف عنه والخروج عن استقامته ، ويجب أن يتصدّى قومٌ لتقويم هذه الأُمّة عن الزيغ والضلال، والقيام على العمل بكتاب الله ، بإقامة حدوده وأحكامه، وحفظه عن تأويل المنحرفين، وشبه المضلّين إلى يوم الدين ، فاذا كان الأمر بهذه المثابة من الأهمّية العظمى في حياة الإنسان الدينيّة والدنيويّة والأُخرويّة ، فإنّه يحتاج إلى قوم متّصفين بأوصاف واقعيّة يمكنهم القيام بهذه المهمّة العظمى ، فتكون الأوصاف التي ذكرت في هذه الآية المباركة، صفات عظيمة لا يمكن أن يتّصف بها كلّ أحد مهما بلغ من الأمر ، وإنّ الله تعالى لن يجعلها إلّا في مَن أُوتي حظّاً عظيماً من الكمال الذين يؤهله لأن يكون وارثاً لصاحب التشريع .

وممّا ذكرنا تعلم أنّ أي تأويل لهذه الآية الشريفة يخرجها عن نهجها الذي أراده الله تعالى ، يكون من التأويل الباطل وتفسيرها بالرأي، الذي نهى الرسول

الكريم عنه، فإنّ أمرها دقيق وخطرها عظيم.

وقد تنبّه جمع كبير من المفسّرين إلى اشتمال الآية المباركة على تلك المطالب الدقيقة، واعترفوا باحتوائها لبعض الأُمور الغيبيّة، ولكنّهم اختلفوا في مصاديقها، كما هو دأبهم في كثير من الآيات القرآنيّة، ولو أنّهم أعطوا حقّ النظر فيها، ورجعوا إلى المعين الصافي لاستقاء تفسيرها منها، لما وقعوا في ذلك الخلط والاختلاف، ولم يعاملوا كلام الله سبحانه معاملة كلام غيره، ولما تساهلوا في تفسير مفرداتها وإخراجها عن معانيها السامية التي أرادها الله عزّوجلّ، ولعلّ إلى ذلك يشير قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1].

إن قلت: إنّ الآية الشريفة كسائر الآيات، بل القرآن كلّه، لم يخرج عن طور الكلام المتداول بين أفراد الإنسان، فلم يسلك مسلكاً معيّناً في إفهام المعاني، ولم يتّخذ منهاجاً جديداً مخترعاً في أساليبه وتراكيب الجمل واستعمالاته للمفردات، كما هو المألوف عند العرب الذين نزل هذا الكتاب الشريف فيهم، حذا حذوه وجرى على طبق المعروف المفهوم عندهم، ولا يخرج المفسّرون في تفسيرهم لهذه الآية الشريفة عمّا هو المألوف، فما ذكره غيرهم يخرج عن الطور المعروف، ويحتاج إلى دليل قاطع.

قلت: نعم، إلّا أنّ تفسير الكلام في حدود ما نتعقّله من المعاني المدركة ممّا حولنا، من المألوف وحسب العادة الجارية التي تبتني على المسامحة والمساهلة في حدود معرفتنا، وطرح ما وراء ذلك، أمرٌ جرت عليه سنّة المخاطبة في التفهيم والتفهّم عند الإنسان، وهذا شيء محبوب، لكنّ الكلام الذي يبتنى على الإحاطة بالواقع، ويريد المتكلّم المحيط بكلّ شيء علماً إثبات الحقائق، واقتضت

---

١. سورة الملك: الآية ٣٠.

حكمته المتعالية إنزال كتاب فيه تفصيل كلّ شيء يجلّ عن السهو والنقصان والاختلاف، فكان كما قال عزّوجلّ : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[1]، يختلف كلامه تبارك وتعالى عن سائر الخطابات المتعارفة ، ولقد كان كلامه يجلّ عن درك جميع مراده إلّا بما هو الميسور حسب القابليات والاستعدادات ، ولابدّ من الرجوع إلى مَن علّمه عزّوجلّ حقائق كلامه وخصوصيات مراده ، كما قال عزّوجلّ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[2]. وهذا هو الفرق الجوهريّ بين كلامه عزّوجلّ وكلام غيره ، وإن كانا مشتركين في استعمال نفس الأساليب والتراكيب ، فالأوّل فصل ، والثاني هو الهزل الذي يلقي الكلام حسب إدراكه من الواقع ، فاحفظ فإنّه من الحقائق التي نزل عندها القرآن الكريم، وعليها تقوم جملة من العلوم في الاستفادة من الكتاب الكريم .

ومن جميع ما ذكرناه يظهر معنى الآية الشريفة : أي أنّ مَن يرجع عن دينه بإنكار أهمّ قاعدة فيه ، وهي موالاة اليهود والنصارى وأعداء الله عزّوجلّ التي فيها ضياع لهذا الدين، وإبطال لأحكامه وتشريعاته ، فإنّ هذا الدين في غنىً عنهم؛ لأنّه حقّ واضحة معالمه ، وبريء من أعدائه ، فمَن يتولّهم يكن منهم ، كما قال عزّ من قائل : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[3].

قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ﴾.

جواب (مَن) الشرطية الواقعة مبتدأ ، وأمّا الخبر فقد وقع فيه الخلاف ، وسيأتي في البحث الأدبيّ الكلام في ذلك .

والآية الشريفة تصف المؤمنين الذين سوف يستبدلهم عزّوجلّ، عن الذين

---

١ . سورة الطارق : الآية ١٣ - ١٤.

٢ . سورة آل عمران : الآية ٧.

٣ . سورة المائدة : الآية ٥١.

لم يثبتوا على الإيمان، وارتدّوا عنه بعد الدخول فيه بموالاة الكافرين، والقعُود عن نصرة هذا الدين، الذي فيه قمع الحقّ وإبطاله، ولا ريب أنّها أوصاف كماليّة، فيها تجتمع كلّ صفات الخير التي نعت بها الخُلّص من عباده، كيف لا؟! فإنّ بهم يقام عمود هذا الدين ويستقرّ، وإنّ بهم يُنصر دين الله بعد خذلان أهله له.

وإنّما نسب عزّوجلّ الإتيان لنفسه؛ ليثبت أنّ تلك الصفات هي حقيقيّة راسخة فيهم؛ لأنّهم ممّن اجتباهم عزّوجلّ؛ وللتقرير بأنّ لهذا الدين ناصراً وهو الله عزّوجلّ بواسطة القوم البديل، فلا يحتاج إلى نصرة غيرهم، وأنّ القوم في حين أنّه منسوب إليهم منسوب إلى الله تعالى، وهو الآتي بهم، ولأجل ذلك عبّر عزّوجلّ بالإتيان ولم يعبّر بالخلق وغيره، فإنّ الله وإن كان خالقاً ولا خالق سواه، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، كما أنّ في الإتيان إشارة إلى كون القوم ممّن تكمن فيهم الأوصاف، وأنّهم يأتون مع تلك الأوصاف والأفعال، والصفات التي وصفهم الله عزّوجلّ بها هي:

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

تقدّم الكلام في الحبّ، وقد علّق الحبّ على الذات من غير تقييد بوصفه ونحوه؛ لأنّ ذلك يقتضي انقطاعهم إليه وإيثارهم له عزّوجلّ على كلّ ما سواه من الدُّنيا وما فيها من علائق وشهوات، فإن أحبّوا شيئاً سواه و والوه، فإنّما يحبّونه ويوالونه لحبّ الله وولايته عزّوجلّ. ولا ريب أنّ حبّهم لله عزّوجلّ قد أثّر في نفوسهم، فظهرت علاماته على أقوالهم وأفعالهم، فكانت محض طاعة الله وتحت إرادته واتّباع شريعته ودينه، وهذا هو حبّ المؤمنين لله عزّوجلّ كما حكى عنهم عزّت قدرته في آيات أُخرى كما عرفت، ولقد قدّم تعالى حبّه لهم؛ لأنّه من قبيل

---

١. سورة الزمر: الآية ٦٢.

المقتضي لحبّهم له، بل إنّ حبّه تعالى لهم إنّما يلازمه طهارتهم من كلّ رذيلة وبراءتهم من كلّ ظلم، فإنّ الله تعالى لا يحبّ المعاصى والمظالم وجملة الرذائل والملكات السيّئة:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدلّ ـ منطوقاً أو مفهوماً ـ على أنّ حبّه عزّوجلّ يتعلّق بالمكارم والفضائل، فيكون كلّ محبوب له عزّوجلّ طاهراً من العيوب والقذارات المعنويّة والمفاسد الأخلاقيّة، فهو إمّا معصوم بعصمة إلهيّة، أو مغفور له بتوبة ربانيّة، فيكون مَن لم يحبّه الله عزّوجلّ متّصفاً بخلاف تلك الفضائل، ولا يليق لأن يكون مورد ولايته عزّوجلّ، ولا يكون قابلاً لأن يعزّز به دينه ويعلو به كلمة الحقّ.

فالمستفاد من هذه الآية المباركة أن مَن يكون كذلك هم المؤمنين حقّاً،

---

١. سورة آل عمران: الآية ٣٢.

٢. سورة الانفال: الآية ٥٨.

٣. سورة آل عمران: الآية ٥٧.

٤. سورة المائدة: الآية ٦٤.

٥. سورة البقرة: الآية ١٩٠.

٦. سورة الحج: الآية ٣٨.

الذين هم في حمايته عزّوجلّ وأمنه من كلّ ضلالة وغواية ، وهم المهتدون بهداية ربانيّة ، المسلمون تسليماً كاملاً له عزّوجلّ ولرسوله الكريم ، كما حكى عنهم عزّوجلّ في آيات أُخرى من القرآن الكريم ، فكانوا مظهراً حقيقيّاً لقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1] ، ومَن يتبع الرسول ويطع الله عزّوجلّ فقد اتّصف بكلّ ما يحبّه الله ويرضاه، وكان من المتّقين الذين لهم عاقبة الدار، ويرثون الأرض والدار الآخرة ، قال تعالى : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[3] .

ومن جميع ما ذكرنا يظهر فساد ما ذكره المفسّرون في تفسير الآية الكريمة التي تخرجها عن نهجها القويم وطريقها المستقيم ، فراجع و تأمّل فيما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

صفة ثالثة تدلّ على مقامهم وشرف منصبهم ، ومع تلك الرفعة لم يكونوا متكبّرين ، بل هم خافضون جناحهم للمؤمنين ، لأنّهم أولياء الله ، وقد تقدّم أنّهم لم يحبّوا أحداً إلّا تعظيماً لله عزّوجلّ، وقد عُدّي بـ(على) ، دون اللّام كما هو الظاهر في أمثال ذلك؛ لبيان تلك النكتة؛ أو لتضمّن الذّل معنى الحنو والعطف ، ولكنّ الأوّل أولى بالسياق .

قوله تعالى : ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

صفة رابعة تدلّ على شدّتهم ، فإنّ عطفهم وحنوهم على المؤمنين، لا يمنعهم من الشدّة والقسوة على الكفّار والمنافقين ، ففي طباعهم جمعت الأضداد؛

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٣١.

٢ . سورة القصص : الآية ٨٣.

٣ . سورة طه : الآية ١٣٢.

ولذا ترك العطف بين الصفتين ، وإنّهم مستقلّون بالاتّصاف بكلّ منهما ، وقد جمعوا بين الوصفين لأنّ مقامهم السامي يستلزم كلّ واحدة منهما ، وهو شأن كلّ إمام رفيع الشأن ترجع إليه الأُمّة في شؤونها .

والأعزّة : جمع العزيز ، من عزّة إذا غلبه .

كما أن الأذلّة جمع الذليل ، لا ذلول فإنّ جمعه ذلل (ككتب) .

والمعنى : أنّهم أشداء على الكافرين متغلبون عليهم ، وقد ترفّعوا على العزّة الكاذبة عند الكافرين، وامتنعوا عن الاعتناء بهم؛ لأنّهم أعداء الله .

قوله تعالى : ﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ .

صفة خامسة تدلّ على كمال اهتمامهم وبذل جهدهم وطاقتهم في نصرة دين الله ، وقد خصّ عزّوجلّ هذه الصفة بالذكر مع أنّ صفاتهم كثيرة ـ كما عرفت ـ لأنّهم إنّما استبدلوا عن المرتدين، فأراد عزّوجلّ الانتصار بهم لدينه .

قوله تعالى : ﴿**وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾ .

صفة سادسة هي التي أعدّتهم لمقام الاصطفاء ، واستبدلهم عزّوجلّ بغيرهم ، فتكون حالاً عن جميع الجمل السابقة، ولم تختص بالجملة الأخيرة ، كما قيل ، وهذه الصفة هي جماع جملة من الفضائل ، ولم يتّصف بها إلّا مَن أخلص في إيمانه، وتعلّق بالله عزّوجلّ، وأعرض عن زخارف الدُّنيا التي يزاحمها لومة لائم ، فإنّ في ترك عزّة الكافرين ومبتغيات الشهوة ومتع الحياة الدُّنيا، ما يكون فيه اعتراض من معترض .

واللّومة : المرّة من اللّوم ، أي الاعتراض ، وهو مضافة لفاعلها ، وفي تنكير لائم واللّومة المبالغة؛ لأنّ نفي الخوف من واحدة يستلزم نفي الخوف عن جميع اللّومات؛ لأنّ النكرة في سياق النفي تفيد التعميم ، وإن أمكن القول بأنّ التاء في

اللّومة هي للجنس ، فهم لا يخافون أيّ لوم من أفراد اللّوم وأنواعه من أي لائم كائناً مَن كان ، فهم المؤمنون الذين رسخ الإيمان في قلوبهم، وأحبّوا الله عزّوجلّ حبّاً صادقاً لا غاية لهم إلّا رضاه ، فلا يعملون لغرض حتّى يخافوا لوم اللّائمين ، وفي الآية الشريفة إشارة إلى بعض المغيّبات ، كما عرفت .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ .

الإشارة بالبعد لأهمّية تلك الصفات ، وأنـّها فضل وتوفيق من الله عزّوجلّ، يعطيه مَن يعلم من عباده أنـّه محلّ له ، وأن له الاستعداد والقابلية لتحمّل تلك الأمانة الإلهيّة والفيوضات الربانيّة .

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إنّما هو الله كثير الفضل لا يخاف نفاد ما عنده ، عليم بموضع جوده وعطائه ، وفي الآية تقرير لما سبق ، كما أنّ في إظهار الاسم الجليل إشعاراً بالعليّة ، فلا ينبغي للمؤمن أن يترك موجبات غفرانه، ويغفل عن فضله ومننه .

***

بحوث المقام

بحث أدبيّ:

ذكرنا أنّ في الآية الشريفة إخباراً من المغيبات، وتعتبر من الملاحم القرآنيّة، وقد ذكر بعضهم أنّ (مَن) الشرطيّة لا تقتضي الوقوع، بل تستعمل في الأُمور المفروضة والمحتملة.

ولكن يمكن الجواب عن ذلك: بأنّ الشرط لا ينحصر في ذلك، وقد يستعمل لدواعٍ أُخرى، منها التنبيه على أنّه لا ينبغي وقوع ذلك بل ينبغي أن يدرج في الفرضيات، وهو كثير فراجع، والقرائن المحفوفة في الآية الشريفة تدلّ على أنّ المراد من الشرط هذا المعنى لا سيّما وقد علم وقوع ذلك.

ثمّ إنّ المعروف أنّ الأصل في ثاني المثلين الساكن هو فكّ الادغام، كما في (يرتدد)، وقد قرأ به نافع وابن عامر، ولكن الادغام والتشديد أيضاً لغة يراد به التخفيف، وقرأ به الباقون.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾. جواب (مَن) الشرطيّة الواقعة مبتدأ المختلف في خبرها:

فقيل: مجموع الشرط والجزاء، فلا يحتاج الجزاء وحده إلى ضمير يربطه.

وقيل: الجزاء فقط، فيحتاج إلى الضمير الذي يربطه وهو مقدّر، أي مكانهم.

والأظهر أنّ جوابه محذوف، يعني: لن يضرّ دين الله شيئاً.

ويحبّون في (يحبّونه) يمكن أن يكون حالاً من الضمير المنصوب فيه، أي وهم يحبّونه، ولكن العطف أولى.

وأمّا قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقد ذكر الوجه في استبدال اللّام بأنّه استبدلت لأنّ العزّة في قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ عدّيت بها فاعتبرت المشاكلة ذلك.

وقيل: إنّ العزّة تتعدّى بـ(على)، والذلّة ضدّها، فعوملت معاملتها، لأنّ النظير كما يحمل على النظير، يحمل الضدّ على الضدّ أيضاً.

وكيف كان، فإنّ جرّ أذلة وأعزّة على أنّهما صفتان لقوم كالجملة السابقة، وقد عرفت الوجه في ترك العطف بينهما، وقرئ: أذلّة وأعزّة بالنصب على الحاليّة من قوم، لتخصيصه بالصفة التي جعلته بمنزلة المعرف.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، فهو إمّا عطف على (يجاهدون) كما قيل، وقد ذكرنا أنّه ليس بشيء، أو حالٌ من فاعل (يجاهدون).

واعترض: بأنّه لا يدخل حينئذٍ على المضارع المنفيّ بلا وما.

وأُجيب عن ذلك: بأنّ النحاة جوّزوه في النفي بلم ولما، ولا فرق بينهما.

وأصل لائم لاوم، فاعل كقائم، وجَعْل التاء للجنس أولى من جعلها للوجود كما عرفت.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآية الشريفة على أُمور:

الأوّل: تدلّ الآية الكريمة على وقوع ظاهرة الارتداد في هذه الأُمّة المرحومة، وأنّ الله تعالى سوف يستبدل بهم أقواماً آخرين يحفظ بهم دينه، ويقيمون معالم الحقّ وأركانه، ويجاهدون أعداءه ويدفع بهم كيدهم، ولهم منزلة كبرى عند الله تعالى، يحبّهم لما فيهم من الخصال الحميدة والصفات الكريمة، ويحبّونه فلم يؤثروا شيئاً على حبّة عزّوجلّ وطاعته، وظاهر الآية الكريمة أنّ

تلك الصفات هي الصفات التي يجب أن تتوفّر في مَن يقود هذه الأُمّة بعد غياب إمامها وزعيمها الأكبر ﷺ ، فالآية الكريمة لها ارتباط وثيق بالآيات السابقة الحاكية عن أخلاق المناقين والمعاندين ، وما يأتي من الآية الكريمة التي تعيّن بعض هؤلاء المتّصفين بتلك الصفات، وأشارت إليه بوجه بليغ، وجعلته وليّاً على هذه الأُمّة ، ولا يمكن فصل الآية عن أخواتها وتفسير مفرداتها بما تشتهيه الأنفس وتمليه الأهواء ، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ**﴾ ـ مع ملاحظة الآيات الأُخرى في المقام ـ أنّ الحكم الذي سيشرّعه الله عزّوجلّ في تعيين الولّي الذي يحفظ دينه من الضياع، هو من الأُمور الحقيقيّة الواقعيّة التي لها دخل في قوام هذا الدين ، وأنّه عزّوجلّ يذكّر المؤمنين بإرادة الله تعالى على أن يُعبد في الأرض ، فقد قال عزّوجلّ ﴿**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**﴾[1] ، فمَن ينكص عن الإذعان بالولاية، يكون ممّن تنطبق عليه الآية الشريفة ، فكأنّ هذه الآية الشريفة توطئة للآية الأُخرى لأهمّية الموضوع ، ومن المعلوم أنّ كلّ حكم إلٰهيّ ذو أهمّية معيّنة في هذا الدين، تسبقه آيات أو تلحقه، تشتمل على ما يكون ضماناً له من لعب المعاندين و المستهزئين ، ولا تخرج هذه الآية الشريفة عن ذلك المسير الاستكماليّ .

الثالث : يستفاد من إطلاق قوله عزّوجلّ : ﴿**يُحِبُّهُمْ**﴾ ، وإنّ الوصف يشعر بالعليّة كما هو المعروف ، أنّهم بُراءَ من كلّ ما يبغضه ، و أنّه عزّوجلّ لم يكن يبغضهم في شيء ، وإلّا لذكر ما يدلّ على ذلك واستثنى .

الرابع : لعلّ في ذكره عزّوجلّ كونهم أذلّة على المؤمنين ، أنّه لمكان المناسبة الفطريّة بينهم ، ووجود الرابطة والمحبّة الأزليّة فيهم ، كأنّ الجميع يكون

---

١ . سورة الانعام : الآية ٨٩.

شخصاً واحداً في إقامة أركان الدين الحقّ وعبادة الواحد الأحد ، كما أنّهم أعزّة على الكافرين المحجوبين عن الحقّ، لانتفاء الجنسيّة الذاتيّة بين الطائفتين .

الخامس : ربّما يستفاد من قوله تعالى : ﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ ، استيلاء الحقّ على الكفر ، وفيه البشارة على قهر الكافرين وأذلالهم وعلو المؤمنين عليهم ، وهذا أيضاً من البشارات القرآنيّة التي وردت في مواضع متعدّدة .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ أنّ هؤلاء الصفوة إنّما هم في جهاد مستمر مع النفس ، بمحو صفاتهم وإفناء ذواتهم المقدّسة في سبيله ومع الأعداء؛ لإقامة الحقّ وتهذيب الناس وتربيتهم ، فلا يشغلهم عن ذلك شغلٌ شاغل .

السابع : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾ أنّ الذي يريد تكميل نفسه بالكمالات الواقعيّة، لابدّ أن يعرض عمّا سواه، ويصرف همّه في سبيله عزّوجلّ، فلفرط حبّهم لا يشعرون بالملامة .

الثامن : يستفاد من التعبير بـ(قوم) وإتيان الأوصاف والأفعال بصيغة الجمع ، أنّهم صفوة خاصّة متفانين في حبّ الله والجهاد في سبيله، لا يعترضهم شكّ ولا ريب ولا وهن ولا فتور ، فهم قوم متعاضدون ، قد يكونون مجتمعين أو متفرّقين واحداً بعد واحد ، ولكنّهم في عين الواحدة جمع ، بل هم في مقام جمع الجمع ، كما كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾[١] ، ومن ذلك يظهر الوجه في اتيان الجمع في الآية التالية : ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٢] ، كما يستعرف إن شاء الله تعالى .

---

١ . سورة النحل : الآية ١٢٠.

٢ . سورة المائدة : الآية ٥٥.

التاسع: ظاهر الآية الشريفة بل صريحها أنّ القوم الموعودين بإيتائهم أنّهم لم يكونوا في وقت نزول الآية الشريفة، فإنّ خطاب الجماعة من المؤمنين بأن بعضهم أو كلّهم إن ارتدّوا عن دينهم، فسوف يبدل بهم الله عزّوجلّ قوماً آخرين يحبّهم ويحبّونه، ولا ريب أنّ واحداً من المرتدّين لا يحبّ الله ولا يحبّه عزّوجلّ وهذا صريح في وجود هؤلاء في وقت نزول الآية الكريمة، فلا تشمل المرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ، فهم غير مقصودين بالخطاب جزماً، فإذا كانوا كذلك فلم يكن مقاتلوا أهل الردّة أيضاً مقصودين بالخطاب من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ﴾ أيضاً، لأنّ القوم المأتي بهم جماعة غير الموجودين في وقت النزول، فتكون الآية نظير قوله عزّوجلّ: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[1]، فما ذكره المفسّرون في تطبيق الآية لا دليل عليه، بل خلاف الظاهر، وسيأتي في البحث الروائي بعض الكلام.

***

بحث روائي:

في «الدّر المنثور» قال: أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقّي، وابن عساكر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ﴾ قال: أنزل الله هذه الآية وقد علم أنّه سيرتدّ مرتدّون من الناس، فلمّا قبض الله نبيّه ارتدّ عامّة العرب عن الإسلام إلّا ثلاثة مساجد، أهل المدينة، وأهل الجوائيّ من عبد القيس، وقال الذين ارتدّوا: نصلي الصلاة ولا نزكي والله يغصب أموالنا، فكلّم أبو بكر في ذلك ليتجاوز عنهم، وقيل له: إنّهم قد فقهوا أداء الزكاة، فقال: والله لا أُفرّق بين شيء جمعه الله، والله لو منعوني عقالاً ممّا فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه، فبعث الله تعالى عصائب مع بني بكر فقاتلوا حتّى أقرّوا

---

١ . سورة محمد: الآية ٣٨.

بالماعون ، وهو الزكاة .

أقول : رواه الطبريّ في «تفسيره» بإسناده عن قتادة باختلاف ، وظاهر الحديث أنّه من قبيل الجري والتطبيق حسب الرأي ، وإلّا فقد ذكرنا في التفسير أنّ القوم كانوا في عهد رسول الله ﷺ وأنّ الله عزّوجلّ قد أنذرهم من سوء فعلهم ، ولا ريب أنّ المطلوب بثبوت الاستقامة وتحقيق المحبّة المطلوبة من الطرفين من دون استثناء ، فلا تشمل الآية ما إذا تغيّر أحد منهم عمّا كان عليه ، كما هو الحال في من ذُكر في الخبر ، وهذا شأن كثير من الروايات التي ذكرت في تفسير الآية أو تطبيقها ، فإنّه من التطبيق النظريّ الذي لم تتوفّر في مَن ذكروه شروط الآية الكريمة ، فلابدّ أن يكونوا قوماً يتغيّروا كما ستعرف .

وروى الثعلبيّ في «تفسيره» بالإسناد عن الزُّهريّ عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة : أنّ رسوله الله ﷺ قال : «يرد إلي قوم من أصحابي يوم القيامة فيحلؤون عن الحوض ، فأقول : ياربّ أصحابي أصحابي ، فيُقال : إنّك لا تدري بما أحدثوا من بعدك إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى» .

أقول : المراد من قوله : «إنّك لا تدري» نفي بعض مراتب العلم ، وإلّا فقد كان ﷺ يعلم إجمالاً بالوقائع ، أُخبر بها أيضاً كما في جملة من الأخبار ، ولا تنافي بين هذه الرواية وغيرها في ثبوت الارتداد قبل أو بعد ارتحال الرسول الكريم ﷺ ، إذ الآية الشريفة تثبت الارتداد في حياته ﷺ أيضاً ، ولا تنافي بين المثبتين كما هو محرّر في علم الأُصول ، وهناك أحاديث أُخرى تدلّ على ارتداد أقوام آخرين أعرضنا عن ذكرها؛ لأنّ جميعها تشترك في جهة واحدة ، وذكرنا ما يتعلّق بها في الرواية الأُولى فراجع .

وفي «الدّر المنثور» : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحّاك في قوله تعالى : ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ ، قال : هو أبوبكر وأصحابه ، لما ارتدّ مَن ارتدّ من العرب عن الإسلام جاهدهم أبو بكر الصديق وأصحابه

حتّى ردّهم إلى الإسلام .

أقول : رواه عن الحسن أيضاً .

وفيه : أخرج ابن جرير عن شريح بن عبيد : لمّا أنزل الله الآية قال عمر : أنا وقومي همّ يا رسول الله قال : بل هذا وقومه ، يعني : أبا موسى الأشعريّ .

وفيه : أخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه والحاكم في «جامعه» لحديث شعبة والبيهقّي ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ فقال النبي ﷺ : «هم قومك يا أبا موسى ، أهل اليمن» .

أقول : رواه جمع كثير ، حتّى ذكر بعض المفسّرين أنّ الآية أوضح انطباقاً على الأشعريّين من أهل اليمن، منها على هؤلاء الذين قالوا أهل الردّة .

وفي «الدّر المنثور» أيضاً : أخرج ابن أبي حاتم والحاكم في «الكنى» ، وأبو الشيخ والطبرانيّ في «الأوسط» ، وابن مردويه عن جابر بن عبدالله، قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ قال : «هؤلاء قوم من أهل اليمن من كندة ، من السكون ، ثمّ من التحبيب» .

أقول : رواه البخاريّ في تاريخه عن ابن عبّاس ، والظاهر أنّ المراد من السكون والتحبيب[1] قبيلتان .

وكيف كان ، فالروايات في تطبيق الآية الشريفة مختلفة ، فالمشهور أنّ المراد بهؤلاء القوم أهل اليمن كما عرفت آنفاً ، وعن جمع آخرين أنّهم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردّة ، وعن السديّ أنّهم الأنصار ، وقيل : إنّهم أهل القادسية ، وغير ذلك .

ولا يخفى على الخبير المتتبع مواقع النظر فيها، مع قطع النظر عن أسانيدها:

---

١ . السكون وتحبيب بطنان من قبيلة كندة .

أمّا أوّلاً: فلأنّها لا تدلّ على أكثر من التطبيق والجرى بحسب الرأي والنظر.

ثانياً: أنّها متعارضة في ما بينها، وقد تنّبه بعض المفسّرين إلى ذلك، وقال: إنّ الآية عامّة تشمل كلّ مَن نصر الدين بمَن اتّصف بمضمونها من خيار المسلمين من مؤمني عهد النبى ﷺ ومَن جاء بعد ذلك من المؤمنين، وتنطبق على جميع ما تقدّم من الأخبار، كالخبر الدالّ على أنّهم سلمان وقومه على ضعفه.

ويمكن المناقشة في ما ذكره: بأنّها مخالفة لظاهر الآية الشريفة الدالّ على أنّهم قوم محضوا الإيمان محضاً، قد أحبّهم الله تعالى لطهارة نفوسهم، ونزاهة أرواحهم من كلّ عيب ماديّ ومعنويّ، وأحبّوه بتطهير أنفسهم من الرذائل، وتكميلها بالفضائل والطاعات. ولا ريب أنّه لم يعهد أن يكون أحد ممّن ذكروه في تطبيق الآية الشريفة كذلك، كما هو ظاهر لمَن سبر التاريخ وراجع كتب السير والتراجم.

يُضاف إلى ذلك، أنّ هذا المفسّر استبعد عليّاً عليه السلام عن تطبيق الآية الشريفة، محتجّاً بأنّ لفظ الآية لا ينطبق عليه، لأنّ لفظ القوم لا يجري على الواحد، لأنّه نصّ في الجماعة. وليس ذلك إلّا مكابرة، فإنّ الحديث الذي ورد في شأن عليّ عليه السلام لا يخرج عن سائر الأحاديث المروية في شأن نزولها، فإنّ الرويات حكمها في سياق واحد عليّاً وأصحابه، وأبا موسى وقومه، وأبابكر وأصحابه، كما عرفت، ولم يذكر في عليّ وحده حتّى يرد عليه ما أورده، وقد تقدّم في التفسير ما يتعلّق بذلك فراجع.

وفي «المجمع» عن الباقر والصادق عليهما السلام في قوله تعالى: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾**: «همّ أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه حين قاتل مَن قاتله من الناكثين والقاسطين والمارقين فيه».

أقول : لابدّ وأن يحمل على الخلّص من أصحابه الذين لم يتغيّروا، وبقوا على حبّهم له عزّوجلّ، فلا يرد ما أوردناه آنفاً على ما ذكره القوم ، فهم أصدق شاهد لهذه الآية الشريفة ، ويدلّ على ذلك :

أوّلاً : أنّ النبيّ ﷺ وصف عليّاً عليه السلام بهذه الصفات المذكورة في الآية الشريفة في مواطن متعدّدة ، منها: حين ما ندبه لفتح خيبر قال ﷺ :

«لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ، كرّاراً غير فرّرا ، لا يرجع حتّى يفتح الله على يده» . ثمّ أعطاه الراية .

ويدلّ الحديث على أنّه جمع أوصافاً ثلاثة من تلك الأوصاف الستة : حبّه لله تعالى ، وحبّ الله له ، والجهاد في سبيله ، وأمّا بقية الأوصاف فلا يعترض أحد على وجودها في عليّ عليه السلام ، وتدلّ عليه أخلاقه الشريفة وسيرته المقدّسة ، وقد ورد في بعض الأخبار الحاكية لأوصافه توصيفه باللين على أهل الإيمان، والشدّة على الكفّار والمنافقين .

ثانياً : أنّ الرسول ﷺ أنذر قريشاً بقتال عليّ عليه السلام لهم من بعده ، ففي الحديث : «أنّه جاء سهيل بن عمرو في جماعة منهم ، فقالوا : يا محمد ، إنّ أرقّاءنا لحقوا بك فارددهم إلينا ، فقال رسول الله ﷺ : لتنتهن يا معاشر قريش أو ليبعثنّ الله عليكم رجلاً يضربكم على تأويل القرآن كما ضربكم على تنزيله ، فقال له بعض أصحابه : مَن هو يا رسول الله؟ أبو بكر؟ قال : لا ، ولكنّه خاصف النعل في الحجرة ، وكان عليّ عليه السلام يخصف نعل رسول الله ﷺ» .

ثالثاً : أنّه روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال يوم البصرة : «والله ما قوتل أهل هذه الآية حتّى اليوم» وتلا هذه الآية ، وهو حقّ ، فإنّه لم يقع قتال بينه وبين مَن سبقه .

رابعاً : أنّه ذكرنا في التفسير أنّ مَن تنطبق عليه الآية الشريفة هو الذي لم يتغيّر عن حبّه لله تعالى ، ولم يعرض عزّوجلّ عن حبّه له لأنّه لم يعهد منه ما يوجب سخطه ، وعليّ عليه السلام باتّفاق الجميع كان كذلك، فالإمعان في الآية الشريفة

يفيد أنّها كالنصّ في عليّ والأئمّة عليهم السلام.

وفي «تفسير النعمانيّ»: عن هارون العجلّي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ صاحب هذا الأمر محفوظ له، لو ذهب الناس جميعاً أتى الله بأصحابه، وهم الذين قال الله عزّوجلّ: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[1]، وهم الذين قال الله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾».

أقول: يدلّ الحديث على أنّ أهل الآية الشريفة هم معلومون، وأنّهم المصاديق الحقيقيّة لها، وهذه من ملاحم القرآن الكريم.

وفي «تفسير القمّي»: أنّها نزلت في مهديّ الأُمّة وأصحابه.

أقول: هو المصداق الحقيقيّ كما عرفت في التفسير.

وفي «الدّر المنثور» قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾: أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والطبرانيّ والبيهقيّ في «الشعب» عن أبي ذرّ رضي الله عنه، قال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بسبع: بحبّ المساكين، وأن أدنو منهم، وأن لا أنظر إلى مَن هو فوقي، وأن أصِل رحمي وإن جفاني، و أن أُكثِر من قول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، فإنّها من كنز تحت العرش، وأن أقول الحقّ وإن كان مرّاً، ولا أخاف في الله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئاً».

أقول: الحديث يجمع أُمّهات الفضائل وقواعدها، ولكلّ واحدة من تلك الخصال فروع متعددّة، وإنّها مجلبة للخير والسعادة في الدارين، ويحتاج الحديث الشريف إلى شرح ربّما يأتى التعرّض له في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

وفيه أيضاً: أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدريّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

١ . سورة الانعام: الآية ٨٩.

«ألا لا يمنعنّ أحدكم رهبة من الناس أن يقول الحقّ إذا رآه وتابعه، فإنّه لا يقرّب من أجلٍ ولا يُباعد من رزق أن يقول بحقّ، أو أن يذكر بعظيم».

أقول: إنّ تلك من أظهر آثار الإيمان بالله والتوكّل عليه الذي أُمر المؤمن بالتحلّي به، ولذا كانت المبايعة في صدر الإسلام أن لا يأخذ المؤمن في الله لومة لائم، فإنّه يدلّ على رسوخ الإيمان في القلب، والانقطاع إليه عزّوجلّ عن جميع العلائق.

***

بحث فقهي:

علمتَ أنّه ليس المراد من الارتداد في الآية الكريمة ما هو المصطلح منه عند الفقهاء، الذي يختصّ بالرجوع عن الإيمان إلى الكفر، وهو ينقسم إلى قسمين:

فطريّ: أي: الذي انعقدت نطفته في حال إسلام أحد أبويه أو كليهما، ثمّ دخل في الإسلام، ثمّ ارتدّ عنه.

وملّي: وهو مَن لم يكن كذلك.

ولكلّ واحد منهما أحكام خاصّة ذكرناها في كتابنا (مهذب الأحكام)، إلّا أنّ المراد منه في الآية الشريفة هو قطع الإسلام بما يوجب الكفر؛ ومن أهمّ موجباته التي ذكرها عزّوجلّ هو تولّي الكافرين لقطع صلته بالإسلام، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

ومنها: إنكار النصّ والقيام على مَن نصّبه الله عزّوجلّ خليفة وإماماً، وهذا هو الذي تدلّ عليه الآية الكريمة أيضاً بذكر أوصافه، وفسّرته بعض الروايات

١. سورة المائدة: الآية ٥١.

التي ذكرنا في البحث الروائيّ ، فيكون الارتداد المذكور من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها ، وهو إعلام لمَن كان في حياة الرسول ﷺ بما يقع بعد وفاته . ومن ذلك تعرف أن الارتداد المذكور في الآية الشريفة يشمل ما ذكرها الفقهاء أيضاً ، فهو أعمّ من الحقيقيّ والتنزيليّ .

***

بحث عرفاني:

السلوك إلى الله تعالى له عقبات وحُجب، لابدّ من رفعها وإزالتها، لتستعد النفس لتلقّي الفيوضات الربوبيّة، وأوّل درجات السالكين تخلية النفس من رذائل الصفات ، ومن أهمّها الارتداد ، الذي هو الرجوع من الله إلى النفس البهيميّة والركون إلى الشهوات ، وهو من أهمّ الحُجُب الظلمانيّة التي تطفئ نور العقل الذي به يتغلّب على النفس، ويرشدها إلى ما فيه سعادتها ، وكيف لا يكون كذلك، فإنّ فيه جماع رذائل الصفات ، ففيه حبّ الذات وإيثارها على خالقها ، وفيه ترجيح ما سواه عزّوجلّ وفيه تولّي أعداء الله الذين هم حجب ظلمانيّة وعوائق في طريق الاستكمال ، وفيه المبارزة مع الربّ بإذلال المؤمن وإعزاز الكافر ، وفيه فقدان الطمأنينة في النفس والثقة بالله تعالى وبالآخرة، وهو حبّ الدُّنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة . ولا ريب أنّ كلّ واحد من تلك الأُمور هي حجب تستتبع ظلمات بعضها فوق بعض، حتّى تصل إلى درجة لم يكد يقدر أن يصلح نفسه ، فيكون بقاء مثل هذا الذنب العظيم مضرّاً لنفسه ، وموجباً لقسوة القلوب والانهماك في الذنوب ، والغفلة عن الله والبُعد عن حضرته، ولكن لا يشعرون ، وحينئذٍ فسدوا وأفسدوا، ولا يقوم المجتمع المشتمل منهم بالمهمّة إلى أرادها الله عزّوجلّ له ، فإذا لم يرجع عن غفلته ويصلح شأنه، فإنّ الله يبدّله بآخرين، لهم نفوس قدسيّة، وحالات انقطاعيّة إلى الله عزّوجلّ، يصلحون لأن يكونوا مرشدين لغيرهم ، فقد أفنوا ذواتهم الشريفة في حبّ الله، ووصلوا إلى حدّ اليقين ، فهم في الله وبالله وإلى

الله ، واستبدلوا بتلك الحُجُب والظلمات أنواراً أشرقت على نفوسهم ، فأُفيضت منهم على غيرهم ، فلم يصدر منهم إلّا الخير المحض ، فصاروا أعلاماً لهدايته ، وأبواباً لرحمته ، وسُبلاً للسالكين إلى مرضاته ، وأُمناء الله على خلقه ، ومناراً يقتدي بهم الصالحون من خلقه ، وليس لهم غرض في حياتهم الكريمة إلّا إيصال الخلق إلى الله، وكيف تأخذهم في الله لومة لائم فهم على خير ولم يصدر منهم إلّا الخير ، عندهم الخلق مظاهر صفاته العليا ، فلم يخطر في بالهم إلّا الحضور في ساحة قربه ، ولم يكن لهم شغل شاغل إلّا التقرّب اليه والطاعة له عزّوجلّ .

وبالجملة : فإنّه بقدر عظم الخسران الحاصل من الارتداد والرجوع عنه تعالى، تكون السعادة في الفناء، والحضور لدى جنابه ، فإنّ البديل إنّما يقوم مقام ما أراده الله من خلقه ، واستغنى عن المبدّل عنه لخلوه عمّا يوجب القرب لديه ـ أعاذنا الله تعالى منه ـ وهذا سرّ إلهيّ من أسرار العصيان والطغيان، والرجوع عن الله، اللّهُمَّ ألهمنا التوفيق، وأملأ قلوبنا حبّاً لك وشوقاً إليك وارزقنا الجهاد في سبيلك، وتصفية نفوسنا من العلائق السيئة كلّها ، وخلّصنا من شوب التعلّق بغيرك حتّى لا نؤثر إلّا رضاك. وهم لم يصلوا إلى هذه الدرجات، ولم يحصلوا على تلك الفضائل من الصفات، إلّا بطيّ مراحل في سيرهم وسلوكهم إلى الله عزّوجلّ ، ففي البداية خليت نفوسهم من الرذائل، وآثروا الرجوع إلى الله، واستقاموا على ذلك حتّى استعدّت لتلقّي الفيض ، فأحبّهم الله لأنّهم من مظاهر رحمته ، ولكنّهم كانوا قهّارين على الكفرة الذين طردوا من ساحته ، فاتّصفوا بصفاته وتفانوا في الصفات ، ثمّ لم يرجعوا عن الجهاد والحركة من الصفات إلى الذات ، فتفانوا في الذات ولم يشغلهم عنها شيء ، فلم تأخذهم في الله لومة لائم، إذ لا إرادة للمؤمن إلّا بما أراده الله تعالى ، فلا يريد إلّا الخير ، والبحث نفيس وله تتمّة تأتي إن شاء الله تعالى .

***

بحثٌ قرآنيّ:

عرفت ممّا تقدّم أنّ الآية الكريمة من جلائل الآيات القرآنيّة التي تبيّن حقيقة إيمان الفرد المؤمن بالله ورسوله، وتدلّ على أنّ السعادة في الدارين هي الالتزام بالطاعة الكاملة، واتّباع الشريعة في جميع الشؤون، وأنّ النكوص عن ذلك يوجب سلب هدايتهم وسعادتهم، وأنّ الله لا يهدى القوم الظالمين، وقد ضمّن عزّوجلّ تلك المضامين العالية في أُسلوب رصين لا يتطرّق إليه الشكّ والريب، وعمد إلى إثباتها بأُمور واضحة جليّة، وأكّدها بأساليب معروفة، فهي من الآيات المعدودة التي تبيّن هوية المسلم، والمحكّ الذى يرجع إليه، والمنهاج الربوبيّ الذى يقيم عليه في أحلك الظروف التي يمرّ بها المؤمن، عندما يفقد الثقة بنفسه أو الزعزعة في عقيدته.

ولعمري إنّها آية جليلة تشتمل على معان سامية، فهي الدستور الذي لا يمكن للفرد أن يحيد عنه، والمنهاج الذي يجب أن تكون الأُمّة عليه، إلّا أنّ القوم جعلوها كسائر الخطابات العادية، وذكروا في تفسيرها ما أبعدها عن المعنى الحقيقيّ الذي أراده عزّوجلّ، واختلفوا في تطبيقها، ونسوا أنّها نزلت لرفع الاختلاف وبعث الطمأنينة، وأنّها أوعدت المؤمنين في أنّهم إذا لم يصلوا أنفسهم ولم يثبتوا على عقيدتهم، ولم يرجعوا إلى الطاعة والعبادة الحقيقيّة، ويتركوا ما يفسد إيمانهم، الذي منه موالاة الكافرين الذين يتربّصون بالإسلام والمسلمين الدوائر للنيل من عقيدتهم، وإفساد دينهم، ومسخ شريعتهم، فإنّ الله يبدّل بهم قوماً آخرين، يجعلهم مناراً ينصر بهم الدين، يخاف منهم العدو ويعيش في كنفهم المؤمن، فهم رحماء بينهم ولكنّهم أشداء على الكفّار، وهذا من الحقائق الواقعيّة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل، فإنّ الله عزّوجلّ ألزم على نفسه أن يُعبد في الأرض، فإن لم تكن من هذه الطائفة حين نزول الآية فمن غيرهم، وهذا ما أكّد عليه القرآن العظيم في غير موضع منه كما ستعرف.

ولأجل تلك المضامين العالية التي تضمّنتها الآية الشريفة ، فقد ذكر عزوجل قبلها أُموراً تمهيديّة ، ثمّ بالغ في التأكيد والإلحاح عليها ، كما هو الشأن في مثل هذا الأمر ، ويستفاد من جميع ذلك أنّ المورد لا يخلو من شيء ، وأنّ وراءه خطباً جليلاً يشرف وقوعه فيه الهلاك والدمار ، ويشهد على صدق ذلك أنّه تعقبت حوادث وأُمور خطيرة صدّقتها في ما دلّت عليه ، وإن كان المخاطبون تجاهلوها حين النزول، مع ما فيها من الرموز والإشارات . وإذا أردنا ذكر نظائر ذلك لطال بنا الكلام .

فقد نهى عزّوجلّ عن الاختلاف وبالغ فيه ، ولكنّه وقع وتشعّبت الأُمّة بأكثر ممّا تشعّبت اليهود والنصارى ، وتفرّقت وتبعثرت بما لا يمكن أن يتصور . كما أنّه تعالى نهى عن الحكم بغير ما أنزل الله، ونهى عن الطغيان واتّباع، الهوى و أمر بمودّة القربى وغير ذلك ممّا هو كثير ، وشدّد فيها وأكّد عليها إلّا أنّه وقع ما وقع .

ومن ذلك النهي عن تولّي الكافرين ، فإنّه لا يخرج عن سائر النواهي المذكورة في القرآن الكريم ، وقد ذكره في خطاب قرآنيّ رصين ، وأكّد عليه وشدّد على العمل بهذا الحكم الإلهيّ، وحذّرهم من مغبة المخالفة ، بل يمكن القول أنّ التشديد المذكور في النهي عن ولآية الكفّار وأهل الكتاب فاق على غيره ، ولم يعدله تشديدٌ آخر في سائر النواهي ، فقد عدّ الله عزّوجلّ الموالين لأهل الكتاب والكافرين منهم **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾** ، حذّرهم منتهى التحذير مكرّراً فقال : **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾**[1] ، ولا ريب أنّ في مثل ذلك التحذير لا محالة يقع المحذور ، وهو مسيس النّار الذي ذكره عزّوجلّ في قوله : **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾**[2] ، وهذا مطلق يشمل الدُّنيا والآخرة ، فقد وقع المحذور ، ولم يكن

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٢٨ .

٢ . سورة هود : الآية ١١٣ .

وليّ ولا نصير، بعدما أمر عزّوجلّ بالرجوع إلى الله، وعدم الخشية من الكفّار قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ**﴾[1]، فإنّ ما كان موجباً للخشية منهم قد زال، ويأس الكفّار من دينهم، واستقرّ الأمر وثبت، فهم في أمن منهم حين نزول الآية الشريفة، فلم يكن لهم همٌّ إلّا إصلاح أمورهم، وترسيخ دعائم الدين، ولم يخشوا إلّا الله الذي يحب التقرّب إليه بطاعته والعمل بشريعته ودينه.

ومن المعلوم أنّ الذي كانوا يخشونه من الكفّار هو سطوتهم والتغلّب على المؤمنين، وإطفاء نور الهداية والدين، وبنزول الآية الشريفة وما في سورة المائدة قد زال ذلك الخوف، فلابدّ من أن تطمئن النفوس، ولم يبق إلّا خشية الله بأن لا يذهب نورهم و يسلب الهداية والتوفيق، وهذا لا يتحقّق في سنّة الله عزّوجلّ الذي قال فيها: ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**﴾ إلّا اذا تحقّق التغيير، وإلّا استحقّ الإنسان العذاب، وقد قال عزّ من قائل: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[2]، ويستفاد من هذه الآية الشريفة، أنّ من سنّة الله التي لا تتبدّل أنّ تغيير النعمة لا يكون إلّا عن استحقاق، ومن تلك النعم التي أنعمها الله على المسلمين نعمة الولآية التي تمّ بها الدين، قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً**﴾[3]، فتغيير هذه النعمة إنّما يكون بالنكوص عن الطاعة، وقطع الرابطة مع الله عزّوجلّ، بالخروج عن ولآية الله عزّوجلّ، والدخول في ولآية الكافرين، والركون إلى الظالمين، وهذا هو السبب في أمرهم بالخشية منه عزّوجلّ، فإنّ في ولآية غيره

---

١. سورة المائدة: الآية ٣.

٢. سورة الأنفال: الآية ٥٣.

٣. سورة المائدة: الآية ٣.

عزّوجلّ وخشية أعدائه سلب السعادة التي كانت في التـديّن بـدينه عـزّوجلّ، والعمل بشريعته ، وهذا ما كان الله عزّوجلّ يريده من المؤمن ، وفيه صلاح أمـره وصلاح المجتمع الإسلاميّ ، وفي غير ذلك فسادهم جميعاً . وإذا أردت شـاهد صدق على ما ذكرناه فعليك تطبيق السيرة الإسلاميّة التي أمـر الله تـعالى بـها، ونظّمها الكتاب والسنّة ، وما عليه من السيرة الفاسدة ، لعرفت صدق ما ورد في الآية الكريمة : **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾** ، ووجدت أنّ الواقع الحالي للمجتمع الإسلاميّ هو على نقيض ما ورد فـي الآيـة الشـريفة ، فـهم لا يحبّون الله ولا يحبّهم الله ، أذلّة على الكافرين أعزّة على المؤمنين ، لا يجاهدون في سبيل الله وتأخذهم في الله لومة لائم ، وأنّ جميع تلك الرذائل التـي حـملت على هذا المجتمع وتحكم فيهم، إنّما جاءت من ولآية الكفّار وأهل الكتاب ، وأنّ الله سوف يأتي بأقوام على خلاف ما هم عليه وضدّهم في تلك الصفات ، وهذا هو النبأ الغيبيّ الذي تفرّسه القرآن الكريم، وأخبر به العـليم الخـبير، بأنّ القـوم سيرتدّون عن دينه ، ألم يكن ذلك كافياً في صدق تـلك المـلحمة العـظيمة فـي الآية؟!

وإنّها بمعزل عمّا ذكره المفسّرون في تفسيرهم للآية الشريفة ، وستجد أنـّها هي العلّة الحقيقيّة في تحديد الولآية وتعيين الوليّ الذي سيتمّ له الأمر ، وهو الذي تحدّده الآية التالية ، فهما آيتان متداخلتان تكمل إحداهما الأُخرى ، ولا يـمكن الفصل بينهما ، وهذا هو الذي أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام كما رواه النعمانيّ في تفسيره ـ فإنّه قال : «إنّ صاحب هذا الأمر محفوظ له ، له ذهب الناس جميعاً أتى الله بأصحابه» ، وهم الذين قال الله عزّوجلّ : **﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِـهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾** .

وهم الذين قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، فقد وعد عزّوجلّ المسلمين وما هم عليه بالإتيان بقومٍ فيهم تلك الخصال الحميدة، على عكس ما عليه المجتمع الإسلاميّ الذي فقدت فيه تلك الصفات.

فكانت الآية الشريفة من الآيات المعدودة التي تبشّر المؤمنين بمجتمع إسلاميّ جامع لصفات الخير والكمال، وخالياً من الرذائل، وقد حذت السنّة الشريفة حذو الكتاب الكريم في الإخبار ببعض المغيّبات والملاحم، فإنّها تهون بعد معرفة صدق مضمونها، فإنّها صدرت قبل أكثر من ألف عام، وقد تضمّنت أخباراً ووقائع لم تحدث حين صدورها، وهي تحكي حياة المجتمع الإسلاميّ في مسيره القادم، بعد فقدان الثقة بالله، والإعراض عن طاعته، وتبيّن كيفية ارتداده عن دين الله عزّوجلّ، ممّا يلتجئ إلى تغيير مفاجئ يقفهم عن ذلك الطغيان والتمرّد، ويأتي بأقوامٍ آخرين يكون فيهم من الصفات التي تكون مفقودة في ذلك المجتمع الكبير، وهذا ما رود في بعض الأحاديث: «أنّ مهدي آخر الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يأتي بدين جديد»، ونحن نذكر بعض الأخبار التي تشتمل على الملاحم والمغيّبات، لتكون شاهدة على صدق تفرّس القرآن الكريم في القوم، وسبباً في ارتداعهم عمّا هو عليه، ونبذ الرذائل ليرحمهم الله عزّوجلّ ويجعلهم مورد عنايته، ويهديهم إلى سواء السبيل، فيرجعون إلى حبّ الله عزّوجلّ إن شاء الله تعالى.

فقد روى القمّي في «تفسيره» عن أبيه، عن سليمان بن مسلم الخشّاب، عن عبد الله بن جريح المكيّ، عن عطاء بن أبي رياح، عن عبدالله بن عبّاس، قال:

«حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فأخذ باب الكعبة، ثمّ أقبل علينا

بوجهه فقال : ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ وكان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان رضي الله عنه ، فقال : بلى يا رسول الله .

فقال ﷺ : إنّ من اشراط القيامة إضاعة الصلاة ، واتّباع الشهوات ، والميل مع الأهواء ، وتعظيم المال ، وبيع الدين بالدنيا ، فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء ، ممّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره ، قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، إنّ عندها يليهم أمراء جورة ، ووزاء فسقة ، وعرفاء ظلمة ، وأُمناء خونة .

فقال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

فقال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سليمان ، إنّ عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، ويؤتمن الخائن ، ويخون الأمين ، ويصدق الكاذب ، ويكذب الصادق ، قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها إمارة النساء ، ومشاورة الإماء ، وقعود الصبيان على المنابر ، ويكون الكذب طرفاً، والزكاة مغرماً ، والفيء مغنماً ، ويجفو الرجل والديه ، ويبرّ صديقه ، ويطلع الكوكب المذنّب .

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أى والذي نفسى بيده يا سلمان ، وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة ، ويكون المطر قيظاً ، ويغيظ الكرام غيظاً ، ويحتفر الرجل المعسر ، فعندها يقارب الأسواق إذا قال هذا : لم أبع شيئاً ، وقال هذا : لم أربح شيئاً ، فلاترى إلّا ذاماً لله.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا

قتلوهم، وإن سكتوا استباحوهم ليستأثروا بفيئهم وليطؤن حرمتهم، وليسفكون دماءهم، وليملؤن قلوبهم رعباً، فلا تراهم إلّا وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين، قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، إنّ عندها يؤتى بشيء من المشرق، وشيء من المغرب يلون أُمّتي، فالويل لضعفاء أُمّتي منهم، والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً، ولا يوقّرون كبيراً، ولا يتجاوزن عن مسيء، أخبارهم فناء، جثتهم جثة الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها يكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، ويركبن ذوات الفروج السروج، فعليهن من أُمّتي لعنة الله.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، إنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البِيَع والكنائس، وتُحلّى المصاحف، وتطول المنارات، وتكثر الصفوف بقلوب متباغضة وألسن مختلفة.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يارسول الله؟

قال ﷺ: أي والذي نفسي بيده، وعندها تحلّى ذكور أُمّتي بالذهب، ويلبسون الحرير والديباج، ويتخذون جلود النمور صفافاً.

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: أي والذي نفسي بيده يا سلمان، وعندها يظهر الربا، ويتعاملون بالغيبة والرشى، ويوضع الدين وترفع الدُّنيا.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، وعندها يكثر الطلاق ، فلا يقام لله حدّ ، ولن يضرّ الله شيئاً ، قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان؟ وعندها تظهر القينات والمعازف ويليهم أشرار أُمّتي ، قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ: أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، وعندها يحجّ أغنياء أُمّتي للنزهة، ويحجّ أوساطها للتجارة ، ويحجّ فقراؤهم للرئاء والسمعة ، فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله ويتخذونه مزامير ، ويكون أقوام يتفقّهون لغير الله ويكثر أولاد الزنا ، ويتغنّون بالقرآن ، ويتهافتون بالدنيا .

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان، ذاك إذا انتهك المحارم ، واكتسبت المآثم، وسلّط الأشرار على الأخيار ، ويفشو الكذب ، وتظهر اللّجاجة ، وتفشو الفاقة، ويتباهون في اللباس ، ويمطرون في غير أوان المطر ، ويستحسنون الكوبة والمعازف ، وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذلّ مَن في الأُمّة ، ويظهر قراؤهم عبادهم فيما بينهم التلاؤم ، فأُولئك يدعون في ملكوت السماوات ، الأرجاس الأنجاس .

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، فعندها لا يخشى الفتى إلّا الفقر ، حتّى إنّ السائل ليسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في يده شيئاً .

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال ﷺ : أي والذي نفسي بيده يا سلمان ، عندها يتكلّم الرويبضة .

فقال: وما الرويبضة يا رسول الله فداك أبي و أُمّي؟

قالﷺ: يتكلّم في أمر العامّة مَن لم يكن تكلّم، فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتّى تخور الأرض خورة، فلا يظن كلّ قوم إلّا أنـّها خارت في ناحيتهم، فيمكثون ما شاء الله، ثمّ ينكتون في مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها، قال: ذهب وفضة ثمّ أومأ بيده إلى الأساطين، فقال: مثل هذا، فيومئذٍ لا ينفع ذهب ولا فضّة، فذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾».

وفي «روضة «الكافي» عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن بعض أصحابه، وعليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير جميعاً عن محمّد ابن أبي مزّة، عن حمران، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

«وذكر هؤلاء عنده وسوء حال الشيعة عندهم، فقال: اني سرت مع أبي جعفر المنصور وهو في موكبه، وهو على فرسه وبين يديه خيل، ومن خلفه خيل، وأنا على حمار إلى جانبه، فقال لي: يا أبا عبد الله قد كان ينبغي لك أن تفرح بما أعطانا الله من القوّة، وفتح لنا من العزّ، ولا تخبر الناس أنّك أحقّ بهذا الأمر منّا وأهل بيتك، فتغرينا بك وبهم.

قال: فقلت: ومَن رفع هذا إليك عنّي فقد كذب، فقال لي: أتحلف على ما تقول؟ قال: فقلت: إنّ الناس سحرة، يعني: يحبّون أن يفسدوا قلبك عليَّ، فلا تمكّنهم من سمعك، فأنا إليك أحوج منك إلينا، فقال لي: تذكر يوم سألتك هل لنا ملك؟ فقلت: نعم طويل عريض شديد، فلا تزالون في مهلة من أمركم، وفسحة من دنياكم، حتّى تصيبوا منّا دماً حراماً في شهر حرام في بلد حرام؟ فعرفت أنـّه قد حفظ الحديث، فقلت: لعلّ الله عزجل أن يكفيك، فإنّي لم أخصّك بهذا، و إنّما هو حديث رويته، ثمّ لعلّ غيرك من أهل بيتك أن يتولّى ذلك، فسكت عنّي فلما رجعت إلى منزلي أتاني بعض موالينا فقال: جعلت فداك والله لقد رأيتك في

موكب أبي جعفر المنصور وأنت على حمار وهو على فرس ، وقد أشرف عليك يكلّمك كأنّك تحته ، فقلت بيني وبين نفسي : هذا حجّة الله على الخلق، وصاحب هذا الأمر الذي يقتدى به ، وهذا الآخر يعمل بالجور ويقتل أولاد الأنبياء، ويسفك الدماء في الأرض بما لا يحبّ الله ، وهو في موكبه وأنت على حمار ، فدخلني من ذلك شكّ حتّى خفت على ديني ونفسي ، قال عليه السلام : فقلت : لو رأيت مَن كان حولي وبين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي من الملائكة لاحتقرته واحترقت ما هو فيه ، فقال : الآن سكن قلبي ، ثمّ قال : إلى متى هؤلاء يملكون ، أو متى الراحة منهم؟ فقلت : أليس تعلم أنّ لكل شيء مدّة؟ قال : بلى ، فقلت : هل ينفعك علمك أنّ هذا الأمر اذا جاء كان أسرع من طرفة العين؟ إنّك لو تعلم حالهم عند الله عزّوجلّ ، وكيف هي كنت لهم أشدّ بغضاً ، ولو جهدت وجهد أهل الأرض أن يدخلوهم في أشدّ ما هم فيه من الإثم لم يقدروا ، فلا يستفزّنك الشيطان ، فإنّ العزّة لله ولرسوله و للمؤمنين ، ولكنّ المنافقين لا يعلمون ، ألا تعلم أنّ مَن انتظر أمرنا وصبر على ما يرى من الأذى والخوف هو غداً في زمرتنا؟ فإذا رأيت الحقّ قد مات وذهب أهله ، ورأيت الجور قد شمل البلاد ، ورأيت القرآن قد خَلق وأُحدث فيه ما ليس فيه، ووجّه على الأهواء ، ورأيت الدين قد انكفأ كما ينكفئ الإناء ، ورأيت أهل الباطل قد استعلوا على أهل الحقّ ، ورأيت الشرّ ظاهراً لا ينهى عنه ويعذر أصحابه ، ورأيت الفسق قد ظهر، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء ، ورأيت المؤمن صامتاً لا يقبل قوله ، ورأيت الفاسق يكذب ولا يردّ عليه كذبه وفريته ، ورأيت الصغير يستحقر الكبير ، ورأيت الأرحام قد تقطّعت ، ورأيت مَن يمتدح بالفسق يضحك منه ولا يردّ عليه قوله ، ورأيت الغلام يعطي ما تعطي المرأة ، ورأيت النساء يتزوجن بالنساء ، ورأيت الثناء قد كثر ، ورأيت الرجل ينفق المال في غير طاعة الله، فلا ينهى ولا يأخذ على يديه ،

ورأيت الناظر يتعوّذ بالله ممّا يرى المؤمن فيه من الاجتهاد ، ورأيت الجار يؤذي جاره وليس له مانع ، ورأيت الكافر فرحاً لما يرى في المؤمن ، مرحاً لما يرى في الأرض من الفساد ، ورأيت الخمور تشرب علانية ويجتمع عليها مَن لا يخاف الله عزّوجلّ ، ورأيت الأمر بالمعروف ذليلاً ، ورأيت الفاسق فيما لا يحبّ الله قوياً محموداً ، ورأيت أصحاب الآيات يحقرون ويحقر مَن يحبّهم ، ورأيت سبيل الخير منقطعاً وسبيل الشرّ مسلوكاً ، ورأيت بيت الله قد عطل ويؤمر بتركه ، ورأيت الرجل يقول ما لا يفعله ، ورأيت الرجال يتمنّون للرجال والنساء للنساء ، ورأيت الرجل معيشته من دبره ومعيشة المرأة من فرجها ، ورأيت النساء يتّخذن المجالس كما يتّخذها الرجال ، ورأيت التأنيث في ولد العباس فد ظهر ، وأظهروا الخضاب وامتشطوا كما تمتشط المرأة لزوجها ، وأعطوا الرجال الأموال على فروجهم ، وتنوفس في الرجل ، وتغاير عليه الرجال ، وكان صاحب المال أعزّ من المؤمن ، وكان الربا ظاهراً لا يعيّر ، وكان الزنا تمتدح به النساء ، ورأيت المرأة تصانع زوجها على نكاح الرجال ، ورأيت أكثر الناس وخير بيت مَن يساعد النساء على فسقهنّ ، ورأيت المؤمن محزوناً محتقراً ذليلاً ، ورأيت البدع والزنا قد ظهر ، ورأيت الناس يعتدون بشاهد الزور ، ورأيت الحرام يُحلّل ، والحلال يُحرّم ، ورأيت الدين بالرأي ، وعطّل الكتاب وأحكامه ، ورأيت الليل لا يستخفى به من الجراة على الله ، ورأيت المؤمن لا يستطيع أن ينكر إلّا بقلبه ، ورأيت العظيم من المال ينفق في سخط الله عزّوجلّ ، ورأيت الولاة يقربون أهل الكفر ويباعدون أهل الخير ، ورأيت الولاة يرتشون في الحكم ، ورأيت الولآية قبالة لمَن زاد ، ورأيت ذوات الأرحام ينكحن ويكتفى بهن ، ورأيت الرجل يقتل على التهمة وعلى الظنّة ، ويتغاير على الرجل الذكر فيبذل له نفسه وماله ، ورأيت الرجل يعيّر على إتيان النساء ، ورأيت الرجل يأكل من كسب امرأته من الفجور ،

يعلم ذلك ويقيم عليه ، ورأيت المرأة تقهر زوجها وتعمل ما لا يشتهي، وتنفق على زوجها ، ورأيت الرجل يكري امرأته وجاريته، ويرضى بالدنئ من الطعام والشراب ، ورأيت الأيمان بالله عزّوجلّ كثيرة على الزور ، ورأيت القمار قد ظهر ، ورأيت الشراب يُباع ظاهراً ليس له مانع ، ورأيت النساء يبذلن أنفسهن لأهل الكفر ، ورأيت الملاهي قد ظهر يمرّ بها لا يمنعها أحد، ولا يجترئ أحدٌ على منعها ، ورأيت الشريف يستذلّه الذي يخاف سلطانه ، ورأيت أقرب الناس من الولاة مَن يمتدح بشتمنا أهل البيت ، ورأيت مَن يحبّنا يزور ولا تقبل شهادته، ورأيت الزور من القول يتنافس فيه ، ورأيت القرآن قد ثقل على الناس استماعه، وخفّ على الناس استماع الباطل ، ورأيت الجار يكرم الجار خوفاً من لسانه ، ورأيت الحدود قد عطّلت وعُمل فيها بالأهواء ، ورأيت المساجد قد زخرفت ، ورأيت أصدق الناس عند الناس المفتري الكذب ، ورأيت الشرّ قد ظهر والسعي بالنميمة ، ورأيت البغي قد فشا ، ورأيت الغيبة تستملح ويبشّر بها الناس بعضها بعضاً ، ورأيت طلب الحجّ والجهاد لغير الله، ورأيت السلطان يذلّ للكافر المؤمن ، ورأيت الخراب قد أُديل من العمران ، ورأيت الرجل معيشته من بخس المكيال والميزان ، ورأيت سفك الدماء يستخفّ بها ، ورأيت الرجل يطلب الرئاسة لغرض الدُّنيا، ويشهر نفسه بخبث اللّسان ليتقى وتستند إليه الأُمور ، ورأيت الصلاة قد استخفّ بها ، ورأيت الرجل عنده المال الكثير لم يزكه منذ ملكه ، ورأيت الميت ينشر من قبره ويؤذى وتباع أكفانه ، ورأيت الهرج قد كثر ، ورأيت الرجل يمسى نشوان ويصبح سكران لا يهتمّ بما الناس فيه ، ورأيت البهائم تنكح ، ورأيت البهائم تفرس بعضها بعضاً ، ورأيت الرجل يخرج إلى مصلّاه ويرجع وليس عليه شيء من ثيابه ، ورأيت قلوب الناس قد قست وجمدت أعينهم وثقل الذكر عليهم ، ورأيت السحت قد ظهر يتنافس فيه ، ورأيت المصلّي إنّما يصلّي ليراه

الناس ، ورأيت الفقيه يتفقّه لغير الدين يطلب الدُّنيا والرئاسة ، ورأيت الناس مع مَن غلب ، ورأيت طالب الحلال يذمّ ويعيّر ، وطالب الحرام يمدح ويعظّم ، ورأيت الحرمين يعمل فيها بما لا يحبّ الله ، لا يمنعهم مانع ولا يحول بينهم وبين العمل القبيح أحد ، ورأيت المعازف ظاهرة في الحرمين ، ورأيت الرجل يتكلّم بشيء من الحقّ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فيقوم إليه مَن ينصحه في نفسه فيقول : هذا عنك موضوع ، ورأيت الناس ينظر بعضهم إلى بعض ويقتدون بأهل الشرّ، ورأيت مسلك الخير وطريقه خالياً لا يسلكه أحد ، ورأيت الميت يهزأ به فلا يفزع له أحد ، ورأيت كلّ عام يحدث فيه من البدعة والشرّ أكثر ممّا كان ، ورأيت الخلق والمجالس لا يتابعون إلّا الأغنياء ، ورأيت المحتاج يعطى على الضحك به ويرحم لغير وجه الله ، ورأيت الآيات في السماء لا يفزع لها أحد ، ورأيت الناس يتسافدون كما تسافد البهائم، لا ينكر أحدٌ منكراً تخوفاً من الناس ، ورأيت الرجل ينفق الكثير في غير طاعة الله، ويمنع اليسير في طاعة الله ، ورأيت العقوق قد ظهر واستخفّ بالوالدين، وكانا من أسوء الناس حالاً عند الولد، ويفرح بأن يفتري عليهما ، ورأيت النساء وقد غلبن على الملك، وغلبن على كلّ أمرٍ لا يؤتي إلّا ما لهنّ فيه هوى ، ورأيت ابن الرجل يفتري على أبيه ويدعو على والديه ويفرح بموتهما ، ورأيت الرجل إذا مرّ به يوم ولم يكسب فيه الذنب العظيم من فجور أو بخس مكيال أو ميزان أو غشيان حرام أو شرب مسكر ، كئيباً حزيناً يحسب أنّ ذلك اليوم عليه وضيعة من عمره ، ورأيت السلطان يحتكر الطعام ، ورأيت أموال ذوي القربى تقسّم في الزور ويتقامر بها وتشرب بها الخمور ، ورأيت الخمر يتداوى بها ويوصف للمريض ويستشفى بها ، ورأيت الناس قد استووا في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك التديّن به ، ورأيت رياح المنافقين وأهل النفاق قائمة ورياح أهل الحقّ لا تحرك ،

ورأيت الأذان بالأجر والصلاة بالأجر ، ورأيت المساجد محتشية ممّن لا يخاف الله، مجتمعون فيها للغيبة وأكل لحوم أهل الحقّ، ويتواصفون فيها شراب المسكر ، ورأيت السكران يصلّي بالناس وهو لا يعقل ولا يشان بالكسر، وإذا سكر أكرم واتقى وضُيّف وترك لا يعاقب ويعذر بسكره ، ورأيت مَن أكل أموال اليتامى يحمد بصلاحه ، ورأيت القضاة يقضون بخلاف ما أمر الله ورأيت الولاة يأتمنون الخونة للطمع ، ورأيت الميراث قد وضعته الولاة لأهل الفسوق والجرأة على الله، يأخذون منهم ويخلّونهم وما يشتهون ، ورأيت المنابر يؤمر عليها بالتقوى ولا يعمل القائل بما يأمر ، ورأيت الصلاة قد استخفّ بأوقاتها ، ورأيت الصدقة بالشفاعة لا يراد بها وجه الله ويعطى لطلب الناس ، ورأيت الناس همّهم بطونهم وفروجهم، لا يبالون بما أكلوا وما نكحوا ، ورأيت الدُّنيا مقبلة عليهم ، ورأيت أعلام الحقّ قد درست ، فكن على حذر واطلب إلى الله عزّوجلّ النجاة ، وأعلم أنّ الناس في سخط الله عزّوجلّ ، وإنّما يمهلهم لأمر يراد به ، فكن مترقّباً واجتهد ليراك الله عزّوجلّ في خلاف ما هم عليه ، فإنّ نزل بهم العذاب وكنت فيهم عجلت إلى رحمة الله ، وأن أُخّرت ابتلوا وكنت قد أُخرجت ممّا هم فيه من الجرأة على الله عزّوجلّ ، وأعلم أنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ، وأنّ رحمة الله قريب من المحسنين» .

أقول : هذه بعض الأحاديث التي تشتمل على المغيّبات والملاحم والفتن وهي كثيرة مختلفة ، وما استأثر الله تعالى به، وما علمه الراسخون في العلم، أكثر ممّا ذكر ، ووقوعها في الخارج أدلّ شيء على صدقها ، وقد رواها الثقات من العلماء في كتب الحديث والملاحم والفتن قبل مئات السنين .

وكيف كان ، فإنّ ما ذكر منها ليس على نحو العليّة التامّة ، بل هي حقائق اجتماعيّة تترتّب على الأفعال الخالية عن الخلوص والإخلاص ، البعيدة عن

شرع الله عزّوجلّ ، فلو استبدل القائمون بها أفعالهم لتغيّر الوضع ، كما قال عزّوجلّ :﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] ، فلا تكون هذه الأخبار مثبطة لعزائم المؤمنين ، ولا يسقط حكم من الأحكام الإلهيّة ، بل لابدّ أن تكون سبباً في شدّ عزائمهم لئلّا يقع المحذور، ويشتدّ سخط الجبّار ، فلا يكون إلّا الدمار، نعوذ بالله ، والحديثان يحتاجان إلى شرح وتفسير ليس المقام موضع ذلك لعلّ الله تعالى يوفّقنا إلى ذلك ، وإنّما أوردتهما لما فيهما من الفوائد والتذكير للمؤمنين ، ولأنّهما شرح وتفسير لما ورد في الآية الشريفة من الإشارة والتلويح .

***

١ . سورة الرعد : الآية ١١ .

الآية ٥٥ ـ ٥٦

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

الآيتان الشريفتان بمنزلة التطبيق والنتيجة لما ذكره عزّوجلّ في الآية السابقة ، فإنّه بعد أن حذّر عزّ شأنه المؤمنين من مغبّة الارتداد والرجوع إلى الكفر ، بتولّي الكافرين الذين أضلّهم الله عزّوجلّ، وأبعدهم عن رحمته ، فلا يكون همّهم إلّا صدّ المؤمنين عن الإيمان والطاعة ومحو الدين ، فإذا تولّاهم المؤمنون والحال هذه إنّما يكونوا منهم ، وأنّ الله تعالى اقتضت حكمته المتعالية أن يُعبد في الأرض، وأن يظلّ الدين الحقّ راسخاً ، يقاوم الباطل ومكر الماكرين وكيدهم ، فاذا لم يقدر هؤلاء المؤمنون من ذلك، فسوف يأتي الله تعالى بقوم يحبّهم ويحبّونه، متّصفين بصفات قياديّة ، عندهم القدرة على حفظ دين الله من الضياع، ويهتمّون بنشره وإرساء قواعده في نفوس الناس والمؤمنين به ، وذلك يتطلّب معرفة الولآية الحقّة الإلهيّة المتمثّلة بولايته عزّوجلّ، وولاية الرسول الكريم، وولاية مَن اختاره الله عزّوجلّ لهذه المهمة ، ومَن يكون متّصفاً بتلك الصفات التي تجعله وليّاً ، يقوم بحفظ الدين ونشره، وإرساء قواعده، ودحض معانديه، وإبطال شبههم وأباطيلهم ، يعيش في كنفه المؤمنون ، يرعى مصالحهم،

ويقوم بأمرهم عزيزاً عليهم قويّاً، يردعهم عن ما يضمرونه في نفوسهم بالنسبة إلى المؤمنين ودينهم الحقّ، يجاهد في سبيل الله غير مبالٍ بأمر إلّا حفظ دينه وتقوية شوكته، وتهيئة السُّبل إلى طاعته، وقد قرن عزّوجلّ ولايتهم بولايته وولآية الرسول الأعظم، لبيان أنّها إفاضية من تلك الولايتين ومن متمّماتها، وأنّها شبيه بولايتهم، وقد أكد عزّوجلّ أنّ هؤلاء الصفوة والمتهيّئين لفيض الولاية، أنّهم من أهل طاعته، والعمل بدينه وأحكامه، قد أصلحوا نفوسهم، وأحكموا الأمر فيها لتطبيقها مع شرع الله ودينه الحقّ، قبل أن يتهيّئوا لإصلاح الناس وإرشادهم إلى طاعته، وقد أحكم عزّوجلّ جميع ما يتطلّبه هذا الحكم الجديد موضوعاً وحكماً وشرطاً وقيداً، حتّى لا يبقى مجال لشكّ أو شبهة، ثمّ ختم بأنّ مَن يرجع إلى ولايتهم ويقبلها بإخلاص وطاعة، فإنّه يكون من حزب الله، ولا ريب أنّ حزب الله هم الغلبون.

فهذه الآيات بمجموعها لا يعترضها ريب في أنّها سيقت لبيان الولاية الإلهيّة في تثبيت دين الله، وإرساء قواعد الإيمان، وتطبيق شريعته، فمَن أمعن النظر فيها وألقى العناد والمجادلة في الحقّ، يظهر له ذلك بوضوح، كما سيتّضح لك إن شاء الله تعالى.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ﴾.

تقدّم الكلام في مادّة (ولى) في ما سبق من الآيات، والمراد منها هو الارتباط الحاصل بين شيئين، يوجب الامتزاج الماديّ أو الروحيّ أو كليهما بين الطرفين، ويختلف ذلك شدّةً وضعفاً، ولأجل هذا اختلفت أفراد الولاية، فهي إمّا ولاية حقّة حقيقيّة، تكوينيّة و تشريعيّة، وهذه منحصرة في ولآية الله عزّوجلّ،

فقد ثبتت له تعالى الولاية التي بها يتصرّف في جميع خلقه، بالتدبير والرعاية والقيومية، فهو الربّ والقيوم يفعل ما يشاء وكيف يشاء، قال تعالى: **﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾**[١]، وغير ذلك من الآيات التي تثبت له عزّوجلّ ولاية خاصّة تكوينيّة، ومن فروع هذه الولاية، ولاية النصرة التي خصّها لنفسه ينصر بها المؤمنين، قال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾**[٢]، وقال تعالى: **﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٣].

كما ثبّت له الولاية التشريعيّة، لإرشاد العباد وهدايتهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وتوفيقهم إلى سبل الخير، قال تعالى: **﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾**[٤]، وإلى هذا المعنى يشير: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾**[٥] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فهذه الولاية الثابتة له عزّوجلّ هي ولاية حقّة حقيقيّة، بجميع أقسامها التكوينيّة والتشريعيّة وفروعهما ذاتيّة له تعالى، وهي أقصى مراتب الولاية، لا يعترضها شوب مجاز وجعل من جاعل. وأمّا غيره عزّوجلّ فهي امتنانيّة تبعيّة، فقد ثبّت لأنبيائه الكرام الولاية التشريعيّة بجعلٍ منه عزّوجلّ، كما هو معلوم، فهم رسل الله أرسلهم لهداية البشر وسوقهم إلى الله، وأنزل عليهم الكتب والشريعة.

وقد ذكر عزّوجلّ لنبيّه الكريم ﷺ الولاية التشريعيّة في عدّة مواضع من

---

١. سورة الشورى: الآية ٩.

٢. سورة محمد: الآية ١١.

٣. سورة الروم: الآية ٤٧.

٤. سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

٥. سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

القرآن الكريم، وهي: القيام بتشريع الأحكام، والدعوة إلى الله، وتربيته الأُمّة، والحكم بينهم والقضاء فيهم، قال الله تعالى: **﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾**[3]، وغير ذلك من الآيات التي تدلّ على ثبوت مثل هذه الولاية له ﷺ، وقد تقدّم قوله عزّوجلّ: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾**[4]، فإنّ إطاعته إطاعة الله، بل إنّ قوله تعالى: **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾**[5]، يثبت الولايةَ التكوينيّة له عزّوجلّ أيضاً، مضافاً إلى الولاية التشريعيّة، وتدلّ عليه جملة كثيرة من الأخبار المرويّة من الفريقين، وله موضع آخر في البحث عنه يأتي إن شاء الله تعالى.

فهو ﷺ المتولّي للأُمور المستحقّ للتصرّف فيها، وهذه الولاية الثابتة له ﷺ ولله عزّوجلّ تثبت للمؤمنين الذين ذكرتهم الآية الشريفة، فإنّ وحدة السياق تدلّ على أنّ الولاية في الجميع واحدة، إلّا أنّها تختلف بالأصالة والتبع، ولا يضرّ ذلك في أصل ثبوتها لهم، فهي الولاية الإلهيّة التشريعيّة التي تثبت للنبيّ ﷺ وللمؤمنين المذكورين في الآية، التي مهّدت لهم الآية السابقة بأحسن تمهيد، ووصفتهم بأحسن الصفات، ووسمتهم هذه الآية بوسام إلهيّ عظيم، وجعلتهم أئمّة يهدونَ غيرهم بالحقّ وإلى طاعة الله، ويحفظون دينه من كلّ ما

---

١ . سورة النساء: الآية ٨٠.

٢ . سورة النساء: الآية ١٠٥.

٣ . سورة النساء: الآية ٥٩.

٤ . سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

٥ . سورة الأحزاب: الآية ٦.

يشينه ويفسده، ويحكمون فيهم في جميع شؤونهم، وتكون وظيفة الأُمّة التسليم لهم تسليم طاعة، كما قال عزّوجلّ في موضع آخر: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**[1].

ويدلّ على ما ذكرناه أُمور:

الأوّل: أداة الحصر «إنّما» التي تدلّ على أنّ القصر في هذه الآية الكريمة هو قصر الإفراد، لدفع ما ربّما يتوهّم أنّ الولاية ثابتة للمذكورين في الآية وغيرهم، فأفرد سبحانه وتعالى المذكورين للقصر، ويمكن أن تحمل الآية على قصر القلب أيضاً، وتفيد الحصر أيضاً كما هو واضح.

الثاني: وحدة السياق، التي هي من الأساليب المعروفة التي يبتني عليها كلام العرب، فإنّه لو كانت الولاية المنسوبة إلى الله تعالى والرسول غير المنسوبة إلى الذين آمنوا، لوجب إفراد ولاية أُخرى للمؤمنين بالذكر، يرفع بها الالتباس ـ لأنّ المقام لا يخلو منه ـ كما هو الشأن في نظيره **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾**[2].

الثالث: إفراد ذكر «وليّكم» مع تعدّده، ولو كانت الولاية مختلفة حقيقة في الآية، لما كان لإفرادها وجه، فيكون في إفرادها دلالة على وحدة الولاية في المذكورين، نعم ربّما يكون فيها الاختلاف بالأصل والتبع، ولا يضرّ ذلك في أصلها، كما عرفت آنفاً.

الرابع: تقدّم في الآية السابقة أنّ ما ورد فيها لا يمكن فصله عن هذه الآية، فإنّهما مترابطتان، إحداهما تكون ممهّدة للأُخرى، وهي بمنزلة النتيجة لها، فراجع، فإنّ جميع ذلك إنّما سيق لبيان الولاية الإلهيّة، وأنّ مَن يستحقّها من المؤمنين مَن استوفى جميع تلك الشروط والمقامات، وأخلص لله عزّوجلّ في جميع شؤونه وأطاعه طاعة كاملة تستولي على جميع أفعاله ومشاعره، فراجع

---

١ و ٢. سورة النساء: الآية ٥٩.

يظهر ذلك بوضوح.

الخامس: أنّ هذه الولاية إنّما ثبتت بعد نهي المؤمنين عن ولاية الكافرين، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾[1]، وتعيّر المنافقين والذين في قلوبهم مرض بالمسارعة والركون إليهم، ويرجعون إليهم في شؤونهم، فإنّ ذلك يفيد أنّ ولايتهم إنّما كانت ولاية اعتماد وركون، لا ولاية نصرة وحسب، وإلّا لما كان لذلك التشديد وجه، فإنّ تولّي بعضهم بعضاً ليس ولاية حبّ ونصرة، بل هو تولّي يستتبع التمازج النفسيّ بينهم، بحيث يتقارب الطرفان، وتجتمع الفرق في الضلال والإضلال، ولذا كان تولّيهم لهذا المعنى يوجب أن يكون منهم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾، وقد حذّرهم عزّوجلّ من نفسه فقال: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾[2]، فإنّ كلّ ذلك يدلّ على أنّ الولاية المنهية ليست هي مجرّد ولاية نصرة ومحبّة، وقد نهى الله عزّوجلّ عنها في آيات أُخرى، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**﴾[3]، فإنّ الأُسلوب والحكم في الولاية المنهيّ عنها في آيات المائدة مختلفة عمّا ورد في آيات الممتحنة.

فيفهم من جميع ذلك أنّ الولاية الثابتة في هذه الآية الكريمة، هي على غرار تلك الولاية المنهيّ عنها، لكن بنحو أشدّ وأوثق وأتقن، فكانت ولاية حقّة شاملة جامعة تشريعيّة وتكوينيّة ـ أيضاً ـ للإطلاق، فلا وجه للتمسّك بسياق جميع الآيات السابقة واللّاحقة لإثبات أنّ الولاية في هذه الآية هي ولاية النصرة فقط، فإنّ ذلك ناشئ من التصرّف في ظاهر الآيات من دون دليل. فراجع و تأمّل.

---

١. سورة المائدة: الآية ٥١.

٢. سورة آل عمران: الآية ٣٠.

٣. سورة الممتحنة: الآية ١.

السادس: أنّ تجريد الآية عن الولاية التشريعيّة للمذكورين فيها، يستلزم إبعادها عن المعنى المقصود الذي أراده الله عزّوجلّ، فإنّ لسان الآيات الشريفة يحكي عن تثبيت أمرٍ مهمٍ له دخلٌ في حفظ هذا الدين واستمراره في الوجود وبقائه، وأنّ الله عزّوجلّ تعهّد بإتيان أقوام لهم من المقوّمات ما يجعلهم قدوة لتحمّل هذه المسؤولية، فلو أُريد من هذه الولاية هي ولاية النصرة فقط، لسلبت من الآية روحها وصميم دلالتها، فإنّ نصرة الدين من فروع الإيمان، وداخلة في الولاية الإلهيّة، فاذا قصرناها على هذا الفرع فقط، فقد نفينا عنها سائر الأنواع والأقسام من الولاية، وهذا ينافي إطلاقها الشامل لجميع أفراد الولاية الإلهيّة كما هو واضح.

السابع: الروايات الكثيرة المرويّة من الفريقين على أنّ الآية نازلة في شأن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لمّا تصدّق بخاتمه وهو في الركوع، فهي خاصّة لا عامّة تشمل جميع المؤمنين، وسيأتي نقل جملة من تلك الأخبار في البحث الروائيّ إن شاء الله تعالى.

ومن جميع ما ذكرناه يظهر بطلان القول بتعميم الآية للجميع، وإثبات ولاية المؤمنين بعضهم لبعض في خصوص نصرة بعضهم بعضاً، فيكون المعنى أنّه ليس لكم ناصر إلّا الله ورسوله وأنفسكم بعد النهي عن ولاية اليهود والنصارى، فيكون من نفي طلب النصرة ممّن يسارع في الكفر، ومرضى القلوب الذين يتولّون الكفّار. وخلاصة ما استدلّوا به على ذلك وحدة سياق الآيات الشريفة، فإنّها واردة بين آياتٍ تنهى عن ولاية أهل الكتاب والكفّار، فإنّ الجميع ذات سياق واحد، فكأنّه قيل: لا تتّخذوا أُولئك أولياء؛ لأنّ بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنّما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون، فاختصّوهم بالموالاة والمحبّة والنصرة، ولا تتخطوهم إلى الغير. وقد تصرّفوا في الجملة الحاليّة،

وذكروا أنّ المراد من الركوع هو الخضوع أو انحطاط الحال لفقر، أي يؤتون الزكاة مع انحطاط حالهم في الفقر والعسر، أو أنّهم خاضعون وخاشعون لله تعالى. وكلّ ذلك باطل.

وعرفت من أنّ السياق خلاف ما ذكروه، ولم يكن سياق في البين بالوجه الذي ذكروه يوجب إدراج الآية الكريمة في الآيات السابقة، بل هو على الخلاف، كما تقدّم، وسيأتي في البحث الكلامي تتمّة الكلام إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: وأحق بكم وبأُموركم من أنفسكم والذين آمنوا، وهي الولاية الإلهيّة التي تثبت له عزّوجلّ حقيقة، ولرسوله والذين آمنوا تبعاً واستناداً إليه عزّ شأنه، وقد ذكرنا أنّ هذه الولاية ثابتة للرسول الكريم في آيات أُخرى. ولا إشكال فيه من أحد من المسلمين، إنّما الكلام في ثبوتها للذين آمنوا، الذين عناهم عزّوجلّ في الآية السابقة، ووصفهم بالوصف المذكور في المقام، وهو إيتاء الزكاة وهم راكعون، فقد ذهب إلى ثبوتها الإماميّة لهذه الآية الشريفة وغيرها ممّا سيأتي، ولنصوص رواها الفريقان مذكورة في كتب الأحاديث، وقد صنّفوا فيها كتباً ورسائل، مَن أراد الاطلاع عليها فليرجع إليها.

وأمّا غيرهم من باقي الفرق فقد نفوها، ولم يثبتوها إلّا إلى الرسول الكريم ﷺ، وهذه المسألة هي أساس تشعّب المسلمين وتفرّقهم إلى طوائف، ولو أُلقي التعصّب والعناد إلى جانب، وأُعطي العلماء لأنفسهم حقّ التدبّر في الآية الكريمة، ونبذوا اللّحاج، لتبيّن أنّها تدلّ على الولاية الإلهيّة بأوضح أُسلوب وأتمّ بيان، فإنّها مع القرائن المحفوفة به سابقاً ولاحقاً، لا يعترضها شكّ في دلالتها كما عرفت آنفاً، لكنّهم غمطوا حقّ الآية وأفردوها عن بقية الآيات، وأوّلوها بالرأي وجعلوها تشمل عامّة المؤمنين، وتمسّكوا بروايات لا تدلّ على

المطلوب مع الأغماض عن أسانيدها، واستدلّوا بحديث نسبوه إلى أبي جعفر الباقر (عليه الصلاة والسلام) حينما سُئل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال عليه‌السلام: «عليّ من المؤمنين»، أي: أنّ هذا عامّ لجميع المؤمنين، وعمدة إشكالهم يرجع إلى أنّ «الذين» عامّ يشمل كلّ مَن أسلم، ولا يمكن أن يراد به شخص واحد، فإنّه خلاف الظاهر، ولكن يمكن الجواب عنه:

أوّلاً: بما تقدّم غير مرّة من أنّ استعمال الجمع في موضع الإفراد وبالعكس، من الأساليب البلاغيّة التي كانت تستعملها لأجل أغراض بلاغيّة معروفة، وقد ذكرها علماء البيان في كتبهم.

ثانياً: استعمال القرآن ذلك في غير موضع: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[1]، والمراد به نعيم بن مسعود الأشجعيّ، وقصّته معروفة ومذكورة في كتب التفسير والتاريخ. قال تعالى: ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[3]، والمعروف أنّ القائل هو عبدالله بن أُبّي بن سلول. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾[4]، والمنفق إمّا هو عليّ عليه‌السلام أو غيره، وغير ذلك من الموارد الكثير، بل يمكن القول أنّ أكثر ما ورد في القرآن الكريم من السؤال إنّما هو من واحد، مثل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾[5]، والسائل هو واحد.

١. سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

٢. سورة آل عمران: الآية ٦١.

٣. سورة المنافقون الآية ٨.

٤. سورة البقرة: الآية ٢٧٤.

٥. سورة البقرة: الآية ٢١٥.

ثالثاً: إنّ استعمال لفظ الجمع في الواحد، إنّما يكون خلاف الظاهر في ما إذا لم يكن نكتة أو غرضاً يسوغه. وأمّا إذا كان المراد من استعمال الجمع لبيان حكم كلّي لينطبق على كلّ مَن يصحّ أن ينطبق عليه، ولم يكن في الخارج إلّا مصداق واحد أو فرد معيّن، فلا بأس بذلك، والعرف واللغة لا تأبيان عن ذلك، بل هو شائع في الاستعمالات.

رابعاً: إنّ المقام لم يكن من استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد منه، بل استعمل فيها هو الموضوع له، وإنّ المراد بالذين آمنوا هم الذين صحّ اتّصافهم بالأوصاف السابقة، ويكون المراد منه أنّ الذين آمنوا هم الذين اتّصفوا بتلك الأوصاف، وهم المطيعون لله تعالى غاية التذلّل والخضوع، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويدلّ عليه إتيان الفعل المضارع الدالّ على التجدّد والتكرار.

وإلى هذا يرجع ما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام، فلا يكون منفرداً عن آبائه الكرام وأولاده المعصومين عليهم السلام، فراجع.

كما يدلّ عليه ما رواه «الكافي» عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «يعني: أولى بكم، أي أحقّ بكم وبأُموركم من أنفسكم وأموالكم: الله ورسوله والذين آمنوا، يعني: عليّاً وأولاده الأئمّة عليهم السلام إلى يوم القيامة». وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾.

بيان للذين آمنوا، والجملة إمّا بدل من الموصول الأوّل، أو صفة له، وكيف كان فقد وصفهم تعالى بصفتين، قد أوصى الأنبياء السابقون أُممهم بها، وقد حكى عزّوجلّ عن عيسى بن مريم عليه السلام قوله: ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً**﴾[1]، فإنّ الصلاة رابطة العبد مع الله تعالى، وفيها الطاعة بالتذلّل والخضوع

---

١. سورة مريم: الآية ٣١.

والخشوع لدى جنابه، وفيها يتجلّي الربّ لعبده، فينقطع عن علائقة المادّيّة، وفيها نبذ الأنداد، وبها يستمدّ العبد العون من خالقه؛ ولذا كانت الصلاة قرّة عين الأنبياء العظام، وأُنس الأولياء الكرام، فهم الذين أقاموها وأعطوا حقّها ورعوها حقّ رعايتها، وهم الذين إذا تمكّنوا في البلاد أقاموها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾[1]، وإنّ قطعها يوجب الشقاء والفساد. ولا يخلو اتيان الفعل المضارع من الإشعار بالمداومة والتكرار حيناً بعد حين. وإنّ أولاده الكرام يفعلون كما فعله أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّهم لجديرون بإقامة الصلاة، ولم يقدر غيرهم إقامتها بالذي يقدرون عليها، فليس مجرّد اتيانها ـ مع وجود الموانع والحجب ـ هو إقامتها، كما هو واضح ومعلوم.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

الزكاة معروفة إذا أُطلقت انصرفت إلى الصدقة المعروفة في شرع الإسلام. وقد يراد منها مطلق الصدقة، وجملة: «وهم راكعون» حال من فاعل «يؤتون» وهو العامل فيها، والركوع أيضاً معروف، وهو الهيئة الخاصّة في الصلاة، فيه نهاية التذلّل والخضوع لله تعالى، وقد يستعار لمطلق التذلّل والخضوع وفي الفقر الذي فيه التذلّل للغير، والمراد من الزكاة في المقام هي الزكاة المفروضة، كما أنّ المراد من الركوع هو الهيئة المعروفة، وقد جمع هؤلاء المؤمنون الصدقة في الصلاة لبيان نهاية طاعتهم، فإنّه لا ريب أنّ الجمع بين العبادتين في آن واحد هو من أقصى مقامات العبوديّة، لا يتيسّر لكلّ واحد.

وقد استشكل جمع من المفسّرين: بأنّ إعطاه الخاتم في الصلاة لا يسمّى زكاةً، ولا يقع في كلام الفصحاء من الناس، وأنّ المراد من الركوع المعنى

---

١. سورة الحج: الآية ٤١.

المجازي فيه، وهو الفقر الذي قد يوجب المذلّة.

وأجاب عنه بعضهم: بأنّ المراد من الزكاة مطلق الصدقة وإنفاق المال لوجه الله تعالى، واستشهد ببعض الآيات الشريفة الحاكية عن الأنبياء السابقين، فإنّه ليس في شرائعهم الزكاة الماليّة بالمعنى المصطلح عليه في الإسلام، كما هو الشأن في لفظ الزكاة الوارد في السور المكّيّة وأوائل البعثة، فإنّ المراد منه في جميع ذلك هو الصدقة والإنفاق في سبيل الله، فلا موجب لارتكاب خلاف الظاهر.

والحقّ أن يقال: أنّ المراد من كلا اللّفظين المعنى الحقيقيّ منهما، ولا موجب لارتكاب المجاز فيهما، فالمراد من الزكاة في المقام، هو الحقّ الماليّ المعروف؛ لأنّ سورة المائدة هي من السور المعدودة التي اشتملت على الكثير من الأحكام المعروفة، وقد حدّد الإسلام الزكاة وبيّن أحكامها، وأنّ ما هو المعروف في الإسلام هو المعروف في سائر الأديان الإلهيّة، إلّا أنّ الاختلاف في بعض الفروع والأحكام، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في علم الأُصول، فراجع.

وأمّا الاستشهاد ببعض الآيات فإنّها موضع إشكال، أوّلاً.

وأنّ استعمال الزكاة في بعضها في مطلق الصدقة لقرائن خاصّة، لا يوجب رفع اليد عن الظاهر في المقام، ثانياً.

فالحقّ أنّ الآية ظاهرة في إيتاء الزكاة المفروضة حال الركوع من الصلاة كما عرفت، ولا موجب لارتكاب المجاز فيهما.

وأمّا إنّ هؤلاء المؤمنين قد أعطوا زكاتهم وآتوها ووسموا بها؛ لأنّها تشتمل على التراحم والتوادّ بين المؤمنين، وأنّ بها إقامة أُمّتهم ورفع خصاصتهم، ويتحقّق بها التكافل بينهم، فاجتمع فيها الخضوع والرأفة وإقامة صرح الإسلام ورفع حاجات المؤمنين، ويتمثّل فيها الإعراض عن الدُّنيا

وزبرجها، والانقطاع إلى الله، ونبذ ما تشتهيه النفس التي جبلت على حبّ المال، ولأجل ذلك وغيره من الحكم في تشريع الزكاة، تعلم وجه الاختصاص بها في المقام، و أنّ بهذين الأمرين ـ وهما الصلاة والزكاة ـ يمكن إقامة صرح الإسلام ونشره، ودفع ظلم النفوس وأعداء الإسلام، وبهما تتيسّر عبادة الله عزّوجلّ وطاعته وتصفو النفوس وتعدل، ويقيم القسط والعدل في ربوع الأرض.

فلا وجه حينئذٍ لصرف الآية عن ظاهرها، ومن جميع ذلك تعرف وجه دلالتها على المقصود، من دون حاجة إلى تأويلها وارتكاب خلاف الظاهر فيها. وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

تأكيد بليغ لما تضمنته الآية السابقة، وإعلام بأنّ التولّي ـ الذي هو شرط من شروط الإسلام ـ لا يتحقّق إلّا بأخذ مَن ذكر في الآية السابقة وليّاً، ويتعهّد بمراعاة الطاعة لهم، وتطبيق الإسلام فيهم، وإلّا فلا يكون مؤمناً متوليّاً، ولعلّه لأجل ذلك وضع الظاهر موضع المضمر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

مادّة «حزب» تدلّ على القوم الذين اجتمعوا لأمرٍ آخر مهمّ، ولا يستعمل الحزب إلّا في الجماعة التي فيها شدّة وغلظة، وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم فيما يقرب من عشرين مورداً، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1]، أي كلّ فرقة مجتمعة على أمر ما، وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ

---

١. سورة الروم: الآية ١٩.

٢. سورة المجادلة: الآية ١٩.

﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]، وغير ذلك.

والمراد أنّهم بعد أن اتّصفوا بما أوجب محبّته عزّوجلّ لهم، وأطاعوا الله عزّوجلّ بالتقرّب إليه، والابتعاد عمّا يسخطه، واجتمعوا على ذلك، كانوا من حزب الله، و أنَ حزب الله هم الغالبون، وقد وسمهم في المقام بالغلبة، لأنّهم اجتمعوا على نصرة دين الله، وإقامة حدوده، وإرساء قواعده، فاقتضى نصرتهم وغلبتهم على أعدائهم، ومَن ارتدّوا ورجعوا عن طاعته والمحاربة مع المؤمنين، ووسمهم في آية المجادلة بالفلاح، أي السعادة بعد الغلبة، والظفر بما يريدون وما أمّلوه من جهادهم المرير، وكفاحهم الشاقّ مع الباطل والجور، وقد أطلق عزّوجلّ في الموردين لبيان شمول الغلبة والفلاح في جميع الشؤون وفي جميع الحالات، في الدُّنيا بالحصول على أمر مهمّ كما عرفت، وفي الآخرة بالدخول في رضوان الله، وجوار الحيّ القيوم الذي وعدهم السعادة في الدارين.

ويستفاد من ذكر الحزب في المقام، أنّ الآية الشريفة وإن نزلت في حقّ أمير المؤمين (صلوات الله عليه)، إلّا أنّها عامّة في جماعة معدودين معلومين لم يتخطّاهم إلى غيرهم، وأنّ عليّاً رأس هذه الطائفة وأميرهم كما عرفت، وهذه قرينة أُخرى على أنّ الآية لم تكن عامّة تشمل جميع المؤمنين كما يدّعي الجمهور، والمراد من الغلبة كلّ ما يتصوّر من الغلبة في الحجّة والبرهان في الحال أو المآل، وإن كان للباطل جولة، لكن للحقّ دولة وصولة.

***

---

١. سورة المجادلة: الآية ٢٢.

بحوث المقام

بحث أدبي:

ذكر جمهور النحويّين أنّ كلمة «إنّما» تدلّ على الحصر، فتفيد في المقام وجوب اختصاص مَن ذكر بالموالاة، وعلى ذلك عامّة العلماء، والخلاف في أنّ الحصر هو في ولاية النصرة فقط، أم في ولاية الإمامة، وقد تقدّم ما يدلّ على حصرها في القسم الثاني، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

وأمّا إفراد الولي مع تعدّدة:

قيل: إنّه لبيان أنّ الولاية هي واحدة ثابتة لله تعالى أصالة، ولغيره المذكورين بالتبع، ولا بأس بذلك كما ستعرف في البحث الدلاليّ.

وقيل: إنّ لفظ «وليّ» على وزن فعيل، وهو يقع للواحد والمتعدّد، تذكيراً وتأنيثاً كصديق.

وأُشكل عليه: بأنّ الكلام في المقام لبيان السرّ في استعمال الوليّ دون غيره، وما ذكر لا يفي بالمقصود.

وقيل: إنّ لفظ «ولي» مفردٌ استعمل استعمال الجمع.

واعترض عليه: بأنّه خلاف القاعدة، لأنّ فيه جعل ما لا يستوي الواحد والجمع جمعاً.

وأُجيب عنه: بأنّه يمكن التقدير، أي إنّما وليّكم الله، ورسوله والذين آمنوا أولياؤكم، فحذف الخبر لدلالة السابق عليه.

ويمكن المناقشة فيه: بأنّ ذلك تطويل بلا طائل تحته؛ لأنّ التقدير إنّما هو لبيان أنّهم أولياء بعد كونه سبحانه وليّاً، فهو في الحقيقة الوليّ.

وهذا هو الذي أفاده الوجه الأوّل بلا تقدير الذي هو خلاف الأصل، فافهم.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾، **فقيل**: إنّه بدل من الموصول الأوّل، وهو الذي اختاره الزمخشريّ.

واعترض عليه: بأنّ الأولى أن يكون صفة له، وهو المتبادر إلى الذهن، ولأنّ المبدل منه في نية الطرح، ولا يصحّ طرح «الذين آمنوا» لأنّه الوصف الذي يترتّب عليه صحّة ما بعده، وإنّما صحّ جعله وصفاً باعتبار إجرائه مجرى الأسماء، لأنّ الموصول وصلة إلى وصف المعارف بالجمل، ولا يوصف الوصف إلّا بالتأويل.

وقيل: إنّه منصوب على المدح، أو مرفوع عليه أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ الواو للحال من الفاعل في «يؤتون الزكاة»، **وقيل**: حال من فاعل الفعلين، والأوّل هو الأصحّ لقاعدة القرب، والروايات المتواترة الدالّة على أنّها نزلت في عليّ ﷺ، كما سيأتي.

و أمّا قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾، فإنّ جواب «من» قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾، وإنّما وضع الظاهر موضع المضمر لمزيد التشريف والقرب لدى جنابه فصاروا بذلك أعلاماً، ولبيان السبب في غلبتهم، أي فإنّهم الغالبون لأنّهم حزب الله.

وقيل: إنّ جواب «من» محذوف، ولكنّه ليس بشيء.

و«هم» يجوز أن يكون ضمير فصل، و«الغالبون» خبر «إنّ»، ويجوز أن يكون مبتدأ و«الغالبون» خبره، والجملة في موضع خبره «إنّ».

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيتان الشريفتان على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ**﴾ على وجوب موالاة الله ورسوله والمؤمنين، فهم المختصّون بالموالاة فقط دون غيرهم، كما عرفت آنفاً.

الثاني: ظاهر قوله تعالى: ﴿**وَلِيُّكُمْ**﴾ هو الذي يلي أمر الناس في أنفسهم وأموالهم، وله حقّ التصرّف في شؤونهم أصالة أو بالإذن والتخويل، وهي الولاية الإلهيّة التي يركن إليها المؤمنون في الدُّنيا والآخرة، ويدلّ على ذلك التتبع في موارد استعمال هذه الكلمة (ولي) في القرآن الكريم، فإنّها إذا استعملت مفردةً لا يراد بها إلّا المتبادر منه هذا المعنى، كأنّه هو الأصل في معناها، والمتبادر منها عند الإطلاق.

ولعلّ هذا هو السرّ في إتيانه مفرداً في المقام دون الجمع وغيره، قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾[1]، فإنّ المراد منه الولاية الحقيقيّة الكاملة التي تلي مصالح العباد، فلو أُريد ولاية النصرة فقط، لكان عطف «ولا نصير» بغير فائدة، وهذه الآية تكرّرت في القرآن متعدّدة:

قال الله تعالى: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[2]، ولا ريب أنّ المراد من الولاية التشريعيّة منها.

وقال تعالى: ﴿**وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[3]، ولا ريب في أنّه وليّهم يرعى شؤونهم و يدبّر مصالحهم في الدُّنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ**﴾[4]، فإنّ الحصر فيه، ونفي الأولياء المزعومين على كونه الوليّ الحقيقيّ الذي يجب اتّخاذه دون غيره.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠٧.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

٣. سورة آل عمران: الآية ٦٨.

٤. سورة الشورى: الآية ٩.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾[١]، أي وليّ يلي مصالحه ورعايته.

وقال تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً﴾[٢].

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، فمَن يراجعها يظهر له بوضوح أنّ إتيان اللفظ مفرداً، يكون المتبادر منه هو المعنى الذي ذكرناه، إلّا إذا كانت قرينة صارفة، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾[٤]، فإنّ المراد منهما غير ذلك المعنى كما هو واضح. وعلى هذا يكون صرف اللفظ عن معناه الحقيقيّ يحتاج إلى دليل، وما ذكروه في المقام لا يصلح لأن يكون صارفاً كما عرفت، و سيأتي مزيد بيان في البحث الكلاميّ إن شاء الله تعالى.

الثالث: يدلّ سياق الجملة المباركة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ على وحدة ما في الولاية المذكورة من المعنى، فأسند الجميع إلى «وليّكم»، الظاهر في كون الولاية فيهم بمعنى واحد، فتشبه ولاية الرسول وولاية المؤمنين ولاية الله عزّوجلّ، وهي من سنخ واحد.

إن قلت: إنّ سياق الآيات في المقام يدلّ على كون الولاية هي ولاية النصرة فقط.

قلت: إنّ هاتين الآيتين لا تشاركان الآيات السابقة في السياق ـ على فرض كون المراد من الولاية فيها ولاية النصرة ـ لقرائن محفوفة بهما تدلّ على

---

١. سورة الشورى: الآية ٤٤.

٢. سورة النساء: الآية ٤٥.

٣. سورة مريم: الآية ٤٥.

٤. سورة الفتح: الآية ٢٢.

كون المراد من الوليّ فيهما هي ولاية التصرّف، مع أنّه يمكن القول بأنّ الولاية في الآيات السابقة المنهيّ عنها، هي ولاية التصرّف دون ولاية المحبّة فقط، فتشترك الولاية المنهيّة مع الولاية المأمور بها في كونها هي ولاية التصرّف، ويدلّ على ذلك تغليظ القول والتوعيد على مَن تولّى منهم تلك الولاية أنّهم من الكفّار، وأنّ ولاية المحبّة قد نهى عنها قوله عزّ وجلّ في موضع آخر من القرآن الكريم، من دون هذا التغليظ والتوعيد، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[1]، فالمراد من الولاية المنهيّ عنها هي ولاية التصرّف، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في التفسير، فراجع.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنّ مَن ائتمنوا على مصالح العباد هم متعدّدون من المؤمنين لا يتخصّ بواحد، ولا تدلّ الآية على كونهم مجتمعين في عصر واحد، كما لا يمكن استفادة التعاقب منها أيضاً، وإنّما يستفاد أحد الأمرين من قرائن أُخرى، وقد دلّت الأخبار على كونهم متعاقبين عصراً بعد عصر، كما روي في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وعلى هذا، يكون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من بيان التطبيق وذكر أحد المصاديق، وللإعلام بأنّ سائرهم من هذا القبيل، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، أي لهم القابلية في تطبيق الشريعة بحذافيرها، وإرساء قواعد الإسلام و نصرة الدين، فلا تصل النوبة إلى إشكال إطلاق الجمع وإرادة الواحد منه، الذي عرفت أنّه لا إشكال فيه أيضاً، فراجع. ويمكن أن يكون السبب أيضاً ترغيب الناس في مثل فعله عليه السلام فينالوا مثل ثوابه، أو لبيان أنّ سجيّة المؤمن يجب أن تكون الحرص على الطاعة والبرّ والإحسان وتفقّد الفقراء، وإن لزم الأمر التعجيل بها وهو في الصلاة.

---

١. سورة المجادلة: الآية ٢٢.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ أنّ الولاية الإلهيّة وسائر الكرامات لا تمنح اعتباطاً، فهي ليست موقوفة على بعض المؤمنين دون بعض جزافاً، وإنّما تتبع الاستعدادات والقابليات والتقدّم في الإخلاص والعمل فحسب.

السادس: انّما اقتصر عزّوجلّ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأنّهما مثالان لكمال الإخلاص والانقطاع إلى الله عزّ شأنه، وحبّ الله عزّ شأنه، ونبذ الشهوات وحبّ الدُّنيا، كما عرفت.

السابع: يستفاد من إتيان الفعل مضارعاً في «يقيمون ويؤتون» على الاستمرار والتكرار والتجدّد، وفيه إشعار بفعل أولاد مَن نزلت الآية فيه أيضاً، كما يدلّ على كامل رغبتهم في الإحسان ومسارعتهم إليه.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ إثبات الغلبة لهم بالطريق البرهانيّ، أي ومَن يتولّ هؤلاء فإنّهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وإطلاق الغلبة يشمل جميع أنحائها.

***

بحث روائي:

أجمعت الإماميّة على أنّ الآية الشريفة إنّما نزلت في عليّ عليه السلام، عندما تصدّق بخاتمه أو بحلّته وهو راكع حين سأله سائل.

وعليه أكثر الجمهور، بل يمكن دعوى تواتر الأخبار في ذلك، فقد نقلها أئمّة الحديث الحفّاظ في كتب الأخبار، واشترك في نقلها عدّة من الصحابة كابن عبّاس، وأبي ذرّ، وأنس بن مالك، وعمّار، وجابر، وسلمة بن كهيل، وأبي رافع، وعمرو بن العاص، وأئمّة الشيعة عليهم السلام، كما نقلها أئمّة التفسير بالمأثور، كأحمد، والنسائي والطبري، والطبراني، وعبد بن حميد وغيرهم، وأوردها المتكلّمون

في الكتب الكلاميّة وتسلّموها بالقبول، كما ذكر جملة منها الفقهاء في الفقه في مسألة الفعل الكثير في الصلاة، وفي مسألة هل تسمّى صدقة التطوّع زكاة.

وبالجملة: أنّه لم ينافش في تلك الأخبار، ولا في تطبيق الآية الشريفة على الروايات، وتلقّى ذلك بالقبول جميع الصحابة في عصر النزول والتابعون وأئمّة الأدب وفحول المفسّرين كالزمخشريّ في الكشّاف، وأبي حيّان في تفسيره وغيرهم، وقد ألّفوا كتباً ورسائل في هذه الآية الشريفة وشأن نزولها ودلالتها، فراجع.

وحينئذٍ ما نقل غير ذلك في شأن نزولها، إنّما هو من الشواذّ على فرض صحّة أسنادها، كما لا يعبأ بقول مَن رمى تلك الروايات بالضعف، حتّى إنّ بعضهم ادّعى الإجماع على أنّها موضوعة مختلقة، وقد عرفت بطلانه، مع أنّه لو صحّ الإعراض عن مثل تلك الروايات على كثرتها ـ إن لم نقل بتواترها ـ لم يصح الركون إلى شيء من الروايات في شيء من آيات القرآن، وبطلانه واضح، ونحن ننقل بعض الروايات عن طريق الجمهور، ثمّ عن طريق الإماميّة.

في «الدّر المنثور»: أخرج الخطيب في المتّفق عن ابن عبّاس، قال:

«تصدّق عليّ بخاتمه وهو راكع، فقال النبيّ ﷺ للسائل: مَن أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**».

أقول: ورد في مثل هذا المضمون جملة من الروايات.

وفيه أيضاً: أخرج الطبرانيّ، وابن مردويه، وأبو نعيم عن أبي رافع، قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو نائم يوحى إليه، فاذا حيّة في جانب البيت، فكرهت أن أبيت عليها فأوقظ النبيّ ﷺ وخفت أن يكون يوحى إليه، فاضطجعت بين الحية وبين النبيّ ﷺ لئن كان منها سوء كان فيَّ دونه، فمكثت

ساعة فاستيقظ النبيّ ﷺ وهو يقول: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ الحمد لله الذي أتمّ لعليّ نعمه، وهيّأ لعليّ بفضل الله إيّاه».

أقول: وهو مرويّ بعدّة طرق، لعلّ المراد من نومه ﷺ إنّما هو تلك الحالات الخاصّة التي كانت تعرض عليه حين نزول الوحي، وإلّا فهو لم يكن نائماً، كيف وهو يقول ﷺ: «تنام عيني ولا ينام قلبي». وأمّا فعل أبي رافع فقد عوّضه الله عزّوجلّ في الدُّنيا في عقبه، كما هو مذكور في علم الرجال.

ويستفاد من الحديث أنّ النعمّة التي أتمّها لعليّ عليه السلام هي الولاية الإلهيّة، وبها أتمّ دينه عزّوجلّ، كما يدلّ على قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾.

وفي «تفسير الثعلبيّ»: أخبر أبو الحسن محمّد بن القاسم الفقيد، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد الشعرانيّ، قال: أخبرنا أبو عليّ أحمد بن عليّ بن رزين، قال: حدّثنا المظفر بن الحسن الأنصاري، قال: حدّثنا السرى بن عليّ الورّاق، قال: حدّثنا يحيى بن عبد الحميد الجمانيّ، عن قيس بن الربيع عن الأعمش، عن عباية بن الربعيّ، قال: حدّثنا عبدالله بن عبّاس رضي الله عنه وهو جالس بشفير زمزم يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل رجل معتم بعمامة، فجعل ابن عبّاس لا يقول: قال رسول الله، إلّا قال الرجل: قال رسول الله، فقال له ابن عبّاس: سألتك بالله مَن أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه، وقال: يا أيّها الناس مَن عرفني فقد عرفني ومَن لم يعرفني فأنا جُندب بن جنادة البدريّ أبو ذر الغفاريّ، سمعت رسول الله بهاتين وإلّا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلّا فعميتا، يقول: عليّ قائد البررة، وقاتل الكفَرة، منصورٌ مَن نصره، مخذول مَن خذله. أما إنّي صلّيت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل

يده إلى السماء، وقال: اللّهمّ اشهد أنّي سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً، وكان عليّ راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى، وكان متختّماً فيها، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبيّ ﷺ، فلمّا فرغ النبيّ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهمّ موسى سألك فقال: **﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾**، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: **﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾**، اللّهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك، اللّهمّ واشرح لي صدري ويسّر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً أشدد به ظهري، قال أبو ذر: فما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتّى نزل عليه جبرائيل من عند الله تعالى، فقال: يا محمّد اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**».

أقول: لا تنافي بين هذه الرواية وغيرها في كيفيّة نزول الآية، فإمّا أن تحمل على تعدّد نزولها، أو حكاية رسول الله ﷺ لها في مقامات مختلفة لأهمّيتها، وإنّ الرواية صريحة في أنّ المراد منها ولاية التصرّف، لا ولاية المحبّة.

وعن الخطيب الخوارزميّ بإسناده إلى أبي صالح عن ابن عبّاس، قال:

«أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممّن قد آمن بالنبيّ ﷺ فقالوا: يارسول الله، إنّ منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا تتحدّث دون هذا المجلس، وإنّ قومنا لما رأونا قد آمنا بالله ورسوله وقد صدقناه رفضونا، وآلو على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلّمونا، وقد شق ذلك علينا، فقال لهم النبيّ ﷺ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**. ثمّ إنّ النبي ﷺ خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع،

وبصر بسائل فقال له النبيّ ﷺ: هل أعطاك أحدٌ شيئاً؟ قال: نعم خاتم من ذهب، فقال له النبيّ ﷺ مَن أعطاكه؟ فقال: ذاك القائم ـ وأومأ بيده إلى عليّ بن أبي طالب ـ فقال النبيّ ﷺ: على أي حال أعطاك؟ قال: أعطاني وهو راكع، فكبّر النبيّ ﷺ، ثمّ قرأ: **﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾**، فأنشأ حسّان بن ثابت يقول:

أبا حسنٍ تفديك نفسي ومهجتي وكلّ بطيء في الهدى ومسارع
أيذهب مدحي والمحبّين ضائعاً وما المدح في ذات الاله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيّد ويا خير شارٍ ثمّ يا خير بائع
فأنزل فيك الله خير ولاية وبيّنها في محكمات الشرائع

أقول: رواه السيوطيّ عن ابن مردويه من طريق الكلبيّ.

وعن الحموينيّ بأسناده عن زيد بن عليّ بن الحسين، عن أبيه عن جدّه، قال: «سمعت عمّار بن ياسر رضي الله عنه يقول: وقف لعليّ بن أبي طالب سائل وهو راكع في صلاة التطوّع، فنزع خاتمه وأعطاه السائل، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه بذلك، فنزلت على النبيّ ﷺ هذه الآية: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾** فقرأها رسول الله، ثمّ قال ﷺ: مَن كنت مولاه فعليّ مولاه».

أقول: رواه في «تفسير العيّاشي» بإسناده عن زيد بن عليّ، ولا تنافي بين هذه الرواية وسائر الروايات في كون الصلاة تطوعاً، فإنّها مطلقة وهذه مقيّدة، بل يمكن حملها على تعدّد الواقعة، كما عرفت في التفسير. هذه بعض الروايات التي وردت في كتب القوم وهي كثيرة، ومَن شاء فليرجع إلى مضانها.

في «اختصاص» الشيخ المفيد بأسناده إلى الحسن بن أبي العلاء، قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الأوصياء طاعتهم مفترضة، فقال: نعم، هم الذين قال الله: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**، وهم الذين قال الله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**».

أقول: يدلّ الحديث على كون المراد من الوليّ هو ولاية التصرّف والولاية الإلهيّة، وأنّ الأولياء هم معدودون معلومون لا تشمل الآية غيرهم.

وفي «مجالس» الشيخ بإسناده إلى أبي ذرّ في حديث مناشدة أمير المؤمنين عليه السلام عثمان والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ليوم الشورى، واحتجاجه عليهم بما فيه من النصوص من رسول الله صلى الله عليه وآله، والكلّ يصدّقه فيما يقول، فكان ممّا ذكره عليه السلام: «فهل فيكم أحد أتى الزكاة وهو راكع فنزلت فيه: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾** غيري؟ قال: لا».

أقول: تدلّ الرواية على كون المراد من الآية معروفاً ولم يشكّ أحد من الصحابة في تطبيقها و إن كان بتفسير من الرسول صلى الله عليه وآله وبيانه لها، فلا ينافي ما سيأتي من الروايات.

وفي «الكافي» عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر ابن أُذينه، عن زرارة، والفضل بن يسار، وبكير بن أَعْيَن، ومحمّد بن مسلم ويزيد بن معاوية، وأبي الجارود، جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«أمر الله عزّوجلّ رسوله بولاية عليّ وأنزل عليه: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**، وفرض من ولاية أُولي الأمر، فلم يدروا ما هي؟ فأمر الله محمّداً صلى الله عليه وآله أن يفسّر لهم الولاية كما فسّر الصلاة والزكاة والصوم والحجّ، فلما أتاه ذلك من الله، ضاق بذلك صدر

رسول الله ﷺ، وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم وأن يكذبوه، فضاق صدره وراجع ربّه عزّوجلّ، فأوحى الله عزّوجلّ إليه: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾**، فصدّع بأمر الله عزّوجلّ ذكره، فقام بولاية عليّ عليه السلام يوم غدير خم، فنادى: الصلاة جامعة، وأمر الناس أن يبلّغ الشاهد الغائب، قال عمر بن أُذَينه: قالوا جميعاً غير أبي الجارود: قال أبو جعفر عليه السلام: وكانت الفريضة الأُخرى، وكانت الفرائض، فأنزل الله عزّوجلّ: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾**، قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عزّوجلّ: لا أُنزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض».

أقول: يستفاد من هذا الحديث الصحيح سنداً، بل في أعلى درجة الصحّة:

أوّلاً: إنّ الآية الكريمة تدلّ على الولاية الإلهيّة.

ثانياً: إنّ الولاية لمّا كانت غير معروفة بجميع خصوصيّاتها لأنّها تثبيت ولاية شخصٍ على غيره، وإثبات السلطة لفرد معين على آخرين وتأبى النفوس مثلها، ولم تكن على عمق من الطاعة والخلوص؛ لذلك احتاج إلى توضيح وتفسير وتشخيص المراد، كان ذلك يستلزم نكوص جمع من الطاعة، وهذا هو الذي كان يتخوّف الرسول ﷺ منه، مع أنّها أهمّ الفرائض؛ لأنّ بها تكتمل سائرها، فقد أمره عزّوجلّ بالتصديع بها، وكانت آخر الفرائض، ولم ينزل بعدها فريضة أُخرى، وسيأتي في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾** تتمة الكلام إن شاء الله تعالى، وفي مضمون هذا الحديث وردت روايات أُخرى.

وفي «البرهان» و «غاية المرام»: عن الصدوق بإسناده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**، قال: «إنّ رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبد الله بن سلام وأسد وثعلبة وابن يامين وابن صوريا، فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا: يا نبيّ الله إنّ موسى أوصى إلى يوشع بن

نون، فمَن وصيّك يا رسول الله؟ ومَن وليّنا بعدك؟ فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، قال رسول الله ﷺ: قوموا، فقاموا أتوا المسجد فإذا سائل خارج، فقال ﷺ: يا سائل هل أعطاك أحدٌ شيئاً؟ قال: نعم هذا الخاتم، قال: مَن أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلّي، قال: على أيّ حالٍ أعطاك؟ قال: كان راكعاً، فكبّر النبيّ ﷺ وكبّر أهل المسجد، فقال النبيّ ﷺ، عليّ وليّكم بعدي، قالوا: رضينا بالله ربّاً، بمحمّدٍ نبيّاً، وبعليّ بن أبي طالب وليّاً، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾».

أقول: لمّا كان القوم من اليهود يعرفون معنى الولاية والوصاية، فلم يحتج إلى بيانها من الرسول ﷺ كما في الحديث المتقدّم، وكان عليه أن يعيّن الفرد الذي يكون وصيّاً بعده ووليّاً على الأُمّة خلفه، فنزلت الآية الشريفة وعيّنت المصداق، فيدلّ الحديث على كون الآية مخصوصه بعليّ، وقد عرفت التطبيق والإشكالات والجواب عنها، فراجع.

وكيف كان، فهذا الحديث وسابقه يدلّان على أنّ أبا جعفر الباقر عليه السلام كغيره من الأئمّة الكرام يقول بنزوله في جدّه عليّ عليه السلام، فجميع الأئمّة عليهم السلام أمرهم واحد، فلا يعبأ بما نسب إلى الإمام الباقر عليه السلام خلاف ذلك، وقد عرفت ما فيه أيضاً.

وفي «الكافي»: عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «يعني أولى بكم، أي أحقّ بكم بأُموركم من أنفسكم وأموالكم، الله ورسوله والذين آمنوا، يعني عليّاً وأولاده الأئمّة عليهم السلام إلى يوم القيامة، ثمّ وصفهم الله فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وكان أمير المؤمنين عليه السلام في صلاة الظهر، وقد صلّى ركعتين وهو راكع، وعليه حُلّة قيمتها ألف دينار، وكان النبيّ ﷺ وقد صلّى وكان النجاشيّ أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا وليّ الله وأولى بالمؤمنين

من أنفسهم تصدّق على مسكين، فطرح الحُلّة إليه، وأومأ بيده أن احملها، فأنزل الله عزّوجلّ فيه هذه الآية، وصيّر نعمة أولاده بنعمته، فكلّ مَن بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدّقون وهم راكعون، والسائل الذي سأل أمير المؤمنين عليه‌السلام من الملائكة، والذين يسألون الأئمّة من أولاده يكونون من أولاده».

أقول: يستفاد من الحديث تعدّد الواقعة، كما هو ظاهر الآية الشريفة أيضاً.

إن قلت: إن كان السائل من الملائكة فما يصنع بالحُلّة؟

يقال: يمكن أن يردّها إليه ثانياً، ويمكن أن يصرفها على الفقراء والمساكين.

وكيف كان، فلا ريب في أنّ إعطاء الصدقة في الصلاة من الجمع بين العبادتين في آن واحد، وهذا من أقصى مقامات العبوديّة ولا يتيسّر لكلّ أحد، وكذا كانت في ولده عليهم‌السلام، وهي العلامة في ولايتهم وإمامتهم، فالحديث يدلّ على كون الذين آمنوا معروفين، فلا إشكال من هذه الناحية في إطلاق لفظ «الذين» كما عرفت في التفسير، فراجع.

وفي «الاحتجاج»: في رسالة أبي الحسن الثالث عليّ بن محمد الهادي عليه‌السلام إلى أهل الأهواز، حين سألوه عن الجبر والتفويض، قال عليه‌السلام:

«اجتمعت الأُمّة قاطبةً لا اختلاف بينهم في ذلك أنّ القرآن حقّ لا ريب فيه عند جميع فرقها، فهم في حالة الاجتماع عليه مصيبون، وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون؛ لقول النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله: لا تجتمع أُمّتي على ضلالة، فأخبر صلى‌الله‌عليه‌وآله: أنّ ما اجتمعت عليه الأُمّة ولم يخالف بعضها بعضاً هو الحقّ، فهذا معنى الحديث لا ما تأوّله الجاهلون، ولا ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب، واتّباع أحكام الأحاديث المزوّرة، والروايات المزخرفة، واتّباع الأهواء المُردية المهلكة التي

تخالف نصّ الكتاب، وتحقيق الآيات الواضحات النيّرات، ونحن نسأل الله أن يوفّقنا للصلاح، ويهدينا إلى الرشاد.

ثمّ قال عليه السلام: فإذا شهد الكتاب بصدق خبر وتحقيقه، فأنكرته طائفة من الأُمّة عارضة بحديث من هذه الأحاديث المزورة، فصارت إنكارها ودفعها الكتاب ضلالاً، وأصحّ خبر ممّا عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: إنّي مستخلف فيكم خليفتين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، واللّفظة الأُخرى في هذا المعنى بعينه قوله عليه السلام: إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي من أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، وجدنا شواهد هذا الحديث نصّاً في كتاب الله مثل قوله: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**. ثمّ اتّفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام: أنّه تصدّق بخاتمه وهو راكع، فشكر الله ذلك له وأنزل الآية فيه، ثمّ وجدنا رسول الله صلى الله عليه وآله قد أبانه من أصحابه بهذه اللّفظة: مَن كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهُمَّ والِ مَن ولاه، وعاد مَن عاداه، وقوله صلى الله عليه وآله: عليّ يقضي ديني، وينجز موعدي، وهو خليفتي عليكم بعدي، وقوله صلى الله عليه وآله حين استخلفه على المدينة، فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال صلى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي، فعلمنا أنّ الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار وتحقيق هذه الشواهد، فيلزم الأُمّة الإقرار بها اذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن، فلمّا وجدنا ذلك موافقاً لكتاب الله، ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار، وعليها دليلاً، كان الاقتداء فرضاً لا يتعدّاه إلّا أهل العناد والفساد».

أقول: الرواية إنّما وردت في المحاجّة مع المعاندين وأهل اللجاج؛ ولذا

اشتملت على أساليب احتجاجيّة خاصّة بهم، فأخذ (صلوات الله عليه) ما هو المسلّم لدى الجميع لا سيّما الخصم فحاججهم بها، وقد طبق ﷺ الآية الكريمة على أمير المؤمنين عليه السلام بأحسن وجه لا يمكن للخصم مخالفته مع اعتقاده بما أورده عنهم، والحديث شاهد صدق على ما تقدّم من تعيين المراد من الآية الكريمة.

والروايات في هذا المضمون متعدّدة، بل هي متواترة عند الإماميّة، ومَن شاء المزيد فليرجع إلى الكتب المصنّفة في ذلك. ثمّ إنّ المستفاد من جميع الروايات أنّ مكان التصديق هو مسجد رسول الله ﷺ، والزمان الذي وقع فيه التصديق هو الظهر حين الصلاة تطوّعاً، واليوم الذي كان فيه هو اليوم الرابع والعشرون من شهر ذي الحجّة الحرام، على ما هو المشهور عند الإماميّة.

***

بحث كلامي:

ظهر ممّا تقدّم أنّ الآية الشريفة تدلّ على الولاية الإلهيّة التي أثبتها عزّوجلّ لنفسه، ومنحها لرسوله الكريم والذين آمنوا، وهم عليّ وبنوه الكرام صلوات الله عليهم، فثبتت لهم الإمامة، والدلائل والقرائن والأخبار وشأن نزولها وغير ذلك من الشواهد والإشارات كلّها تشهد وتدلّ عليه، ولكن مع ذلك ناقش الجمهور في دلالتها، ونحن نذكر المهمّ ممّا ذكروه في المقام، وهو على وجوه:

الأوّل: أنّ المراد من (الوليّ) الناصر، فإنّ الولي لفظ مشترك يقال للناصر والمحبّ والأولى بالتصرّف، والمشترك إذا تردّد بين معانيه يلزم وجود القرينة للمعنى المطلوب، فلا يكن نصّاً على إمامة عليّ عليه السلام، فبطل الاستدلال به.

وفيه: ما عرفت أنّ لفظ الوليّ إذا جيء به مفرداً يدلّ على الولاية التصرّفيّة، وهو المتبادر منه، ولا نحتاج إلى قرينة بل غيره يحتاج إليها، وعلى

فرض القبول يمكن أن يقال إنّ الوليّ مشترك معنى موضوع للقائم بـالأمر، أي الذي له السلطان على المولّى عليه ولو في الجملة، فيشمل وليّ المرأة والصبي والرعية، والصديق والمحبّ، فإنّ لهما ولاية وسلطاناً في الجملة على صديقه، فالمراد به القائم بأُموركم.

يُضاف إلى ذلك أنـّه لو فرض تعدّد المعاني والاشتراك اللفظيّ، فإنّ القرائن تدلّ على أنّ المعنى المناسب في المقام هو الأولى بالتصرّف، و قـد تـقدّم فـي التفسير ما يدلّ على ذلك، فراجع.

الثاني: أنّ «الذين آمنوا» صيغة جمع، فلا تصرّف إلى الواحـد إلّا بـدليل، وشأن النزول وقول المفسّرين لا يقتضي الاختصاص ما لم يبلغ درجة الإجماع.

وفيه: ما عرفت آنفاً أنّ استعمال صيغة الجمع وإرادة الواحد من الأساليب البلاغيّة المعروفة، وقد نزل القرآن عليها واستعملها فيه لفوائد كثيرة، منها تنظيم الفاعل والمتّصف بتلك الصفات، والإشـارة إلى أنـّـه بـمنزلة جـميع المـؤمنين المصلّين المزكّين؛ لأنّه رئيسهم وعميدهم، وأمّا شأن النزول فـهو وإن لم يكـن موجباً للأختصاص كما هو المعروف، لكنّ الروايات الواردة في تـفسير الآيـة الكريمة هي من الكثرة بمكان بحيث تكون موجبة للاختصاص، وإلّا لم يـصحّ الركون إلى شيء من الروايات كما ذكرنا، فراجع.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ قول المـفسّرين إنّـما كـان مسـتنداً إلى دلالة الآيـة الشريفة والسنّة، فلم يكن جزافاً ومن غير دليل. ومن كثرة الروايات بل تواترها يمكن دعوى القطع بالاختصاص، ولا يقلّ المقام عن غيره ممّا لم يصل إلى هذه الدرجة من نقل الروايات والقرائن، فلا يصغى إلى قـول بـعضهم أنـّـه لا نسـلّم الإجماع على نزولها في الأمير عليه السلام[1]، فإنّه إذا لم نقل بذلك مع مـا عـرفت مـن

---

١ . القائل أبو الثناء الآلوسيّ في تفسير الآية من (روُح المعاني).

الروايات، ففي أي مورد يمكن دعوى الإجماع حينئذٍ، وأمّا الروايات الآحاد التي نقلها في شأن النزول فلا يمكن لها النهوض في معارضة تلك الكثرة من النصوص على فرض صحّتها، فراجع.

الثالث: أنّ الحصر المستفاد من كلمة «إنّما» يكون فيما يحتمل الشركة والتردّد والنزاع، ولم يكن وقت نزول هذه الآية تردّد ونزاع في الإمامة وولاية التصرّف، بل كان في النصرة والمحبّة.

وفيه: أنّ ذلك مبنيّ على كون المراد من «أولياء» في ما سبق من الآيات هي ولاية النصرة والمحبّة، وقد عرفت بطلانه، وعلى فرضه يكون حكم الآية الشريفة خاصّاً بها لا يرتبط بما سبق، وعلى فرضه فإنّ إثبات ولاية التصرّف تستدعي المحبّة والنصرة دون غيرها، يضاف إلى ذلك أنّ كلمة «إنّما» تفيد الحصر ونفي الأولياء المزعومين ووجوب الموالاة والإمامة وانحصارهم في مَن ذكر دون غيرهم، كما تقدّم.

الرابع: أنّ الاستدلال بالآية الكريمة بالتقريب الذي تذكره الإمامية يدلّ على سلب الإمامة عن الأئمّة المتأخّرين الاثنى عشر (صلوات الله عليهم) بعين التقرير الذي نفوا به إمامة المتقدّمين.

وفيه أوّلاً: إنّ الآية إذ دلّت على إمامة عليّ عليه السلام وأثبتت ولايته الشرعيّة، فهو الحجّة في تعيين غيره.

وثانياً: إنّ الآية بقرينة الآية التي سبقتها تدلّ على إمامة مَن توفّرت فيه الصفات التي تؤهّله للإمامة، وهذا الإشكال إنّما نشأ من الغفلة عن ارتباطها بسابقتها، والعجيب أنّهم يفسّرون الوليّ في الآيات السابقة ويقطعونها عن أقرب الآيات منها، وقد عرفت فيما سبق أنّ قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾** يشتمل على جملة من الأوصاف التي يجب أن تتوفّر في مَن

يتولّى شؤون الأُمّة ، فراجع .

وعلى هذا فالآية تنفي إمامة غير مَن عيّنهم الله عزّوجلّ .

وثالثاً :إنّ الأئمّة هم معلومون وقد عيّنهم الرسول الكريم في عدّة مقامات ، وقد نقل أرباب الحديث تلك الروايات ، فراجع .

الخامس : أنّ الآية إذا دلّت على ولاية الذين آمنوا على زعم الإماميّة ، فإنّ ولايتهم في زمان الخطاب غير مرادة ، لأنّ ذلك عهد النبوّة ، والإمامة نيابة فلا تتصوّر إلّا بعد انتقال النبيّ ﷺ ، وإذا لم يكن زمان الخطاب مراداً تعيّن أن يكون المراد الزمان المتأخّر عن زمن الانتقال ، ولا حدّ للتأخير ، فليكن ذلك بالنسبة إلى الأميرعليه السلام بعد مضي زمان الأئمّة الثلاثة ، فلم يحصل مدّعى الإمامة .

وفيه :أنّ ذلك مكابرة واضحة ، فإنّ الآية إنّما تدلّ على كون الذين آمنوا هم الأولياء من غير نظر إلى الزمان من قبيل القضايا الحقيقيّة ، وعلى القبول فإنّها تدلّ على ولايتهم بعد الرسول بلا فصل ، وتنفي ولاية غيرهم ، فكيف تثبت بعدهم .

وهناك إشكالات أُخرى في غاية الضعف، يظهر الجواب عنها من مطاوي ما ذكرناه في التفسير ، ولعمري إنّها تأويلات باطلة، وتفسيرٌ للآية الشريفة بالرأي الذي اتّفق المسلمون على بطلانه وحرمته ، ولو فتحنا باب مثل هذه التأويلات الفاسدة، لا سيّما مع مخالفتها للشواهد والأخبار، لما كانت آية حجّة على أمر البتة ، فياليتهم صرفوا عمرهم في استخراج كنوز القرآن العظيم ، فلو تركوا هذه المغالطات لكان للمسلمين شأن غير الذي هم عليه ، لكن حرموا أنفسهم من الفيوضات وحرموا أعقابهم منها ، وهذا من الظلم العظيم .

***

بحث عرفاني:

مقام الولاية من أجلّ المقامات وأعظمها ، فهي قطب رحى التكوين

والتشريع ، وهي الحبل الممدود بين الله تعالى وجميع مخلوقاته ، والعروة الوثقى التي مَن اعتصم بها نجا من مهالك النفس وتمكّن من تكميلها ، وهي التي لا ينالها إلّا ذو حظّ عظيم ، ولأجل أهميّتها لم يذكرها عزّوجلّ في هذه الآية الشريفة إلّا بعد تقديم أُمور، وتمهيد مقدّمات، لها مدخلية في تحقّق هذا المقام ، فإنّه أوّلاً نهى عن اتّخاذ الكافرين الذين يصدّون عن دين الله أولياء ، وشدّد الأمر فيه ، واعتبر أنّ مَن يتّخذهم أولياء يكون من الكافرين الظالمين ، ثمّ بيّن أنّ مَن يخالف أحكام الله، ومنها تشريع الولاية، يكون من المرتدين الراجعين عن دينه ، ثمّ ذكر أنّ هؤلاء المرتدّين لم يكونوا موضع أمانته، ومؤهّلين لحفظ دين الله وأحكام طاعته في الارض ، فسوف يأتي الله بقوم متّصفين بأوصاف حقيقيّة كماليّة ، تنبئ عن صفاء باطنهم، وشدّة انقطاعهم إلى الله ، وأنّهم في جهاد مرير مستمر في سبيل الله ، فهم الذين اختارهم لأن يكونوا أولياءه ، ثمّ بعد ذلك بيّن أنّ أمر الولاية من صميم التشريع وعلّته المبقية ، ويجب إبلاغها إلى الناس ، وإلّا فلا يكون تبليغ للرسالة ، ثمّ بعد التبليغ يبيّن عزّوجلّ أنّه بها أكمل الدين، وأتمّ النعمة التي أرادها للناس . فكان التبليغ في مراحل لتثبيت هذا الأمر العظيم ، ولعلّه لأجل ذلك طلبوا من الرسول الكريم ﷺ تفسير الولاية وبيان خصوصياتها ،كما تقدّم في الحديث .

وفي الولاية تظهر حقيقة الدين، ويتبيّن واقع الطاعة، ويتجلّى العرفان والانقطاع إلى الواحد الأحد ، وعندها ينتهي مقام الاصطفاء والخُلّة وجميع المقامات ، فهي العلّة الفاعلة والعلّة الغائيّة ، قلّما تجتمع في أمر العلّتان .

وبالجملة: هي آخر قوس الصعود «لافرق بينك وبينهم إلّا أنّهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك، بدؤها منك وعودها إليك» ، وهي سرّ الله في العالمين، وفوق ما يتعقّله الممكن في حدوده الإمكانيّة ، ولذا لم يبيّن سبحانه وتعالى من حدود هذه الجوهرة الفريدة والسرّ المستتر، إلّا ما تتقبّله أفهام المستعدّين ، وهي

الانقطاع إليه عزّوجلّ وكمال الخضوع له تعالى، لفناء ذواتهم المقدّسة، والتجرّد عن العلائق، وتزكية النفوس وترقيتها من حالٍ إلى حالٍ أفضل، مع ما لهم من الكمال، فهم في حال الركوع والخضوع دائماً، ولعلّ إعطاء الزكاة في حال الركوع للإشارة إلى استمرار اتّصالهم بهذه الدار؛ لأنّهم سبل الهداية وأبواب الله في أرضه، وإلّا فلمحض فنائهم خرجوا عن طور البشريّة، وهي والنبوّة من منبع واحد، ولذا قال سيّد الأنبياء ﷺ: «خُلقت أنا وعليّ من نور واحد». وقد ظهر هذا النور في مرّ الدهور، وكان له تجليات حتّى تجلّى في مظهر سيّد الأنبياء، فكانت النبوّة، وفي مظهر سيّد الأوصياء فكانت الإمامة، فهي امتداد للنبوّة، ولكنهما حقيقة من الحقائق الإلهية لا يمكن دركها إلّا بفيض ربانيّ، إلّا أن يكون المانع التحديدات الإمكانيّة، فالعاجز عن الوصول يتشبّث بالقشور، ويترك النور ويوسم نفسه بالقصور، إلّا مَن ادركته بارقة إلهيّة ومنحة ربانيّة، فانكشف له الظلام، واستعدّ للدخول في الحِمى، فعرف حقّ الولاية، واعترف بالإمامة، وجعل لنفسه إماماً يقتدي به لينجيه من المهالك، ويرتقي في سُلّم الكمال، هذه هي الإمامة فلا يمكن إنكارها إلّا ممّن ينكرها بإنكار الجحود، ويوصد على نفسه أبواب الصعود، ويفتح أبواب الهبوط، أعاذنا الله منها.

الآية ٥٧ ـ ٦٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

الآيات الشريفة تخبر عن عداوة أهل الكتاب والكفّار، وتكشف عن سوء سرائرهم وخبث ضمائرهم، وتبيّن سوء صفاتهم، وهي الاستهزاء واللّعب بأحكام الله وشريعته، والبغض والكراهية لمَن يؤمن بالله وما أنزله عزّوجلّ، والنفاق والمسارعة في الإثم والعدوان، وأكل المحرمات الإلهيّة، وفي تعدادها تذكير للمؤمنين بالابتعاد عنهم، وتزكية نفوسهم عمّا اتّصف به أهل العناد

واللّحاج، وإصلاح شؤونهم بحفظ المواثيق عمّا اتّصف به أهل العناد واللّجاج، وإصلاح شؤونهم بحفظ المواثيق والعهود، ومن أهمّ موجبات ذلك عدم اتّخاذ المستهزئين بالله وآياته وأهل الكتاب أولياء، لسوء أفعالهم وخبث بواطنهم وسوء سرائرهم، قد أخزاهم الله تعالى بلعنه إيّاهم وطردهم عن موجبات رحمته، فمسخهم إلى ما يناسب ملكاتهم الخبيثة قردة وخنازير، وفي ذلك تحذير شديد لغيرهم، ولا يخفى ارتباطها بما سبقتها من الآيات.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً**﴾.

الهزء هو المزح في خفية، ومنه السخرية ـ وتقدّم معناه ـ يعدّى بالباء و«من»، يقال: هزأت به وهزأت منه، وتقرأ بوجوه أربعة يأتي ذكرها في البحث الأدبيّ.

واللّعب بفتح أوّله وكسر ثانيه مثل «اللعب» بكسر اللام وسكون العين، يقال: لعب يلعب لعباً ولعباً، والمراد به كلّ فعل لم يقصد منه مقصداً صحيحاً، سواء لم يكن فيه النفع أم كان لكنه لم يكن على طريق الجدّ فيكون ضدّه، وذكر المصدر في الموردين لبيان أنّهم محضوا في الهزء واللّعب بالدين، فهو على سبيل المبالغة.

ومن المعلوم أنّ الشيء إنّما يتّخذ هزواً ويستهزأ به لأجل أنّه لم يأخذ مأخذ الجدّ، فلا يعتنى به لإظهار أنّه ممّا لا ينبغي أن يلتفت إليه، وكذا اللعب بشيء فإنّه إنّما يكون كذلك إذا لم يتّخذ لغرض من الأغراض الصحيحة العقلائيّة، وعلى هذا يكون الهزء بالدين واللعب به لأجل السخرية والاستهانة، وعدم

الاعتناء به والإظهار بأنّه ليس بشيء يلتفت إليه، فيتّخذ للأغراض الباطلة غير الجدّية، فلو اعتبروه ديناً حقّاً، وأنّ فيه من المصالح الواقعيّة والحكم ما فيها سعادة الناس، وأنّه نزل من لدن حكيم خبير، لما وضعوه في هذا الموضع الداني، بل جعلوه في مكانه اللائق به، وهذا شأن كلّ مَن لم يتمكّن الإيمان في قلبه ولم يؤمن بالغيب، فإنّه لم يأخذ دينه موضع الجدّ ولم يعتبره من الأُمور الواقعيّة، فيتّخذه هزءاً يستهزأ به ولعباً يلعب به.

والتعبير بالاتّخاذ كونهم كذلك دائماً وهو شأنهم، كما أنّ ذكر اتّخاذهم الدين هزواً ولعباً وصفاً من الأوصاف التي أوجبت النهي عن اتّخاذهم أولياء؛ لبيان العلّة في النهي عن ولايتهم، فإنّ مَن كان شأنه الاستهزاء واللعب بالدين، لا يليق أن يُتّخذ أولياء، لهم من المكانة في نفس الوليّ بحيث يوجب التصرّف في شؤونه ويقدّسه ويحترمه ويحبّه، فمن الواجب أن لا يلقى إليه زمام نفسه، فإنّ الولاية لا تليق به، وهي لا تلائم المستهزئين واللاعبين بما يقدّسه الوليّ، ويرشد إلى ذلك ذكر وصف الإيمان في الخطاب في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، ونسبة الدين إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿**دِينِكُمْ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾.

في موضع الحال من «الذين» قبله، أو من فاعل «اتخذوا»، وذكر إتيان الكتاب لبيان غاية ضلالتهم وكمال شناعتهم، فإنّ في إيتائهم الكتاب ليكون سبباً في الارتداع عن اتّخاذ دين المؤمنين به وبكتابهم هزءاً ولعباً.

قوله تعالى: ﴿**وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ**﴾.

أي: المشركين، وإنّما أفردهم بالذكر مع أنّ أهل الكتاب من الكفّار أيضاً، لتضاعف كفرهم، فإنّهم مشركون عريقون في الكفر وأصلاء في الشرك، دون

أهل الكتاب الذين عرض الكفر والشرك عليهم، وليس من أصل دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

في موالاة الكفّار وغيرها، فلا تجعلوها إلّا فيمَن عيّنه الله تعالى، لئلّا تصبحوا مثلهم وتقعوا في ورطة الاستهزاء بدينه وأمر ولايته عزّوجلّ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

تأكيد بليغ، فإنّ مَن كان مؤمناً حقّاً يأبى اتّخاذ أعداء الدين أولياء، وإيمانه يوجب الاتقاء عنهم، فإنّ من شأن المؤمن أن لا يرضى بالاستهزاء بدينه واللعب بمقدّساته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾.

بيان وتأكيد لما سبق، وتحقيق له بذكر أحد المصاديق المهمّة الذي يبيّن كمال شقاوتهم، فإنّ الصلاة عبادة خاصّة تشتمل على معانٍ سامية، وإنّها أُمّ العبادات التي أمر الله عزّوجلّ عباده بها، وفيها يقف العبد بين يدي خالقه، ويطلب منه العون والتوفيق، فالاستهزاء بها واتّخاذها لعباً إنّما يكون عن شقاء وحرمان كلّ ما في النفس من إصلاح.

والنداء: هو الدعاء، ونداء الصلاة هو الأذان المعروف.

وقيل: إنّه لم يذكر الأذان في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع.

ولكنّه مردود، لأنّه ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾[1].

وذكر نداء الصلاة لبيان أنّ استهزاءهم لم يقتصر على حالة معينة وموضع

١ ـ سورة الجمعة: الآية ٩.

خاصّ، بل شمل هذه الشعيرة الإلهيّة في جميع أُمورها، والضمير في قوله: ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ إمّا راجع إلى الصلاة ـ كما عرفت ـ أو المناداة المستفادة من قوله ﴿نَادَيْتُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

تعليل لما سبق، أي الإتّخاذ المذكور إنّما هو بسبب عدم التعقّل منهم لدرك المحاسن والحقائق، بل ليس بوسعهم أن يتعقّلوا ما في هذه الشعائر العباديّة والأعمال الدينيّة من فوائد، فإنّ فيها القرب من الله تعالى، وفيها تتجلّي حقيقة العبوديّة، وفيها السعادة في الدارين، لكنّهم جهلوا بها فسخروا وهزؤا بالحقّ، ولو كان لهم عقل لما صدر منهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾.

مادّة «نقم» تدلّ على النكران والكراهية، ومنه النقمة العقوبة، لأنّ الكراهية والإنكار قد يبلغان من الشدّة إلى حدّ العقوبة، فهي لا تكون إلّا على ما ينكر، و تتعدّى بـ«على» وهو الأصل و«من» لتضمّنه معنى الإصابة بالمكروه، كذا قيل، وقد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم في سبعة عشر موضعاً.

ومن أسمائه الحسنى «المنتقم»، أي يعاقب المجرمين والكفّار، قال تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[٢].

والاستفهام للإنكار، والتذكير بكونهم أهل الكتاب لزيادة التبكيت، وإلزامهم بكفرهم، فإنّه لا يوجد سبب لكراهيتهم لأهل الإيمان إلّا الفسق.

---

١. سورة السجدة: الآية ٢٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ٤.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: هل تعيبون وتنكرون منّا الإيمان بالله وبسائر الكتب المنزّلة، فليس عندنا أمر يُعاب عليه سوى ذلك، وهو لا يُعاب ولا ينقم، وإنّما ينسب عزّوجلّ ما أُنزل من قبل ـ الذي هو التوراة والإنجيل ـ إليهم تعريضاً بهم، لأنّهم لم يفو بعهد الله، فلا أهلية لهم لنسبة الكتاب إليهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

في موضع التعليل، أي لأنّ أكثركم فاسقون خارجون عن ربقة الإيمان، حسداً منهم وحبّاً للرئاسة، فهو السبب للنقمة، والمقابلة بين الإيمان والفسق لبيان بطلان النقمة، فكأنّه راجع إلى ما قد يقال:

ولا عيب فيه غير أنّ سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائب

أي: هل تنقمون منّا وتكرهوننا لأنّا أهل الإيمان وأنتم أهل الفسق، وفي المقام تقدير وحذف، واختلاف في الإعراب سيأتي في البحث الأدبيّ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾.

خطاب لنبيّه الكريم بالمجادلة معهم على طريق التسلّم، وإلزامهم بالنقمة لأنفسهم بمثل ما نقموا من المؤمنين، وهذا نوع من المجادلة بالتي هي أحسن التي أُمرنا بها. أي قل لهم يا رسول الله، إنّكم إن تنقمون من المؤمنين، فلابدّ أن يكون نقمتكم لأنفسكم أشدّ، لما سيبيّنه عزّوجلّ، فانها نقمة كلّها شرّ حادث فيكم ومنكم، والمبتدأ هو الخبر الذي له شأن وخطر.

و«ذلك» اسم إشارة، واختلفوا في المشار إليه كما اختلفوا في المخاطب هل هم المؤمنون، أي أيّها المؤمنون هل أنبئكم بشرّ من ذلك، إلّا أنّ كون الخطاب للكفّار هو الأظهر كما عرفت. وأمّا إذا كان المشار إليه جميع المؤمنين

المدلول عليه بقوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾، فالمعنى: هل أنبّئكم بمَن هو شرّ من المؤمنين لتنقموهم وهم أنتم أنفسكم، وأمّا إذا كان الكفّار فالمعنى واضح، وإفراد اسم الإشارة لا بأس به.

وقيل: المشار إليه المصدر المستفاد من ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾، وسيأتي في البحث الأدبيّ.

قوله تعالى: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾.

المثوبة مصدر ميمي من ثاب الشيء يثوب وثاب إليه إذا رجع، ويطلق على الثواب والجزاء باعتبار أنّه الراجع إلى الإنسان جزاء أعمال، كأنّ عمله رجع إليه، ويستعمل في مطلق الجزاء، ولكن استعماله في الجزاء الحسن أكثر، وقيل استعماله في الإساءة إنّما هو للتهكّم، فهو يتخصّ بالإحسان كما أنّ العقوبة تختصّ بالشرّ، أي إذا كان الإيمان بالله والكتب المنزلة هما الشرّ عندكم وسبب النقمة منكم، فأنا أخبركم بشرّ من ذلك يلزمكم أن تنقموه، وهو الجزاء السّيء الذي حلّ فيكم نتيجة أفعالكم وأعمالكم، وهو عند الله تعالى ثابت.

قوله تعالى: ﴿مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

بيان للشرّ الذي ذكر سابقاً، والجملة: «من لعنه» إمّا في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي هو مَن لعنه الله، كقوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾[1]، أو في محلّ جرّ على البدل من شرّ.

وكيف كان، فالمعنى أنّ الذي هو شرّ من ذلك جزاءً وثواباً عند الله هو مَن لعنه الله، أو جزاء مَن لعنه الله وأبعده من رحمته، وسخط عليه بكفره وانهماكه في المعاصي.

---

١. سورة الحج: الآية ٧٢.

والاسم الموصول عبارة عن أهل الكتاب، ووضع الاسم الجليل موضع الضمير، لتهويل أمر اللعنة وما تبعه وادخال الروعة وتربيب المهابة، وقد تقدّم في سورة البقرة ما يتعلّق باللعن والغضب، وقد تكرّر لعنهم في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

الجعل هنا هو التكوينيّ منه، أي مسخ بعضهم قردة وخنازير حسب اختلاف فسقهم وذنوبهم الشنيعة، وهم أصحاب السبت، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1]، وقد تقدّم ما يتعلّق بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

إمّا عطف على صلة «مَن»، أو بتقدير موصول محذوف، أي ومَن عبد، وهو عطف على منصوب «جعل»، أي وجعل منهم مَن عبد، و«عبد» بالتحريك فعل ماضٍ من العبادة والطاغوت مفعوله، وقد تقدّم الكلام في الطاغوت في سورة البقرة، فراجع.

والمراد به: مَن كثر طغيانه، يشمل كلّ مصادر الطغيان، سواء للشيطان أم غيره، والمراد منهم: عبدة العجل، والرهبان والأحبار الذين غيّروا دين الله وبدّلوا أحكامه وشرائعه، وحرّفوا كتبه. وذكر الأوصاف متعدّداً مع إمكان تداخل بعضها في بعض، إمّا لأجل تبكيتهم ووصفهم بما لا سبيل إلى الجحود، أو شرّيتها وفظاعتها واتّصافهم بها، أو لأجل أنّ كلّ واحد من تلك الأوصاف يكفي في الشرّية، ولو كان غير هذا التعداد لفهم منه غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾.

---

١. سورة البقرة: الآية ٦٥.

أي : أُولئك الموصوفون بتلك الفضائح والشنائع شرّ مكاناً ، وهي النار التي هي بئس المصير ، وإثبات الشرّ لمكانهم يلازم الشرّ لأنفسهم ، ومَن كان كذلك لا يحمله على الاستهزاء بالمؤمنين المصلّين واللعب بدين الله ، فإنّهم في شغل أهمّ ، والجملة تدلّ على كمال الشرّ والضلال .

قوله تعالى : ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ .

أي : أُولئك أكثر ضلالاً وأبعد عن قصد طريق الحقّ والصراط المستقيم الذي عليه الإسلام ، وفيه تقرير للشرّ الذي هم فيه ، وأنّ دينهم شرّ محض بعيد عن الحقّ ، وافعل التفضيل في الموردين إنّما هو لبيان الزيادة والطغيان ، من دون نظر إلى مشاركة غيرهم في ذلك ، وربّما يقال في وجه التفضيل في المقام أُمور لا تخلو عن مناقشة ، فراجع .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ .

بيان للنفاق الذي تمكّن في قلوبهم وسلب مشاعرهم ، فهم منافقون في جميع الحالات ، وذلك شأنهم لم يتغيّر حالهم في الكفر والنفاق ، والجمع في «جاؤوكم» للتعظيم ، أي إذا جاؤوكم أظهروا الإسلام والإيمان بالرسول .

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ .

أي : لم يتغيّر حالهم أنّهم دخلوا عليكم بالكفر وهم يخرجون من عندكم بالكفر ، فحالهم عند الخروج نفس حالهم عند الدخول عليكم ، لم يتحوّلوا عن الكفر ، ولم يتأثّروا بمقام الرسول ﷺ ، ولا بما أُنزل عليه ، وذلك لشدّة تأثّرهم بالنفاق ورسوخهم بالكفر ، ويدلّ عليه قوله ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ .

وعيدٌ لهم، وإعلام لهم بأنّهم محاطون بالعليم القدير، فيعلم منوياتهم وما أضمروه للرسول ودينه الحقّ وأهله.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾.

بيان لمظاهر فسوقهم في القول والفعل، بعد بيان نماذج فسوقهم في الاعتقاد، فهم متوغّلون في ذلك اعتقاداً وقولاً وفعلاً، ولرسوخهم فيه أنّه يظهر بوضوح منهم، كما ترى الأُمور الواضحة.

والمسارعة مبالغة في السرعة، والمبادرة إلى الشيء بسرعة التي ضدّ البطء.

وقيل: الفرق بين السرعة والعجلة، أنّ الأُولى في الجوارح، والثانية بالجوانح، نظير الفرق بين الخضوع والخشوع، والخوف والخشية، وإنّما ذكر ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ دون إلى الإثم؛ أنّهم غارقون في الإثم، وإنّما يسارعون في خصوصياته، لا إنّهم خارجون فيسارعون إليه.

قيل: والمراد بالإثم في المقام هو الخوض في دين الله ومعارفه، وتحريفها وتأويلها بما يوجب الكفر والفسوق، ويشهد له قوله عزّوجلّ الآتي: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾.

إلّا أنّ التخصيص في التالي لبيان الأهمّية لا يوجب تخصيص المقدّم الذي يشمل كلّ إثم ومعصية ومنها ما ذكر، وممّا يهون الخطب أنّهم غرفوا في جميع ذلك وأحاطت بهم خطاياهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾.

وهو تعدّي حدود الله والظلم وتجاوز الحقوق، حتّى عرفوا بذلك في مرّ الدهور.

وقيل: الإثم إنّما هو المختصّ بهم، والعدوان ما يتعدّى إلى غيرهم.

لكنّه تخصيص بلا دليل، فيشمل جميع أنحاء الإثم والعدوان، فإنّه قد يكون فيما بينهم وبين المؤمنين وهو الظلم والتعدّي عليهم، أو عند أنفسهم وهو أكل السحت وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

السحت هو المحظور الذي يلزم صاحبه العار، فيختصّ بالدنيء من المحرّم، وقد يطلق على كلّ محرّم، والمراد في المقام الأُمور المحرّمة التي حلّت فيهم، واكتسبوا منها الأموال، كالربا والرشوة ونحو ذلك، والتنصيص عليه مع أنّه داخل في ما تقدّم من الإثم والعدوان؛ للمبالغة في التقبيح، وللإعلام بأنّ أكل الحرام سلب قلوبهم وأهمّ مقصد عندهم، ولإراءة السيئة الفعليّة بعد إراءة السيئة القوليّة والاعتقاديّة.

قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ذمّ لهم، وتقبيح لأفعالهم، أي لبئس شيئاً يعملونه، والجمع بين صيغتي الماضي «ما كانوا»، والمستقبل «يعملون» للدلالة على الاستمرار واستغراقهم في المعاصي الفاسدة والمفسدة.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

توبيخ عنيف، فإنّ «لولا» إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ، واذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض، والسياق يدلّ على توبيخ السلف، وتحضيض الخلف على ترك متابعتهم علمائهم في سكوتهم عنهم، وتركهم النهي عن ارتكاب الموبقات من الآثام والمعاصي، مع علمهم بأنّها كذلك، فإنّ ما فعلوه من الموبقات وما ارتكبوه من السوء والشرور، مفسدة لهم وللأُمّة التي يعيشون فيها، لولا يقوم

لهم مَن يؤثّر قوله في المجتمع ويصدّوهم عن ذلك، ولكنّهم تركوا هذه المهمّة الخطيرة وركنوا إلى الظلم، فعمّ الفساد الجميع، وأضاعوا الدين وأفسدوه، فنالوا الخزي والعار.

والربانيّون والأحبار: طائفتان معروفتان في مجتمع اليهود، وهم العبّاد والعلماء، وتخصيصهم بالذكر لأنّهم الذين يقتدي بهم غيرهم، ويعلمون قبح أفعالهم ونتائج أعمالهم الشنيعة، ولأنّ الميثاق قد أُخذ من العلماء لبيان الأحكام، وردع الناس عن ارتكاب الحرام، فاذا تركوه كان أشدّ قبحاً وأعظم تأثيراً، كما أخبر عزّوجلّ.

قوله تعالى: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾.

توبيخ لهم على السكون وترك النهي، مع علمهم أنّ ما يقولونه إثم، وما يفعلونه سحت، والإقتصار عليهما دون العدوان لبيان المعاصي القوليّة والمعاصي الفعليّة، وأنّ العدوان لا يخرج عن أحدهما.

قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

تأكيد بليغ على التوبيخ، ونعي على العلماء لتوانيهم في النهي عن المنكرات، والصنع هو الفعل الصادر عن مزاولة وإجادة ورسوخ، أمّا العمل فهو الفعل عن قصد، وأمّا الفعل فقد يصدر عن الحيوانات، فصار الصنع أخصّ من الفعل وأخصّ من العمل كما عرفت، لأجل ذلك كان هذا أبلغ في الذمّ من مرتكبي الكبائر، ولذا قال ابن عبّاس: ما في القرآن أشدّ توبيخاً من هذه الآية، فإنّ ترك النهي ينمّ عن سوء السريرة وعن حبّ الذات، وإيثار رضى الناس، فإنّه ما ترك العلماء النهي عن المنكر، وهم يعلمون بالميثاق الذي أُخذ منهم، إلّا تكلّفاً لرضاء الناس، وتحامياً لتنفيرهم منهم، فيكون ترك الحسنة أقبح من ارتكاب

المعصية؛ لأنّ النفس تميل إليها وتلتذّ بمواقعتها، ولم يكن كذلك ترك الإنكار عليها.

وعن عليّ عليه السلام: «اعتبروا أيّها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار، يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾».

وفي خطبة له عليه السلام: «إنّما هلك مَن كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربانيّون والأحبار عن ذلك، وإنّهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيّون والأحبار نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ـ الحديث».

والروايات في ذلك كثيرة، ويساعدها الاعتبار كما عرفت.

***

بحوث المقام

بحث أدبيّ:

الآيات المتقدّمة من الآيات المعدودة التي كثر الكلام في جهاتها الأدبيّة، لا سيّما ناحية الإعراب منها، فاستوعب قسطاً وافراً من تفاسير القوم، وتشعّبت أقوالهم وكثر جدالهم، ولكنّهم غفلوا عن النواحي الأُخرى التي تدلّ عليها الآيات الشريفة.

ونحن نوجز الكلام فيها: تقدّم الكلام في مادّة هزأ ويجوز فيها أربعة أوجه:

الأوّل: هزؤ بضمّ الزاي والهاء، وهو الأصل.

الثاني: هزو بضمّ الزاي مع إبدال الهمزة واواً لانضمام ما قبلها.

الثالث: هزأ بإسكان الزاي مع الهمزة.

الرابع: هزى كهدى. ويجوز القراءة بها ما عدا الأخيرة.

وهزواً ولعباً، مصدران إمّا بمعنى اسم المفعول، أو قصد المبالغة، أو الكلام على حذف مضاف.

وقوله تعالى: **﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾**، في موضع الحال من «الذين» قبله، أو من فاعل «اتّخذوا».

و«الكفّار» إمّا هو مجرور، فيكون إمّا عطف على الموصول الأوّل، قيل: وعليه لا تصريح باستهزائهم هنا، وإن أثبت لهم في موضع آخر، كقوله تعالى: **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾**[1] وهم المشركون، فيكون النهي حينئذٍ معلّلاً

١. سورة الحجر: الآية ٩٥.

بالإستهزاء، بل نهوا عن موالاتهم ابتداءً.

وإمّا عطف على الموصول الأخير، ويعضده قراءة أُبي: «ومن الكفار»، وقراءة عبدالله: «ومن الذين أشركوا»، فهم أيضاً من جملة المستهزئين صريحاً.

وإمّا أن يكون على النصب.

و«أولياء» مفعول ثان لـ«لا تتّخذوا».

و«تنقمون» بضمّ القاف من باب ضرب، وقُرئ بفتح القاف من باب علم، وهي لغة قليلة، وذكر بعضهم أنّ المفعول به محذوف وهو «الدين»؛ لدلالة ما قبل وما بعد عليه. وأنّ قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ مفعول له «لتنقمون»، وقدّر بعضهم المفعول به المحذوف «شيئاً»، وقيل غير ذلك، فراجع المطولات.

وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ إمّا عطف على ﴿أَنْ آمَنَّا﴾، فصار من موجبات النقمة، وإمّا عطف على علّة محذوفة، وقد حذف الجارّ في جانب المعطوف، فيكون محلّه إمّا الجرّ أو النصب على الخلاف المعروف.

وقيل: إنّه يفعل مقدّر دلّ عليه المذكور.

وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، ويقدّر مقدّماً؛ لأنّ «أن» المفتوحة لا يقع ما معها مبتدأ إلّا إذا تقدّم الخبر.

وقيل: يجوز أن يكون «الواو» بمعنى «مع»، أي وما تنقمون منّا إلّا الإيمان مع أنّ أكثركم الفاسقون، وأشكل بعضهم على ذلك، وعلى أي حال الجملة إمّا حاليّة أو معترضة.

و«ومثوبة» منصوب على التمييز.

وقيل: يجوز أن يكون مفعولاً له «لأُنبئكم» وهو مصدر ميمي بمعنى الثواب.

وقيل: إنّه في الخير كالعقوبة في الشرّ، وضعت هنا موضع الأخيرة على طريقة قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، والمعروف أنّه يقال في الخير والشرّ

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢١.

كما عرفت في التفسير،والتركيب من الفصيح من تقديم المفضّل عليه على التمييز.

و«مَن لعنه الله» في محلّ الرفع على قولك: هو مَن لعنه الله، أو في محلّ الجرّ على البدل من شرّ.

و«عبد الطاغوت» واحد يراد به الجنس، ويُبنى بناء الصفات؛ لأنّ عبد في الأصل صفة وإن كان يستعمل استعمال الأسماء، وهو عطف على صلة «من»، أي ومَن عبد الطاغوت.

وقيل: إنّ هنا موصولاً، أي ومَن عبد الطاغوت، وهو معطوف على منصوب «جعل».

وعابدي وعباد وعبد معناه الغلو في العبوديّة، كقولهم: رجل حذر وفطن، للبليغ في الحذر والقطنة.

وفي الآية عدة قراءات، قيل: المعروف اثنتان من السبعة وما عداهما شاذّ، بل ذكر بعضهم أنّ في «عبد الطاغوت» اثنتين وعشرين قراءة، راجع المطولات في الإعراب والقراءة.

وقوله: **﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾** مبتدأ وخبر وتمييز محوّل عن الفاعل، والإسناد حقيقيّ، لأنـّهم شرّ في مكان شرّ.

وقيل: إنّه مجازي، كجري النهر، ولكنّه ليس بشيء.

والجملة مستأنفة مسوقة للشهادة عليهم بكمال الشرارة، ولما فيه من المبالغة ما لم يكن في غيره مطلقاً.

وقوله: **﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** عطف على «شرّ» مقرّر له، وصيغتا التفضيل: «شر وأضلّ» إمّا للزيادة، أو للتفضيل على زعمهم، **وقيل**: بالنسبة إلى غيرهم من الكفّار.

وقوله: **﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾** في موضع الحال من ضمير «قالوا».

وقيل: حال من الضمير في «آمنا» وباء «بالكفر» و«به» للملابسة، والجار والمجرور حالان من فاعل «دخلوا وخرجوا».

والواو في: «وهم قد خرجوا به»، إمّا للحال لأنّها داخلة على الجملة الاسميّة الحاليّة، **وقيل**: للعطف لأنّه من تعدّد الجملة الحاليّة، والمعطوف على الحال حال، ودخول «قد» على الجملة الحاليّة الماضويّة لتقريب الماضي إلى الحال، وفيه إشكال وتفصيله يطلب من محلّة، والجملة الاسميّة الواقعة حالاً المصدّرة بضمير ذي الحال آكد من الجملة الفعليّة من جهة تكرّر المسند إليه.

وقوله: ﴿**يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ في موضع الحال من «كثيراً» الموصوف بالجارّ والمجرور، **وقيل**: مفعول ثان «لترى».

و«ما» في قوله ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ نكرة موصوفة، وقعت تمييزاً لضمير الفاعل المستتر في (بئس)، والمخصوص بالذمّ محذوف.

وقيل: إنّ «ما» موصولة فاعل (بئس)، والجمع بين الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار.

وتقدّم الكلام في «لولا» فراجع، كما عرفت الفرق بين «يعملون ويصنعون». والوجه في ذكر الأخير في لوم وذمّ العلماء وتوبيخهم، فراجع.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ الخطاب ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ على أنّ الإيمان بالله وبرسوله رادع عن اتّخاذ دينكم هزواً ولعباً وليّاً، كما أنّ نسبة الدين إلى ضمير الخطاب يدلّ على أنّ الدين المنسوب إليكم يحب حفظه من لعب اللاعبين واستهزاء المستهزئين، ويجب البعد عنهم وترك موالاتهم فإنّها تؤثّر في دينكم، فلم تقدروا أن تحفظوه ويصير مرتعاً للأهواء وأنواع اللعب، فتخونوا بذلك أماناتكم، فالآية

الشريفة تدلّ على النهي عن اتّخاذ موالاة الكافرين بأُسلوب بليغ مشتمل على البرهان البديع المقنع ، فإنّه دينكم ويجب الاحتفاظ به بكلّ ما أمكن .

الثاني : يرشد قوله تعالى : ﴿**أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ إلى أنّ إيتاء الكتاب لابدّ أن يكون سبباً رادعاً لهم من اللّعب بدين الله والاستهزاء به ، فإنّه كما يجب عليهم حفظ كتابهم وما يشتمل عليه من أحكام الله ، كذلك عليهم حفظ كلّ دين إلهيّ ، فكان فيه توبيخ وردع عن أعمالهم الفاسدة بمقتضى الكتاب الذي أُوتوه ، ولذا أفردهم عزّوجلّ ولم يدرجهم في الكفّار الذين هم أسوأ حالاً منهم؛ لأنّهم لم يلتزموا بشيء كما التزم أهل الكتاب به .

الثالث : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ على أنّ من حقيقة الإيمان هي البراءة من أعداء الله عزّوجلّ ، والاتقاء من اتّخاذهم أولياء ، فمَن اتّخذهم أولياء خرج عن الإيمان الذي يتركّب من جزئين ، أحدهما تولّي أولياء الله ، والثاني التبرّي من أعدائه عزّوجلّ ، فمن اجتماعهما معاً تكون حقيقة الإيمان ، وانتفاء أحدهما يوجب سلبها ، ويدلّ على ذلك جملة من الآيات والروايات ، فلا وجه للتقصير في هذه الناحية التي يعتبر عزّوجلّ الابتعاد عنهم (أعدائه) من تقوى الله ، وفيه إيماء إلى أنّ مَن هذا شأنه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة .

الرابع : يدلّ قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ على أنّ الاستهزاء بأحكام الله عزّوجلّ ودينه يسلب العقل، ويخرج الإنسان عن جادة الصواب ، فلا يمكنه درك الحقائق والمعارف ويوقعه في متاهات النفس الأمّارة .

الخامس : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ**﴾ على أنّ استهزاءهم من الحقّ قد سلبهم عن أهلية نسبة الكتاب إليهم ، فإنّهم لمّا لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ولم يعملوا بما أُنزل في كتبهم ، فهم ليسوا بأهلها ، وكأنّ كتبهم لم تنزل إليهم ، بخلاف أهل الإيمان فإنّه لا يفرق عندهم كتاب عن كتاب ممّا أنزله

الله تعالى على رسله، كما لا يفرّقون بين رسله . وفي ذلك التعريض لهم بأنّهم أهل تفرقة وشقاق .

السادس : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**﴾ على أنّ الفسق والخروج عن طاعة الله، والإعراض عن دينه، يوجب تردّي النفس في المهالك ، فتكون كارهة للخير والحقّ، وهذا أيضاً من مظاهر الاستهزاء واللّعب به ، فلم تبق في النفس حالة تطمئن وتشتاق إلى الحقّ وأهله ، فهذه الجملة المباركة تبيّن العلّة في النقمة الخاصّة في نفوسهم، الكارهة للحقّ والدين والإيمان وأهله ، وإرشاد إلى المؤمنين بالابتعاد عن هذه الخصلة المذمومة التي إذا حلّت في أي نفس أوجبت البعد عن مصدر الخير والشوق إلى الشرّ والمكاره ، فيكون الاستفهام للتقرير على ما تشهد به نفوسهم ، ويمكن أن يكون للإنكار ، كما عرفت .

السابع : يدلّ قوله تعالى : ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ**﴾ على إبعادهم عن كلّ خير إن هم تمعّنوا في الفسق، ولم يُصلحوا نفوسهم ولم يردعوها عن الاستهزاء بالمؤمنين واللّعب بدين الله ، فكلّما تمادوا في ذلك وأوغلوا في الفسق حتّى يصل إلى حدّ اللعنة والبعد عن ساحة رحمته والطرد عن قربه ، فلا يرجعون إلّا منكوسين خارجين عن حدّ الإنسانية التي خلقها في أحسن تقويم ، فهم يرجعون ممسوخين قردة أو خنازير حسب تعدّد ملكاتهم الفاسدة، وشدّة ابتعادهم عن قربة عزّوجلّ ، فهذه الآية الشريفة تبيّن جزاء الملكات والأفعال وتعدّد صورها ، وتدلّ على مناسبة الجزاء مع العمل ، التي هي من القواعد المهمّة في الثواب والعقاب ، وقد دلّت عليها الأدلّة القطعيّة .

الثامن : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ**﴾ قاعدة جزائيّة لا تقبل الاختلاف والتغيير ، فهي من الأُمور الواقعيّة التي لا تقبل السقوط إلّا بتبدّل الموضوع ، فهو أمر ثابت غير متغيّر ، وقد حكم به الله عزّوجلّ و أمر به ، فهذه الآية الشريفة تتضمّن إحدى القواعد المسلّمة في باب الجزاء ، وقد قال تعالى :

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾[1].

التاسع: يرشد قوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾** إلى أنّ الشرّ الذي أحاط بنفوسهم وتوغّلت فيه تعدّى عنهم فلزم مكانهم، فهم على شرّ وفي شرّ ولم يصدر منهم إلّا الشرّ، ولأجل ذلك صاروا أضلّ عن سواء السبيل، فلم يكن لهم سبيل خير يرشدهم إلى النجاة، ويمكن أن تكون الجملة إشارة إلى أنّ عبدة الطاغوت أسوأ حالاً من غيرهم ممّن ذكر في الآية، فإنّ مَن عبد الطاغوت فقد أغلق على نفسه أبواب النجاة، وجعل مشاعره في هذه الجهة التي هي أضلّ عن سواء السبيل، فلم يبق سبيل ينجيه من الهلكة والردى في مهاوي الفساد.

العاشر: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾** تقلّبهم بالكفر، وأنّهم لم يتغيّر حالهم فيه، فيتحوّلون من كفر إلى كفر، ومن شرّ إلى شرّ حسب درجات الهاوية، ودرجات الابتعاد عن رحمته، ومن مظاهر اختلافهم في تلك الدركات أنّهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، فهذه كلّها آثار فسقهم واستهزائهم ولعبهم بدين الله، وهي نتائج نواياهم السيئة، فهم يقترفون كلّ إثم، ويعملون كلّ عدوان، ويأكلون كلّ سحت، فقد أحاط الكفر والفسوق جميع أحوالهم وفسوقهم قولاً وعملاً ومقصداً؛ ولذا كانوا يسارعون فيها لخلو نفوسهم عن مصدر الخير، ولبئس ما كانوا يعملون.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾** أنّ إمعانهم في الكفر وتقلّبهم فيه أوجب حرمان نفوسهم من بركة الرسول ﷺ الذي هو واسطة الفيض الربوبيّ، فإنّ الدخول على الرسول من موجبات الرحمة، إذ برؤيتهم لشخصه الكريم وسماع كلماته المباركة، لابدّ أن يرجعوا عن الغواية، وتحلو قلوبهم بحلاوة الهداية، ولكنّهم لم يتأثّروا به فرجعوا عنه كافرين

---

١. سورة الرعد: الآية ٤١.

وأنكروه، فازداد كفرهم، وتضاعف على المؤمنين ليزدادوا اعتباراً، ويكونوا أشدّ حذراً منه، فإظهار الله عزّوجلّ ذلك مع علم الرسول ﷺ لأجل ما ذكرناه.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾** أنّ ما صنعه الربّانيّون والأحبار في تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشدّ قبحاً ممّا فعله المرتكبون للمعاصي والآثام، وذلك بوجهين:

الأوّل: أنّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يزيد في عقوقهم وطغيانهم وتماديهم في الفسوق والعصيان.

الثاني: أنّ مَن رضي بفعل قومٍ كان شريكاً معهم، كما دلّت الأدلّة الكثيرة، ولعلّه لأجل ذلك قيل: إنّ ترك الحسنة أقبح من فعل المعصية؛ لأنّ النفس تلتذّ بفعلها وتميل إليها، وليس كذلك ترك الإنكار عليها.

***

بحث روائي:

في «تفسير البرهان»: قال الإمام العسكريّ عليه السلام: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أمر الله عباده أن يستعيذوا من طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين قال الله فيهم: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾**».

أقول: يدلّ على كون اليهود هم المغضوب عليهم في جملةٌ من الآيات، منها ما في المقام، وقد أمر الله عباده بالاستعاذة منهم في سورة الفاتحة.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾** قال: نزلت في عبدالله بن أُبيّ لما أظهر الإسلام وقد دخل بالكفر.

أقول: روى السيوطيّ عن السّديّ في الآية، قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهوداً، يقول: دخلوا كفّاراً وخرجوا كفّاراً، والآية عامّة تشمل أهل الكتاب والمنافقين، وإن تطبيقها على أهل الكتاب أرجح.

وفي «الدّر المنثور» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ عن الزهريّ قال: قد ذكر الله الأذان في كتابه وذكر الآية.

أقول: تقدّم ما يتعلّق بذلك، وسيأتى مزيد بيان في البحث الفقهيّ.

في «الدّر المنثور»: أخرج مسلم عن ابن‌مسعود، قال: «سُئل رسول‌الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي ممّا مسخ الله؟ فقال ﷺ: إنّ الله لم يهلك قوماً أو يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة، وأنّ القردة والخنازير قبل ذلك».

أقول: دلّت الروايات على أنّ المسخ من القردة والخنازير وغيرها لم تبق في الدُّنيا إلّا مدّة قليلة فتموت بعد مسخها ولم تعقب، وإنّما تكون الحيوانات المعروفة بالمسوخة على هيئة تلك، وسيأتي في البحث الفقهيّ بعض الكلام.

وتقدّم الكلام في أحد مباحثنا في هذا التفسير، فراجع.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ قال: خرجوا به من الإيمان.

أقول: وهو يؤيّد ما ذكرناه، أي الآية عامّة تشمل كلّ مَن خرج عن الإسلام والإيمان، وإن كان ظاهر التطبيق على أهل الكتاب، ولكنّه يشمل غيرهم.

وفي «الكافي» بإسناده عن أبي بصير، عن عمر بن رباح، عن أبي جعفر عليه السلام: قال: «قلت له: بلغني أنّك تقول: مَن طلّق لغير السنّة أنّك لاترى طلاقه شيئاً؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: ما أقول بل الله عزّوجلّ يقوله، أما والله لو كنّا نفتيكم بالجور لكنّا شرّاً منكم! إنّ الله يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾».

أقول: روى مثله العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام، والحديث يبيّن أنّ كتمان الحقّ والإفتاء بغيره يكون مشمولاً للآية الشريفة، فإنّ الجميع يرجع إلى العدوان وقول الإثم وتغيير دين الله، فيكون فعل العلماء شرّاً من

العالمين بالإثم، كما عرفت.

***

بحث فقهي:

ذكر المفسّرون أنّ المراد من قوله تعالى: **﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾** هو الأذان، بل قال بعضهم: إنّه لم يذكر في القرآن الكريم الأذان إلّا في هذا الموضع، وقد عرفت أن لا صحّة له.

واختلفوا في مشروعيّة الأذان، فقد ذهب الجمهور إلى أنّه لم يكن الأذان بمكّة قبل الهجرة، وإنّما كانوا ينادون: «الصلاة جامعة»، فلمّا هاجر النبيّ ﷺ وصرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان، وبقي «الصلاة جامعة» لأمر عارض، وكان النبيّ ﷺ قد أهمّه أمر الأذان حتّي أُرِيَه عبدالله بن زيد، وعمر بن الخطّاب، وأبو بكر الصديق، وفي رواية أُخرى أُبي بن كعب، وأنّ عبدالله بن زيد أخبر النبيّ ﷺ، بذلك ليلاً، وأنّ عمر قال: إذا أصبحت أخبرت النبيّ ﷺ، فأمر النبيّ ﷺ بلالاً فأذن بالصلاة أذان الناس اليوم، وزاد بلال في الصبح: «الصلاة خير من النوم» فأقرّها رسول الله ﷺ وليست فيما أُري الأنصاريّ.

ولكن ذهب الإماميّة إلى أنّ الأذان كان بوحى إلهيّ ليلة المعراج، ففي صحيح ابن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «لما أُسري برسول الله ﷺ وحضرت الصلاة أذّن جبرئيل وأقام الصلاة، فقال عليه السلام: يا محمّد تقدّم، فقال له رسول الله ﷺ: تقدّم جبرئيل، فقال له: إنّا لا نتقدّم على الآدميين منذ أُمرنا بالسجود لآدم». وفي رواية منصور بن حازم عن الصادق عليه السلام: «لما هبط جبرئيل عليه السلام بأذان على النبيّ ﷺ كان رأسه في حجر عليّ عليه السلام فأذن جبرئيل وأقام، فلمّا انتبه رسول الله ﷺ قال: يا عليّ هل سمعت؟ قال: نعم، قال: حفظت؟ قال: نعم؟ قال: ادع بلالاً فعلّمه، فدعا علي بلالاً فعلّمه».

ولا ينافي صحيح ابن سالم لصدور الأذان مرّتين من جبرئيل مرّة في

السماء والأُخرى في الأرض لبيان شرعيتهما وكيفيتهما.

ويمكن مناقشة ما ذكره الجمهور:

أوّلاً: بأنّ مقام النبوّة يجلّ من أن يأخذ حكماً إلهيّاً وشعاراً دينيّاً عامّ البلوى برؤيا شخص من أُمّته لا سيّما مع اهتمامه ﷺ به، وهو أولى أن يريه الله تعالى دون غيره.

وثانياً: معارضته بروايات صحاح على أنّه كان بوحي إلهيّ كما عرفت، ومن الغريب جداً أنّ القصة افتعلت بعد وقوع التغيير في فصول الأذان ليحتجّ بأنّ التغيير وقع في نوم رجل لا في الوحي السماويّ، ويشهد له زيادة بلال في الصبح: «الصلاة خير من النوم» كما تقدّم، على أنّ التثويب وهو قول: «الصلاة خير من النوم» مورد الخلاف عندهم في كيفيّة درجها في الأذان، راجع الكتب المفصّلة في خصوصيّات الأذان والإقامة للفريقين.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ يدلّ على وقوع المسخ في اليهود، وفي أدلّة أُخرى كتاباً وسنّةً وقوعه في غيرهم أيضاً، والمسخ هو تحويل صورة إلى صورة أُخرى أقبح من الأُولى لأُمور ذكر عزّوجلّ بعضها في هذه الآية الشريفة، ويمكن أن يتعلّق بالقلب فقط، فالصورة صورة إنسانيّة والقلب قلب حيوان.

وكيف كان، فهو عقاب إلهيّ كان في الأُمم السابقة يعاقب به الخارجين عن طاعته، المتوغّلين في معصيته، وقد ارتفع عن أُمّة الإسلام ببركة خاتم الأنبياء ﷺ الذي أرسله الله عزّوجلّ رحمةً للعالمين، وحكم المسوخ عند الإماميّة أنّه لا يجوز أكلها، نصوصاً، واجماعاً.

ففي الصحيح عن أبى عبدالله عليه السلام: «حرّم الله ورسوله المسوخ كلّها» ومثله غيره. وأمّا عدد المسوخ فالروايات بين مقلّة ومكثرة إلى سبعمائة، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «المسوخ من بني آدم ثلاثة عشر صنفاً منهم: القردة والخنازير

والخفاش والضب، والفيل، والدب والدعموس والجريث، والعقرب، وسهيل[١]، والقنفذ، والزهرة[٢]، والعنكبوت»، وغير ذلك من النصوص.

وأمّا طهارته فقد وقع الخلاف فيها عند الفقها، والمشهور عندهم الطهارة. كما اختلفوا في قبولها للتذكية، والمشهور عدم قبولها، راجع كتابنا (مهذّب الأحكام) وقد تقدّم في هذا التفسير بعض الكلام في المسخ، فراجع.

وأمّا السحت فهو الحرام، أكل السحت هو كلّ ما لا يحلّ كسبه، وعن عليّ عليه السلام: «هو الرشوة في الحكم، ومَهر البغيّ، وكسب الحجّام، وعسب الفحل، وثمن الكلب، وثمن الخمر، وثمن الميتة، وحلوان الكاهن والاستعمال في المعصية»، وعن الصادق عليه السلام: «السحت أنواع كثيرة فأمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله»، وغير ذلك من الأخبار التي تذكر فيها أنواع السحت، وفي المذكورات بحث، راجع المكاسب من كتابنا (مهذّب الأحكام).

***

بحث عرفاني:

الحجب التي تحيط بالإنسان كثيرة، فاذا تراكمت بسبب الغفلة عن إزالتها تصير ظلماتٌ بعضها فوق بعض، والآيات الشريفة المتقدّمة تشتمل على جملة من عيوب النفس، وبعض الرذائل التي تمنع النفوس من الدرج في الكمال، بل إنّ بعضاً منها من المهلكات التي توقع النفس في الهاوية، فتخرجها عن طور الإنسانيّة إلى أسوأ دركات البهيميّة، وتجعلها في مصاف الحيوانات الرديئة كالقِردة الخنازير، وقد نُهِيَ المؤمنون عن اتّخاذهم أولياء، لأنّ النفس تتأثر بأفعالهم وتتكدر بأقوالهم، ويسلب منها التوفيق برؤيتهم:

فللنفس من جُلّاسها كلّ نسبة ... ومن خلّة للقلب تلك الطبائع

---

١ و ٢ . سُهيل والزُّهرة: هما حيوانات من حيوانات البحر لا الكوكبان المعروفان.

ويكفي أنّ النظر إلى تارك الصلاة يسلب التوفيق، فكيف باتخاذهم أولياء، فذلك الهلاك للنفس، ومن أهمّ المهلكات الاستهزاء بدين الله عزّوجلّ و اتّخاذه لعباً، فإنّه يوجب شقاء القلب وينبئ عن سفالة النفس، ودخولها في سلك البهائم التي لا شأن لها إلّا اللعب، ولذا مُسخوا بالقردة التي لها المناسبة مع تلك المعصية الدنيئة، فقد جبلت نفوسهم على حجب العقل وحرمان النفس من التمتع بأنواره والاستفادة من إرشاداته، فكان الخطاب الربوبيّ لهم بأنّهم قوم لا يعقلون، لأنّهم استهزؤا ولعبوا ووصلوا إلى حدّ الهزء بأهمّ شعيرة فطريّة وأعظم رابط بين المخلوق وخالقه، وهي الصلاة التي اجتمع فيها التقرّب والخضوع والخشوع لدى الربّ العظيم، أنّ بها يستنزل الرحمة والنور الذي إذا قذف في القلب انخرق كلّ حجاب بينه وبين خالقها، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسخ»، انظر إلى هؤلاء الكفّار كيف استهزؤوا بأحكام الله، فحُجبوا عن النور الإلهيّ، ووقعوا في ظلام النفس الأمّارة وتاهوا فيها، وكان السبب في ذلك سلبهم العقل وانزواء الكفر فيهم، فصاروا قردة وخنازير يرتعون في زخارف هذه الدُّنيا فأحبّوها وانخرطوا في حبّ النفس، فلا يشعرون ما يحصل بأنفسهم، فاتّصفوا بأسوء الصفات، فكانوا أهل حرص وشهوة، وقلّت غيرتهم على الحقّ، وانقادوا إلى كلّ باطل، وخضعوا إلى كلّ ما سوى الله، فأوجب طغيانهم فحجبوا بأنفسهم عن الحقّ فأنكروا أهله، الذين غلب عليهم شهود الحقّ وكوشفوا بسرّ الوحدانيّة، واستغرقوا في الحقائق العيانيّة، وانقطعوا عن الشعور بأنفسهم، وغابوا عن سواه بالكليّة.

ومن المهلكات أيضاً المسارعة في الآثام، والإقدام على جميع الرذائل، لاعتياد أنفسهم عليها وتدرّبهم فيها، فصارت ملكات في نفوسهم واستوعبت مظاهر وجودهم، فكانوا في رذائل وصفات في جميع قواهم النطقيّة والغضبيّة والشهويّة، فأكلوا السحت وتعاطوا العدوان ونطقوا بالزور والبهتان وكانوا أهل

الفسوق والعصيان، فأبعدهم الله من رحمته، وانقطع الأمل في تهذيبهم، فمتى كانوا أهل خلّة ووصال:

فلا ترض بغير الله حُبّاً وكن أبداً بعشقٍ واشتياق
ترى الأمر المغيّب ذا عيان وتحظى بالوصال وبالتلاق

وإنّما ذكر عزّوجلّ تلك الرذائل والصفات السيّئة، ليتجنّب المؤمن منها، ويبتعد عمّن اتّصف بها، فإنّها حجب وحرمان، ولا يمكن للنفس التحلية بالمكارم إلّا بالتخلية من تلك الرذائل.

ثمّ كان الأدهي والأعظم مداراة المذنبين وترك التعرّض لهم، مع العلم بما يفعلونه من القبائح والآثام، فإنّ في ذلك مفسدة للدين والدُّنيا وهدم الآخرة والأولى، فإنّ ترك المذنب على ذنبه إماتة للنفس التي لها نحو تعلّق بالبارئ، وإفشاء الذنب في المجتمع إماتة له فلا يرتقي في الكمال.

وأمّا العالم الذي ترك التعرّض للمذنبين، وأهمل إرشاد الخاسرين، فقد تحمّل هو قسطاً من الإثم، وانتهج سبيل الغواية والضلال، وكان ضالّاً ومضلّاً، فصار صنيعه الإفساد، فهو أعظم الخاسرين وأشدّ المتحسّرين يوم الحسرة، فقد كفر بما أنعم الله عليه من نعمة العلم، ولم يؤد ما عليه من الوظيفة، فتحمّل إثم المرتكبين، وانتشر الفساد والخسران بسببه، فياله من الخسارة العظمى؛ ولذا ورد أنّه يُغْفَرُ للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد.

***

الآية ٦٤ـ٦٦

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مظهر آخر من مظاهر سخرية أهل الكتاب، ولا سيّما اليهود منهم خاصّة، الذين اتّخذوا دين الله سخرية ولعباً، فقد استهزؤا بالشريعة التي أنزلها على رسوله الكريم ﷺ، واتّخذوا أحكامها لعباً، كما استهزؤا بالصلاة التي هي أهمّ عبادة وشعيرة في الإسلام، وفي هذه الآيات بيّن عزّوجلّ استهزاءً آخر منهم، أمره خطير وخطره كبير، فقالوا فظيعاً وبهتوا بهتاناً كبيراً، ينبئ عن عظيم الجراة على الله تعالى وكبير طغيانهم على الحقّ وكفرهم العظيم، إلّا أنّ الله تعالى أخزاهم وحكم عليهم بالذلّ والعار، فأطفأ عدوانهم، وأذلّهم بعدما كانت سجّيتهم الفساد والاعتداء على خلق الله، والحسد على أهل الحقّ. ولما كانت رحمته واسعة وسعت كلّ شيء، فلو آمن أهل الكتاب واتّقوا الله بترك المعاصي والآثام التي

سجّلت عليهم، لقبل توبتهم، وكفّر عنهم سيئاتهم على كثرتها وعظمتها، وأدخلهم جنّات النعيم، فهم كغيرهم من عباد الله، فلو أقاموا أحكام الله وعملوا بالتوراة والإنجيل والشرائع التي أُنزلت فيهم، لكانوا في عيش هنيء، وخيرٍ وفير، ولوصل كلّ ذي حقّ إلى حقّة، فإنّ الله لا يضيع حقّاً من الحقوق، ويراعي جانب الحقّ ويحيي أمره، ولو كان قليلاً، ولكنّ كثيراً منهم استحوذ عليهم الشيطان فساءت أعمالهم، فالآيات الشريفة لها ارتباط وثيق بما سبقتها وتبيّن عظيم طغيانهم، ومظاهر فسادهم واستهزاءهم، ولكنّها تشهد بأنّ فيهم مَن لا يكون كذلك ولو كان قليلاً، حفظاً لحقوقهم، ولتنبيه غيرهم ليعتبروا بهم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾.

شاهد آخر من شواهد الإثم الذي أثبته عزّوجلّ لهم في ما سلف من الآيات، ومظهرٌ آخر من مظاهر السخرية والاستهزاء الذي وسموا به، ومصداق آخر من مصاديق العدوان الذي اتّصفوا به، فقد اجتمع في هذا جميع ما ذكر عزّوجلّ في الآيات السابقة، ولذا أفرده بالذكر لعظيم أثره، وقد ذكر المفسّرون في نزول الآية الشريفة وجوهاً.

فقيل: إنّها تطبيقٌ لعقيدة اليهود من نفي نسخ الشريعة والأحكام الدينيّة، ونفي البداء في التكوينات، كما عرفت في تفسير قوله تعالى: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾**[1].

وقيل: إنّها نزلت بعد ما عيّروا المؤمنين بالضيق والعسرة، فقالوا هذا القول استهزاءً بالله سبحانه، إيماءً إلى أنّه لا يقدر على أغناء عباده المؤمنين وإنجائهم

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٠٦.

من شظف العيش وشدّة الفقر والمذلّة، وهم في جدب ورخاء وغنى.

وقيل: إنّها نزلت وقد تفوّهوا بهذه الكلمة عندما سمعوا أمثال قوله تعالى: **﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾**[١]، وقوله تعالى: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾**[٢]، فقالوا: **﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾**، سخريةً واستهزاءً.

ويمكن القول بصحّة الجميع فإنّ الآية عامّة، وإن قال بعض بأنّ ظاهر قوله تعالى: **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** هو الاختصاص بالرزق، لكنّ الإنفاق لا يختصّ بالمال، والرزق يشمل المادّي منه والمعنويّ، فيشمل الأحكام وجميع التكوينيّات من الرزق والقدرة والنعمة والعذاب، فالآية الكريمة تحكي عن عقيدة عند اليهود مصدرها تحريف الأحبار والعلماء للتوراة، عندما أرادوا تثبيت سلطتهم، ونشر عقيدتهم، ونفي الكتب الإلهيّة وسائر الأديان السماويّة، فقالوا بأنّ التوراة لا تقبل النسخ، وأنّ دينهم لا يقبل التبديل، وأنّهم أرقى الأُمم مالاً وعزّة، وأنّ لهم السلطة على غيرهم، بل إنّهم في حكم العبيد لهم على ما هو مفصّل في كتبهم الدينيّة، فأثبتوا الخلق الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل فيهم، فتفوّهوا بهذه الكلمة الأثيمة، وأثبتوا العجز له عزّوجلّ، وكان في اعتقادهم ما يبيح لهم أن ينسبوا إليه تعالى ما لا يناسب ساحة قدسه وكبريائه جلّت عظمته، وقد تصدّر منهم هذه الكلمة في موارد استهزاءً وعدواناً بالنسبة إلى الحقّ وأهله ونقمة منهم، وهذا كلّه داخل في تعليمهم الدينيّ، فلا فرق بين أن يصدر هذا القول من واحد منهم أو من جميعهم، بعدما كانت العقيدة عندهم ذلك، وقد سجّل عزّوجلّ عليهم بعض عقائدهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة في القرآن الكريم، ولو أردنا استقصاءها لطال بنا الكلام، وهي تُنبئ عن هذا الاعتقاد، وقد ذكرنا في ما سلف

---

١. سورة المزمل: الآية ٢٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

من هذا التفسير بعضاً منها ، فراجع .

وقد ذكر المفسّرون في المقام أُموراً لم يقم عليها دليل ، و سيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

و«اليد» هي الجارحة المعروفة ، وتطلق على معاني مجازيّة ، كالنعمة والقدرة والملك والتصرّف وغير ذلك ممّا هو كثير ، واستعمالها في غير المعنى الحقيقيّ من الأساليب البلاغيّة المعروفة ، وفي القرآن الكريم ما يدلّ على ذلك ، ومنه المقام الذي أُريد من اليد القدرة أو الجود ، فيكون غلّ اليد العجز أو البخل ، ويدلّ على الأخير قوله تعالى : **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾**[1] ، ويدلّ على الأوّل القرائن الكثيرة كما عرفت ، ومنها ما يأتي فإنّه دعاء عليهم بالعجز وسلب القدرة عنهم .

قوله تعالى : **﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾** .

دعاء عليهم بما يناسب جرمهم، وقولهم الفضيع الذي نسبوه إلى ساحة قدسه ، وغلول أيديهم كناية عن عجزهم عمّا يريدونه وما يمكرونه للحقّ وأهله ، وتثبيت نقصانهم وعدم كمالهم، لجرأتهم على الله عزّوجلّ ، إلّا إذا رجعوا عن الباطل وآمنوا كما سيذكره تعالى ، وقد بيّن تبارك وتعالى في موارد متعدّدة :

منها : إطفاء نار الحزب إذا وقدوها ، كما قال تعالى : **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾** .

ومنها : إلقاء العداوة والبغضاء بينهم ، قال تعالى : **﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** .

ومنها : تعذيبهم بعذاب دنيويّ أو أُخرويّ .

---

١ . سورة الاسراء : الآية ٢٩ .

ومنها: سوء صفاتهم وشحّ نفوسهم، وغير ذلك ممّا هو كثير، فلا يختصّ بما ذكره المفسّرون في المقام، مع بعده عن سياق الآية المباركة.

قوله تعالى: ﴿**وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾.

أي: وأبعدهم عن رحمته عزّوجلّ بسبب قولهم، فإنّ الجرم عظيم والبهتان كبير، وكان الجزاء مناسباً له، فقد غلّت أيديهم جزاءً لهم، فلم ينالوا ما قصدوه، ولم يدركوا ما أمّلوه، وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة، ولم يفلحوا فيما أرادوه، ولعنوا أيضاً، فكانوا بعيدين عن كلّ خيرٍ ورحمة.

ويمكن أن يكون الأوُل ـ أي مغلوليّة الأيدي ـ من مصاديق اللّعن الذي هو أعمّ منه ومن غيره، ومن تلك تعرف أنّ هذه الآية الشريفة تبيّن الوجه في مقالتهم الزائفة كما تقدّم، فراجع.

وذهب جمعٌ إلى الإخبار عن وقوع كلمة العذاب فتغلّ الأيدي حقيقية، يغلّون في الدُّنيا أساري، وفي الآخرة معذّبين في أغلال جهنم، ومناسبة هذا لما قبله حينئذٍ تكون لفظيّة فقط فيكون تجنيساً، ولكنّ الأوّل أوفق وأظهر، وهناك أقوال أُخرى لم يقم عليها دليل معتبر.

قوله تعالى: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾.

جواب عمّا ذكروه على نحو الإضطراب، عطف على مقدّر، أي كلا ليس الشأن على ما زعموا، بل هو في غاية الجود والسخاء والقدرة، وله الإرادة التامّة في خلقه، والقيّوم عليهم يقبض ويبسط بما يشاء وكيفما يشاء، فالجملة كناية عن كمال القدرة وغاية القيوميّة المطلقة على خلقه؛ لما يدلّ على إتيان (اليد) بصيغة التنبية، كما استعملت هذه الصيغة في موارد أُخرى في ذلك:

قال تعالى: ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ**

كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ﴾[1]، أي خلقت بقدرتي التامّة الكاملة، وإثبات اليد وغيرها من الجوارح لله تعالى في الكتاب والسنّة، لا يدلّ على كونها من الجسمانيّات حتّى يستلزم التشبيه الباطل، ولابدّ من حملها على محامل تختلف باختلاف الموارد، وسيأتي في البحث الفلسفيّ تتمّة الكلام إن شاء الله تعالى.

وممّا ذكرنا تعرف وجه البطلان في كثير ممّا ذكروه في المقام.

قوله تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

بيان لقوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، وتأكيد لما سبق، بأنّ من كمال جوده وسعة قدرته في جميع الأحوال، والآية تدلّ على سرّ ما ابتلوا به من الجهل والضلال، اللّذين كانا سبباً للاجتراء على الله تعالى بتلك الكلمة الأثيمة القبيحة، فهو لم يكن عن قصور في فيضه الزخّار، إلّا أنّه تابع لمشيئته المبيّنة على الحكمة المتعالية، فقد تقتضي البسط، وربّما تقتضي القبض، فهو القابض الباسط، وحذف المتعلّق يفيد التعميم، فلا يختصّ بالمال كما توهّمه البعض لكلمة (ينفق)، وقد عرفت في هذا التفسير أنّ الإنفاق أعمّ من المال، فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

بيان لقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وسردٌ لبعض مصاديق غلول أيديهم التي منها زيادة طغيانهم، وتماديهم في كفرهم، كلّما أُنزل على الرسول من الحقّ، قد سلب الله منهم التوفيق، وأوكلهم إلى أنفسهم الباغية الحاسدة، فتزيد في الطغيان والكفر إذا رأوا القرآن والمعارف والنعم الظاهريّة والمعنويّة، وهذا من أهمّ مصاديق غلول أيديهم، فإنّ ذلك جزاء فسقهم وذنوبهم

---

١. سورة ص: الآية ٧٥.

الكثيرة ومقالتهم الشنيعة، وممّا ذكرنا يعرف وجه نسبة الضلال إلى القرآن وازدياد طغيانهم في ما أُنزل.

وقيل في وجه الزيادة: إنّ اليهود يعتبرون دينهم من أتمّ الأديان، وأنّهم من أعظم الأُمم، ويتباهون بكثرة العلماء والأحبار فيهم، ويفتخرون بالعلم والحكمة، فلا يدعون مجالاً لغيرهم، ولم يعترفوا بفضيلة لسواهم، بل يعتبرون غيرهم أُميّين لهم السلطة والسيادة عليهم، فاذا هم يجابهون بدين هم أتمّ وأكمل الأديان، وكتاب إلهيّ يشتمل على المعارف والعلوم، مهيمن على سائر الكتب الإلهيّة، وهذا ممّا يمسّ صميم ما كانوا يعتزّون ويفتخرون به على مَن سواهم، وقد استشعروا بالذّل والهوان من ذلك، فكانوا يزيدون حسداً كلّما أُنزل على الرسول من القرآن والهداية.

ولكن، إذاكان ذلك صحيحاً، فهو السبب الماديّ، وأمّا الأصل فهو ما ذكره عزّوجلّ آنفاً، وهو الغلول المنسوب إلى أفعالهم القبيحة وأقوالهم الرديئة، ومنها مقالتهم تلك الأثيمة، فأوجب اللّعن والطرد، وما كان السبب من الإنسان نفسه ربّما يسند إليه نفسه كما ينسب إليه سبحانه و تعالى، وكلاهما وارد في القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾**[1]، وقال تعالى وقد جمع بين الأمرين: **﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾**[2]، وتقدّم في هذا التفسير تفصيل ذلك.

قوله تعالى: **﴿طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾**.

بيان لقوله تعالى: **﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ﴾**، وطغياناً مفعول ثانٍ لـ«ليزيدن»، أي ليزيدنّهم طغياناً على طغيانهم، وكفراً على كفرهم، إطلاق الزيادة يشمل في

---

١. سورة الإسراء: الآية ٨٢.

٢. سورة الصف: الآية ٥.

الكمية والكيفيّة، كما يزيد حسد الحاسدين لما يرونه زيادة النعمة على المحسود عليه، وتقديم الطغيان على الكفر إنّما هو من قبيل تقديم العلّة على المعلول، فإنّ الكفر من آثار الطغيان، ولأجل أنّ زيادة طغيانهم وكفرهم إنّما كان باطلاً وخلاف ما يقتضيه البرهان والدليل، فقد أكد عزّوجلّ بالقَسَم الذي تفيده اللّام في قوله: ﴿لَيَزِيدَنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

مظهرٌ آخر من مظاهر غلول أيديهم واللّعن المحيط بهم بسبب أفعالهم ومقالتهم الشنيعة تلك، فيكون الضمير في «بينهم» راجعاً إلى اليهود، ويعضده ظاهر السياق الذي يختصّ باليهود، وإن كان ابتداء الكلام في أهل الكتاب عامّة، فيكون المراد اختلافهم في الآراء والعقائد، وتباغضهم في ما بينهم، فلا تكاد تتّفق قلوبهم ولا تتّحد كلمتهم، فإن جمعهم في برهة من الزمان على أمرٍ، إلّا أنّ الخلاف قائم بينهم، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[١].

ويدلّ على ذلك تأريخهم المرير وسجل الحوادث فيهم، فإذا كانوا فيما بينهم كذلك فمع غيرهم أدهي وأمرّ، فتراهم على أشدّ عداوة مع النصارى، وأعظم التباغض مع المسلمين، فإنّ ذلك شأنهم وديدنهم، فيكون اختصاص العداوة والتباغض بينهم بالذكر، لبيان تهويل الأمر وعظمته وقبحه الشديد، ويشهد لما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

---

١. سورة الحشر: الآية ١٤.

٢. سورة الجاثية: الآية ١٦ ـ ١٧.

وممّا ذكرنا تظهر المناقشة في ما ذكره بعض المفسّرين في وجه إرجاع الضمير «بينهم» إلى اليهود والنصارى في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾**، فراجع.

ونسبة الإلقاء إليه عزّوجلّ، لبيان كمال قدرته وبسط كلتا يديه، وردّ لمقالتهم الأثيمة.

والعداوة: هي البغض المتعدّي إلى الغير في العمل.

والبغضاء: هو ما يكون في القلب من نفار، فتكون العداوة أخصّ من البغضاء، وذكرهما معاً لبيان استيعاب أحوالهم في الأمرين، فإنّ لم يكونوا معادين يصدر منهم الظلم ضدّ مَن يعادونه لمصلحة يرونها،لكنّهم على بغضاء معه.

قوله تعالى: **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾**.

مصداق آخر من مصاديق غلول أيديهم، وبيان لتمام قدرته وعظيم سلطانه، وخيبة مسعاهم في ما يبغونه في إيقاد نيران الحرب، ومن سياق الآية الكريمة، وقوله عزّوجلّ: **﴿أَطْفَأَهَا اللهُ﴾**، يستفاد أنّ الحرب منهم تكون مع دين الله وأهله، لا سيّما رسول الله ﷺ والمؤمنين، فلا تشمل كلّ حرب ماديّة مهما كان سببها غير دين الله، فإنّ لها شأناً آخر، ولكن مع ذلك فإنّ الله تعالى لم يدعهم يسعون في الأرض فساداً، فقد كتب عليهم الذلّة والهوان، كما قال عزّ من قائل: **﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾**[1].

وقيل: إنّ الآية الكريمة بيان لقوله تعالى: **﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾**، فيكون المعنى أنّه كلّما أثاروا حرباً على النبيّ ﷺ والمؤمنين أطفأها الله بإلقاء الخلاف بينهم، ولكنّ المعنى الأوّل أظهر وأعمّ.

---

١. سورة البقرة: الآية ٦١.

وكيف كان، فالمراد من الحرب هنا كلّ ما أُريد به الكيد والفتنة والقتال، فلا يختصّ بخصوص الأخير فقط، إيقاد نارها كناية عن إرادة الحرب وإشعالها، فإنّ العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، ويسمّونها نار الحرب، وهي من نيرانهم المشهورة، وإطفاؤها: إخمادها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾.

السعي هو السير السريع، ويكنّى به عن الاجتهاد في شيء، أي يجتهد في الفساد والكيد بالإسلام ورسوله والمسلمين، وفساداً إمّا مفعول له، أو حال من ضمير «يسعون»، أي يسعون في الأرض للفساد ويجتهدون فيه. والآية تُنبئ عن فساد نفوسهم وأعمالهم، فكأنّه لا نية لهم إلّا الفساد في الأرض، وكلّما ذكر في ما سبق من إثارة الفتنة والشرّ وإيقاد نار الحرب، والصدّ عن الحقّ، والاجتهاد في محو ذكر الرسول وتغيير صفته ﷺ، كلّ ذلك لأجل الفساد وإطفاء نور الحقّ.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

فإذا لم يحبّ أحداً لا يجازيه إلّا شرّاً؛ ولذلك خيّب سعيهم، فلم يبلغوا مقصدهم، ولم ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض، ووضع المظهر «المفسدين» موضع الضمير، لبيان كونهم راسخين في الفساد، ولا يُرجى منهم الخير والصلاح، وجميع ما ذكر في هذه الآية من مصاديق غلول أيديهم وأنّهم لعنوا بما قالوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

الكتاب جنس شاملٌ لكتب اليهود والنصارى، والآية الشريفة عود إلى ما بدأ به أوّلاً من ذكر أهل الكتاب، وتحريضهم بالإيمان والتقوى لئلّا تفوتهم السعادة في الدّنيا والآخرة، فلو أنّهم مع ما يصدر منهم ما صدر من فنون الشرّ والفساد، آمنوا بالرسول ﷺ واتّبعوا دينه بالعمل بأحكامه، والاتّقاء عن محارم

الله، والتورّع عن الذنوب والفساد الذي جروا عليه، وكلّ ما يوجب سخط الله وعذابه، لنالوا السعادة في الدارين، كما سيبيّنه عزّوجلّ.

قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: لمحونا تلك السيّئات التي عملوها في زمن كفرهم، فإنّ التقوى توجب تزكية نفوسهم وتطهيرها من رذائل الصفات، فيمحوا الله عزّوجلّ أثر السيئات، وذلك كفّارة إيمانهم وتقواهم، وإنّ الإسلاتم يجبّ ما قبله وإن عظم وجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

فإنّه إذا طهرت النفوس، واستحقّت جنّات النعيم التي أُعدّت للمؤمنين العاملين التي خليت نفوسهم من الشقاء، وطهرت من كلّ عيب، وإنّما ذكر عزّوجلّ ضمير العظمة «نا» في الموضعين لبيان المهابة وتعظيم الأمر، وقد ذكرنا في هذا التفسير السبب في استعمال ضمير العظمة في موردٍ، وضمير المتكلّم المفرد في موضع آخر، فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

إقامة التوراة والإنجيل هي حفظهما، والعمل بما جاء فيهما من التعاليم والأحكام، والمراد بهما الكتابان السماويّان اللّذان أنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام، اللّذان يشيد بهما القرآن الكريم ويعظّمهما، ويأمر المؤمنين بالإيمان بهما، دون ما هو الموجود في أيدي القوم الذي بيّن عزّوجلّ زيفه وتحريفه، ولعلّ المراد من إقامة التوراة والإنجيل، هو نبذ التحريف، والرجوع إلى الحقّ الذي أُنزل من قبل الله تعالى. ويشهد لهذا قوله ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، أي أقاموا التوراة والإنجيل على الوجه الحقّ الذي نزل، وأظهروهما بحقيقتهما الحقّة،

وعملوا بما أُنزل إليهم من ربّهم فيهما وفي غيرهما من الكتب المنزلة على أنبيائهم، واتّبعوا ما جاء فيها من الأحكام والتعاليم والآداب، وسائر أسباب الصلاح والإصلاح، فإنّ العمل بها يستتبع العمل بما أُنزل على رسوله الله ﷺ.

وحينئذٍ لا وجه للنزاع في كون المراد بما أُنزل إليهم هو القرآن أو غيره. والجواب عن ذلك بعدم الشمول، لأنّ العمل بالقرآن عملٌ بهما أيضاً، وغير ذلك من الوجوه التي لا طائل تحتها، فإنّ شريعة الإسلام لم تنسخ جميع ما ورد في تلك الشرائع الإلهيّة، وإنّ دين الله واحدٌ، وإنّما كانت الأحكام الإلهيّة تنزل على حسب المقتضيات والاستعدادات، فلم يقع النسخ في الشرائع إلّا في أُمور معدودة، فإقامة التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهيّة على الوجه الحقّ، والعمل بما جاء فيها يستتبع العمل بالقرآن، ويلازمه العمل بشريعة الإسلام، فإنّها تدعوا إليها وتأمر بالدخول في الإسلام.

قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

تأكيدٌ أكيد على أنّ إقامة الحقّ وحفظ الشرائع الإلهيّة التي تضمنّها الكتب السماويّة، توجب السعادة والتنعّم بالنعم الإلهيّة المعدّة لعباده المؤمنين، والمراد من الأكل مطلق التصرّف والتنعّم، كما استعمل فيه في غير مورد من القرآن الكريم، وهو استعمال شائع في اللّغة، كما أنّ المراد من «فوقهم» ومن «تحت أرجلهم»، هو مطلق النعم السماويّة والأرضيّة، سواءٌ حصل بالسعي والاكتساب الدالّ عليه كلمة تحت أرجلهم، أو من فيوضات ربانيّة نازلة من فوقهم، لأجل إقامة الحقّ والعمل به.

ومن المحتمل قريباً شمول الآية لجميع النعم التي ذكرها المفسّرون في المقام، سواء كانت نعماً روحانيّة، وهي العلوم الإلهيّة والحقائق والمعارف الربانيّة الحقّة، أو العلوم الطبيعيّة والإدراكات الحسّيّة، وبالأخرة يهتدي الإنسان

على عالم الملك، كما أنّ بالأُولى يهتدي إلى عالم الجبروت والملكوت، أو نعماً مادّية كالمطر ووفور الأرزاق والبركات.

ولكن يستفاد من ظاهر الآية أنّ هذه النعم كلّها تختصّ بالدنيا، فتصلح بها شؤونهم فيها، وإذا صلح حال الإنسان في دار الدُّنيا، صلح حاله في العقبى، وفاز بالسعادة القصوى، وسيأتي في البحث الدلاليّ بعض ما تشير إليه الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾.

تقرير إلهيّ على وجود أُمّة معتدلة في أمر الدين السابقة للصلاح والإصلاح المستسلمون لأمر الله، وهذه الأُمّة المقتصدة لا تخلو منها المجتمعات البشريّة، وقد يقلّون وقد يكثرون تبعاً لصلاح الأُمّة وفسادها، وإذا قلّت تلك الأُمّة المعتدلة فسد المجتمع وآلت إلى الهلاك، والقرآن الكريم يعترف بوجود هذه الأُمّة المعتدلة في اليهود والنصارى، الذين أمرهم مع الإسلام معروف مذكور في الكتاب الكريم وتاريخ الإسلام، ليس ذلك إلّا لأجل الاعتراف بالحقيقة والقول العدل، وأنّ الله لا يضيع حقّاً من الحقوق، وهذا من أدب الإسلام الذي يحرّض الناس إليه، أو لبيان أنّ تلك الأُمم إنّما فعلت ما فعلت من التعدّي، وقالت من فظائع الأقوال ما قالت فاستحقّت اللّعن والطرد من رحمته، ونزول السخط على جماعتهم، إنّما كان من أكثرهم، وهو الموجب لتصحيح النسبة إليهم جميعهم، ولكن فيهم أُمّة مقتصدة معتدلة ليست على تلك النعوت، وقد أشاد عزّوجلّ بها وذكرها إحياءً لأمر الحقّ وإن كان قليلاً، وهم الذين هداهم الله تعالى فدخلوا في الإسلام، لأنّ نفوسهم اعتادت الخير وصَلُحت بها فسارعوا إليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الكثرة هي التي أوجبت نسبة الخطايا والتعدّي إليهم جميعاً، وإنّما

ساءت أعمالهم لأنّ نفوسهم محجوبة عن كلّ خير وصلاح ، فلزموا الجحود والكفران في أسوء أعمالهم .

وفي الآية الشريفة الترغيب إلى ملازمة الصلاح، وتهذيب النفوس بالإصلاح، والدخول في الخير؛ لئلّا تنفر بما ترد عليها من الواردات ، وتميّز بين الصلاح والفساد ، فلا تنكر ما يوجب الصلاح وتجحده، وتسارع في الكفران والفساد ، كما حكى عزّوجلّ عنه في ما سلف : **﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾**، هذا من أهمّ ما تريده الأديان السماويّة من الإنسان ، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

***

بحوث المقام

بحث أدبيّ:

ذكرنا في التفسير أنّ غل اليد وبسطها مجازان وكنايتان عن البخل والجود، فلا يقصد مَن يتكلّم بها إثبات يد ولا غل ولا بسط لها، وهذا صحيح، بل يجب تأويل كلّ كلام ورد فيه أسماء الجوارح، أو ما يليق نسبته إلى ساحة قدسه، وما ذكرناه وارد في كلام العرب، ومجاز شائع لا لبس فيه، وأمّا المجسّمة الذين ينسبون ما لا يليق إلى ساحة قدسه، فلنا معهم كلام آخر سيأتي إن شاء الله تعالى في البحث الفلسفيّ.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**﴾، فهو دعاء عليهم كما عرفت، فإن كان الدعاء هذا يختصّ بالفقر والمسكنة، فكانت المناسبة لما قبله صحيحة، فهما مشتركان في المجاز، وإن كان الدّعاء يشمل غلّ الأيدي في الدُّنيا والآخرة حقيقة ـ كما قيل ـ فتكون المناسبة بينهما في اللفظ فقط، فيكون تجنيساً.

وقيل: هي من حيث اللّفظ وملاحظة أصل المجاز، كما تقول: سبّني سبّ الله تعالى دابره، حيث إنّ أصل السبّ بمعنى القطع، فتكون مشاكلة لطيفة.

وقوله تعالى: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ حذفت الضمّة من الياء «أيديهم» لثقلها.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ عطف على مقدّر يقتضيه المقام ـ كما عرفت في التفسير ـ والجملة ابتداء وخبر.

وقوله تعالى: ﴿**يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ جملة مستأنفة، تأكيد لما سبق من إثبات القدرة والجود، وكمال السخاء وشمول الرحمة. و«كيف» ظرف لـ«يشاء»، والجملة في موضع نصب على الحاليّة من ضمير «ينفق»، أي ينفق كائناً على

أي حالٍ يشاء.

وتقديم المفعول في قوله ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ للإعتناء به، واللّام للقسم، والموصول فاعل «ليزيدن»، و«كثيراً» مفعوله الأوّل، و«منهم» صفته، «طغياناً وكفراً» مفعوله الثاني.

وقيل: إنّ قوله ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ جملة مستأنفة لا محلّ لها من الإعراب.

وقيل: إنّ «كيف» سؤال عن حال، وهي منصوبة بـ«يشاء».

ورُدّ بأنّه لا يعقل هنا كونها سؤالاً عن حال، بل هي بمعنى الشرط، وجوابه محذوف يدلّ عليه «ينفق»، ولا يجوز أن يعمل في كيف ينفق. وكلّما في «كلما أوقدوا» ظرف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إمّا متعلّق بـ(ألقينا)، أو متعلّق بالبغضاء، أي أنّ التباغض مستمرٌ ما داموا، وحينئذٍ ليست حقيقة الغاية مرادة. وأمّا تعلّقه بالعداوة فلا يجوز؛ لأنّه يستلزم الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبيّ.

وقوله: ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، فإنّه جملة ابتدائيّة مسوقة لإزاحة توهّم تأثير اجتهادهم شيئاً من الضرر، **وقيل**: إنّها في موضع الحال، وفائدتها مزيد تقبيح حالهم وتفظيع شأنهم. واللّام في المفسدين إمّا للجنس فهم داخلون فيه دخولاً أوليّاً، أو للعهد، ووضع المظهر موضع الضمير «هم»، لبيان كونهم راسخين في الإفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ «كثير» مبتدأ، و«منهم» صفته، و«ساء» كبئس للذمّ، وعن بعض النحاة فيها معنى التعجّب، أي ما أسوأ أعمالهم، و«ما» موصولة فاعل لها، ويجوز أن تكون نكرة في موضع تمييز، والجملة الإنشائيّة خبر للمتبدأ، وهو معروف في علم النحو.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ على كمال جرأة اليهود وكفرهم وطغيانهم ورسوخهم في ذلك، حيث نسبوا إلى معبودهم وخالقهم ما لا يليق بساحة قدسه، وذلك من وجهين:

أحدهما: إثبات التجسّم له عزّوجلّ، والمعروف عنهم أنّهم كانوا من المجسّمة، وفي المقام أثبتوا اليد الجارحة له تعالى، ما لم يأذن لهم به الله.

والثاني: نسبة صفات الجلالة التي تنزّه عنها عزّوجلّ كالعجز والبخل، وكلّ واحد من هذين الأمرين يوجب الكفر، فكيف بما إذا نسبوهما إليه تعالى علواً كبيراً، فهو يدلّ على عظيم كفرهم، وشدّة طغيانهم، وكمال جرأتهم، وبمقتضى مناسبة العقاب مع العمل، فقد كان الجزاء عليهم عظيماً يناسب شدّة الذنب.

الثاني: ظاهر الآية الشريفة أنّ تلك الشنيعة صادرة منهم أو من أغلبهم، لا عن شخص واحد كما ذكره بعض المفسّرين، ولعلّها كانت حصيلة عقائدهم الفاسدة التي لها مظاهر متعدّدة فيهم، منها: أنّهم يرون أنّه لا نسخ في الأحكام الشرعيّة، وكانت اليهود لا تقبل نسخ التوراة وتعيّر المسلمين بالنسخ. كما أنّهم ينكرون البداء في القضايا الكونيّة، وكما أنّهم يرون أنفسهم أعلى الأُمم شرفاً وغنىً ويعيّرون غيرهم بالأُميّة، فلم تر اليهود لغيرهم فضلاً يذكر، وغير ذلك من العقائد والآراء الفلسفيّة والاجتماعيّة، التي تكون حصيلتها هي المقالة المذكورة التي تنبئ عن فساد عظيم، فهم كما عرفت.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾ على مناسبة الجزاء مع العمل، فإنّهم نسبوا الغلول إلى ساحة قدسه، فناسب هذا الذنب العظيم غلول أيديهم، وله مظاهر مختلفة ذكر بعضاً منها في الآيات التالية، ويمكن أن

تنطبق على غلول أيديهم في يوم القيامة، وبذلك يمكن الجمع بين كلمات المفسّرين الذين اختلفوا في معنى غلول أيديهم، كما عرفت في التفسير. ومناسبة الجزاء مع العمل من القواعد الثابتة في الشرائع الإلهيّة، لا سيّما شريعة خاتم الأنبياء ﷺ، وقد تقدّم ما يدلّ عليها، فراجع.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾ أنّ سقطات اللّسان يحاسب عليها، وقد يكون عظيماً ويستوجب البعد عن رحمته تعالى التي هي أساس كلّ هداية وكمال، وبدونها لا يمكن للإنسان الحياة، سواء المادّيّة أو المعنويّة منها، ويدلّ على ما ذكرنا الأدلّة الكثيرة والشواهد العقليّة، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «وهل يكبّ الناس في النار إلّا حصائد ألسنتهم».

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ كمال رحمته وسعتها وفضله العميم وجوده الواسع وكمال قدرته وإعمالها، وأنّ ذلك من ناحيته المقدّسة كامل لا نقص فيه، وإنّما التحديد يأتي من الجهات الإمكانيّة والقابليات والاستعدادات المحدودة من المستفيض. ولعلّ ذكر اليد لأجل المشاكلة والمجاراة، فاليهود نسبوا غلّ اليد إليه عزّوجلّ، وهو تعالى نفاه عنه بمثل ما قالوا، وليس ذلك بعادم النظير، بل هو من المحسّنات البلاغيّة، قال تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾، وعلى هذا لا يكون الاستعمال إلّا لأجل المشاكلة والمجاراة. وقيل بالمجاز كما عرفت في التفسير، وسيأتي في البحث الفلسفيّ تتمة الكلام إن شاء الله تعالى.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ على أنّ الإنفاق منه مستمرّ لا ينقضه شيء، ولكنّه ينفق حسب حكمته المتعالية، فهو القابض الباسط، قال تعالى: ﴿**وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾[1]، وهو يشمل جميع النعم الظاهريّة والمعنويّة، ولا

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

يختصّ بخصوص القسم الأوّل كما ذكره بعض المفسّرين، ويدلّ على ذلك ما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «يمين الله ملأى لا يقبضها سحاء الليل والنهار (السحاء الصبّ الكثير)، أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنّه لم يغض ما في يمينه منذ (أي لا ينقض)، وقال: وعرشه على الماء وبيده الأُخرى القبض يرفع ويخفض»، ويستفاد من هذا الحديث الشريف أنّ الإنفاق لا يختصّ بالمال فقط، وأنّه يشمل جميع النعم مطلقاً، وأنّها من الله تعالى كاملة وتامّة لا يشوبها نقص، إلّا أنّه يأتي من الجهات الإمكانيّة في مخلوقاته، كما عرفت.

السابع: يرشد قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ إلى أنّه لا قصور في فيضه الأقدس، إلّا أنّ الإنفاق تابع لمشيئته المبنية على الحكم المتعالية الدقيقة، فهذه الجملة هي لبيان سرّ ما ابتلوا به من الضيق الذي اتّخذوه ذريعة إلى ذلك الاجتراء العظيم، وهو من غاية جهلهم وضلالهم، وهي توكيد للجود والسخاء وكمال القدرة، كما عرفت.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ على أنّ النفوس التي تمارس الكفر والمعاصي والآثام وتقيم عليها، ولم يتهيّأ أصحابها لإصلاحها، تتردّى في الهاوية، وتزيدها طغياناً وكفراً بالآيات الإلهيّة والفيوضات الربوبيّة، وقد أقاموا على الكفر، ومارست نفوسهم أنواع الظلم، ففسدت أخلاقهم، وتلبّسوا بالرذائل وأفسدوا ملكاتهم واستقرّ الحسد في نفوسهم، فعتت عن أمر ربّها، فلم يمكنها أن تستفيد من أنواع النعم، بل زادت طغيانهم، فصرفوها في خلاف ما أنزله الله تعالى، والآية الكريمة بيان لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾، فإنّ الفيض من صاحبه تامّ، لكن الاستفادة منه ممّن نزل عليه شيء، وصار سبباً في زيادة طغيانهم وكفرهم، كلّ ذلك كان من سوء اختيارهم، وصرف همّهم في أسباب الكفر، ولعلّ ذكر ﴿كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ لبيان هذه الجهة أيضاً، إذ فيهم مَن يستفيد

من تلك البوارق الإلهيّة والشوارق الربوبيّة، فيرجع عن غيّة وضلاله، فتكون الآية الشريفة من الآيات القرآنيّة الدالّة على ثبوت الاختيار ونفي الجبر عن أفعال الإنسان.

كما أنّ الآية الشريفة ترشد الإنسان إلى نبذ الحسد وسائر الأخلاق الرذيلة، وإصلاح النفوس بما ينزله الله تعالى، والاستفادة من فيوضاته لتهذيب الأخلاق وتكميل النفوس، وإلّا فإذا استحكمت وصارت ملكات راسخة وعادات سيئة، فلا تبغي إلّا الشرّ، ولا يجنى منها إلّا الطغيان والكفر، والشقي لا يرضى لنفسه الكمال فضلاً لغيره، لاستيعاب الحسد جميعه، فلا يطلب إلّا الشقاء لنفسه ولغيره، ولذا يكون كمال غيره سبباً لطغيانه وعتوه. فيكون الخروج عن هذه الملكات الفاسدة وتطهير النفوس من تلك الرذائل وتكميلها، سبباً للتنعّم بنعم كثيرة وعظيمة، كما يذكره عزّوجلّ في الآية التالية.

كما يدلّ قوله تعالى أيضاً على أنّ الهداية والكفر والضلالة من الله تعالى، فإذا أنزل عزّوجلّ ما يكون سبباً للهداية اهتدى المستعدّون لها، وأعرض عنها مَن سدّ على نفسه أبوابها وأهلك نفسه بارتكاب الموبقات والآثام، وتدلّ على ذلك آيات عديدة مذكورة في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾**[١].

ومن جميع تلك الآيات تُستفاد القاعدة المعروفة عند الإماميّة التي أسّسها الأئمّة الطاهرون عليهم السلام: «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين الأمرين». وقد تقدّم الكلام عنها في هذا التفسير.

التاسع: يستفاد من التعبير بعنوان الربوبيّة وتقديم المفعول به والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وآله، أهمّية المنزل وعظمته في تهذيب النفوس وتكميلها، وفيه إلزم

---

١. سورة فاطر: الآية ٨.

الحجّة عليهم ، وتبجيل الرسول والمرسل ، كما لا يخفى .

العاشر : يدلّ على قوله تعالى : **﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾** على أنّ إلقاء العداوة بينهم إنّما كان بسبب عداوتهم لربّ العالمين ، فكان الجزاء متّفقاً مع العمل ، ويدلّ على عظمة أفعالهم و أقوالهم في الكفر والضلالة ، وإنّما خصّ الجزاء بذلك؛ لأنّ العداوة ممّا توهن العزائم ، فلا يمكنهم مقاومة الحقّ ومصارعته ، فيكونوا مغلولي الأيدي جزاء قولهم الأثيم في نسبة الغلّ إلى الله تعالى ، فكانوا أحقّ بغلّ الأيدي . ويمكن أن يكون في تقديم هذا الجزاء على خمود نار الحرب عندهم في أنّه من أسباب ذلك ، فهو من تقديم السبب على المسبّب ، والعداوة الملقاة بينهم مشهودة عندهم ، فهم في تباغض وتناحر شديدين ، سواء كان في طائفة اليهود وحدها أو بينها وبين النصارى .

الحادي عشر : يستفاد من قوله تعالى : **﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** على بقاء أُمّة اليهود والنصارى إلى آخر الدُّنيا مع عدم انفكاكهم من العداوة والبغضاء بينهم .

الثاني عشر : إنّما جمع عزّوجلّ بين العداوة والبغضاء؛ لبيان أنّهم جمعوا بين العدوان والظلم على النفس وعلى الغير ، وفي تقديم العداوة على البغضاء الدلالة على أنّ العداوة هي السبب في تباعد القلوب والنيّات ، فإذا استولت على القلوب أوجبت سلب المحبّة من بينهم، وأنبتت أشدّ البغض ، فيوجب التعدّي والظلم .

الثالث عشر : يدلّ قوله تعالى : **﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾** على أنّ العداوة والبغضاء اللّذان تمكّنا في نفوسهم، أوجبا بغيهم واجتهادهم في الفساد بشتى أنواعه ، عملاً وفعلاً وفي جميع أنحاء الأرض ، وقد شهد التاريخ على ذلك ، ولكنّ الله عزّوجلّ وعد المؤمنين بإبطال كيدهم و محو فسادهم بقوله عزّوجلّ : **﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** .

الرابع عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾** على أنّ الإيمان والتورّع عمّا كانوا عليه من محارم الله ـ التي توجب السخط الإلهيّ والعذاب ـ يوجب محو السيئات التي اقترفوها، ويجبّ إيمانهم ما قبله من أثر الكفر والمعاصي.

ومن إطلاق الآية الشريفة يستفاد سقوط جميع الآثار المترتّبة على أفعالهم في حال كفرهم، إلّا ما خرج بالدليل، فتكون الآية الشريفة من الأدلّة على قاعدة الجبّ المعروفة في الفقه، ومنها قوله ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله».

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ الكفّار مكلّفون بالفروع كتكليفهم بالأُصول، وممّا ذكرنا يظهر الوجه في ما ذكره بعض المفسّرين في الآية حيث خصّ التقوى عن بعض الكبائر، فيكون المراد من السيئات الصغائر؛ لينطبق على قوله سبحانه: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾**(١)، فإنّ إطلاق الآية يشمل جميع السيئات التي اقترفوها، كما وأنّ الآيات يشهد لذلك أيضاً.

الخامس عشر: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** أنّ الإيمان وإقامة أحكام الله وتطبيق الشريعة التي أنزلها عزّوجلّ، يوجب التنعّم بأنواع النعم الإلهيّة التي هي محظورة على الكفّار، ومَن فقد القابلية بارتكاب الجرائم والسيئات.

وهذه الآيات وإن كانت مختصّة باليهود والنصارى إلّا أنّ مضمونها يشمل الجميع، فإنّ العمل بما أنزله عزّوجلّ يوجب استنزال البركات، وتدلّ على ذلك جملة من الأدلّة العقليّة والنقليّة، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

كما أنّ الآية تدلّ على أنّ الإيمان النوعيّ الحاصل من نوع الإنسان

---

١. سورة النساء: الآية ٣١.

وأعماله الصالحة، لهما تأثير في صلاح هذا العالم؛ لارتباطه الوثيق بـالإنسان، فصلاحه يوجب صلاح النظام، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[1].

السادس عشر: تقدّم ما يرتبط بقوله تعالى: **﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** وأنّ المراد منه مطلق النعم، ويمكن أن يراد بالأكل من فوقهم عناية الأمراء والرؤساء عليهم؛ لأنـّهم بفطرتهم يحبّون أهل الإيمان والتقوى، وبالأكل تحت أرجلهم توجّة عامّة الناس إليهم؛ لأنـّهم أيضاً يحبّون أهل الورع والتقوى ويسعون في قضاء حوائجهم.

وعلى أي حال: فدلالة الآية الشريفة على الشموليّة واستيعاب النعمة بهم أولى، وهذا هو الأوفق بالسياق لعظيم الجرم الذي هم عليه وكبير الإيمان الذي يدخلون فيه وسعة رحمة المنعم، وكذلك ذيل الآية المباركة.

السابع عشر: يرشد قوله تعالى: **﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾**، أنّ الاقتصاد في الملّذات والمحرّمات الإلهيّة، له الأثر في تهيئة النفس لتلقي البوارق الربوبيّة والشوارق الإلهيّة، واستعدادها لقبول الإيمان، ويشهد لذلك التجربة والعيان.

***

بحث روائي:

في «العيون» عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام، أنـّه قال: في قول الله عزّوجلّ: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾**: «لم يعنوا أنـّه هكذا، ولكنّهم قد قالوا: قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص، فقال الله جلّ جلاله تكذيباً لقولهم: **﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ**

---

١ . سورة الأعراف: الآية ٩٦.

يَشَاءُ﴾، أَوَ لم تسمع عزّوجلّ يقول: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾».

أقول: روى قريباً منه الشيخ في «مجالسه» عن هشام بن سالم عنه عليه السلام أيضاً، والعيّاشي في «تفسيره»، وهو الموافق لظاهر الآية الشريفة، ومعتقد كثير من اليهود وبعض الفلاسفة الذين يقولون بأنّ الحادث لا يحتاج في بقائه إلى علّة، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

العيّاشي عن هشام المشرقيّ، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «إنّ الله كما وصف نفسه، أحدٌ، صمدٌ، نورٌ، ثمّ قال: بل يداه مبسوطتان، فقلت له: أفله يدان هكذا؟ وأشرت بيدي إلى يده، فقال عليه السلام: لو كان هكذا كان مخلوقاً».

أقول: وقريب منه روايات أُخرى، وهي تدلّ على نفي صفات المخلوقين عنه عزّوجلّ، وأنّه لابدّ من تأويل ما يكون ظاهراً كذلك، فإنّه ليس كمثله شيء.

وفي «المعاني»: عن محمّد بن مسلم، قال: «سألت جعفراً عليه السلام فقلت: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؟ قال عليه السلام: اليد في كلام العرب القوّة والنعمة، قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ـ أي بقولة ـ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، قال: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ قال: أي قوّاهم، ويقال لفلان عندي يد بيضاء، أي نعمة».

أقول: ما ورد في الحديث الشريف هو التأويل الصحيح الذي يقبله الذوق العرفيّ والطبع المستقيم لكلمة اليد الواردة في القرآن الكريم، وأمّا قوله عليه السلام في تفسيره ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، فهو بيان للفظ (الروح).

في «الكافي» بإسناده عن ربعي بن عبدالله، عن أبي جعفر عليه السلام: «في قول الله عزّوجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، قال عليه السلام: «الولاية».

أقول: لما ثبت أنّ الولاية من الأُصول التي يجب الاعتقاد بها، وأنّ الناس مكلّفون بها وبها يتمّ الإسلام، فيكون تكليف الكفّار بها مثل تكليف المسلمين أيضاً، وقد عرفت فيما سبق من هذا التفسير أنّ الولاية هي قوام التكاليف الإلهيّة، وأنّ ديمومتها إنّما تكون بالولاية، فقد أخذ الميثاق من الأنبياء والمرسلين على بيانها والتنويه بها، فما ورد في الحديث الشريف وما يماثله من الأحاديث الأُخرى مطابق للأدلّة الكثيرة.

القمّي في قوله تعالى: **﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** قال: «من فوقهم المطر، ومن تحت أرجلهم النبات».

أقول: هو من باب ذكر بعض المصاديق.

وفي «تفسير العيّاشي» عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك، قال:

«كان رسول الله ﷺ يقول: تفرّقت أُمّة موسى على إحدى وسبعين فرقة، سبعون منها في النار وواحدة في الجنّة، وتفرّقت أُمّة عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، إحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنّة، وتعلوا أُمّتي على الفرقتين جميعاً بملّة واحدة في الجنّة واثنتان وسبعون في النار، قالوا: مَن هم يا رسول الله؟ قال: الجماعات، الجماعات».

وفيه: قال يعقوب بن يزيد: كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام إذا حدّث هذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآناً: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾**، وتلا أيضاً: **﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾**[1]، يعني: أُمّة محمّد ﷺ.

أقول: الروايات في مضمون ذلك كثيرة مرويّة في كتب الفريقين، تشير إلى ما تضمّنته الآية المباركة من ضلال كثير من الأُمم، ونجاة واحدة منها هي التي

١. سورة الأعراف: الآية: ١٨١.

تمتدّ في طول الزمان، وتكون حلقة متواصلة تحفظ الشريعة وتثبت دعائم التوحيد.

***

بحث فلسفيّ:

الآية الشريفة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تشير إلى أمرين مهمّين مذكورين في علمي الفلسفة والكلام، أحدهما احتياج الممكن في بقائه إلى العلّة كاحتياجه إليها في الوجود والحدوث، والثاني نسبة الجوارح وأبعاضها إليه عزّوجلّ، مع أنّه ليس كمثله شيء، ونحن نذكر كلّ واحد منهما على سبيل الإيجاز.

أمّا الأمر الأوّل: فإنّ المعروف حاجة الممكن إلى العلّة في البقاء ـ الذي هو الوجود المسبوق بالوجود ـ والحدوث ـ وهو الوجود المسبوق بالعدم ـ وعليه معظم الفلاسفة والمتكلّمين، واستدلوا عليه بجملة أُمور، أهمّها دليل الاقتضاء الذاتيّ، فإنّ الممكن لم يكن له اقتضاء من ذاته في الوجود في أوّل الحال، فكذا في بقيّة الأحوال، أي أنّ حاجة الممكن أوليّة ذاتيّة، فلا يفرّق فيه بين الحدوث والبقاء، بل ذكر الحكيم السبزواريّ: أنّ الوجود الإمكانيّ في أي وعاء كان من أوعية الواقع عين الفقر والفاقة إلى العلّة وهو متقوّم بها، بحيث لو قطع النظر عن وجودها لم يكن شيئاً، لا أنّه ذاتٌ له الفقر، فيكون حاجته إلى العلّة في البقاء كحاجته إليها في الحدوث، بلا تفاوت وامتراء.

ولكن ذهب جمع إلى أنّ المعلول محتاج إلى العلّة حدوثاً لا بقاءً، ولعلّ منهم اليهود الذين قالوا بتلك المقالة الأثيمة التي تدلّ على كفرهم، فنسبوا غلّ اليد إليه عزّوجلّ، وأنّه لو جاز على الصانع العدم لمّا ضرّ عدمه وجود العالم، تعالى الله عمّا يقول الظالمون، وقد جاء تفسير الأئمّة الهداة عليهم السلام للآية بأنّهم

يقولون: «إنّ الله قد فرغ من الأمر»، مطابقاً لرأيهم الفاسد الكليل، واستدلّوا بوجوه وأمثلة باطلة، فقالوا بأنّ العالم مثله مثل البناء والبنّاء، والولد والوالد، وحركة الحجارة المرمية التي تبقى بعد انقطاع الرمي، وأمثال ذلك من الأمثلة العرفيّة التي هي أشبه بالمغالطة منها بالدليل البرهانيّ، ولم يعلموا أنّ التمسّك بتلك الأمثلة إنّما جاء من الجهل بخصوصيّات العلّة في كلّ واحد منها، فإنّ البنّاء ليس علّة موجده جدّ، بل حركات يد البنّاء علل معدّة لاجتماع البناء، وأمّا البقاء فهو معلول لأُمور أُخرى مستندة إلى الطبيعة، وأنّ المؤثّر الحقيقيّ ليس إلّا الله عزّوجلّ، وكذا بقاء الولد ليس مستنداً بوجود الوالد، وكذا الحركة في الرمي فإنّها من خواص الأجسام إذا لم يصادمها في حركتها مانع، والتفصيل موكول إلى محلّة.

والآية الشريفة تدلّ على أنّ وجود ما سواه وبقاءه إنّما هو من أمره، فهو المنفق عليهم نعمة الوجود والبقاء، وأنّه المؤثّر الحقيقيّ وليس غيره، والآية الكريمة هي أوضح برهان على هذه المسألة، ولا نحتاج إلى ما يذكره المتكلّمون وغيرهم في كتبهم، وكان عليهم أن يذكروا هذه الآية المباركة ثمّ يبحثوا عن دلالتها ومعانيها السامية، ولعلّ الاقتصار في الآية الشريفة على الإنفاق دون غيره من الإهلاك والإعدام ـ مع أنّه القابض الباسط ـ لأجل بيان هذه الجهة، وهي أنّ البقاء الذي هو من أفراد الإنفاق إنّما يكون من عنده، فلو لم ينفق لكان هالكاً، أو لبيان أمر آخر مهمّ أيضاً، هو أنّ المناط في حاجة الممكن إلى العلّة في حدوثه وبقائه هو الإمكان دون الحاجة، كما يذهب إليه المتكلّمون، وعلى مذهبهم يكون الممكن مستغنياً عن العلّة في بقائه، لانتفاء الحدوث الذي هو مناط الحاجة عندهم، واستدلّوا بأُمور مذكورة في الكتب المفصّلة، والآية الشريفة ترشد إلى أنّ الإنفاق الإلهيّ الذي أخرج الممكنات من العدم هو سبب لبقائها،

وأنّ المناط في كلتا المرحلتين ـ الوجود والبقاء ـ واحد وهو إمكانها، إذ لو خرجت عنه بالإنفاق لصارت واجبة ـ وهذا خلف ـ واستغنت عن الإنفاق الذي تدلّ الآية الشريفة على استمراره وبقائه، والتفصيل يطلب من محلّه، فيكون عدم ذكر القبض والعدم لوضوحه ومعلوميته.

أمّا الأمر الثاني: وهو نسبة الجوارح إليه عزّوجلّ في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، وقد تمسّك بها أهل الظاهر وقالوا بتجسّم الباري، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، وبطلانه أوضح من أن يخفى، فإنّ التمسّك ببعض الآيات المتشابهة، والإغماض عن الآيات المحكمة من الظلم الذي لا يغفر، وهو عزّوجلّ يقول: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**﴾[1]، ومن المعلوم في العرف المحاوريّ المتداول بين الناس، أنّ الكلام إذا اشتمل على محكم قد استوفي جميع ما تتطلّبه المحاورة من خصوصيّات، ومتشابه به قد اشتمل ما يوجب الإجمال والاشتباه، فلابدّ أن يرجع المشتابه إلى المحكم ويرفع إجماله، وهذه قاعدة عامّة تشمل جميع أنواع الخطاب في كلّ مخاطبة بين المخلوقين أنفسهم، أو بين الخالق والمخلوقين، وعلى ضوء ذلك إذا راجعنا القرآن الكريم والسنّة الشريفة نرى أنّ فيهما محكمات لا تقبل التأويل، فيجب إرجاع المتشابهات إليها لرفع غموضها، وتأويلها بما يوافق ذلك المحكم، فمن المحكمات قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، فهو ينفي جميع ما يمكن أن يتصوّر من صفات المخلوقين، وأنّه منزّه عنها تنزيهاً مطلقاً حتّى في ما يتصوّر في الذهن، ولعلّ ذكر الكاف (كمثله) لأجل شدّة التنزيه وتماميته وشموليته، فلا تكون زائدة كما يدّعيها بعض المفسّرين، إذ لا زيادة في القرآن الكريم، فإذا ورد في آية أُخرى يظهر منها خلاف ذلك، فلابدّ من تأويله بما يناسب ذلك. ففي

---

١. سورة آل عمران: الآية ٧.

المقام قد نسب اليد إليه عزّوجلّ: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، كما ورد في آيات أُخرى نسبة الوجه إليه عزّوجلّ أو نسبة السمع والبصر فيجب تأويلها، سيأتي كلّ في موضعه.

وأمّا اليد فيختلف معناها باختلاف الموارد:

منها: قوله تعالى: ﴿أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[١]، ويُراد منها القدرة.

وقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾[٢]، أو قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣]، أو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[٤] ونحو ذلك، فإنّ المراد منها السلطة والملك.

ومنها: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[٥]، فيُراد بها الحضور وغير ذلك.

وقد تقدّم في البحث الروائيّ ما ينفع المقام، وسيأتي في الآيات المناسبة مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

***

بحث عرفاني:

الحجب والموانع في طريق الوصول إلى معرفة الباري عزّوجلّ كثيرة، وهي مختلفة كمية وكيفيّة، فبعضها تتعلّق بالقول، وبعضها تتعلّق بالأعمال

---

١. سورة ص: الآية ٧٥.

٢. سورة آل عمران: الآية ٢٦.

٣. سورة يس: الآية ٨٣.

٤. سورة الملك: الآية ١.

٥. سورة الحجرات: الآية ١.

والأفعال والجوارح ، وبعضها تتعلّق بالجوانح والقلوب والنيّات ، ولكلّ واحدة منها آثار وضعيّة شخصيّة ونوعيّة ، والآيات الشريفة المتقدّمة جمعت بين الأقسام الثلاثة ، فكانت الآثار عظيمة مهولة لم تتعلّق بالأفراد فقط بل شملت النوع ، فقد ورد في ابتداء الآيات المباركة ذلك الحجاب الذي أسدله اليهود على أنفسهم بالتقوّل على الله تعالى ، فقد بهتوا بهتاناً عظيماً ، واقترفوا إثماً كبيراً حيث قالوا : «يد الله مغلولة» وإن كان ذلك لم يصدر عن جميعهم ، وحتّى لو صدر من بعضهم ولم يعتقد بما يقوله ، فهو إثم عظيم ، إذ فيه نسبة التجسيم إلى الله عزّوجلّ وإلهه ، فكيف بالواحد الأحد ، ولعظمة هذا القول الأثيم غلّت أيديهم واستحقّوا الحرمان الأبدي من المعنويات والنعم الإلهيّة ، وحرموا إلى يوم القيامة من الفيوضات الربانيّة والأسرار الإلهيّة ، ولعنوا فأُبعدوا عن مصدر الرحمة ، ومنبع كلّ خير ، كلّ ذلك بسبب مقالتهم تلك ، وقد أكدّ عزّوجلّ أنّ هذا القول منهم هو السبب في ذلك ، ولا غرو فإنّ اللسان في الإنسان من أهمّ أسباب الحرمان ، فقد ورد عن نبيّنا الاعظم ﷺ وقد سئل عن زلّات اللّسان فقال : «وهل يكبّ الناس في النار إلّا حصائد ألسنتهم» ، والسرّ في ذلك واضح ، فإنّ اللسان مفتاح القلوب ، والمقال دليل النوايا والسرائر ، فلابد أن يكون في سبيل الخير ، وزمامه بيد العقل ، لئلّا يخرج عن الاستقامة المطلوبة ويحرم الإنسان من كلّ خير ، فالآية الشريفة ترشد المؤمن إلى هذه الخصيصة المهمّة ، فلا يغفل عن نفسه ولا يصدر منه ما يستوجب البعد والحرمان؛ ولذا كان الأنبياء والحكماء ومَن كمل إيمانه لا يتكلّم إلّا بقدر الضرورة، وبعد التفكّر وملاحظة الخصوصيّات ، لئلّا يترتّب على مقاله أثر سيء ، وقد ورد في الدعوات المأثورة الاستعاذة بالله الكريم من زلّات اللّسان وهفواته ، فيجب أن لا يغفل عن عظيم الأثر المترتّب على الأقوال ، وكفى ما في هذه الآيات الشريفة من التنبيه والوعظ، وبما ورد فيها من الزواجر والوعد والوعيد .

وأمّا ما يتعلّق بالأعمال والأفعال، فهو السعي إلى الفساد، فإنّ مَن اختلّ فيه القول، وساءت سريرته ونواياه، وبعد عن كلّ خير، لا محالة أنّه يسعى إلى الفساد وبكمال جهده، فقد انسلخ من الصلاح لما عليه من اقتراف الخطايا والآثام، وخرج عن ربقة الإنسان الذي أكرمه الله عزّوجلّ وأنعم عليه فجعله هادياً مهديّاً، إن استمرّ على فطرته واستقام على الطريقة، وأما إذا عتى عن أمر ربّه وطغى في عصيان خالقه وأضلّ عن سواء السبيل، فلم تكن الهداية مبتغاه ولا الطاعة مسعاه، لا محالة يكون ضالاًّ مضلاًّ فينخرط في الفساد ويسعى فيه، وقد عدّ عزّوجلّ بعض أنواع الفساد الذي هم عليه الذي فيه الظلم على النوع وإفساد النظام، وهو إيقاد نار الحرب التي فيها هلاك الحرث والنسل، لعظيم مقالهم وأفعالهم، فغلّت أيديهم، واستيلاء الحسد على قلوبهم واكتوائهم نارها فتعدّت بنارها تلك النار، فأوقدوها في الحرب لإطفاء نور الهداية، وطمس الفطرة بإلقاء من ذلك الذي يمكن السيطرة عليه ويكبح جماحه، فإنّ الإنسان إذا توغّل في الطغيان والكفر، ولم يكن يريد ما أنزل الله عزّوجلّ إلّا بعداً عن الخير والهداية، فانقدح فيه نار العدوان، واستقرّ في القلوب البغضاء والشنئان، فلم يكن له قلب سليم لينتفع بالمواعظ وينزجر بالزواجر، وكلّ ماورد في هذه الآية الشريفة فيها من الترتيب الدقيق في التدرّج من الأدنى إلى العظيم والأعظم والأدهى والأمَرّ، فلا يغفل الإنسان عن نفسه ويتركها من دون رقابة في الأقوال والأفعال، ولا يصلح النوايا والسرائر، فاذا كان كذلك وأدركته التوفيقات الربانيّة وهذّب نفسه بالإيمان، واتّقى الموبقات والآثام وعمل بما أنزل الله من الأحكام، ومنها الولاية التي وردت في روايات المقام وهي روحها، فاستعد لتلقّي الفيوضات من مالك الملك والملكوت، فمسح عنه أدران الذنوب، وأزال حواجب القبول، وفاز بالقرب، وحلّ في دار الخلد عند مليك مقتدر، وأنعم عليه بأنواع النعم، فصلح

وصلح النظام به ، ويستفاد من الآية الشريفة **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾** أنّ العمل بما علم يورث الفوز بالسعادة الدنيويّة والأُخرويّة ، وأنّ العمل بما أنزله الله يستدعي صلاح نظام العالم ، وتدلّ على ذلك جملة من الشواهد العقليّة والنقليّة ، ففي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ : «مَن عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم» ، فإنّ العمل يورث استنزال البركات الإلهيّة، ويستوجب الثبات والرسوخ في العلم ، فالآيات الشريفة من جلائل الآيات في السير والسلوك إلى الله عزّوجلّ ، وقد ابتدأت بسرد بعض الحجب الظلمانيّة التي تكدر النفس وتحطّ من درجاتها السامية ، ولكنّها اختتمت بالتحلية بالفضائل وتزكيتها بالكمالات ـ العلم والعمل ـ وعروجها إلى قوس الصعود ، فكان ختامها مسكاً ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

والحمد لله أوّلاً وآخراً

***

« الفهرس »

سورة المائدة الآية: ٦ ـ ٧

الآيتان الشريفتان من الآيات التربوية التهذيبيّة التي تهتم بالجانب المعنوي للإنسان أكثر من غيره، فتذكر فيها الصلاة والطهارة ٥
تبين الآيتان الكريمتان الغرض الذي من أجله شَرّع سبحانه تلك الاحكام والتشريعات . ٦
وفيهما التصريح على أنّ تلك التكاليف الإلهيّة هي من المواثيق التي أخذ عزّوجلّ عليها العهد من المؤمنين ٧
ما يتعلّق بخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ٧
معنى (قوم) وبيان المراد منه في الآية ٧
تفصيل لأعمال الوضوء وتعيين مواضعه، وبيان المراد من الغسل والوجوه ٩
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ١٠
بيان المراد من كلمة (إلى) ١١
ما يتعلّق بغسل الأيدي ١١
المراد من قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ ١٣
ما يتعلّق بمسح الرأس ١٣
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ ١٤
بيان المراد من الكعبين ١٤
بيان الوجوه في إعراب الجملة: الأوّل النصب وما استدل به ١٥
الاستدلال على قراءة النصب ١٦
الوجه الثاني: الجر ١٧
الاستدلال على قراءة الجر ١٧

الوجه الثالث: الرفع ١٨
المناقشة في قراءة الرفع ١٩
بيان ما قيل في الردّ على قراءة النصب ١٩
بيان المناقشة في الوجوه التي استدل بها على النصب ١٩
المراد من الكعب ٢١
بيان الحق في المراد من الآية المباركة ٢٢
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾ ٢٢
بيان نواقض الوضوء ٢٣
المراد من الجنب ٢٣
المراد من الطهارة ٢٣
يستفاد من الآية الكريمة المبالغة في أمر الصلاة ٢٤
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى﴾ ٢٤
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، و قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.. ٢٥
الآية الشريفة في غاية الفصاحة والأدب وبيان المراد منه ٢٦
المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ٢٦
الآية الشريفة قد استجمعت جميع الحالات الطارئة على المكلف ٢٧
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ ٢٧
المراد من الصعيد والطيب في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ ٢٨
بيان كيفيّة التيمّم، والمراد من الوجه والايدي في قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ ٢٩
ما يتعلّق بكلمة (من) ٢٩
ما يتعلّق بقوله تعالى: (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) وأنّه من القواعد التسهيليّة الامتنانيّة .. ٣٠
المراد من الحرج ٣١

المراد من الطهارة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ حيث يستفاد منه شرطية الطهارة في الصلاة ٣١
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ٣٢
بيان المراد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٣٢
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ وأنّه ترغيب إلى طاعة الله عزّوجل ٣٣
بيان الميثاق والمراد من قوله تعالى: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ ٣٤
قوله تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بيان لقوله عزّوجلّ: ﴿وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ ٣٤
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ ٣٤
المراد من قوله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٣٤

بحوث المقام

بحث أدبي: وفيه ما يتعلّق باشتقاق كلمة (الوجه)، وكلمة (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ٣٦
ما يتعلّق بلفظ (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ ٣٧
بحث دلالي: وفيه ما يتعلّق بالآيتين الشريفتين، وقد بين عزّوجلّ فيهما جميع ما يتطلّبه الحكم الإلهي من الآداب والشروط، والغاية. ويستفاد من الآيتين أُمور ثمانية........ ٣٨
بحث روائي: وفيه ما ورد في تفسير الآيتين الشريفتين من غسل الأيدي ومسح الرجلين والمسح على الخفين، وغير ذلك ممّا يتعلّق بالآية الشريفة ٤١
بحث فقهي: وفيه ما يتعلّق بالأحكام الواردة في الآية الشريفة، منها شرطية الطهارة في الصلاة، ومنها اعتبار النية، ومنها كفاية وضوء واحد لعدّة غايات، ومنها لزوم إيصال الماء إلى جميع محال الوضوء، ومنها لزوم الترتيب، ومنها أحكام التيمم ٥١
ما يتعلّق بقاعدة نفي الحرج........ ٥٧
بحث عرفاني: وفيه أنّ الكمال الذي يسعى إليه الإنسان لا يكون إلّا بالمعرفة الكاملة والإفاقة عن الغفلة، ومراتب الأولياء وصنوفهم........ ٥٩

سورة المائدة الآية: ٨ ـ ١٤

الآيات الشريفة تذكرهم بأهمّ قضية تمسّ حياتهم الدينيّة والدنيويّة، وتشتمل على كثير من التوجيهات والارشادات التي تهدي المؤمنين إلى الكمال المذكور فيها، وتذكّرهم بالنعم العظيمة .. ٦٤
ما يتعلّق بمادة (قوام) ٦٦
المراد من قوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ ٦٦
بيان الفرق بين هذه الآية وآية سورة النساء ٦٧
ما تتضمنه الآيتان الشريفتان من المضامين الرفيعة ٦٨
المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ ٦٨
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ٦٩
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ٦٩
بيان وعد الله للمؤمنين وجزاء الكافرين ٧٠
تذكير المؤمنين بما أنعم عليهم ٧١
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ٧٢
المراد من قوله تعالى: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ ٧٢
التأكيد على أمر التقوى، وبيان الوجه في تعلق التوكل عليها ٧٣
الآية المباركة تحذر المؤمنين من ترك التقوى، والتوكل عليه عزّوجلّ ٧٣
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ ٧٤
المراد من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ٧٥
بيان شرطية كون الله تعالى معهم بالايمان والعمل الصالح، والوجه في تقديم الأخير على الأوّل . ٧٥
ما يتعلّق بمادة عزر ٧٥
ما يتعلّق بقوله تعالى: (وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً)، والوجه في ذكر القرض دون غيره ٧٦
السر في تغيير الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ٧٧
ما يتعلّق بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، المراد من الباء في (فبما) ٧٨

المراد من اللعن ٧٨
ما يتعلّق بالقسوة ٧٨
المراد من قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ٧٩
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وهو من الملاحم القرآنية ٨٠
قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ إرشاد إلى عدم المبادرة إلى العقوبة... .... ٨١
في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٨١
الآية الشريفة من الآيات التربويّة الإصلاحيّة ٨١
ونفي القول بنسخها ٨٢
بيان حال النصارى بعد بيان حال اليهود........................ ٨٢
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ ٨٣
السرّ في التعبير بالانباء والصنع في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ٨٣

بحوث المقام

بحث أدبي: وفيه ما يتعلّق بتقديم الجار والمجرور والمفعول الصريح وبالعكس، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة... .... ٨٤
ما يتعلّق بكلمة (قاسية) ٨٥
بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات تدلّ على شدّة العناية بأهل الإيمان وكمال العطف بهم، وترشد المؤمنين إلى أهم أمر في هذا لدين هو شدّة المخالطة بين الرسول ﷺ والمؤمنين ٨٥
وفيها درس عملي باتخاذ الحيطة والحذر من الأعداء، وقد سرد جملة من أحوال أهل الكتاب الذين اجتمعت فيهم جملة من رذائل الأخلاق ٨٦
يدلّ قوله تعالى: (فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) على أن بعض المعاصي يوجب نسيان العلم........ ٨٨
كما يدلّ قوله تعالى على أنّ التوكل على الله تعالى والتقوى هما من كسب العبد ٨٨
بحث روائي: وفيه الروايات التي نزلت في شأن نزول الآيات الشريفة ٨٩
المراد من الميثاق في بعض الروايات ٨٩

بحث عرفاني: وفيه معية الله تعالى مع عباده معية علم وقدرة، لا أنّ للمؤمنين مزيّة خاصّة فهو مظهر صفات الله تعالى وأسمائه العليم وذلك لا يكتسب إلّا بالإيمان والعمل الصالح ٩٢

سورة المائدة الآية: ١٥ ـ ١٦

تذكير لأهل الكتاب بالحجّة بعد تقريعهم بنقض الميثاق، وفي الآيات التعريف بالإيمان الخالص، والاحتجاج مع أهل الضلال والبدع والتعنيف معهم ٩٥
الوجه في التعبير بـ(يا أهل الكتاب)........................ ٩٦
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وأنّه اصدق شاهد على صدق رسالة الرسول النبيّ الأمّي الذي لم يقرأ كتبهم.................. ٩٧
المراد من قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ ٩٨
المراد من النور في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ٩٩
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.......... ١٠١
الآية الشريفة تبين أهم الآثار المترتّبة على النور وهي ثلاثة ١٠٢
ما يتعلّق بكلمة رضوان ١٠٣
ما يتعلّق بقوله تعالى: (وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ) وهو الأثر الثاني للنور ١٠٣
المراد من الصراط المستقيم والهداية إليه ١٠٤
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والسرّ في ذكر اسمه واسم أمّه ١٠٥
إنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ يشتمل على برهان قويم على بطلان مقالة النصارى في المسيح ١٠٥
ما يتعلّق بقوله تعالى: (إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) و أنّه بيان لتهافت أقوال النصارى .. ١٠٥
إنّ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يشتمل على برهان ثالث على بطلان مقالة النصارى........................ ١٠٧
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ١٠٧

تفسير قوله تعالى: ﴿اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٠٨
ما يتعلّق بكلمة (ابن) الواردة في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ﴾ ١٠٨
قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ يتضمّن الردّ والاحتجاج عليهم... ١١٠
إنّ قوله تعالى: (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) يتضمن أمراً آخر في ردّ مقالة اليهود والنصارى ١١١
إنّ قوله تعالى: (وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) يشتمل على برهان ثالث في ردّ مقالتهم .. ١١٢
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ ١١٣
المراد من حكمة (فترة) في قوله تعالى: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ١١٤
يشتمل قوله تعالى: (أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ) على العلّة التي أوجبت مجيء الرسول .. ١١٤

بحوث المقام

بحث دلالي: يتضمن جملة من الأمور التي ترشد إليها الآيات الشريفة، وأنّ المستفاد منها حقيقة أعمال الرُّسل، وبعض خصوصيّات المرسلين ١١٧
ويدلّ قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ على غرض الكتاب الإلهي، والفائدة منه وهو من معاجز القرآن الكريم........ ١١٨
ما تدلّ حليه الآية الشريفة ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ ١١٨
أهمّية قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ١١٩
الوجه في اختصاص لفظ (بشر) دون ما يرادفه من الألفاظ ١٢٠
بحث روائي: وفيه ذكر الروايات التي وردت في شأن نزول الآيات وتفسيرها...... ١٢١
بحث عرفاني: وفيه ما يتعلّق بالنور الذي ورد في الكتب السماويّة لا سيما القرآن الكريم.... ١٢٤
حقيقة النور ١٢٦
اختلاف النور........ ١٢٨
آثار النور وأقسامه ١٣٠
اشراق النور ١٣٣
لوازم النور ١٣٣

منازل النور ودرجاته ١٣٤

سورة المائدة الآية: ٢٠ ـ ٢٦

الآيات الشريفة تذكّر بني إسرائيل بضروب النعم، وتعرّفهم باعتنائه عزّوجلّ بهم، وتبيّن معاندتهم للحق واعراضهم عن الهداية ١٣٦
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾........................ ١٣٧
تفسير قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾........................ ١٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾........................ ١٣٩
المراد من قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنْ الْعَالَمِينَ﴾........................ ١٤١
ما يتعلّق بمادة (قدس) في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾........ ١٤٢
تعيين الأرض المقدّسة، والمراد من مادّة (كتب) ١٤٢
يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ ١٤٥
أهمّية هذا الحكم الإلهي ١٤٥
ما يتعلّق بكلمة (جبر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ ١٤٥
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾. وتشتمل الآيات الشريفة على أُمور تربوية دقيقة في إصلاح النفوس ١٤٧
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾. والمراد من الرجلين ١٤٨
المراد من قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾........................ ١٤٩
عناد ولجاج بني إسرائيل وتمردهم على الحق ١٥١
ما يتعلّق بمادة (فرق)........................ ١٥٤
بيان قصة التيه وما يتعلّق بمادة (تيه)........................ ١٥٦
المراد من الأسى ١٥٧

بحوث المقام

بحث أدبي : وفيه ما يتعلّق بالآيات الشريفة ١٥٨
بحث دلالي : وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على أُمور : ١٦٠
الأوّل : تدلّ الآيات الشريفة على فضل بني إسرائيل ١٦٠
الثاني : يستفاد منها النظام الإلهي في تنظيم شؤون الناس الذي يمر بمراحل........ ١٦٠
الثالث : أنّ الاعراض عن طاعة الله تعالى يوجب سلب السعادة والوقوع في الخسران .. ١٦٢
الرابع : تدلّ الآية الشريفة على غاية الاحباط والشعور بالذلّ الكامن في النفوس.... ١٦٢
الخامس : تدلّ الآية الشريفة على أنّ الخوف من الله تعالى يوصل الإنسان إلى المقامات السامية .. ١٦٢
السادس : حذف المتعلق في الآية الشريفة يدلّ على تعميم الخوف ١٦٢
السابع : تدلّ الآية الشريفة على غاية رقي الإنسان في مدارج الكمال، وتدلّ على عظمة هارون أخي موسى عليه السلام ١٦٣
الثامن : تدلّ الآية الشريفة على أنّ الفسق يوجب البينونة بين الفاسق وبين ربّه ١٦٣
التاسع : يستفاد من الآية الشريفة مناسبة العقاب مع العصيان ١٦٤
العاشر : يدلّ على أنّ المدة المضروبة للحرمان هي الكافية لتصفية النفوس وتزكيتها . ١٦٤
بحث روائي : يتعلّق بالآيات المباركة وما وردت في قصة التيه ١٦٥
بحث تاريخي : يتعلّق بقضية التيه ١٧٤
حقيقة التيه........ ١٧٦
أسباب التيه ١٧٨
مكان التيه ١٨٠
مدّة التيه........ ١٨١
الحوادث في التيه ١٨١
الحكمة من التيه........ ١٨٣
بحث عرفاني : أنّ الحوادث الواقعة لم تكن مجرد نقمة عذاب بل قد تكون خيراً محضاً ١٨٣

سورة المائدة الآية: ٢٧ ـ ٣٢

الآيات الشريفة تحكي قصة ابني آدم، وبيان الحسد الكامن في النفس، وأنّ قتل أحدهما الآخر أوجب نزول تشريعات إلهية على بني إسرائيل ١٨٥
مادّة (تلو) ١٨٦
المراد من آدم ١٨٧
الرد على أقوال العلماء والمفسّرين في المقام ١٨٧
مادّة (قربان) ١٨٨
بيان لحقيقة من الحقائق الواقعة في قانون المجازاة وقبول الأعمال، وهي تبتني قاعدتين مهمّتين .. ١٨٩
بيان لخلق كريم من مكارم الأخلاق وهو احترام النفس ونبذ روح الانتقام ١٩١
الآية الشريفة ترشد الناس إلى لزوم خشية الله تعالى على أتم وجه ١٩٢
مادّة (بوء) وما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ ١٩٣
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٩٤
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ الذي هو في غاية الفصاحة والبلاغة ١٩٥
الآية الشريفة التي تبين واقع النفس الإنسانية، والصراع القائم بين قوى الشر وقوى الخير ١٩٥
الآية الشريفة ترشد إلى سقوط نفس قابيل عن قابلية الإلهام والإفاضة ١٩٦
ما يتعلّق ببعث الغراب، وشدة تأسف قابيل وتحسره على ما قوع منه ١٩٧
ما يتعلّق بكلمة (يا ويلتا) ١٩٨
بيان للحالة التي تحصل للإنسان بعد عمل المعصية ١٩٩
مادّة (أجل) ٢٠٠
يستفاد من الآية الشريفة التشديد في القضاء الإلهي ٢٠٠
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ ٢٠١
تفسير قول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ ٢٠٢
وأنّه يرمز إلى معنى دقيق ٢٠٢

الجواب عمّا اشكل به في المقام ٢٠٣

ما يتعلّق بالإسراف ٢٠٤

بحوث المقام

بحث أدبي : يتعلّق بالآيات الشريفة ٢٠٦

ما يتعلّق بكلمة (قرب) ٢٠٦

ما يتعلّق بمادة (طوع) ٢٠٦

بحث دلالي : يتعلّق بالآيات الشريفة ٢٠٧

الأوّل : يدلّ على أهمّية النبأ وعظمته ٢٠٧

الثاني : يدلّ على مشروعية القربان ٢٠٨

الثالث : يدلّ على حقيقة واقعية تدعو إليها الفطرة ٢٠٨

الرابع : أن الخوف من اعظم الحواجز التي تمنع الإنسان عن ارتكاب المآثم ٢٠٩

الخامس : أنّ بعض المعاصي توجب كسب مظالم الغير وآثامه ٢٠٩

السادس : يستفاد أنّ النفس يصعب عليها ارتكاب المعصية إلّا بعد صراع عنيف بين القوى الداخلية . ٢٠٩

السابع : يستفاد امكان انتفاع الإنسان بالحس، وأنّ الآية الشريفة من أهم الآيات التي تحكي عن حال الإنسان من حيث علومه ومعارفه ٢٠٩

الثامن : أنّ القصة كانت السبب في نزول بعض التشريعات الإلهيّة ٢١١

بحث روائي : وفيه الروايات التي وردت في شأن نزول الآيات وفي قصة ابني آدم .. ٢١١

يستفاد من الروايات أُمور ٢١٢

بحث كلامي : في التقوى وأقسامها ٢٢٢

سورة المائدة الآية : ٣٣ ـ ٣٤

تتضمّن الآيتان الشريفتان أهمّ الأحكام الاجتماعية التي يقوم عليها النظام العام وثبات الأمن والأمان ٢٢٥

مادّة (حرب) ٢٢٦

ما يتعلّق بقوله تعالى : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ ٢٢٧
تفسير قوله تعالى : ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾........ ٢٢٧

بحوث المقام

بحث دلالي : تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:........ ٢٣٠
الأوّل: تدلّ الآية الشريفة على أنّ محاربة الله ورسوله من الامور المبغوضة للفطرة الإنسانيّه، وأنّ المحاربة معلولة لها ٢٣٠
الثاني : تدلّ على أنّ مجرد الفساد ليس كافيا في صدق عنوان المحارب على المفسد ويتحقّق في وجوه متعدّدة ٢٣١
الثالث : يستفاد منها أنّ المحاربة على مراتب ودرجات........ ٢٣٢
الرابع : تدلّ على أنّ حدّ المحاربة مختص بالمحارب ٢٣٣
الخامس : يدلّ قوله تعالى على عدم المطالبة بشيء من الجزاء السابق لمَن تاب ٢٣٣
بحث روائي :وفيه الروايات التي وردت في شأن نزول الآيات وتفسيرها وما يستفاد من الروايات .. ٢٣٣
بحث عرفاني : وفيه الأسباب التي تطهِّر النفوس المنحرفة وتزكيتها، والوجه في تسمية الحدود والتعزيرات ٢٣٧

سورة المائدة الآية ٣٥ ـ ٤٠

الآيات الشريفة من أهمّ الآيات التي تبيّن بعض الطرق لإصلاح النفوس وترويضها على احترام العهد والميثاق ٢٣٩
مادّة (وسل) وما يتعلّق بقوله تعالى : ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ ٢٤٠
ابتغاء الوسيلة من شؤون العبودية ٢٤١
إنّ الجهاد في سبيله من الكمالات الواقعية ٢٤٢
الوجه في ذكر الجهاد وفي سبيله بعد ابتغاء الوسيلة إليه........ ٢٤٢
مادّة (سرق) وما يتعلّق بقوله تعالى : ﴿والسارق والسارقة﴾ ٢٤٥
الوجه في استعمال الجمع في (أيديهما) ٢٤٦

المخاطب في القطع من له أهلية الخطاب ٢٤٦
الوجه في استعمال (كسبا) ٢٤٧
مادّة (نكل) ٢٤٧
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾ ٢٤٧
الوجه في تقديم العذاب على الرحمة ٢٤٨

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآيات الشريفة ٢٥٠
بحث دلالي: وفيه: ٢٥١
الأوّل: تعتبر الآيات الشريفة من الآيات المعدودة التي تشتمل على أهم المعارف الربوبية وهي علم المبدأ والمعاد والمراد من ابتغاء الوسيلة ٢٥١
كيفيّة ابتغاء الوسيلة إليه وبعض خصوصياته ٢٥٢
إنّ الوسيلة بمعناها الوسيع يشمل كل أمر حسن ٢٥٤
الثاني: أنّ ابتغاء الوسيلة التي شرعها الله تعالى ما كانت سببا لتزكية النفوس ٢٥٤
الثالث: أنّ المجاهدة ما كانت بعد التوسل بالوسيلة ٢٥٤
الرابع: أنّ الفلاح هو الغاية القصوى من عمل الإنسان ٢٥٤
الخامس: أنّ الخلاص من العذاب ينحصربالتوسل بالوسيلة والمجاهدة في سبيله تعالى ٢٥٥
السادس: أنّ الاختيار ثابت في الآخرة أيضاً ٢٥٥
السابع: أنّ الحدود التي شرعها إنّما هي جزاء أفعال الإنسان ٢٥٥
الثامن: تمام قدرته ونفوذ سلطانه ٢٥٥
التاسع: أنّ التوبة في المقام لابدّ أن يظهر أثرها على المذنب ٢٥٥
العاشر: أنّ العذاب هو الاصل القريب من الإنسان وإنّما يصرفه عنه الإيمان والتقوى. ٢٥٦
بحث روائي: وفيه ذكر الروايات التي وردت في شأن نزول الآيات وما يستفاد منها . ٢٥٦
ما ورد في السرقة ٢٥٧

ما ورد في المال المسروق ٢٥٨
ما ورد في حدّ السرقة ٢٥٩
سقوط الحد بالتوبة ٢٦١
بحث فقهي: وفيه شروط السرقة التي توجب الحد ٢٦٢
بحث عرفاني: وفيه الآيات الشريفة من الآيات القويمة في السيرالسلوك إليه تعالى . ٢٦٣

سورة المائدة الآية: ٤١ ـ ٤٧

تبيّن الآيات الشريف بعض العهود والمواثيق، وتحثّ المؤمنين على العمل بها والتحذير عن مخالفتها، ويذكر عزّوجلّ فيها الأصناف الذين زاغوا عن الإيمان وتمادوا في الغي فذكر المنافقين واليهود وبيّن صفاتهم ٢٦٦
ما يتعلّق بخطاب يا أيها الرسول ٢٦٧
مادّة (سرع) والكلام في المسارعة ٢٦٨
إعراب جملة: «ومن الذين هادوا» ٢٦٩
الوجه في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ٢٧٠
إنّ من سنّته عزّوجلّ أن لا يطهر قلب من تكرّر منه العصيان ٢٧١
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ ٢٧٢
دلالة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ على التخيير بين الحكم بينهم أو الاعراض ... ٢٧٣
إنّ الآية الشريفة تشير إلى أن ذلك التحكيم بينهم الذي طلبوه من الرسول لم يكن لمعرفة الحق ... ٢٧٤
ما يتعلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ٢٧٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ ٢٧٦
المراد من (الربانيين) ٢٧٧
مادّة (حبر) ٢٧٧
إنّ قوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ يدلّ على الحفظ العملي ٢٧٨
التعريض باليهود بأنّهم خرجوا عن أهلية الحفظ، والمراد من قوله تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس﴾ ... ٢٧٨

ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ ٢٧٩
بيان لبعض ما فرضه الله تعالى في التوراة ٢٨٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ ٢٨٢
الوجه في ذكر ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ دون غيره ٢٨٢
مادّة (قفي) ٢٨٢
أوصاف الإنجيل في القرآن الكريم ٢٨٣
ما يتميز به الإنجيل عن التوراة ٢٨٤
الآيات الشريفة تشمل جميع صور الحكم التي هي أربعة ٢٨٦

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآيات الشريفة ٢٨٧
الاشكال في وجه التوصيف ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ والجواب عنه ٢٨٨
القاعدة المعروفة في أعضاء الإنسان ٢٨٨
بحث دلالي: وفيه ما تدلّ عليه الآيات الشريفة ٢٨٩
الأوّل: تدلّ على استمرار الصراع بين الحق والباطل، وامتناع إزهاق الحق وإبطاله .. ٢٨٩
الثاني: أنّ النفاق من مظاهر الكفر ٢٩٠
الثالث: أنّ سماع الكذب مرجوح في حدّ نفسه ٢٩٠
الرابع: أنّ التحريف كان عن علم وعمد ٢٩٠
الخامس: أنّ بعض المعاصي توجب قطع العصمة بين من ارتكبها وبين الله تعالى ٢٩٠
السادس: أنـّهم انهمكوا في العصيان وارتكاب المحرمات واكل الحرام ٢٩١
السابع: أنّ الإذعان بالتواراة وسائر الكتب الإلهيّة من أجزاء الإيمان المطلوب ٢٩١
الثامن: أنّ العلماء هم حفظة كتب الله علماً وعملاً ٢٩٢
التاسع: الوجه في تكرار قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ ٢٩٢
بحث روائي: وفيه يذكر الروايات التي وردت في شأن نزول الآيات الشريفة وما يتعلّق بها .. ٢٩٣

بحث كلامي: وفيه الشروط المطلوبة في الإمام العلم وكونهم ربانيين والعصمة ٣٠٠

سورة المائدة الآية: ٤٨ ـ ٥٠

يذكر فيها شأن القرآن الكريم ومكانته العظيمة بين الكتب الإلهيّة، والوجه في تعدّد الشرائع والمناهج . ٣٠٥
أوصاف القرآن الكريم ٣٠٥
مادّة (هيمن)، وما يتعلّق بها ٣٠٥
سبب الاشتراك والترادف ٣٠٦
ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ والجواب عنه ٣٠٦
الوجه في نهي المعصوم عليه السلام عن اتّباع الأهواء ٣٠٧
بيان لحقيقة من الحقائق الواقعية ٣٠٧
مادّة (شرع) ٣٠٨
المراد من المنهاج ٣٠٩
بيان السبب في اختلاف الشرائع ٣١٠
ذكر لبعض وجوه الحكمة في تردّد الشرائع ٣١١
بيان لحقيقة أُخرى لها الدخل في تشريع الشرائع والدعوة إلى التحلّي بالفضائل ٣١١
بيان القسم الأخير من أقسام الحكم والقضاء بين الناس ٣١٢
الوجه في تحذيره صلّى الله عليه وآله عن فتنتهم ٣١٣
إنّ ضلال القوم كان بتسخير إلٰهي بسبب كثرة معاصيهم وانهماكهم في الاعراض..... ٣١٣
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ٣١٥
الوجه في اخذ صفة اليقين في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ٣١٦

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بإعراب الآيات الشريفة ٣١٧
بحث دلالي: وفيه أمور ٣١٩
الأوّل: تدلّ على شرف القرآن وعظيم منزلته والاهتمام به بما لم يهتم عزّوجلّ بغيره من

الكتب الإلهيّة........................ ٣١٩
الثاني :أنّ الحكم والقضاء بين الناس ينحصر بماورد في القرآن الكريم ولا يجوز الحكم بغيره.. ٣٢٠
الثالث : أنّ ما يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ على حقيقة داخلة في صميم خلق الإنسان، وأنّه يدلّ على أنّ للكمال درجات متفاوتة ٣٢٠
الرابع : أنّ الكمال الذي يسعى إليه الإنسان إنّما يكون في الخيرات، وأنّ اختلاف الشرائع إنّما هو لغرض التنافس في نيل الخيرات والمسارعة إليها........ ٣٢١
الخامس: أنّ آثار الاستباق إلى الخيرات إنّما تظهر في يوم القيامة يوم الرجوع إلى الله تعالى.... ٣٢١
السادس : أهمّية الحكم في حياة الإنسان ٣٢٢
السابع : لطف الله بعباده أن يصيبهم ببعض ذنوبهم دون الجميع........ ٣٢٢
الثامن : أنّ ما سوى حكم الله تعالى هو حكم الجاهلية........ ٣٢٢
بحث روائي : وفيه الروايات التي نزلت في شأن نزول الآيات الشريفة وما يتعلّق بها . ٣٢٢
بحث فقهي :أنّ الآيات الشريفة تدلّ على مشروعية القضاء والحكم بين الناس وفيها يذكر دعائمهما . ٣٢٤
بحث عرفاني : وفيه أنّ السلوك إلى الله تعالى له مظاهر مختلفة تختلف حسب استعداد كل فرد، وأنّ القرآن الكريم فيه ما يستوعب جميع جوانب الإنسان ٣٢٥

سورة المائدة الآية: ٥١ ـ ٥٣

تبين الآيات الشريفة أهم الأُمور الاجتماعية التي لها الأثر في حياة الإسلام واستقلال المسلمين وثبات عقيدتهم، وهو النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وتبيّن بعض الآثار الوخيمة والمترتبة على ذلك، وفيها تذكر بعض صفات المنافقين، وتبيّن الآيات حاجة الإنسان إلى ولي يعصمهم من كيد الأعداء ومكرهم ٣٢٧
مادّة (أخذ) ومظاهر الاتخاذ ٣٢٨
مادّة (ولى) والمراد من الولاية في الآية الشريفة وما قيل فيها والمناقشة فيه........ ٣٢٩
الوجه في ذكر اليهود والنصارى دون أهل الكتاب ٣٣٣
ما يتعلّق بقوله تعالى :﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾........ ٣٣٣

السر في تنزيل المتولي منزلة اليهود والنصارى ٣٣٤
إنّ مرض القلب من أسوأ الأمراض التي تصيب الإنسان ٣٣٥
الكلام في المسارعة ٣٣٥
بيان بعض وجوه الضلال ٣٣٦
ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ ٣٣٦
المراد من الفتح ٣٣٧
الآية الشريفة من الملاحم القرآنية ٣٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ ٣٣٩
إعراب جملة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ واختلاف المعنى ٣٤٠
إنّ حبط الأعمال يختصّ ببعض الذنوب ٣٤١

بحوث المقام

بحث أدبي: وفيه ما يتعلّق بإعراب الآيات الشريفة ٣٤٢
بحث دلالي: وفيه أمور: ٣٤٤
الأول: تدلّ الآيات الشريفة على أحد أهمّ الأحكام الاجتماعية. فقد ذكر خصوصيّات هذا الحكم في مواضع متفرقة ٣٤٤
الثاني: تدلّ على ملحمة قرآنية وهي ما تؤول إليه أمر هذه الأُمّة إذا تحقّق منهم موالاة اعداء الله تعالى ٣٤٥
الثالث: الولاية المنهيّة هي الولاية التي يترتّب عليها الأثر دون غيرها وإن كانت مرجوحة ... ٣٤٦
الرابع: أنّ اعداء الله تعالى على تفرّقهم وتشتّتهم إلّا أنّهم أولياء في مقابل الحق والمؤمنين ... ٣٤٦
الخامس: أنّ ولاية أعداء الله ظلم عظيم والوجه في ذلك ٣٤٦
السادس: أنّ الولاية المنهية التي توجب دخول المتولي في من تولاة هي ولاية المحبّة والمودّة التي تترتّب عليها الأمر دون غيرها ٣٤٦
السابع: أنّ تولي الكافر ظلم وتعريض النفس للعذاب ٣٤٧

الثامن: أنّ القلوب تمرض، وأنّ مرض القلب إماتة له عن كسب الكمال.......... ٣٤٧
التاسع: أنّ الله تعالى يظهر المنويات مهما حاول صاحبها إخفاءها ٣٤٧
بحث روائي: وفيه الروايات التي نزلت في شأن نزول الآيات الشريفة وما يتعلّق بها . ٣٤٨
بحث أخلاقي: يتعلّق بمرض القلب وأسبابه وطرق علاجه والآثار المترتّبة عليه ... ٣٥٠
بحث عرفاني: أنّ موالاة أعداء الله تعالى توجب البعد عن عزّوجلّ ٣٥٣

سورة المائدة الآية ٥٤

ما يتعلّق بخطاب (يا أيها الذين آمنوا)........... ٣٥٦
مادّة (ردد) والمراد منها ٣٥٦
المراد من القوم البديل ٣٦٤
المراد من قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ٣٦٤
صفات القوم البديل ٣٦٥
المراد من اللومة........... ٣٦٧

بحوث المقام

بحث أدبي وفيه بيان معنى (من) الشرطية ٣٦٩
بحث دلالي وفيه ما يستفاد من الآية المباركة ٣٧٠
بحث روائي وفيه ما ورد من الروايات التي تتعلق بالآية المباركة.......... ٣٧٣
بحث فقهي يبحث فيه عن الارتداد وأقسامه.......... ٣٧٩
بحث عرفاني وفيه لزوم إزالة الحجب والعقبات عن الطريق لتستعدّ النفس لتلقّي الفيوضات ومن أهمّها الارتداد والذي هو الرجوع من الله.......... ٣٨٠
بحث قرآني وفيه أن الآية الكريمة من الآيات التي تبيّن هويّة المسلم ٣٨٢
ذكر بعض الروايات التي تشير إلى بعض الفتن والملاحم ٣٨٦

سورة المائدة الآية ٥٥ - ٥٦

المراد من كلمة (ولي)........... ٣٩٨

إثبات كون المراد من الولآية في الآية التشريعية وولآية السلطة والتصرّف ٣٩٨
مناقشة ما ذكره المفسرون في تفسير الآية الكريمة ٤٠٣
تعيين المراد من قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ٤٠٧

بحوث المقام

بحث أدبي يتعلّق بلفظ (ولي) ٤١١
بحث دلالي وفيه ما يستفاد من الآية الشريفة ٤١٢
بحث روائي وفيه ذكر الروايات التي وردت في شأن نزول الآية الكريمة في شأن علي عليه السلام
عن طريق الجمهور وغيرهم، وما يستفاد منها في تعيين دلالة الآية الكريمة ٤١٦
بحث كلامي يتعلّق بالمناقشة في دلالة الآية الشريفة وتطبيقها ٤٢٦
بحث عرفاني يبين فيه مقام الولاية وعظيم أثرها في التشريع والتكوين ٤٢٩

سورة المائدة الآية ٥٧ - ٦٣

ما يتعلّق بمادتي (هزء) و(لعب) ٤٣٣
المراد من النداء إلى الصلاة ٤٣٥
ما يتعلّق بمادة (نقم) ٤٣٦
المراد من قوله تعالى: ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ٤٣٩
الفرق بين السرعة والعجلة ٤٤١
المراد من السحت ٤٤٢
الفريق بين الصنع والعمل والفعل ٤٤٣

بحوث المقام

بحث أدبي يتعلّق باعراب هزأ وقرائته ٤٤٥
قراءة (عبد الطاغوت) ٤٤٧
وجوه الإعراب في مفردات الآية الكريمة ٤٤٧

بحث دلالي وفيه ما يستفاد من الآيات الكريمة ٤٤٨
بحث روائي يذكر فيه الروايات التي وردت في شأن نزولها، وتفسير بعض مفرداتها، وتبين بعض الخصوصيّات ٤٥٢
بحث فقهي وفيه كيفية تشريع الأذان والإقامة ٤٥٤
ما يتعلّق بوقوع المسخ في اليهود ٤٥٥
بحث عرفاني يتعلّق بالحُجُب الظلمانية التي تمنع النفس من الاستكمال والمهلكات، ومنها الاستهزاء بدين الله وأحكامه وشريعته والمقدّسات ٤٥٦

سورة المائدة الآية ٦٤ - ٦٦

ما يتعلّق بقوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ٤٦٠
المراد من اليد ٤٦٢

بحوث المقام

بحث أدبي يتعلّق بإطلاق أسماء الجوارح على الله عزّوجلّ، والمراد من الغلول ٤٧٣
وجوه الإعراب المتعلقة بالآية الكريمة ٤٧٣
بحث دلالي وفيه ما يستفاد من الآية الكريمة ٤٧٥
ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ ٤٧٧
دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ على محو الإيمان لآثار السيِّئات مطلقاً ٤٨٠
دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ على أن الإيمان بالله والعمل باحكامه تستنزل البركات ٤٨٠
بحث روائي وفيه ذكر الروايات التي وردت في تفسير الآية الشريفة وبعض خصوصيّاتها ٤٨١
بحث فلسفي يتعلّق بحاجة الممكن إلى العلّة في البقاء، ونسبة الجوارح إلى الله عزّوجلّ ودلالة الآية الكريمة عليها ٤٨٤
بحث عرفاني يتعلّق بأنّ بعض الأقوال الصادرة من الإنسان يوجب حرمانه من الفيوضات

الإلهية والأسرار الربّانية ٤٨٧
ودلالة الآيات الكريمة على أنّ بعض الأعمال يستلزم سلب الصلاح ٤٨٩
الفهرس.. ٤٩١

***